ساعدت جامعة بغداد ماليا على طبع هذا الكتاب

الدكتور صالح أحمد العلي

استاذ بكلية الآداب - جامعة بغداد

محاضرات في تاريخ العرب

الجزء الاول

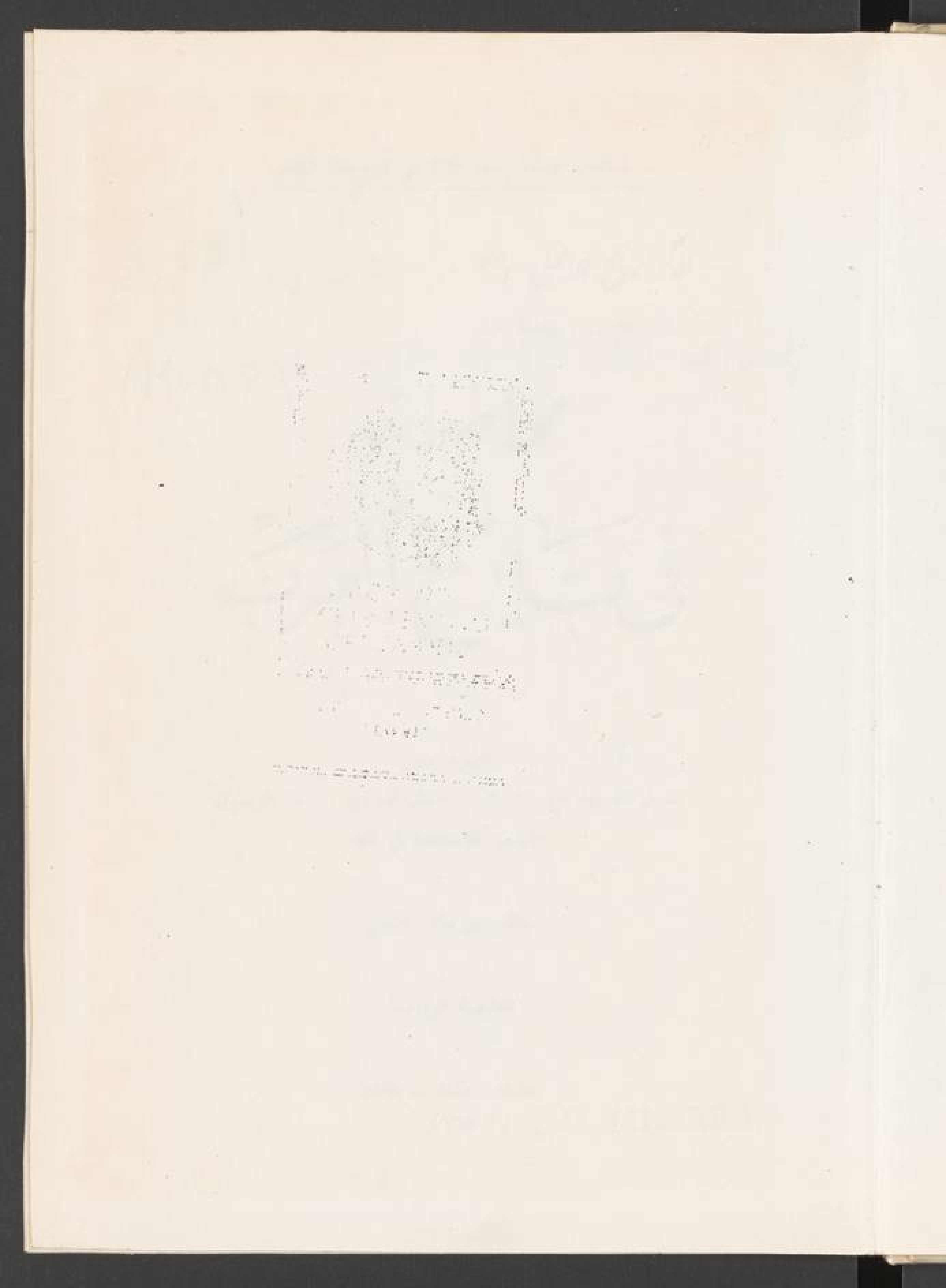
الدول العربية قبل الاسلام ، النظم البدوية ، حياة الرسول والدعوة الاسلامية في مكة

يطلب من مكتبة المثنى

الطبعة الرابعة

مطبعة الارشاد - بغداد

١/٢٠٠٠/١٩/١٢/١٩٦٧





ساعدت جامعة بغداد ماليا على طبع هذا الكتاب

الدكتور صالح أحمد العلي

استاذ بكلية الآداب ـ جامعة بغداد

محاضرات



الجزء الاول

الدول العربية قبل الاسلام ، النظم البدوية ، حياة الرسول
والدعوة الاسلامية في مكة

يطلب من مكتبة المثنى

الطبعة الرابعة

مطبعة الارشاد ـ بغداد
١٩٦٨

مقدمة الطبعة الاولى

ان هذا الكتاب هو في الاصل مجموعة المحاضرات التي القيت على طلاب كلية الآداب والعلوم ، ثم نقحت ووسعت بعض فصولها لتكون كتاباً منسجماً متناسقا فيه تلخيص وعرض واضح بقدر الامكان ، للمحاولات التي قام بها سكان الجزيرة العربية لانشاء دول ذات نظام سياسي ، والحضارات والنظم التي ظهرت في هذه الدول أو عند القبائل العربية قبيل الاسلام ، وآثار كل حضارة ونظام على مجرى تاريخ الجزيرة ، وخاصة على أحوالها عند ظهور الاسلام الذي له الاثر الاكبر لا في تاريخ الجزيرة العربية وفي عقائدنا ونظمنا فحسب ، بل في تاريخ الانسانية عموماً .

لقد نشر في اللغة العربية واللغات الاجنبية عن تاريخ الجزيرة قبل الاسلام وبعده ، عدد غير قليل من الابحاث التي تختلف في قدمها وفي مدى تفاصيل معلوماتها ، فبعض هذه الابحاث كتب عامة قديمة كبلوغ الارب للالوسي وتاريخ العرب قبل الاسلام لجرجي زيدان ، وبعضها كتب عامة حديثة مفصلة كتاريخ العرب لجواد علي ، أو مقتضبة كتاريخ العرب لفيليب حتي ، وتاريخ الشعوب الاسلامية لبروكلمان ، وتاريخ العرب قبل الاسلام لمبروك نافع . كما ظهرت في العربية بعض الدراسات المفصلة عن بعض نواحي حضارة تلك الفترة كفجر الاسلام لأحمد أمين ، والحياة العربية من الشعر الجاهلي ، والمرأة العربية لمحمد أحمد الحوفي ، والنظم الاجتماعية والسياسية عند الساميين لمحمد محمود جمعة ، والاساطير العربية قبل الاسلام لمحمد عبدالمعيد خان ، والحيرة ليوسف غنيمة ، وآل غسان لنولدكه ، كما ظهر في اللغات الاوروبية عدد غير قليل من الدراسات المفصلة عن بعض هذه الدول . ولكن هذه الابحاث بعضها عتيق ، وبعضها يكاد يكون نادراً ، وبعضها مفصل أو مقتضب . فمحاولتي هذه هي تقديم بحث شامل منسجم

يرضي الطالب والمثقف الذي يريد أن تكون له فكرة عن تاريخ الجزيرة دون التبحر في الموضوع ٠

لقد أكدت ، بقدر ما تمكنني المصادر ، على نواحي الحضارة والحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية ، أما النواحي السياسية فقد بحثت بقدر ما يظهر أمد كل من تلك الدول ومدى امتدادها الزماني والمكاني ، دون ايجاز مخل أو تفصيل مضلل ٠ ولما كان سقوط أي دولة لا يعني فناء شعبها أو اندثار حضارتها ، فقد حاولت تتبع آثار حضارة كل دولة وتراثها ، وذلك كيما أبرز الاستمرار التاريخي وتطوره ، مما قد يساعد على القاء ضوء على جذور وأسس كثير من أفكارنا وثقافتنا ونظمنا ومؤسساتنا ٠

ولابد من التأكيد على أنه لا يمكننا رسم صورة كاملة لمختلف نواحي هذه الحضارات أو تتبع خطوات تطورها ، نظراً لأن معلوماتنا لما تزل غير وافية وغير موزعة بانتظام على الزمان والمكان ، فلدينا كمية من المعلومات طيبة نسبياً عن اليمن وبعض الدول الشمالية القديمة ، وعن أحوال العرب في الحجاز وبعض مناطق نجد والبحرين عند ظهور الاسلام ، ولكننا نكاد نجهل تماما تاريخ المناطق الاخرى ٠ وقد كان هذا الاختلاف في كمية المعلومات الموثوقة المتوفرة لدينا ، هي الدافع الرئيسي الذي حملني على أن لا أسمي هذا الكتاب تاريخاً ، بل اطلق عليه (محاضرات) التي تدل على انها ليست تاريخا شاملا متسقاً ، بل هي بحث المواضيع التي تتوفر عنها المعلومات ٠

وقد بحثت مبادىء الاسلام وخطوات الدعوة الاسلامية وانتشارها بتفصيل واف نسبيا ، نظرا لأهميتها الكبرى في كياننا الذاتي وفي تاريخ العالم ٠ ويكاد يكون القسم الثاني من هذا الجزء وصفا للاحوال التي ظهر فيها الاسلام ، والاسس التي قام على آثارها أو على انقاضها وكان لها تأثير في سيره ، وهذا هو السبب الذي فصلت فيه البحث عن الدين الجاهلي ٠

تفاولت في بحثي عن الاسلام دراسة خطوات تطوره الزمني في فترة

نشوئه ، ووصف تاريخ نشوء وتطور وانتشار العقيدة الاسلامية ، دون تحليل هذه العقيدة ، لأن بحثي في التاريخ لا في العقائد • وقد كان اعتمادي الرئيسي على القرآن الكريم ، لأنه الكتاب الاعظم الذي يرسم معالم الدين ويوضح حدوده • وقد حاولت أن اجلو معانيه كما فهمت آنذاك وبصرف النظر عن التأويلات والتحليلات التي قام بها العلماء المسلمون المتأخرون •

لقد حاولت اعطاء الصورة التي اعتقد أن المصادر تصورها لتلك الفترة ، وان اقصر عملي على تنظيم المادة وعرضها ثم تحليلها ومحاولة ايجاد الصلة بينها وابراز ارتباطاتها مع الحوادث والمؤسسات الاخرى • واذا كانت بعض مظاهر هذه الصورة تخالف بعض ما ألفه الناس واعتقدوه ، فان ذلك راجع الى المصادر التي حاولت استيعابها واختيار ما أراه صحيحاً دون أن تكون لي فكرة مسبقة احاول الدفاع عنها أو نقضها •

وقد حملني تحدد نطاق الكتاب وحجمه على الاقتصار على ايراد ما اعتقد بصحته أو بأنه أقرب الى الصواب ، وقد اغفلت ذكر كافة الامور أو الآراء والحوادث التي اعتقد أن معلوماتنا العامة وتفكيرنا ومنطق الحوادث لا تؤيد صحتها • لذا أهملت بحث العرب البائدة ، لأن الاخبار التي لدينا عنهم غير مضبوطة أو معتمدة • وقد قصرت عملي على الوصف والتحليل وتجنبت اصدار الحكم على حسن أو قبح أية حادثة أو مؤسسة ، كما تحاشيت مهاجمة أية مؤسسة أو الدفاع عنها •

وقد اتبعت في كتابة المصادر طريقتين متباينتين ، اولاهما اتبعتها في بحث الدول العربية القديمة ، عدا مكة ودولة المناذرة ، والثانية في بقية فصول الكتاب • ففي بحث الدول العربية القديمة اكتفيت بذكر المصادر الرئيسية التي اعتمدت عليها ، في هامش مطلع كل فصل ، أما باقي أجزاء الكتاب فقد ذكرت مصدر كل خبر أو حادثة أو رأي ، والصحيفة التي تحويه • ويرجع هذا التباين الى أن معلوماتنا عن الدول القديمة كاليمن

وبطرا وتدمر مستمدة من مكتشفات الآثار أولا ، ومن اشارات الكتاب الاغريق والرومان القدماء ثانياً ، وقد استوفى بحث كل منها بعض المؤلفين المحدثين .

اما كل من دولة الغساسنة وكندة والمناذرة فمع أن المصادر الرئيسية لأخبارها هي الكتب العربية ، الا ان لدينا عن كل منها دراسة وافية قام بها واحد من المؤرخين المحدثين ، وليس هناك ما يمكن في الحال الحاضر اضافته وتعديله على أبحاثهم ، لذا اكتفيت بالاشارة الى هذه الابحاث الرئيسية الحديثة في هامش بداية كل فصل .

أما الفصول الخاصة عن مكة وعن الحياة البدوية ونظمها فان اعتمادنا الاول فيها على الكتب العربية التاريخية والادبية ، لذا أشرت الى مصدر كل خبر ، اللهم الا في بعض النقاط التي فصل البحث فيها بعض المؤلفين المحدثين ، فاكتفيت بالاشارة الى ابحاثهم دون أن أورد كافة المصادر التي اعتمدوا عليها ، وقد أجلت فهرس أسماء الكتب وطبعاتها الى نهاية الجزء الثاني تحاشياً من التكرار .

واني اذ أرجو أن يكون في هذا الكتاب بعض الفائدة للمهتمين بهذه الفترة من التاريخ ، أرى من الصعب ذكر أسماء كافة من أعانني على اخراج هذا الكتاب سواء من رجال وزارة التربية أو اخواني وطلابي ، فلهم مني خالص الشكر والتقدير .

كلية الآداب   **صالح أحمد العلي**

١٩٥٤

الفصل الأول

الساميون

يتميز معظم سكان الشرق الاوسط منذ أقدم الازمنة ببعض الصفات المشتركة التي ميزتهم عن سكان البلاد الاخرى التي تقع وراء جبال طوروس وزاغرس . فاللغات التي يتكلم بها هؤلاء السكان تشترك في كثير من الخصائص وقواعد اللغة ، كما أن عاداتهم الاجتماعية وأفكارهم السياسية وأساليب حياتهم فيها كثير من التشابه منذ أقدم الازمان ، وهذا مما حمل الناس على الاعتقاد بأن هذا التشابه يرجع الى تحدرهم من أصل واحد ودعوتهم بالجنس السامي[1] .

وتسميتهم بالساميين ترجع الى أزمنة قديمة ، فقد جاء في التوراة[2] انه كان لنوح ثلاثة أولاد تحدر منهم البشر بعد الطوفان ، هم سام وحام ويافث . وقد سكن الساميون ، وهم أحفاد سام ، في الشرق الاوسط . وانقسموا بعد تكاثرهم الى أقسام فرعية وقبائل . ولا ريب ان هذا التصنيف يوضح قدم الخصائص المشتركة التي يتميز بها سكان الشرق الاوسط . غير انه من الصعب أن نجزم بالقيمة التأريخية لقصة التوراة وأولاد نوح ، خاصة وان الشرق الاوسط جاءته موجات متعددة من أقوام غريبة استوطنت فيه وتكلمت بلغة أهله وتعودت بعاداتهم .

غير ان ما جاء في التوراة عن أصل الساميين ظل مقبولا عند الناس واعتمد عليه النسابون العرب في كتبهم عن الانساب ، فكرروا ما قالته التوراة مع اضافة بعض التعديلات الفرعية .

---

(١) راجع ما كتبه كوك في الفصل الرابع من الجزء الاول من تاريخ كمبردج القديم (بالانكليزية) .

(٢) سفر التكوين ١٠ ـ ١٢ .

وفي منتصف القرن التاسع عشر ألف المستشرق الفرنسي ارنست رينان كتاباً عن أديان الساميين أكد فيه على أن الساميين جنس منحدر من أصل واحد مشترك يتميز أفراده بتشابه لغاتهم وبتركيب عقليتهم وبنظرتهم الجزئية للاشياء وبتأثرهم بالغيبيات وميلهم الى البساطة في التفكير والوحدانية في الدين • وذكر أن ظهور الاديان الموحدة الثلاثة الكبرى (اليهودية والمسيحية والاسلام) بين الساميين يرجع الى طبيعة تفكيرهم • وقد أكد بأن هذه الميزات التي تتصف بها العقلية السامية ترجع الى عوامل بيولوجية ووراثية في الجنس وانهم بذلك يختلفون أساسياً عن الآريين[١] • ولا ريب أن رينان كان متأثراً بالنزعة القومية المتطرفة وبالروح الاستعمارية التي سادت الاوروبين آنذاك ودفعتهم الى الاعتقاد بأن الساميين يختلفون في التركيب البيولوجي عن الغربيين ، وانهم أحط من الاوروبيين في العقلية • وقد أخذ بنظرية رينان هذه عدد غير قليل من الفلاسفة والعلماء والساسة • وظل كثيرون يعتقدون بها حتى السنوات الاخيرة •

غير ان علماء الانثربولوجيا ودارسي الشعوب المدققين انتقدوا نظرية رينان ومشايعيه وبرهنوا على أنه لا يوجد شعب يمكن أن يبرهن على نقاوة دمه • اذ أن الهجرات المستمرة والتزاوج قد أديا الى اختلاط دماء الشعوب • وهكذا فان الشعوب القاطنة في الشرق الاوسط أو في غيره من البلاد لم تكن منعزلة عن العالم كما انها لم تحافظ على نقاء دمها • أضف الى ذلك ان اختلاف طرق تفكير الشعوب لا يرجع الى اختلاف تركيب دماء أفرادها • بل الى الظروف الجغرافية والاجتماعية التي أدت بعقولها الى أن تعمل بالشكل الذي تعمل فيه[٢] •

فاذا ما تحدثنا عن الجنس السامي فاننا لا ندعي نقاء دمه ، كلا بل

---

(١) « تاريخ عام للغات السامية » باريس ١٨٥٥ (بالفرنسية) •

(٢) أنظر في ذلك : كاسيرر « مقالة عن الانسان » (بالانكليزية) •
جوليان هكسلي وهدن « نحن الاوروبيين » (بالانكليزية) •

نقصد مجموعة من البشر الذين يتميزون بحضارة ذات عناصر مشتركة تميزهم عن غيرهم من الامم . وخاصــة في اللغــة التي هي أهم ما يميز الساميين . وعلى هذا فان تقسيم الشعوب يستند على أسس لغوية وحضارية أكثر مما يستند على أسس بيولوجية .

ولا ريب أن الساميين يتكلمون بلغات مختلفة ، ولكنها تشترك في خصائص عديدة مشتركة تميزها عن غيرها من اللغات وتحمل على الاعتقاد بأنها منحدرة من أصل واحد . ومن أهم هذه الخصائص وجود عدد كبير من الكلمات المشتركة بينها ، وان الاساس فيها فعل الماضي ، وان تصريف الافعال يتشابه فيها ، وهي تعتمد على السواكن لا الحركات ، وأصل الكلمات مكون من ثلاثة أحرف في الغالب ، والفعل هو أساس الجملة ويعتمد عليه الاسم والضمير . هذا الى أن للاسماء فيها صيغتان : المذكر والمؤنث ، وليس فيها صيغة ثالثة كال Neuter gender الموجودة في اللغـات الاوربية . واللغة بصورة عامة بسيطة ، مباشرة ، لا تستعمل الافعال المساعدة وقلما تستعمل حروف الربط[١] .

ولقد ظهرت نظريات متعددة عن أصل الساميين ، فمن أقدمها نظرية المستشرق الايطالي أغناص جويدي الذي قارن بين اللغات السامية المتعددة فوجد ان أغلب الكلمات التي تدل على السهول والمياه والنباتات مشتركة بين هذه اللغات . فاستنتج من ذلك ان هـذه اللغات كان يتكلم بهـا في الاصل أقوام يسكنون في مناطق سهلية غزيرة المياه والنباتات ، وارتأى بأن العراق هو أقرب منطقة تتوفر فيها هذه الظواهر ولذلك استنتج بأن أصل الساميين من العراق[٢] . ومما قد يؤيد نظريته هو ان التوراة تذكر ان سفينة نوح رست

---

(١) فيليب حتي : تاريخ سوريا ص ٦٢ (بالانكليزية) .

(٢) ان بحث جويدي عن الاصل الاول للشعوب السامية ، نشر اول مرة بالايطالية في مذكرات اكاديمية لنسى سنة ١٨٧٩ . أما بحث بارتون فقد نشر بالانكليزية في فيلادلفيا سنة ١٩٣٤ بعنوان « الاصول الاجتماعية =

بعد الطوفان على جبل الجودي في شمال العراق ، ومنه انتشر الناس بعدئذ .

غير ان هذا الاستنتاج يثير عدة اعتراضات : فمن ذلك انه لا يبين لماذا يهاجر الناس من هذه المناطق الخصبة ، كالعراق ، الى المناطق الصحراوية الجرداء التي نجد انها آوت أنقى اللغات السامية منذ أقدم الازمان ؟ هذا الى انه منذ أقدم الازمنة التأريخية نجد أن الاقوام السامية تهاجر من الجزيرة الى العراق ، لا العكس كما يدعي جويدي . يضاف الى هذا ان جويدي لم يطلع على الاستكشافات الجغرافية الحديثة التي أظهرت ان في الجزيرة العربية مناطق كانت وفيرة المياه كثيرة المزروعات .

ومع سعة اطلاع جويدي على اللغات السامية الا انه كان يجهل فقه اللغات الاخرى وخاصة الحامية التي يتكلم بها سكان افريقية الشرقية والشمالية وتشترك مع اللغة العربية ببعض الخصائص .

وقد درس بارتون اللغة الحامية وقارنها بالسامية فوجدها تشترك في بعض الكلمات والصيغ ، فاستنتج ان الساميين والحاميين كانوا متحدرين من أصل واحد تفرعوا منه ، وادعى ان أنسب منطقة ملائمة لسكنى « الاصل » هي شرق افريقية ، في منطقة الصومال والارتريا حيث يسهل عبور الساميين الى بلاد العرب من باب المندب ، وكذلك انتشارهم في افريقية ، والواقع انه قد جرت اتصالات تأريخية مستمرة بين اليمن وافريقية الشرقية مما أكسب هذين الاقليمين بعض الصفات اللغوية والجسمية المتشابهة .

غير ان الكلمات والقواعد المشتركة بين السامية والحامية أقل مما تكفي

= والحامية للساميين » اما كايتاني فقد نشر بحثه بالايطالية بكتابيه « الحوليات الاسلامية » و « دراسات في التاريخ الشرقي » ميلانو ١٩٠٧ ، ١٩١١ .

وتجد خلاصة ونقدا لهذه الآراء بالفرنسية في كتاب « الساميون ودورهم في تاريخ الدين » للاستاذ ديلا فيدا (بالفرنسية) . كما نجد تلخيصا ونقدا لآراء كايتاني في كتاب « شمال نجد » لالواموزيل بالانكليزية وفي كتاب « تاريخ العرب قبل الاسلام » للدكتور جواد علي . الجزء الاول .

لحملنا على الاعتقاد باشتراكهم في الاصل • واذا كان سكان اليمن يشبهون بعض الشبه سكان الصومال ، فان سكان العراق أبعد ما يكونون عن سكان افريقية والكلمات المشتركة قد يرجع أصلها الى الاتصال التجاري لا الى الاشتراك في الجنس ، لذلك لم يسلم المفكرون بصحة هذه النظرية •

وقد اعتقد فريق من العلماء ان أصل الساميين من جزيرة العرب • ولعل أعظم من دافع عن هذا الرأي وأوضحه هو المستشرق الايطالي كايتاني الذي يتلخص رأيه بأن أصل الساميين من الجزيرة العربية • وهو يبني اعتقاده هذا على ان الآثار القليلة المدروسة في الجزيرة العربية تدل على وجود آثار المياه والنباتات فيها • وقد وجد برترام توماس بقايا بحيرة في الربع الخالي عند منخفض أبو بحر ، وآثار نباتات وحيوانات في جبل العترا • هذا الى ان وادي الرمة لا يزال مليئاً بالصخور الرسوبية والحصى مما يدل على انه كان في القديم مجرى نهر غزير المياه ، كما ان الفيلة كانت تعيش في الالف الثانية ق•م• في شمال سوريا ، أما الاسود فكانت كثيرة في العراق ، وربما في شمال الحجاز • والواقع ان الجيولوجيين قد قرروا ان مناخ العالم في العصور الجيولوجية كان يختلف عما هو عليه الآن ، ففي عصر الميوسين كان مناخ الجزيرة العربية يشبه مناخ الهند اليوم من حيث الدفء وكثرة الرطوبة وغزارة المياه مما يساعد على سكنى البشر • فهو لذلك يرجح ان الساميين كانوا في الاصل يقطنون الجزيرة العربية ، فلما تغير المناخ تدريجياً نقص السكان وتحولوا الى حياة البداوة ، وهاجر عدد منهم الى أطراف الجزيرة حيث الخصب ووفرة المياه • والواقع اننا نجد ان العرب منذ أقدم العصور التاريخية المعروفة كانوا أوفر الامم حظاً من الصفات والعادات الاجتماعية السامية الاصلية ولغتهم أقرب اللغات السامية الى الاصل وأنقاها •

لقد ظلت العلاقة بين سكان الجزيرة العربية وأطرافها وثيقة طوال الازمنة التاريخية ، حيث كانت تجري هجرات متعددة ، من داخل الجزيرة الى اطرافها • وهذه الهجرات بعضها موسمية أو محدودة كهجرات الرعاة الذين يتجولون وراء المراعي فيدخلون العراق وسوريا لمدة موقتة خاصة في

فصل الصيف والربيع ثم يعودون الى الجزيرة ، وفي بعض الاحيان ينتشرون في اطراف الهلال الخصيب أو يستوطنون في مناطق معينة فيه ، وخاصة عندما لا تعيقهم عن ذلك الظروف السياسية • وفي بعض الاحيان تجري هجرات واسعة تحمل عدداً كبيراً من الناس الى بلاد الهلال الخصيب • وأبرز هذه الهجرات الكبيرة هي :ـ

(١) هجرة الاكاديين الذين استوطنوا العراق حوالي سنة ٣٥٠٠ ق•م• وكونوا الدولة الاكادية التي استطاعت في عهد ملكها سرجون الاول أن توحد العراق ، وتمد نفوذها الى أعالي دجلة •

(٢) هجرة العموريين الى العراق ، والكنعانيين والفنيقيين الى سوريا (حوالي سنة ٢٢٠٠ ق•م•) •

(٣) هجرة الآراميين الذين انتشروا في سوريا وفلسطين وشمال العراق ، والعبرانيين في فلسطين (حوالي سنة ١٥٠٠ ق•م•) •

(٤) هجرة الانباط والتدمريين (حوالي سنة ٥٠٠ ق•م•) •

(٥) الموجة الاسلامية في القرن السابع الميلادي •

وبوصول الساميين الى بلاد الهلال الخصيب يبدأون بترك حياة البداوة والاستقرار تدريجياً ويختلطون مع الامم الاخرى التي تقيم في هذه البلاد ، مما كان يؤدي دائماً الى تصادم مؤسساتهم الاجتماعية وحضارتهم مع مؤسسات وحضارات الشعوب الاخرى ، وينتج من هذا التصادم ظهور مدنيات جديدة مزدهرة يطغي عليها الطابع السامي ، لانها تصبح مختلفة الى حد غير قليل عن حضارة اخوانهم من أهل الصحراء • والواقع ان أزهى عصور الهلال الخصيب هي التي تعقب الهجرات السامية اليها •

ونظراً لتعقد حضارة الهلال الخصيب ووفرة المعلومات عن تاريخها ، فانها تدرس عادة بصورة مستقلة • أما بحثنا هذا فسيقتصر على تاريخ جزيرة العرب التي استوطنها العرب منذ آلاف السنين وخرجت منها الموجات السامية وغذت الشرق الاوسط بالعنصر السامي وحضارته ، والتي احتفظ سكانها بمظاهر الحياة السامية ، وخاصة اللغة وتقاليد البدو بدرجة أنقى مما هي في

بقية البلاد نظراً لقلة العناصر الدخيلة التي تأتي وتستوطن بلادهم • والتي ظهر فيها الاسلام ، ويتوجه اليها المسلمون في قبلة صلاتهم ويحجون اليها •

وشبه جزيرة العرب[١] مستطيلة الشكل ، يبلغ طولها من رأس الخليج العربي الى العقبة حوالي ألف ميل ، ومن البحر العربي الى أطراف الهلال الخصيب حوالي ألف ومائتي ميل • وهي هضبة مرتفعة في الغرب وتنحدر تدريجياً نحو الشرق ، حتى تصبح كالسهل عند سواحل الخليج العربي •

ويمتد على طول الجزء الغربي منها سلسلة من الجبال تدعى « السراة » ، توازي البحر الاحمر ، ويزداد ارتفاعها في الشمال حيث يبلغ معدل ارتفاعها ٢٠٠٠ متر ثم تنخفض في الوسط ، حتى تصبح كالتلال المتقطعة ، ثم تعود الى الارتفاع في الجنوب حيث يصبح ارتفاعها حوالي ١٢ ألف قدم كما تكون عريضة فتصبح كالهضبة • ويمتد من وسط الجزيرة سلسلتا جبال اجا وسلمى أو جبلي شمر ، وهي تبلغ حوالي ٥٥٠٠ قدم في الارتفاع • كما يمتد في وسطها جبل طويق الذي يبلغ طوله الف كيلومتر ، كما توجد سلسلة أخرى من الجبال التي تمتد موازية لساحل بحر عمان ، تدعى الجبل الاخضر ويبلغ ارتفاعها حوالي ١٠ آلاف قدم • وهناك سلاسل من المرتفعات الموجودة في الجزيرة مثل جبل النير والصمان تحصر السلسلة

---

(١) لقد درس سبرنجر في كتابه « جغرافية الجزيرة العربية القديمة » (بالالمانية) ما ورد في كتب القدماء عنها وحاول تعيين أماكنها ، وتجد خلاصة لها في كتاب الدكتور جواد علي • كما درس لامنس في كتابه « مهد الاسلام » (بالفرنسية) اقليم الحجاز • ولعل أوفى ما كتبه العرب في العصور الوسطى هو كتاب « صفة جزيرة العرب » للهمداني ، وقد اعتمد عليه كثيرا ياقوت الحموي في كتابه « معجم البلدان » •

ومع كثرة السياح والكتاب الحديثين عن جزيرة العرب الا أنه لا يوجد بحث مفصل شامل عنها ، ولكن تجد خلاصة لها في كتاب « دليل جزيرة العرب » (بالانكليزية) الذي نشرته الاميرالية البريطانية واعتمد عليه كثيرا حافظ وهبة في كتابه « جزيرة العرب في القرن العشرين » •

تجد خلاصة واضحة عن جغرافية الجزيرة في كتاب فيليب حتي (تاريخ العرب) ص ١٤ ـ ٢٢ • وفي دائرة المعارف الاسلامية الطبعة الجديدة •

الغربية (السراة) بينها وبين البحر الاحمر سهلا ساحلياً ضيقاً شديد الانحدار نحو البحر يقطعه عدد غير قليل من الاودية التي قلما يستفاد من مياهها الشتوية للزراعة ، نظراً لشدة انحدارها ، ولكن توجد في فوهات الوديان موانيء متعددة أهمها الحوراء ، وينبع ، وجدة في بلاد الحجاز ، والحديدة ومخا في بلاد اليمن .

أما سطح الهضبة الوسطى فيتكون من الدهناء وهي أرض صلبة تكسوها قشرة ترابية تنبت فيها بعض النباتات البرية والاعشاب وخاصة في الربيع بعد سقوط الامطار . وفي هذه الهضبة توجد منطقة النفود وهي اراض تكسوها تلول من الرمال الناعمة البيضاء والحمراء التي تغير مواقعها بتأثير العواصف والرياح، وتكون قاحلة جرداء لا نبات فيها ولا ماء وهي تكون عريضة في الشمال الى الجنوب حيث تبلغ ١٤٠ ميلا ، ثم يمتد منها ذراع مواز للخليج العربي ، ويدعى الصمان ، ويبلغ عرضه حوالي خمسين ميلا وهو يمتد حتى يتصل بالربع الخالي الذي يمتد في جنوب الجزيرة ، ولم يمر به أي أوربي حتى سنة ١٩٣٢ حيث مر به برترام توماس ثم فلبي ووصفاه بأنه منبسط من الارض الرملية والجيرية فيها بقايا بحيرات مالحة وآثار مياه البحر .

وفي القسم الغربي من الهضبة عدد غير قليل من البراكين الهامدة والخامدة ، وتدعى الحرات ، وأشهرها حرة خيبر ، وحرة سليم ، وحرة يثرب ، وأغلب هذه الحرات خصبة وهي مراكز للحضارة . كما تمتد وسطها سلسلة جبل طويق .

يقطع هذه الهضبة عدد من الوديان ، وأهمها وادي الرمة الذي يسير من أواسط الجزيرة متجهاً نحو الغرب حتى ينتهي عند خليج العقبة . ووادي سرحان الذي ينحدر من الشمال الى الجنوب الغربي حيث ينتهي عند البحر الميت . ووادي بيشه الذي يجري في عسير من الشرق الى الغرب حتى ينتهي في البحر الاحمر . ووادي اليمامة التي يمتد موازياً للبحرين . والراجح ان هذه الوديان كانت في الازمنة القديمة مجاري أنهار .

ان مناخ الجزيرة صحراوي ، حار جداً في الصيف ، وبارد في الشتاء ، وتسقط الثلوج على جبال اليمن ، كما تتجمد المياه أحياناً في الطائف وفي اليمن • وأمطارها قليلة جداً ، وهي تسقط في فصول الخريف والشتاء والربيع ، بدفعات غير منتظمة ، أما اليمن فتسقط فيها أمطار غزيرة في الصيف تأتي بها الرياح الموسمية من منطقة شرقي افريقية •

ومياه الأمطار قليلة لا تكفي للزراعة ، بل تنبت الاعشاب والنباتات البرية وأهمها الاثل والغضا والطلح •

غير ان المياه الباطنية تتوفر في معظم أنحاء الجزيرة ، وتكون أحياناً قريبة من سطح الارض ووافرة لدرجة تكفي للزراعة ولاستيطان عدد غير قليل من الناس ، وتدعى هذه المناطق الواحات • وتتوفر المياه أيضاً في بطون الاودية وفي اليمن كذلك ، وهذا مما يساعد على الزراعة والاستقرار ونشوء الحضارات • ولعل أهم المزروعات هو النخيل الذي يوجد منبثا في مختلف الواحات ، ويكثر بصورة خاصة في خيبر والمدينة ، وفي البحرين (وخاصة عند هجر) وفي اليمامة ، كما تكثر زراعة الشعير في فدك ووادي القرى وخيبر والمدينة والبحرين ، والحنطة في اليمامة ، والذرة في عسير ، والكروم في الطائف واليمن ، واشجار الفاكهة في الطائف وفي عدد غير قليل من أودية الحجاز وفي اليمن • وتعيش الافاويه كالمر والمر المكاوي والصمغ في أودية اليمن وحضرموت بكثيرة •

يطلق على سكان الجزيرة العربية اسم العرب ، وقد ذكر هذا الاسم لاول مرة في التاريخ في نقوش ترجع الى زمن شلماصر الثالث (سنة ٨٥٤ ق•م•) ثم يتردد ذكرهم منذ ذلك الوقت في النقوش الآشورية والبابلية بأشكال مختلفة

Arubu, Arebi, Aribi, Arbi Arabian, Arabyaya, Arabya

وفي عدد من اسفار التوراة وقد ذكره أيضاً بعض الكتاب اليونان كايسخلوس وزينوفون • وهذه الكلمة تعني في اللغات السامية الجدب أو القحولة ،

وقد اطلقتها المصادر القديمة في الغالب على عدد من الامارات والدويلات الواقعة في اطراف بلاد الشام وشمال الحجاز ، وكان يرأسها ملوك ومشايخ بعضهم من النساء ، اسماؤهم تشبه الاسماء المستعملة في الجزيرة عند ظهور الاسلام . كما اطلق اسم العرب في بعض النقوش السبأية عى البدو القاطنين في اطراف صنعاء ثم اصبحت تطلق على كافة سكان الجزيرة .

غير ان هذه النصوص المستمدة من المصادر الخارجية لا تقدم تفاصيل وافية عن نشأة وتطور هذه المشيخات القديمة وما كان سائدا في داخل الجزيرة من نظم . وليست لدينا معلومات وافية نسبياً الا عن بعض الدول التي ظهرت في بعض اطراف الجزيرة ، والتي لها علاقة وثيقة بالدول العظمى التي حكمت الشرق الاوسط[١] .

---

(١) راجع في ذلك فيليب حتي « تاريخ العرب » ٣٧ ـ ٤٦ . ومادة « عرب » في الطبعة الجديدة من دائرة المعارف الاسلامية .

الفصــل الثاني

اليمن[1]

تقع اليمن في الطرف الجنوبي الغربي من الجزيرة العربية ، تمر بها من الشمال الى الجنوب سلسلتان جبليتان تحصران بينهما هضبة عريضة ، وينحدر سطحها نحو البحر بشدة تاركا سهلا ساحليا ضيقا يقطعه عدد من الوديان المنصبة من البحر ، وتسقط على هذه البلاد امطار وافرة في الصيف تأتي بها الرياح الموسمية من شرقي افريقية ، وقد ساعدت هذه الامطار على نشوء النهيرات الصغيرة والسيول التي يستفاد منها في الزراعة التي ازدهرت في هذه البلاد • وقد أدى ذلك الى استقرار الناس ونشوء المدن والمدنية •

ومن أهم المنتوجات اليمانية العطور والافاويه والبخور التي كانت لها أهمية كبرى عند الناس في التاريخ القديم ، حيث كانت تستعمل في المعابد والطقوس الدينية ، وللتحنيط ، كما كانت تستخدم أحيانا في الاطعمة ، هذا الى أن العطور كانت تستخدمها النساء بكثرة • ويكفي للاستدلال على مدى أهميتها أن نذكر ان معبدا لآمون في مصر استعمل في اوائل القرن الثاني عشر ٢١٥٩ جرة في سنة واحدة ، وان الكلدانيين كانوا يحرقون سنويا في معبد بعل ببابل مائتى الف كيلو غرام فيما يقال، وان الاسكندر أرسل عشرة الاف كيلوغرام لاستاذه أرسطو[2] • وكانت اليمن وحضرموت تزرعان أهم أنواع الافاويه والعطور العالمية وتعتبران أكبر مصدر لها في العالم القديم• وقد ساعدت زراعة الافاويه على ازدهار تجارتها مع البلاد الاخرى ، وخاصة بلاد

---

(١) أهم مراجعنا في هذا الفصل كتاب « سناد الاسلام » لفلبي (الاسكندرية سنة ١٩٤٦) و « تاريخ العرب » لفيليب حتي و «جزيرة العرب قبل محمد » لاوليري (بالانكليزية) و « تاريخ العرب قبل الاسلام » لجرجي زيدان و « تاريخ العرب قبل الاسلام » للدكتور جواد علي •

(٢) فرياستارك « المداخل الجنوبية لجزيرة العرب » ص ١٠ (بالانكليزية) • ويعادل التالنت ٥٦ رطلا انكليزيا •

الهلال الخصيب وبلدان البحر المتوسط حيث كانت تصدر اليهم المنتوجات، كما ان وقوعها على طريق الهند ساعد على جعلها مركزا هاما لتجارة الترانسيت، ولسيطرة بحاريها على ملاحة البحر العربي والبحر الاحمر • ومن المعلوم ان الملاحة في البحر العربي تعتمد على الرياح التي تسير من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي في فصل الصيف ثم تسير بالعكس في الشتاء ، وهذه التبدلات في اتجاه الرياح لم يكن يعرفها سوى الملاحون اليمانيون ، مما ساعدهم على احتكار الملاحة فيه حتى القرن الثاني قبل الميلاد ، وقد أدت هذه الاحوال الطبيعية الملائمة الى ظهور المدن وازدهار المدنية منذ أقدم الازمنة فظهرت فيها دول ، أقدم ما نعرفه منها هي الدولة المعينية التي تشكلت في الجوف وكانت عاصمتها قرناو أو معين •

وقد لاحظ بعض الباحثين ، وخاصة ونكلر وهومل ودوفرني ، ان بعض مظاهر الحضارة المعينية تشبه حضارة البابليين، فالالهة شماش وعشتروت البابلية، يشبه اسمها اسماء الالهه شمس وعثر اليمانية، كما ان النقوش والاختام المعينية تشبه ما عند العراقيين القدماء ، والمكارب اليمانيين يشبهون الملوك الكهنة السومريين • وقد استنتجوا من ذلك ان اصل المعينيين من العراق • غير ان هذا التشابه الجزئي في مظاهر الحضارة لا يكفي أن يكون دليلا قاطعا على كونهم جاءوا من العراق ، اذ يجوز أن يكون الساميون العراقيون قد جاءوا من اليمن ، أو قد يكون العراقيون واليمانيون قد جاءوا من أصل واحد في محل ما ، أو قد يكون التشابه في مظاهر الحضارة نتيجة الاختلاط الذي كان بين البلدين منذ أزمنة سحيقة •

وقد اختلف الباحثون في بداية نشوء دولتهم وذلك لان الآثار القليلة الباقية عنهم تذكر وجود خمس أسر معينية حكمت معين ، تتكون كل أسرة من عدد من الملوك المتسلسلين ، ولكن لا توجد أية صلة بين كل أسرة من هذه الاسر وبين الاسرة التي تليها • وقد اختلف الباحثون فيما اذا كانت هذه الاسر متعاقبة ومتسلسلة أو ان هناك ملوكا حكموا المعينيين لم تصلنا أخبارهم •

ويرجح المؤرخون ان أولى هذه الأسر بدأت في الحكم حوالي سنة ١١١٠ ق٠م٠ وكانت الظروف الدولية مؤاتية لها ٠ ففي مصر لم يتمكن ملوك الاسرة الحادية والعشرين الضعفاء من التدخل في شؤون الجزيرة العربية ٠ وفي العراق كان يحكم بابل ملوك ضعفاء ٠ وفي آشور كان تغلات فلاسر منشغلا في حروبه في شمال العراق ٠ وقد ساعدت هذه الظروف المعينين على تثبيت ملكهم ومد نفوذهم التجاري في الشرق الاوسط ، فامتد نفوذهم في عهد الأسرة الثانية الى حضرموت في الجنوب ، كما امتدت تجارتهم ونفوذهم الاقتصادي الى شمال الحجاز حيث أقيمت مستعمرة معينية يرجح انها كانت مرتبطة بدولة اليمن ٠ وقد أدى هذا التوسع الى احتكاك المعينين بآشور والفنيقيين ٠

ويظهر انه في نهاية عهد الأسرة الثانية بدأ احتكاكهم بحضرموت وقتبان في الجنوب ٠ كما بدأ يتردد في النقوش ذكر قبيلة خولان وذكر السبأيين الذين أصبحوا فيما بعد ورثة المعينين ٠

يرجع تاريخ القتبانيين الى سنة ١٠٠٠ ق٠م٠ على الاقل ، وكانوا يسكنون في الطرف الجنوبي الغربي من اليمن وعاصمتهم تمنا[١] ، وهي قرب باب المندب ، وقد كشفت آثارها قبل بضع سنوات ٠ ويذكر بعض الكتاب الرومان انه كان فيها ٦٥ معبدا ٠

استفاد القتبانيون من موقعهم الجغرافي ومجاورتهم لحضرموت التي تنتج خير أنواع البخور ، فجنوا ثروة كبيرة وصارت لهم قوة عظيمة حددت من نفوذ المعينين ٠ وكانت نظم ادارتهم تشبه النظم المعينية ٠

غير أن الضربة النهائية التي قضت على المعينين جاءت من السبأيين الذين ازدادت قوتهم حتى استطاعوا أن يقضوا على الدولة المعينية ويسيطروا على اليمن ويحدوا من نفوذ القتبانيين ٠ الا أن المعينين ظلوا محتفظين بكيانهم الاجتماعي حتى بعد انقضاء دولتهم ، اذ وجد لهم ذكر في الآثار المصرية

---

(١) او تمنع ٠

في القرن الثاني ق٠م٠ وفي ديلوس حيث امتدت تجارتهم اليها ٠

يبدو من الوثائق القليلة الباقية أن نظام الحكم في معين كان ملكيا مقيدا ، فكان الملك يدعى مزود ، ومعناه المقدس ، والملك وراثي ، وقد يشارك الابن أباه في الحكم ، ولكن يحيطه مجلس استشاري يعاونه في الحكم ويحد من سلطانه ٠

وكانت المدن التابعة لدولتهم تتمتع باستقلال ذاتي ، أما ادارتها فكانت بيد رؤساء ينتخبون لمدة سنة قابلة للتجديد ويعاونهم مجلس من المشايخ ٠ ويظهر انه كانت لهؤلاء الرؤساء مكانة سامية ، اذ كانت تدون أسماؤهم في سجلات المدينة أو المعابد ويذكرهم المؤرخون في وثائقهم ، حتى أن بعض الملوك كانوا يؤرخون توليتهم ويحددونها بذكر الرئيس الذي كان قائما آنذاك ٠

امتهن المعينيون الزراعة والتجارة ، وكان فيهم عدد من القبائل البدوية يرعون الماشية ولا تختلف نظمهم عن نظم البدو ٠

والمجتمع المعيني ارستقراطي يستخدم العبيد ، وفيه عدد من الطبقات التي تتميز عن بعضها ٠ وهم متدينون يعيرون رجال الدين أهمية كبيرة ٠ وللمرأة حرية واسعة ٠

لقد كان المعينيون يستعملون في كتابتهم الحروف ٠ ومن المحتمل انهم أول من اخترع الألفباء ثم انتقلت منهم الى اهل سيناء ، والى الفنيقيين ثم انتقلت الى اليونان ٠

انتشر المعينيون في بلاد واسعة متبعين تجارتهم حتى بعد انقراض دولتهم ٠ فقد وجد ذكر للمعينيين في مصر والعراق وسوريا وديلوس ٠ وقد ذكرهم الكتاب اليونانيون والرومان فأشار بليني الى وجودهم مع سبأ ، ووصفهم بطليموس بأنهم شعب قوي ، وقال ديودورس بأنهم كانوا يأتون بالافاويه ٠ ولا ريب ان ذكر هؤلاء الكتاب الاغريق والرومان لهم في القرون القريبة من ميلاد المسيح دليل على بقاء المعينيين محتفظين بنشاطهم الاقتصادي حتى بعد أن زالت دولتهم ٠ وكانت لهم مستعمرة واسعة في

في شمال الحجاز •

اما السبأيون فقد ورد ذكرهم في النقوش الآشورية حيث يذكر كل من تغلات فلاسر (٧٤٥ – ٧٢٧ ق•م•) وسنحاريب وأسر حدون (٧١٥ – ٦٨٥ ق•م•) بأنهم أخذوا الجزية من يثعمر وكرب ايلو ملوك سبأ • كما ان التوراة (في سفر التكوين × ٧) ذكرت سبأ جنوب جزيرة يقطان تعطي المر والجوهر والذهب ، وان بلقيس التي تزوجت سليمان كانت ملكة سبأ ، وان لم يكن هناك دليل قاطع بأن هذه المملكة كانت في اليمن •

لا تذكر المصـادر التأريخية شيئا واضحا عن أصل السبأيين • ومن المحتمل أنهم كانوا في الاصل قبائل بدوية تتجول في الشمال ثم انحدرت نحو الجنوب الى اليمن حوالي سنة ٨٠٠ ق•م• كعادة العرب في التجوال ، أو نتيجة ضغط الآشوريين عليهم من الشمال ، واستقرت أخيرا في اليمن وأخذت تتوسع فيها مستفيدة من ضعف المعينيين وقوتهم العسكرية فامتدت الى الجوف •

ويمكن تقسيم حكمهم في اليمن الى ثلاث فترات متميزة في الفترة الاولى كان يطلق على رؤسائهم لقب مكرب وهي كلمة دينية تعني المقدس • ثم تلتها فترة أخرى أصبح الرؤساء فيها يسمون ملوك سبأ • ثم في الفترة الثالثة كانوا يلقبون ملك سبأ وريدان •

وأول مكرب سبأ هو سمح على (حوالي ٨٠٠ – ٧٨٠ق•م•) الذي لا يعرف عن حكمه الا خبر واحد هو انه قدم هدية من البخور والمر للاله المقه الذي أرشد القبيلة بعد تجوالها الى « أرض فيها اللبن والعسل » • وقد أعقبه ابنه يدع ايل ضريح، الذي بنى معبدا للمقه في صرواح عاصمة مكارب سبأ ، كما بنى معبدا آخر للمقه ومعبدا لعثر في مأرب ، وهذه أول اشارة لمأرب مما يدل على انها كانت آنذاك مدينـة كبيرة مهمـة • وقد تلا هـذا المكرب يثعمر وتر الذي بنى معبدا لآله القمر حوباس في دابر التي كانت تقع بين مأرب والجوف في وادي حربد • وقد ولى هذا المكرب ابنه يدع ايل بين الذي حصن مدينة نشق في الجوف عند حدود الدولة المعينية ، مما

يدل على أنه كانت هناك حروب مع المعينين . غير ان النقوش لا تذكر شيئا من هذه الحروب . وقد تولى بعد هذا المكرب سمح على ينـاف ويثعمر وتر وكرب ايل بين الذين قدموا الجزية لسنحاريب وأسر حدون . ليست لدينا أخبار أخرى عن هؤلاء المكارب . مما قد يدل على انهم لم يقوموا بفتوحات تستحق الذكر وانهم انصرفوا الى الحياة السلمية واهتموا بالزراعة والاعمار والسدود .

وقد تولى بعد كرب ايل بين ابنه (أو ابن أخيه) ذمر على وتر الذي قام بتشييد سد مأرب الذي يعتبر أعظم سد شيد في الجزيرة العربية ومن أعاجيب العالم القديم. وقد ظل ذكره يتردد بين الناس واشار اليه في القرآن الكريم ، فقال تعالى « لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال، كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ، فاعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وائل وشيء من سدر قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي الا الكفور . وجعلنـا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياما آمنين . فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق ان في ذلك لآيات لكل صبار شكور » (سورة سبأ ١٥ ـ ١٩) وقد وصف هذا السد العالم اليماني الهمداني في كتـابه « الاكليل » . كما وصف بقاياه عدد من السياح المحدثين منهم ارنو وهاليفي وكلازر .

والسد[1] طوله ٨٠٠ ذراع وعرضه ١٥٠ ذراعا بنى على مقطع وادي أذنة الذي تتجمع فيه معظم مياه السيول التي تكون من الامطار الساقطة على الجبال الواقعة في أطراف صنعاء ، وهو مبني بالتراب والحجارة ينتهي أعلاه بسطحين مائلين على زاوية منفرجة تكسوها طبقة من الحصى تمنع انجراف

---

(١) راجع كتاب « تاريخ العرب قبل الاسلام » لجرجي زيدان ص ١٤١ ـ ١٤٨ وقد اعتمد فيه على وصف أرنو وتجد وصفا لبقايا السد في كتاب « رحلة في البلاد العربية السعيدة » لنزيه المؤيد العظم .

التراب عند تدفق المياه • ويستند هذا السد من طرفيه على جبلين ، وعند كل من هذين الجبلين تتفرع القنوات وتدعى ميزاب ، وعلى فتحة كل قناة سد آخر ذو فتحة مبنى بالحجارة ، فالسد يحصر المياه الآتية من السيل ويجمعها فتصبح كالخزان ، وترتفع المياه حتى تصل مستوى عاليا يقارب مستوى الجبلين ، ثم تفتح فوهات القنوات فيدخل منها الماء لارواء سطح الجبلين ، فاذا اكتفوا سدوا هذه القنوات بأبواب من خشب وحديد •

على أن ما بناه ذمار علي لم يرو كل الاراضي ، لذلك أكمله ابنه يثعمر بيان ، فأنشأ سدا جديدا يدعى حبادر (أو حبابد) ووسع سد رحاب • وقد جعلت هذه السدود منطقة مأرب غنية بالزراعة •

وقد اضيفت الى السد اضافات متعددة حتى اتخذ شكله النهائي على عهد شمر يرعش (٣٠٠م) غير ان اضطراب الاحوال في أواخر عهد الحميريين أدى الى اهماله وحدوث تصدع فيه ، وقد حاول ابرهة اصلاحه ولكنه تخرب فيما بعد وكان لتخريبه تأثير في اغراق الاراضي • ويروي العرب عن سبب تخريبه أقاصيص خرافية ويعزون الى هذا التخريب سبب هجرات الغساسنة والمناذرة والازد • ولا ريب أنهم مغالون في هذا ، اذ أن تخريبه أدى الى تدمير الزراعة في المنطقة المزروعة حول مأرب فقط •

لقد ازدادت أهمية مأرب ببناء هذا السد وأصبحت عاصمة للسبأيين بدل صرواح واتخذها يثعمر بيان قاعدة عسكرية قام منها بفتوحات دون اخبارها في نقوش على السد ، فاخضع القتبانيين وقتل عددا كبيرا منهم ، ثم توجه شمالا الى معين وأخضعها ، كما أخضع قبائل أخرى في نجران كالمحامر وعامر فقتل عددا كبيرا من رجالهم وغنم منهم غنائم كبيرة ، غير انه لم يقض على معين •

وقد خلفه في الحكم ابن عمه (أو ابن أخيه أو حفيده) كرب ايل وتر (٦٢٠ ـ ٦١٠) الذي كان أول من اتخذ لقب الملك • وحالف هذا الملك يدع ايل ملك حضرموت وداروايل ملك قتبان واستعان بهما في حروبه ، فهاجم مملكة أوسان التي كانت قد ظهرت في الجنوب الغربي

من اليمن واستفادت من ضعف القتبانيين فوسعت رقعتها وتحكمت في حضرموت وسيطرت على الطرق التجارية الآتية منها • وقد استطاع كرب ايل وتار القضاء على هذه المملكة واخضاع عدد من القبائل التي كانت تحالفها كالمحامر ، وأمن له هذا الانتصار السيطرة على طرق تجارة البخور والافاويه الآتية من الجنوب •

ثم توجه كرب ايل وتر الى معين وحلفائها في الشمال ، فهاجم نشان والمناطق المجاورة لها • وقد حاول المعينيون أن يدرأوا خطره بالتحالف مع القبائل الموجودة في الشمال ضده ، ولكنه عاجلهم وهاجم القبائل التي كانت تسكن نجران وغنم منهم غنائم كبيرة •

وقد ساعدت الظروف الدولية كرب ايل وتر على القضاء على خصومه، ذلك ان مصر لم تكن قد استفاقت من تأثير غزو الآشوريين لها في أواخر القرن السابع قبل الميلاد ، وكانت آشور منشغلة في صد هجمات البابليين والكاشيين ، كما أن بابل كانت منشغلة في حروبها مع الآشوريين ثم مع اليهود في فلسطين • كل هذا ساعد الملك السبائي على توطيد كيان الدولة السبأية وتأمين سلامتها وتوطيد السلم لأحفاده الذين ظلوا يتعاقبون في الحكم على البلاد حتى سنة **٣٧٥** ق•م•

لقد كان الملك في الدولة السبأية هو الذي يقوم بالحكم ويتولى القيادة العليا للجيش في الحروب ، ويعينه على الحكم مجلس شعبي ، وهناك موظفون يرثون مناصبهم ويسمى كل منهم « الكبير » وهو مسؤول عن القانون ، وقد كونوا على مر الايام طبقة وراثية حلت محل المجلس الشعبي ، ثم تطورت مكانتهم فصاروا طبقة اقطاعية ، وأدوا الى اضعاف نفوذ الملك •

وكانت الادارة تعتمد على ملكية الارض ، وتفرض الضرائب على الارض والتجارة ، كما تفرض عادة ضرائب استثنائية لسد نفقات وتكاليف الحملات الحربية ، ويتوقف مقدارها على وضع المنتوج الزراعي والحصاد وعلى الوضع الاقتصادي العام للبلد •

وقد ازدهر فن البناء والعمران ، وكانت الاخشاب وأحجار الجرانيت

متوفرة ، غير أن كثيرا من البيوت الشعبية كانت مبنية بالطابوق • وكان النحت راقيا ، بحيث يصعب أحيانا تمييز القطع المتصلة ، وكثيرا ما تزخرف الحيطان والاعمدة وتطلى بالمعادن • وكانت كثير من الابنية مكونة من عدة طوابق • أما السدود والقنوات والكهاريز فقد رقى فن اقامتها رقيا عظيما •

وقد وصل فن الصياغة مستوى عاليا من الرقي ، كما تظهر ذلك الاواني الذهبية والفضية الباقية ، أما النقود فمسكوكة على الطراز الاغريقي (١) •

غير انه تعاقب على حكم الدولة السبأية فيما بعد ملوك ضعاف ، واستغلت ذلك القبائل التي تسكن الهضبة وخاصة حاشد وبكيل (وهما فرعي قبيلة همدان) وخولان ، وذي ريدان ، وزادوا من نفوذهم وسطوتهم واشتبكوا فيما بينهم بحروب طويلة زادت في اضعاف نفوذ السبأيين ، وأدت الى استقلال حضرموت وأوسان • غير أن ظهور هذه القبائل أدى الى تناقص أهمية الهضبة الوسطى وانتقال مركز الحضارة منها •

وفي ذلك العهد كانت روما قد أخذت تمد نفوذها في الشرق الاوسط ، فاستطاع بومبي أن يستولي على سوريا وفلسطين ، ثم قضى يوليوس قيصر على دولة البطالسة في مصر ، فلما تولى اغسطس زمام الحكم في روما وأدرك ما تصرفه روما سنويا من الاموال على البخور والافاويه ، أراد أن يضم الى امبراطوريته البلاد التي تنتج هذه المنتوجات ، ويبدو انه اعتقد بضعف اليمانيين وعجزهم عن مقاومة الرومان ، فأوعز الى واليه على مصر اليوس كالوس بتجريد حملة لاحتلال اليمن سنة ٢٥ ق•م• ولا نزال نحتفظ بأخبار هذه الحملة بفضل ما دونه سترابو عنها • لقد سلكت الطريق البري ، وأخذت لها دليلا نبطيا سار بها عبر الحجاز الى حريد الذي هو الوادي الوحيد الذي تتوافر فيه المياه الدائمية ثم تقدمت الحملة فاحتلت اسكا (نسا أو نشق) واثرولا (يثيل أو البيضاء) وغنم منها غنائم كبيرة ثم تقدم الى مارسيابا (مأرب ؟) التي كان يحكمها الرانيتيون وملكهم الاساروس (على ما يقول سترابو) • وقد لقي مقاومة شديدة اضطرته أن

---

(١) أنظر موسكاتي • مدنية الساميين القدماء ص٩ (بالانكليزية) •

يتركها ويعود راجعا بعد أن حاصرها ستة أيام • وقد لاقى جيشه في طريق عودته الاهوال من الامراض والعطش • ويعزو الرومان سبب فشل الحملة الى عوامل المناخ • ولا ريب ان هذا تبرير لفشلهم ، اذ الراجح أن سبب فشلها مقاومة اليمانيين •

لم تستطع هذه الحملة أن تؤدي الغرض الذي جاءت من أجله ، فظلت اليمن خارج الامبراطورية الرومانية ، غير انها في نفس الوقت لم تؤد الى قطع العلاقات ، اذ استمرت تجارة الافاويه مع الرومان وكان يقوم بها اليمانيون • ويبدو ان حملة اليوس كالوس قد أحدثت بعض الانتعاش السياسي والعسكري في دولة سبأ ، فضعف خصومهم ، وزاد نفوذ الاسرة الحاكمة ، فلم يبق من يخاصمها سوى حاشد • وقد استطاع ملوك سبأ ان يمدوا نفوذهم الى حضرموت • غير ان الدمار الذي أصاب مأرب من جراء الحروب حملهم على نقل عاصمتهم الى ذمار فترة من الزمن •

لقد كان السبأيون يعتمدون في الملاحة في المحيط الهندي والبحر العربي على حركة الرياح الموسمية ويسيرون سفنهم حسب أوقاتها ، التي تتبدل حسب المواسم تبدلا تاما ، وقد احتفظوا لانفسهم بمواعيد هذه الرياح ، واعتبروها سرا كتموه عن غيرهم ، مما مكنهم من احتكار تجارة الهند التي كانت تأتيهم بأرباح طائلة • غير انه في أواخر القرن الثاني ق•م• استطاع هبارخوس ، وهو أحد الملاحين الرومان ، أن يتعلم مواعيد هذه الرياح الموسمية ، ثم علمها بدوره الى غيره من اليونانيين ، فأخذت السفن المصرية والرومانية تبحر في المحيط الهندي وتجلب البضائع من جنوب آسيا والهند من دون حاجة الى وساطة السبأيين • وهكذا لم يعودوا يحتكرون التجارة ، وأخذت البضائع الهندية تسير في الطريق البحري من المحيط الهندي الى البحر الاحمر وتنزل بضائعها في الموانيء المصرية أو في العقبة رأسا • وقد أدى هذا الى تناقص أهمية الطريق البري الذي كان يسير من عدن مخترقا الهضبة اليمانية الى وسط الحجاز ، كما أدى الى تضاؤل

أهمية الهضبة اليمانية الوسطى وانحطاط مدنها التي كانت تعتمد كثيرا على التجارة المارة بها ، ولكنه أدى في نفس الوقت الى ازدياد أهمية المدن اليمانية الواقعة على ساحل البحر الاحمر ، فانتعش الحميريون الذين كانوا يسكنون في المنطقة الساحلية وازدادت قوتهم ، فكونوا لهم دولة عاصمتها ظفار ، استطاعت أن تمد نفوذها حتى تمكنت من القضاء على دولة سبأ . وقد تم تأسيسها تدريجيا .

وأول ذكر للحميريين في آثار اليمن يأتي من سنة ١١٥ ق.م. حيث تذكر النقوش « ملك سبأ وذوريدان » وريدان هي ظفار عاصمة الحميريين، (وهي تقع على بعد مائة ميل من مخا) وهذا يدل على ان الحميريين كانوا منذ ذلك الوقت ذوي كيان سياسي متميز . وكانوا يسكنون المنطقة الساحلية، وقد ساعدهم موقعهم الساحلي على المساهمة في الحركة التجارية وتوثقت علاقتهم بالاحباش . ثم صار لقبهم من سنة ٢٧٥م « ملك سبأ وريدان وحضرموت واعرابهم من الجبال وتهامة » مما يشير الى توسع نفوذ اليمن وامتدادها الى تلك المنطقة ، ثم استطاعت حمير أن تنتزع الحكم من السبأيين وتصبح أسرتها هي الحاكمة في اليمن .

ينسب بعض المؤرخين العرب للملوك الحميريين فتوحات واسعة فيروون أن فتوح ناشر النعم وصلت اسبانيا واوروبا ، وان شمر يرعش امتدت فتوحاته فشملت العراق وايران حتى وصلت الى تركستان ، وانه بنى سمرقند التي سميت بأسمه وان اسعد كرب فتح اذربيجان والقسطنطينية[1] . ولا ريب ان تواريخ الدول المعاصرة لا تذكر شيئا عن هذه الفتوحات ، مما يدل على كونها أساطير ومختلقات ، غير انها تدل على الاثر الذي تركته قوة الحميريين العسكرية في النفوس . ومن الثابت ان الحميريين استولوا على بلاد الحبشة في القرن الاول قبل الميلاد .

---

(١) راجع في ذلك كتاب التيجان من ملوك حمير ، المنسوب لوهب ابن منبه .

وفي عهد الدولة الحميرية بدأت المسيحية تنتشر في اليمن ، وكان انتشارها تدريجيا على ايدي المبشرين المسيحيين وخاصة اليعاقبة الذين جاءوا من الحبشة وأنشأوا لهم كنائس في عدن وظفار ونجران ، وربما ساعد على نشر المسيحية أيضا المبشرون النساطرة القادمون من الحيرة ومن سوريا[1] وأخذوا يبثون منها الدعاية المسيحية حتى استطاعوا أن ينصروا عددا من أهل اليمن . وفي سنة ٣٤٠م هاجم الاحباش اليمن واستولوا عليها ، وقد اتخذ الاحباش من نصارى اليمن سندا قويا لهم .

غير أن الحكم الحبشي لم يدم طويلا ، اذ أن رجال الدين المتعصبين للوثنية تعاونوا مع اليمانيين على مقاومة الاحباش النصارى الغزاة ، واستطاعوا اخراجهم سنة ٣٧٨م واعادة الوثنية الى مكانتها الاولى . وقد كانت هذه الحملة الحبشية الاولى محاولة لانتزاع التجارة من اليمن ولنشر الدين المسيحي ، وهي بمثابة حركة استطلاع مهدت للغزو الحبشي فيما بعد .

أدى خروج الاحباش الى أن تفقد المسيحية سندا قويا لها ، كما ان الملوك الحميريين الذين كانوا قد لجأوا الى يثرب عند الغزو الحبشي ، تأثروا بالديانة اليهودية التي كانت منتشرة في يثرب . غير أنه ليس هناك دليل على اعتناقهم اياها فان ملك كرب الذي طرد اليهود كان يعبد « ذي سماوى بعل السماوات والارض » كما تنص النقوش التي بقيت من عهده . ويظهر من هذا النص ان اليمانيين قد أخذوا يعتقدون باله عظيم هو رب السماوات والارض ، الا أنهم لم يتركوا آلهتهم الاخرى كما انهم لم يدينوا باليهودية التي تعتبر الاهها يهوه ، لا بعل كما يدعوه هذا النقش .

وقد جاء بعد ملك كرب ابنه أبو كرب أسعد الذي يدعوه المؤرخون العرب أسعد كامل تبع وينسبون اليه فتوحات واسعة وصلت بها جيوشه الى تركستان . ولا ريب ان هذه الاخبار هي من باب الاساطير ، اذ لا توجد اشارة اليها في تواريخ الامم المعاصرة له ، ولكنها تدل على مدى ما تركته

---

(١) انظر الفصل السابع من كتاب « جزيرة العرب قبل محمد » لاوليرى .

قوة الحميريين العسكرية في أذهان الناس من تأثير . ويبدو أن تبع أبو كرب لم يتجاوز يثرب التي زارها هذا الملك ردا لجميل أهلها الذين آووه ، وربما أراد بذلك أن يتعاون مع اليهود ضد الاحباش والنصارى . وقد أعقبه شرحبيل يعفر الذي عمر بعض ما خرب من سد مأرب سنة ٤٥٠م نتيجة الفيضانات والاهمال .

ثم تعاقب على حكم اليمن بضعة ملوك لم تكن لهم آثار بارزة الى أن جاء ذو نواس الذي كان شديد التعصب على المسيحية فعزم على اجتثاثها من اليمن ، وطلب من النصارى ترك دينهم ، فلما أبوا أحرقهم بالنار في اخدود حفره لهم . وقد أشار القرآن الى هذه الحادثة « قتل أصحاب الاخدود . النار ذات الوقود . اذ هم عليها قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود . وما نقموا منهم الا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد » (سورة البروج ٤ ـ ٨) .

ويروى أن ذا نواس اعتنق اليهودية وتسمى يوسف أو فنحاص، وان مقاومته للمسيحية كانت نتيجة تعصب ديني . وقد تكون هناك دوافع أخرى لاضطهاده المسيحية : منها ان المسيحية في الشرق كانت تجد سندها في الدولتين البيزنطية والحبشية ، وأن انتشارها قد يؤدي الى تزايد نفوذ البيزنطيين والاحباش في اليمن ، أو على الاقل قد يكونون بمثابة رتل خامس للبيزنطيين عند حدوث أي غزو . ولعل اليهود هم الذين حرضوا ذا نواس على اضطهاد المسيحية انتقاما من البيزنطيين الذين قاموا باضطهاد اليهود في بلادهم آنذاك . وجدير بالملاحظة أن ذا نواس أول ملك ذكر بأنه تهود ، وأنه لم يكن متعصبا لليهودية ، فلم يضطهد الوثنية التي ظلت منتشرة حتى ظهور الاسلام .

غير أن اضطهاد ذى نواس للمسيحيين أثار البيزنطيين الذين أوعزوا الى الاحباش بالهجوم على اليمن . فجهز الاحباش حملة بقيادة أرياط استطاعت أن تقضي على الدولة الحميرية وتنتصر للنصارى . وقد اتبع

الاحباش سياسة لينة مع اليمانيين ، واعتمدوا على الامراء المحليين في الادارة، فولى أرياط سميفع اشوع الحميري على اليمن ، ولما مات أعقبه ابرهة الذي أراد اتباع سياسته فعين على كندة رجلا من أبنائها يدعى يزيد بن كبشة ، ولكن هذا ثار على ابرهة ، فجرد حملة ضده ، ثم القى القبض عليه وقتله .

واهتم ابرهة كذلك في اعمار البلاد ، فعمر سد مأرب الذي كان قد تصدع ، وحشر للعمل فيه العمال من أهل البلاد ، وصرف على ذلك مبالغ طائلة ، فلما انتهى من اصلاحه أقام احتفالا عظيما دعا اليه مندوبين من كافة الدول المجاورة . وقد سجل جهوده واحتفالاته في نقش اكتشف في السنين الاخيرة ، والقى ضوءا هاما على أحوال ذلك الزمن[1] .

ثم جرد ابرهة حملة للاستيلاء على مكة . ولكن الحملة تدمرت عند مكة ، ومات ابرهة . وقد أشار القرآن الى ذلك بقوله تعالى « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم في تضليل ، وأرسل عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول » (سورة الفيل) .

لم يرض بعض أهل اليمن باحتلال الاحباش بلادهم ، فاستنجدوا بالدولة الساسانية التي كانت عدوة البيزنطيين ، فانجدهم انو شروان بقوة أبحرت من الخليج العربي ونزلت في جنوب اليمن واستطاعت أن نطرد الاحباش منها ، وبذلك تحررت اليمن . وقد أصبح سيف بن ذي يزن حاكما عليها ، وكان هو الذي استنجد بانو شروان . وقد ظلت القوة الساسانية في اليمن ، وكانت تقيم في صنعاء[2] .

---

(١) لقد كتب سدني سميث في مجلة مدرسة اللغات الشرقية(١٩٥٤) مقالة قيمة عن الاحباش وأحوال الجزيرة في القرن السادس الميلادي .

(٢) أنظر في ذلك الطبري ج٢ ص١١٥ فما بعد . ابن هشام سيرة النبي ج١ ص٦٥ فما بعد .

ثم ان سيف بن ذي يزن قتل ، فتولى الحاكم الساساني أمر ادارة اليمن تسانده القوة الساسانية • غير ان الاضطرابات التي حدثت آنذاك في الدولة الساسانية جعلت مركز هذا الوالي ضعيفا منعزلا ، فقوى نفوذ العشائر والامراء المحليين، وحصروا نفوذ هذا الوالي في صنعاء وما يجاورها.

ثم ادعى الاسود العنسي النبوة ، وحرض الناس ضد الفرس ، وتمكن من القضاء عليهم ، ولكن هذا لم يدم طويلا اذ سرعان ما دهمه المسلمون وقضوا على حركته ، بعد أن اغتاله بعض اليمانيين المعارضين له • وهكذا أصبحت اليمن جزءا من الدولة الاسلامية •

وقد ساهم كثير من اليمانيين في الفتوح الاسلامية ، فانضموا الى الجيوش الاسلامية منذ عهد أبي بكر ، ثم استوطنوا الامصار الاسلامية كالكوفة والشام والفسطاط ، وشارك كثير منهم في فتح الاندلس واستقروا فيها ، وساهموا في تكوين الحضارة الاسلامية التي ازدهرت في هذه الامصار، مما سنبحثه بالتفصيل في الجزء الثاني •

قائمة أسماء الملوك المعينين حسب ترتيب فلبى[١]

اليفع وقه

وقه ايل صديق

أبو كرب يثع

عم يثع نعت

« فترة عشرين سنة لا نعلم ملوكها »

صدق ايل ملك حضرموت ومعين

اليفع يثع

---

(١) سناد الاسلام • الملحق الثاني ص١٤١ •

صفن ذرح

اليفع ريام

جوف عثت

أب يدع يثع

وقه ال ريم

حفن صدق

اليفع يفش

« فترة عشرين سنة لا نعلم ملوكها »

يثع ال صديق

وقه ال يثع

اليفع يشر

حفن ريام ووقه ال نبت

« فترة عشرين سنة لا نعلم ملوكها »

أب يدع ريام

خال كرب صديق

حفن يثع

« فترة عشرين سنة لا نعلم ملوكها »

يثع ال ريم

تبع كرب

حكم اليفع وقه سنة ١١٢٠ ، ودام حكم كل ملك عشرين سنة .

وقد رتب البرايت قائمة ملوك معين بشكل آخر ، فان الملوك الاربعة الاول في قائمة فلبي ، يعتبرهم البرايت تولوا الحكم بين اليفع يفش ويثع

الى صدق ، كما انه يرى أن اليفع وقه حكم سنة ٢٥٠ ق.م. ، وان اليفع ينع (أول ملوك معين) برأيه حكم حوالي سنة ٤٠٠ ق.م.[١] .

ملوك سبأ حسب ترتيب فلبي[٢]

المكارب :	يدع ال وتر
سمه على	ذمر على بين
يدع ال ذرح	كرب ال وتر
يثعمر وتر	
يدع ال بين	«فترة عشرين سنة لانعلم أسماء ملوكها»
يثعمر وتر	
كرب ايل وتر	الكرب يهنعم
ذمر على وتر	كرب ال وتر
كرب ال بين	وهب ال (من بكيل)
سمح على ينف	انمار يهنعم
يثعمر بين	ذمر على ذرح
كرب ايل وتر	نشا كرب يهنعم
الملوك :	
كرب ايل وتر	« فترة ثلاثين سنة »
سمح على ذرح	

---

(١) نشر البرايت قائمته في نشرة مجلة المدرسة الامريكية في الشرق سنة ١٩٥٠.

(٢) سناد الاسلام ص١٤١ .

كرب ايل وتر	ناصر يهنعم
الشــرح	وهب ال يحز
يدع الى بين	كرب ال وتر يهنعم
يكرب ملك وتر	(ثم اغتصب العــرش بريم ايمن
يثع امر بين	وابنه علهان نهفان)
كرب ال وتر	مزعم ينهب
سمح على ينف	الشرح يحصب
الشــرح	(ثم تعقبه فترة ذكرت فيها أسماء
ذمر على بين	ملوك لانعلم ترتيبهم أو زمن حكمهم)
ملوك سبأ وذو ريدان :	ذمار على يحابر
يزل بيان	ثاران يعب يهنعم
نشا كرب يمين يرحب	ذمار على يحابر (الثاني)
وتريهمن	ذمار على بيان
ياسر يهصدق	

وقد اعتبر بداية حكم سمح على سنة ٨٠٠ ق.م ، وقدر حكم كل مكرب عشرين سنة وهو رقم كيفي .

تتفق قائمة فلبي لملوك سبأ مع قائمة هومل ، الا في بعض الامور ، منها أن هومل يضع كرب ايل وتر الاول بعد الشرح ، ويعتبر سمح على ينف مؤسسا لاسرة جديدة ، ويحذف اسم يدع ال وتر وذمر على بين ، ويرى ان الكرب يهنعم أعقب كرب ال وتر مباشرة[١] .

وقد نشر فلبي مقالة في مجلة الميوزيون الفرنسية عدل فيها هذه القائمة عن المكارب ، فاضاف سمح على ينف بعد يدع آل ذرح ، وذمر على ذرح

---

(١) نقلت قائمة هومل من كتاب الدكتور جواد علي ج٢ ص١٤٧ ــ ١٤٩ .

بعد يدع ال بين ، وذمر على ينف بعد يثعمر بين ، كما اعتبر بداية حكم سمح على سنة ٨٢٠ ق٠م٠ ٠

ملوك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنات

يريم يرحب	نـوف
الاحتلال الحبشي الاول	لاهي عثت يتبن
ملكرب يهمن	معد يكرب ينعم
أبو كرب أسعد	ذو نواس
ورو عمار ايمن	غزو الأحباش الثاني
شرحبيل يعفر	سميفع اشوع
معد يكرب	معد يكرب وابرهة
عبد كلال	غزو الفرس
شرحبيل يكيف	دخول الاسلام ٠

الفصل الثـالث

بطـرا[1]

لقد كان الهلال الخصيب منذ أقدم العصور التاريخية مركزا لحضارة راقية، فقد ساعدت خصوبة أرضه ووفرة المياه فيه على رقي الزراعة وازدحام السكان وظهور المدن وتكوين الحكومات . وأدى هـذا الى رقي المدنيـة والصناعة والتجارة . ومع وفرة منتوجات بلاد الهلال الخصيب ، ورقي بعض صناعته ، الا أنه كان محتاجا الى استيراد بعض البضائع ، وخاصة من الهند وشرق افريقيا وجنوب البلاد العربية ، كالبخور والعطور والبهارات والافاويه والعاج والمصنوعات الحريرية . وكان يصدر بدوره بعض الفائض من منتوجاته وخاصة المنسوجات والمصنوعات الزجاجية .

ولما ازداد رقي الحضارة اليونانية والرومانية ، زاد الطلب على بضائع بلاد الهند وجنوب البلاد العربية ، وصار الهلال الخصيب مركزا لتجارة الترانسيت الى بلاد البحر المتوسط .

وكانت التجارة الهندية[2] تأتي عن طريقين أولهما طريق الخليج العربي فتفرغ بضائعها عند رأس الخليج العربي حيث تنقل الى العـراق ومنها الى سوريا فالبحر المتوسط ، وفي بعض الاحيان كانت البضائع تفرغ

---

(١) رجعنا في بحث الانباط بصورة خاصة الى كتاب « بطرا والانباط » لكامير (بالفرنسية) ، وكتاب « مدن القوافل » لروستوفزيف بالانكليزية و « بطرا : تاريخها وآثارها » لكندي (بالانكليزية) هـذا بالاضافة الى كتابي جواد علي وجرجي زيدان .

(٢) راجع عن طرق التجارة بالاضافة الى ما ذكر أعلاه كتاب ورمنجتن « تجارة الامبراطورية الرومانية مع الهند » ، وكتاب جالسورث « الطـرق التجارية والتجارة في الامبراطورية الرومانية » . وسليمان حزين « جزيرة العرب والشرق الاقصى » وكذلك ما كتبه روستوفزيف في الجزء الاول من كتابه « التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للعالم الهليني » ، وكذلك ما كتبه في الجزء السابع من تاريخ كمبردج للعصور القديمة .

في موانيء البحرين وخاصة كره Garrhae التي تقع في منطقة البحرين[١] ثم تنقل عبر الصحراء العربية الى العراق أو الى سوريا أو الى فلسطين ومصر .

أما الطريق الثاني فكان يأتي من البحر العربي فالبحر الاحمر ومنها الى الموانيء المصرية الواقعة على ساحل البحر الاحمر الغربي ، او الى ميناء العقبة حيث تنقل البضائع منها الى سوريا وموانيء البحر المتوسط . ولا ريب أن الطريق الاول المار عبر الخليج العربي الى العراق كان أفضل لانه أقصر وأقل كلفة وليس فيه جزر مرجانية كالبحر الاحمر ، لذلك كان أكثر طروقا ، وخاصة عندما يكون الهلال الخصيب تحت حكم امبراطورية واحدة لا تتدخل في عرقلة الطرق التجارية .

الا أن الطرق البحرية كانت في العصور القديمة معرضة الى كثير من الاخطار الطبيعية أو البشرية كالعواصف والدوامات والحيوانات البحرية أو الشعاب المرجانية ، لذلك كان التجار يفضلون الطرق البرية بقدر المستطاع .

فكانت السفن الآتية الى الخليج العربي تفرغ أحيانا حمولتها عند البحرين في ميناء كره وتنقل منها برا الى العراق ، أو الى سوريا عبر الصحراء ، أما السفن الآتية الى البحر العربي فكانت تنهي رحلتها في ميناء عدن حيث تنقل بعدها البضائع عبر اليمن فالحجاز ومنها الى مصر او الى فلسطين أو الى سوريا . وكان لابد للطرق البرية أن تقطع صحراء الجزيرة العربية ، سالكة الوديان أو القفار ، وأهم المصاعب التي تلاقيها هي قلة المياه ، فالآبار هي العامل الاول الذي يقرر اتجاه القوافل ومحطاتها في الصحراء ، لذلك كانت كافة محطات القوافل حول الآبار . وتتوقف أهمية هذه المحطات على وفرة مياه آبارها والاراضي القاحلة التي تحيط بها أو وقوعها على تشعبات الطرق .

---

(١) ويذهب فيليب حتي الى انها العقير . تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ١ : ٢٩٩ـ ٣٠٠ .

وقد كان شمال الحجاز منذ أقدم الازمنة ذا أهمية كبيرة لطرق القوافل ، وذلك لان تلك المنطقة تقع عند طرف الهلال الخصيب ، تلتقي فيها الطرق الآتية من كره شرقا ، واليمن جنوبا ، وسوريا وفلسطين شمالا ، ومصر غربا • لذلك كانت تنشأ فيها مدن في محطات القوافل ، وتنتعش هذه المدن خاصة عندما يحدث اضطراب في الهلال الخصيب وينفصل العراق عن سوريا ، وقد رأينا كيف أن المعينيين أنشأوا لهم مستعمرة عند العلا في الطرف الشمالي من البحر الاحمر لتكون محطة لقوافلهم البرية التي تنقل تجارتهم الى الهلال الخصيب أو الى مصر •

وكثيرا ما كانت القبائل العربية التي تجوب تلك المناطق تترك حياة التجول وتستقر حول الآبار وتقوم بتموين القوافل المارة بها ، وقد تقوم بحراستها •

ومن هذه المناطق التي اتخذت محطة للقوافل ، وادي موسى في شرقي الاردن • فقد كانت هذه المنطقة تتوفر فيها المياه والآبار ، فتصلح لان تكون محطة للقوافل تحميها الجبال التي كانت تحيط بها • ولسنا نعلم عن تفاصيل تاريخها في القديم ، سوى أن الادوميين قطنوها منذ القديم ، وأنشأوا فيها بضعة مدن ، ولكن القبائل البدوية في الجزيرة قامت بعدة هجمات على الأدوميين فأقصتهم عنها تدريجيا وحلت محلهم •

فلما قامت الامبراطورية الآشورية احتلت سوريا وفلسطين وبذلك وحدت الهلال الخصيب وجعلته خاضعا لامبراطورية واحدة قوية نشرت الامن والسلم في ربوعه ، الامر الذي ساعد على انتعاش الطريق التجاري المار بالعراق ، ولابد ان هذا أدى الى ضعف التجارة التي كانت تمر من غربي الجزيرة • وقد أدرك اليمانيون ، وربما القبائل التي تسكن غربي الجزيرة قوة الآشوريين وخطرهم ، فراحوا يتوددون لهم ويرسلون لهم الهدايا ، ولعلهم كانوا يستهدفون من ذلك ضمان مرور تجارتهم في بلاد الامبراطورية الآشورية • ولكن ليس هناك دليل على ان الآشوريين احتلوا هذه الاماكن أو أدخلوها ضمن امبراطوريتهم •

فظلت تلك المناطق تتمتع بالاستقلال ، ولابد أنهم أصابهم بعض الضعف لتحول التجارة الى طريق العراق ، اذ اننا لا نسمع شيئاً عن سكانها سوى أن آشور بانيبال أرسل ضدهم حملة ولكنه لم يخضعهم .

فلما جاء الاسكندر المكدوني أرسل ضدهم بقيادة أحد قواده حملة توغلت في بلادهم ولكنها لم تستطع اخضاعهم . فلما مات الاسكندر انقسمت امبراطوريته الى عدة أقسام ، وقد كانت مصر من نصيب بطليموس وسوريا من نصيب سلوقس ، وكان هذان الحاكمان متنافسين فحاول سلوقس قطع التجارة عن مصر ، بلاد خصمه بطليموس ، لذلك أراد احتلال بلاد الانباط التي كانت تسيطر على طرق التجارة البرية ، فأرسل حملة مكونة من ٤٠٠٠ راجل و ٦٠٠ فارس ، ولكنها تشتت ، واضطر الذين سلموا الى مصالحة الانباط . ثم أرسل السلوقيون حملة أخرى لعقابهم ، فانسحب الانباط الى معاقلهم في الجبال والصحارى ، ثم فاوضوا السلوقيين بالصلح ، ودفعوا لهم مبلغا من المال ، فوافق السلوقيون على الصلح بعد أن أدركوا أنه ليس بمقدورهم الاستيلاء على تلك البلاد .

وقد أدرك البطالسة أهمية بلاد الانباط وأثرها على التجارة الخارجية المصرية ، كما أدركوا صعوبة الاستيلاء على تلك البلاد الجبلية الصحراوية، لذلك عزموا على أن يتركوهم مستقلين ولكن يجعلوهم تحت نفوذهم ، فاستولوا على المدن الفنيقية وفلسطين التي كانت تنتهي اليها القوافل النبطية ، كما أرسلوا حملة احتلت أراضي اللحيانيين الواقعة في الطرف الشمالي من الحجاز ، ثم أنشأوا في الاردن ، عند أطراف بلاد الانباط ، عدة مستعمرات يونانية. وبذلك أحاطوا ببلاد الانباط وهيمنوا على منافذ الطرق التجارية[1] .

وبجانب هذا شجع البطالسة تجارة البحر الاحمر ، وأنشأوا على سواحله المصرية الموانىء والمحطات والطرق ، الامر الذي أدى الى اضعاف التجارة البرية المارة ببلاد الانباط . وقد أدرك الانباط هذا الخطر الذي

---

(١) راجع في ذلك مقال روستوفزيف بعنوان « بطليموس الثاني والجزيرة العربية » المنشور في مجلة الآثار المصرية سنة ١٩٢٧ .

يتهددهم فقاموا ببعض النشاط في القرصنة والانقضاض على السفن في البحر الاحمر بقصد عرقلة التجارة البحرية ٠

ثم أن البطالسة ضعفوا في القرن الثاني ق٠م٠ واسترجع منهم السلوقيون سوريا ، فحاول هؤلاء أن يجلبوا الانباط الى جانبهم ٠ وقد استفاد الانباط من ذلك ، ونشطت تجارتهم مع سوريا ، وذهب تجارهم الى صور وبيبلوس (جبيل) حيث وجدت آثارهم هناك ، وربما امتد نشاطهم التجاري الى المدن السورية الاخرى ٠

ثم ضعف السلوقيون واضطربت أحوال الشرق الاوسط عامة والهلال الخصيب خاصة ، فاحتل البارثيون العراق واستقلت امارات متعددة في شمال الهلال الخصيب وسوريا ، وكانت هذه الامارات متخاصمة ، فاضطرب الامن وتعرقلت التجارة المارة بالعراق ، فاستردت طرق التجارة في عربي الجزيرة أهميتها ، وعادت بطرا الى الازدهار ، والواقع أن معظم أخبارها وآثارها المكتشفة تأتي من هذه الفترة ٠

حاول الانباط الاستفادة من عدم وجود دولة قوية في الهلال الخصيب وأرادوا بسط نفوذهم على البلاد المجاورة ٠ واضطر ملوكهم الاولون : الحارث الاول (١٦٩ - ١٤٦ ق٠م٠) والثاني (١١٠ - ٩٦ ق٠م٠) وعبادة الاول (٩٠ ق٠م٠) الى الاشتباك بعدة حروب مع دولة الهيروديين اليهودية التي تأسست في فلسطين ٠ وقد استطاع هذا الملك الاخير أن يستولي على جنوب شرقي سوريا بما فيها حوران وجبل الدروز ٠

ومن أشهر ملوك الانباط الحارث الثالث (٨٧ - ٦٢ ق٠م٠) الذي استطاع أن يكسر اليهود في عدة مواقع ويحاصر القدس ، ثم استنجد به أهل دمشق وطلبوا منه أن يتولى أمرهم بدل السلوقيين المقوتين ، وقد لبى نداءهم وخلصهم من السلوقيين ، وقد رحب به أهل دمشق وسموه محب الهلينيين Philhellenic وهكذا استطاع أن يبسط سيطرته على قلب سوريا ٠

ولما جاء القائد الروماني بومبي الى الشرق حاول احتلال بلاد الانباط

فأرسل حملة ضدهم ، ولكن الحارث الثالث استطاع صد تلك الحملة والاحتفاظ باستقلال بلاده ، رغم أنه خسر ما كان قد حصل عليه في سوريا.

لقد أدخل الحارث الثالث الحضارة الهلينية في بلاد الانباط ، فقد سك النقود على الطراز الهليني ، وجاء بمعماريين سوريين شادوا له قبرا يعتبر حتى اليوم من آيات الفن الرائع ، وتسمى تلك البناية اليوم « الخزنة » ، كما أنشأ مسرحا ، وصارت بطرا في زمنه مدينة تشبه المدن الهلينية لها طرق عظيمة وأبنية جميلة .

ثم ان روما أخذت تمد نفوذها الى الشرق ، فاستولت على آسيا الصغرى فسوريا ثم مصر ، وبذلك استحوذت على حوض البحر الابيض المتوسط وسيطرت على موانيه التي هي منافذ للتجارة النبطية ، وقد أدرك الانباط خطر الامبراطورية الرومانية ، فسعوا الى التقرب منها ، لذلك نجد أن ملكهم مالك الاول (٥٠ - ٢٧ ق.م.) أنجد يوليوس قيصر بقوة عندما حاصر هذا الاسكندرية ، كما ساعد ابنه عبادة الثالث (٢٨ - ٩ ق.م.) حملة اليوس كالوس ضد اليمن وأمدها بادلاء من الانباط . ورغم فشل هذه الحملة ، الذي عزاه الرومان الى سوء نية الادلاء الانباط وتضليلهم لهم ، فقد ظلت العلاقات بين الانباط والرومان طيبة ، واستطاعوا أن يحافظوا على سلطانهم في جنوب فلسطين وشرقي الاردن وجنوب شرقي سوريا وشمال الجزيرة ، وأنشأوا بضعة خانات ومحطات للقوافل، وقلاعا في وادي العربة لتكون مركزا للحاميات التي تحمي القوافل .

غير أن مجيء الرومان أدى الى نشر الامن في ربوع البلاد ، كما أن الاباطرة منذ عهد اغسطوس اتبعوا سياسة السلم ، واتفقوا مع البارثيين الذين كانوا يحكمون العراق . مما أدى الى عودة حياة السلم والطمأنينة في بلاد الهلال الخصيب ، وأخذت التجارة الخارجية تسلك تدريجيا طريق العراق ، وهو الاقصر ، الامر الذي أدى الى انتعاشه ، أما الطريق المار بغربي الجزيرة ، والذي تقع في نهايته بطرا ، فقد أخذت أهميته تتضاءل تدريجيا. وقد تبع هذا انحطاط بطرا التي كانت تقع على الطرف الشمالي من هذا

الطريق ، والتي كانت تعتمد على التجارة الغربية في كيانها .

وفي سنة ١٠٦م جاء تراجان الى الشرق لاعادة تنظيمه ، فأرسل ضد بطرا حملة استطاعت أن تستولي عليها دون مقاومة ، وبذلك قضى على دولة الأنباط ثم جعلها جزءا من المقاطعة العربية التي أنشأها في الطرف الجنوبي من سوريا لتحميها من هجمات البدو ، وجعل عاصمتها بصرى التي تحول اليها طريق التجارة ، فانتهت بذلك حياة بطرا ولم نعد نسمع لها دورا أو ذكرا في التاريخ .

مدينة الانبـاط

لقد نشأت مدينة بطرا كمحطة للطرق التجارية ، فلا عجب أن تكون التجارة وخدمة القوافل العمل الرئيسي للانباط والاساس الذي قامت عليه مدنيتهم . وقد مدوا نفوذهم الى ما يجاورهم من البلاد والمدن فحصنوها وأقاموا فيها حاميات للقوافل وأماكن لاستغلال المناجم ، وأصبحت مدينتهم في القرن الاول قبل الميلاد المدينـة الرئيسـية للقوافل ، وسـوقا عظيما ، فسيطرت على طرق غزة وبصرى ودمشق وأيلة . وقد حفروا الآبـار ، وأقاموا مشـاريع الميـاه ، وحولوا بعض المناطق الصحراوية الى اراض زراعيـة .

ولا ريب ان القوافل في القديم كانت تتطلب كثيرا من الحاجات ، كعلف الحيوانـات ومأكولات البشـر ، وكـذلك السـروج والأكـية للحيوانـات والاكيـاس للبضـائع والاسـلحة للحـراس ، وكل هـذا يستلزم تزويدهم بمنتوجات النساجين والنجارين والحدادين والزراع . وهكذا كانت محطات القوافل أسواقا . وكثيرا ما كان يقوم أصحاب تلك المحطات ببعض المعاملات التجارية من بيع وشراء واقراض ، لذا كانت تنشط الحركة في هـذه المحطـات ، وتصبح مراكز تجارية . وهكذا سرعان ما

أصبحت بطرا مركزا تجاريا واقتصاديا ، يساهم أهلها في التجارة والاقراض . وقد امتد نشاطهم التجاري الى مناطق واسعة ، اذ وجدت آثار تجارتهم في سلوقية وموانيء سوريا والاسكندرية وديلوس ورودس .

وأهم السلع التي كانوا يتاجرون فيها الافاويه (من اليمن) ، والحرير من الصين ، والحناء من عسقلان ، والزجاج وصبغ الارجوان من صيدا وصور ، واللؤلؤ من الخليج العربي ، والخزف من روما ، هذا بجانب ما كانت تنتجه بلادهم من الذهب والفضة والقار وزيت السمسم .

ويروي ديودورس انه كانت لهم قوانين تمنع زراعة الاشجار وبناء البيوت أو استعمال الخمور لانها تؤدي الى الخضوع ، فاذا صح هذا فانه لابد وأن يمثل أدوار حياتهم الاولى حين كانوا أقرب الى البداوة ، يمتهنون الرعي والتجارة ، أما في الادوار المتأخرة ، عندما اتسع حكمهم ، فقد أخذوا يشيدون البيوت والمسارح والابنية الفخمة للقصور والمعابد ودوائر الحكومة، وكثير منها منقور في الصخر ، ولا تزال بقاياها موجودة في الرقيم موقع بطرا، في وادي موسى ، وهي من أروع الابنية والآثار ، مشيدة على الطراز الهليني ، وتشهد على مدى تأثرهم بالحضارة الهلينية التي كانت سائدة في الشرق الادنى آنذاك ، كما تدل على رقي الذوق الفني والرخاء وتقدم المدنية .

ان الانباط من عرب شمال الجزيرة ، ولعلهم أقرب الدول القديمة الى عرب الحجاز . فأغلب الاسماء التي كانت شائعة عندهم تشبه الاسماء المستعملة عند ظهور الاسلام مثل حارثة ومليكة وجذيمة وكليب ووائل ومغيرة وقصي وعدي وعائذ وعمر وعميرة ويعمر وكعب ومعن وسعد ومسعود ووهب الله وتيم الله وعلي .

كما ان تركيب لغتهم يشبه تركيب النحو العربي المعروف لدينا ، فالفاء تستعمل للترتيب (جاء بنوه فبناته) ومن للاسم الموصول (جاء من يعلم) والياء للمضاف اليه (تيم اللهى) . كما كانوا يستعملون صيغة الماضي

في الدعاء بدل المضارع فيقولون (لعن ذو الشرى) كما يفعل العرب ، وبذلك يختلفون عن الآراميين الذين يستعملون صيغة المضارع فيقولون (يلعن ذو الشرى) •

غير انهم كانوا يستعملون في الكتابة والمكاتبات الرسمية والمعاملات التجارية اللغة الآرامية التي كانت سائدة آنذاك في كل بلاد الشرق الاوسط ، فكأنه كانت لهم لغة للتخاطب ولغة أخرى للكتابة ، مثلما لدينا اليوم لغة عامية ولغة فصحى • والراجح ان كثيرا من تجارهم كانوا يعرفون الاغريقية واللاتينية •

لقد استعمل الانباط الخط الآرامي المشتق من الفنيقي ، ولكنهم حوروه وصقلوه تدريجيا ، حتى أصبح خطا قائما بذاته • ومنه انحدر الخط العربي الكوفي[١] •

عبد الانباط آلهة متعددة ، كان أعظمها لديهم ذو شرى ، وكان له صنم من صخرة سوداء مستطيلة ، ولا نعلم أصله ، وقد ذكر الكتاب الاغريق انه آله الشمس وانهم كانوا يقيمون له في عيده احتفالات يشربون فيها الخمور ، وكان يعتبر حامي ملوكهم •

وقد عبد الانباط أيضا اللات (وكانت الاهة القمر) والعزى ، كما عبدوا الآله هبل ، وكذلك اتاركيتس (عشتروت) • وقد أشار سترابو الى بعض الاحتفالات الدينية التي كان يقيمها الانباط ويقدمون فيها الخمور •

لقد ظلت عبادة ذو شرى حتى ظهور الاسلام في شمال الحجاز ، أما العزى واللات وهبل فقد عبدت في مكة والحجاز ، ويروي ابن الكلبي ان عمرو بن لحى هو الذي ادخل عبادة الاصنام الى مكة ، وانه جاء بها من الانباط[٢] ، وهو خبر يظهر مدى اعتقاد الناس بأثر الانباط في عبادة مكة عند ظهور الاسلام •

---

(١) انظر المقال الذي كتبه يحي خليل نامي في مجلة كلية الآداب للجامعة المصرية سنة ١٩٣٥ عن تطور الخط العربي •

(٢) الاصنام ص٨ •

ملوك الانباط

* الحارث الاول ١٦٩ ق٠م٠
مالك ؟ ١٤٦ ؟ ق٠م٠
* الحارث الثاني ١١٠ - ٩٦ ق٠م٠
* عبادة الاول ٩٦ - ٨٧ ق٠م٠
* ربال الاول ٨٧ ق٠م٠
* الحارث الثالث ٨٧ - ٦٢ ق٠م٠
* عبادة الثاني ٦٢ - ٤٧ ق٠م٠
* مالك الاول ٤٧ - ٣٠ ق٠م٠
* عبادة الثالث ٣٠ - ٩ ق٠م٠
* الحارث الرابع ٩ - ٣٠م
* مالك الثاني ٤٠ - ٧٥ (أو ٣٨ - ٧٢)م
* ربال الثاني ٧١ - ١٠٦م

---

(١) اعتمدنا في هذه القائمة على كتاب بطرا وبلاد الانباط لكامير ٠ وقد نقل جرجي زيدان في كتابه تاريخ العرب قبل الاسلام (ص٦٩) عن دوسو قائمة تشبهها الا في أمرين : اولهما هو انه وضع زيدايل مكان مالك ، وجعل آخر ملوك الانباط مالك الثالث الذي حكم في رأيه من سنة ١٠١ - ١٠٦م ٠

الفصـل الرابع

تدمر[1]

نشأت تدمر في بادية الشام حول منبع ماء يقع في منتصف المسافة تقريبا بين الفرات من جهة ، وبين دمشق وحمص من جهة أخرى ، وهو يبعد حوالي ١٥٠ ميلا عن كل منها • وقد أصبحت محطة للقوافل السائرة بين العراق والشام • ولا نعلم على وجه التحقيق منشأها ، فاسمها عند اليونان والرومان Palmyre مشتق من التمر وهو لا يبين أصل هـذه المدينة • وتدعي التوراة ان النبي سليمان قد بنى تدمر[2] ، وقد اعتقد بعض العرب بذلك فقال النابغة الذبياني على لسان سليمان :

وخيس الجن اني قد اذنت لهم   يبنون تدمر بالصـفاح والعمـد

على انه لا يمكن الجزم بأن المدينة التي بناها سليمان يقصد منها هذه التي تقع في بادية الشام ، خاصة وان سليمان لم يمتد حكمه الى هذه البلاد •

والظاهر ان هذه المدينة نشأت منذ أقدم الازمان من استقرار بعض البدو في الواحة التي تكونت حول البئر ، وصارت محطة للقوافل • وقد ورد ذكرها في نقوش تغلات فلاسر التي دون فيهـا أخبـار حملته ضـد العموريين في سنة ١١١٥ ق•م• ، كما ذكر ملالاس بأن التدمريين ساعدوا نبوخذنصر في هجومه على القدس وأمدوه بـ ٨٠٠٠ من رماة النبال • وقد استفاد التدمريون من قيام الامبراطوريـة الاخامينية التي وحدت الشـرق الاوسط فنشط بذلك الطريق التجاري بين الهند والعراق وتركيا وسوريا•

---

(١) بالاضافة الى كتب جرجي زيدان ، وفيليب حتي ، وجواد علي فقد اعتمدنا على كتاب « مقالة عن تاريخ تدمر » للاستاذ فيفريه (باريس ١٩٣٢) (بالفرنسية) وكتاب « مدن القوافل » لروستوفزيف (بالانكليزية) وكذلك المقالات التي نشرها سيريج في مجلة سوريا (بالفرنسية) •

(٢) حزقيال ٤٧ ـ ١٩ ، ٤٨ ـ ٢٨ •

وظلت هذه المدينة محتفظة بمكانتها الطيبة في عهد السلوقيين الذين وحدوا سوريا والعراق وشجعوا الطريق التجاري الذي كان يمر بالعراق وتدمر منافسة للبطالسة الذين أرادوا أن تمر التجارة الهندية عن طريق البحر الاحمر ومصر •

ولكن انقراض الدولة السلوقية وقيام الدولة البارثيه في العراق وايران أضرا بها ، لانه فصل العراق عن سوريا وهدد التجارة • الا ان هذا لم يدم طويلا ، لانه سرعان ما جاءت الدولة الرومانية الى الشرق فسيطرت على سوريا وفلسطين ثم مصر • وقد حاولت هذه الامبراطورية في عهد اغسطوس ان تتبع سياسة السلم فهادنت البارثين ، وعادت التجارة الهندية تسير عن طريق العراق •

كانت علاقة تدمر بالرومانيين طيبة ، فتمتعت باستقلال ذاتي كبير • غير ان تراجان حاول الاستيلاء عليها والقضاء على استقلالها ، كما انه هاجم البارثيين وعاد العداء بين الرومان والبارثيين ، فاضطربت التجارة وساءت أحوال تدمر • ولكن هذه الحال لم تدم طويلا ، اذ أن تراجان توفى ، وتولى منصب الامبراطور هادريان الذي عاد الى اتباع سياسة أغسطوس السلمية ، واعطى أهل تدمر حقوق الايطاليين ، ومنحهم استقلالا ذاتيا ، وسمح لمجلس شيوخهم أن يقرر الضرائب التي يرتئيها ، ثم اعفيت تجارتها من الضرائب • لذلك أخذت تدمر تزدهر ، وصار التدمريون يكثرون من تسمية أولادهم بأسماء رومانية ، وقدموا للرومان قوات من الخيالة التي كانت تحارب بالنبال • واتسع نشاطهم التجاري وازدادت ثروتهم وكثر العمران في بلادهم ، حتى ان اكثر الابنية العظيمة المكتشفة في تدمر ترجع الى عهد هادريان • وقد وجدت نقوش تذكر « تدمر الهدريانية » الامر الذي يدل على العلاقة الوثيقة بين تدمر وروما •

ثم انشغل الرومان في مشاكلهم الداخلية وفي صد الغزوات الجرمانية التي كانت تهدد امبراطوريتهم في أوربا ، الامر الذي اضعف نفوذهم في

الشرق • وقد اغتنم التدمريون هذه الفرصة وأخضعوا القبائل المجاورة لهم ووسعوا رقعتهم • فلما قام الساسانيون واحتلوا العراق وحلوا محل البارثيين اتبعوا سياسة التوسع ، فجهز سابور الاول حملة احتلت تدمر وانطاكية وأسرت الامبراطور الروماني فالريان سنة ٢٦٠م ثم توغلوا في آسيا الصغرى •

الا ان أذينة قام ينصر الرومان فهاجم الساسانيين وكسرهم وطاردهم فقدر الرومان أعماله ومنحوه لقب Dux orientis •

ثم انه استولى على الرها ونصيبين وحاول احتلال طيسفون ، ولعله كان يستهدف من ذلك تأمين السيطرة على طرق التجارة الهندية والعراقية التي اضطربت بعد ظهور الساسانيين ، الا أنه لم يستطع احتلال طيسفون ، ثم قتل في حمص نتيجة مؤامرة يقال ان ابن اخيه دبرها • والحق أنه كان حاكما قديرا ، كان يحترمه أهل تدمر لما له من شجاعة وبذل وسخاء ولما كان يقدمه من هدايا في الأعياد وغيرها •

وقد خلفه في الحكم ابنه وهب اللات وكان صغيرا فتولت الوصاية عليه أمه زنوبية • وهي من الشخصيات النسائية البارزة في تاريخ الشرق الاوسط القديم • فهي سورية الاصل تربت تربية راقية ودرست الفلسفة الافلاطونية المحدثة ، ثم جاءت بلاط تدمر ، فتزوجها أذينة • ولما قتل أصبحت وصية على ولدها وهب اللات وأخويه خيران وتيم الله وأمسكت أعنة الحكم في تدمر • وكانت تتقن الآرامية والاغريقية واللاتينية ، وترعى العلوم والآداب فعاش في بلاطها الفيلسوف لونجينوس وأخذت تقلد البلاط الساساني بما فيه من أبهة وفخفخة • وكانت قوية الجسم جميلة أنيقة تحب الصيد وركوب الخيل •

ارادت زنوبية أن تستغل ضعف الرومان في الشرق واشتغالهم في الازمات الداخلية في روما وعزمت على توسيع حدود بلادها ، فأرسلت حملة بقيادة زبدا لغزو مصر وتأمين سيادتها على الشرق الاوسط ، والسيطرة على

تجارة شرق البحر المتوسط ، ولتحرم روما من الحنطة التي كانت تموتها بها مصر • ثم أعلنت نفسها امبراطورة فاستقلت عن الرومان • غير ان مصر قاومت هذه الحملة مقاومة شديدة ، كما ان الرومان أرسلوا اسطولا الى انطاكية يهددون به مؤخرة هذه الحملة ، فاضطرت زنوبية الى سحب جيوشها من مصر •

ثم جردت زنوبية حملة أخرى على آسيا الصغرى ، واستطاعت أن تتوغل فيها ، وكانت الجيوش الرومانية منشغلة في حروبها مع الجرمان في حوض الدانوب ، فاضطر الامبراطور أورليان أن يهادن زنوبية ويعترف لها بما استولت عليه ، كما تدل على ذلك النقود ، ولكنه بعد أن أنهى مشاكله في الغرب ، تقدم بجيش قوي الى الشرق لمحاربة زنوبية • وقد حاولت أن تدافع في جنوب آسيا الصغرى ، ولكنها خشيت أن يهاجمها الساسانيون من الشرق • فاضطرت الى الانسحاب الى حمص واشتبكت مع الرومان في معركة انكسرت فيها ثم انسحبت الى تدمر حيث حاصرها اورليان واستطاع ان يأسرها ويفتح تدمر • وقد حاولت زنوبية أن تفلت من أسرها وتستنجد بالساسانيين ولكنها لم تفلح •

أما تدمر فبعد أن فتحها اورليان عاملها معاملة حسنة مستهدفا بذلك أن يجعلها مركزا أماميا لمجابهة خطر الغزو الساساني ، فاكتفى بأن أبقى فيها حاكما رومانيا وحامية صغيرة وفرض عليها غرامة ، ولكن تدمر سرعان ما ثارت ضده ، فاضطر الامبراطور الروماني الى أن يعود ثانية لفتحها ونهبها وأخذ زنوبية أسيرة الى روما حيث قضت بقية حياتها بالقرب منها •

وقد أدت هذه الحروب المستمرة الى اضعاف تدمر ، كما أن سيطرة الساسانيين على طرق التجارة الهندية أدى الى انحطاط تدمر ، فلم نعد نسمع لها ذكرا في التاريخ حتى الفتح الاسلامي حيث مر بها خالد بن الوليد فدانت له بالطاعة ، ثم لجأ اليها مروان بن الحكم واتخذها قاعدة لحركاته بعد أن اختاره الامويون خليفة على أثر عزل معاوية الثاني •

الحضارة التدمرية

ليست لدينا معلومات واضحة عن تدمر الامنذ العصر الروماني ، حيث تكثر الوثائق التاريخية التي تعطينا تفاصيل عن التنظيمات التدمرية وتطورها.

ويبدو من هذه المعلومات ان سكان تدمر كانوا مكونين من المواطنين والعبيد والاجانب . فأما الاحرار فكانوا مكونين من عدد من العشائر ، ينتسب أفراد كل منها الى جد واحد ، ولدينا من أسماء هذه القبائل : بنو انوبات ، بلتى ، بلعا ، برسعه ، جدبعل ، جنجن ، زيدبعل ، حتار ، هالا ، حنفى ، حشاش ، يديب ، قمر ، مجدات ، ميتة ، معزيان ، عطار ، بنى بعل ، شمعون ، شيزا ، تيم ، تيمرسون .

ولم تكن هذه القبائل متكافئة في مركزها الاجتماعي ، اذ كانت بعض القبائل تعتبر أشرف من غيرها وأسمى مكانة ، وقد احتكرت الوظائف الادارية . الا أن كل قبيلة كانت تتمتع ببعض الاستقلال في شؤونها الخاصة ، ولها مجلس خاص ، وكانت الخصومات تحتدم أحيانا بين القبائل . ولدينا أخبار عن منازعات حدثت بين بني قمر وبني متابول . وكثيرا ما كانت هذه المنازعات تؤدي الى تكوين محالفات بين القبائل المتنازعة . وأغلب أفراد العشائر كانوا يتسمون بأسماء سامية ، غير أن عددا قليلا منهم تسمى بأسماء اغريقية .

ولما نشطت الحركة التجارية في تدمر ، لم يقتصر التدمريون على نقل البضائع أو تزويد القوافل المارة بهم ، بل أخذوا يقومون بالتجارة بانفسهم . وهكذا ازداد عدد التجار فيهم ، وكونوا لهم وكلاء وجاليات في بابل وفولوكاسيا (وهي مدينة بالقرب من الكوفة) وكرخ ميسان ، وفي الشام والمدن الفينيقية ومصر وروما حيث كان لهم معبد خاص يقدمون فيه الذبائح . وامتد نشاطهم الى داسيا (رومانيا الحالية) والغال (فرنسا) واسبانيا . ولا ريب ان التجارة قد ساعدتهم على الاحتكاك بالاجانب ووسعت أفق نظرهم ، كما أدت الى استعمال عدة لغات في بلادهم ، فانتشرت

الآرامية والاغريقية التي كتبت بها معظم وثائقهم • كما استعملت الرومانية في مكاتباتهم الرسمية في العصر الروماني •

أما الاجانب فكان أغلبهم من الاغريق والعبيد المحررين ، ولم تكن لهم مكانة كبيرة في المجتمع ، غير أنه كان في تدمر عدد من الفرس ، كانوا يعتبرون من الارستقراطية ويعاملون كأنهم من أهل المدينة لا كأجانب ، كما كان هناك بعض الرومانيين وخاصة من الموظفين • وبجانب هذا كان يوجد عدد من التجار الذين يقيمون في المدينة لمدة موقتة في خانات خاصة ، ويكونون خاضعين الى موظف خاص • وتقيم الجاليات الاجنبية عادة في فنادق خاصة بها ، ولكل فندق رئيس يشرف على شؤون الجالية المقيمة فيه •

وقد تأثرت أذواقهم وألبستهم وفنهم بالمؤثرات الخارجية ، فكانت ألبستهم من السراويل والاردية وهي تشبه الالبسة البارثية وزخرفتها متأثرة بالذوق الفارسي • كما أن فنونهم كانت متأثرة بكل من الفن البابلي والفارسي واليوناني •

وقد عبد التدمريون آلهة متعددة تزيد على الاربعين ، أعظمها ثلاثة هي الاله بعل الذي كان يعتبر الاهاً وطنيا ، وعبادته معروفة عند الساميين من أقدم الازمنة • ويتلو هذا الاله بعل سمين أي بعل السماء ، وكان يعتبر حامي الزراعة وأصله معبود الفنيقيين والسوريين • ثم الاله يرحيل اله القمر • وكانت هذه الآلهة الثلاثة ترسم في الغالب مجتمعة بحيث يكون الاله بعل في الوسط والاله بعل سمين في اليمين والاله يرحيل في اليسار ، وهي تعبد عادة مجتمعة في معبد واحد • وفي زمن الرومان ازدادت مكانة الاله بعل سمين ، وصار يوصف بالاله الطيب الرحيم ، وأخذ ينافس بعلاً في مكانته ، وهناك اشارة الى ملك بعل وهو كالرسول للآلهة •

وبجانب هذه الالهة عبد التدمريون الاله شماش وعشتروت واثينا ونرجال وهي آلهة بابلية الاصل • كما عبدوا حداد وعشتروت

وهما الاهين سوريين ، والشمس واللات وغى القوم وارسو (وكان يعتبر حامي القوافل ويرسم على هيئة جمل) كما عبدوا الاله العزيز (وكان يمثل نجمة الصباح وشكله جميل ويعبد عادة مع اله الشمس) واكلبول .

اما رجال الدين فقد كونوا طبقة قوية معقدة كان بعض أفرادها يقيم في المعابد الرئيسية والبعض الآخر يقيم في الحرم القبلية ، وكانت وظائفهم شرفية لا وراثية . وهناك اشارات الى رجال دين يرأسون الموائد الدينية ولهم عدد كبير من الاتباع . وفي بعض الاعياد تقام عادة حفلات دينية فخمة ، تشرب فيها الخمور وتعد فيها موائد فخمة للطعام ، كما كان دفن الموتى يجري باحتفالات تنصب فيها موائد الاكل .

ليست لدينا عن تنظيمات تدمر معلومات واضحة قبل القرن الاول حيث تكثر الوثائق . وتظهر هذه الوثائق انه كان في تدمر مجلس للشيوخ يدعى boule ومجالس للعشائر يدعى كل منها demos ، وان الاسماء اليونانية لهذه المجالس تدل على مدى تأثر تنظيم المدينة بالنظم الاغريقية . وكان مجلس الديموس يضم كافة أفراد العشائر البالغين ؛ أما البولى فيضم من كان يتميز بالجاه والثروة والسن ، ولهذا المجلس رئيس وسكرتير ، وللرئيس مركز هام في تمشية أمور الدولة . وفي القرن الثاني ازداد نفوذ مجلس البولى وتناقص نفوذ مجلس العشائر . ولكن في زمن أذينة تناقص نفوذ كلا المجلسين .

وكان للمدينة رئيس (أراخون) يتولى ادارتها وموظف يدعى متقن المدينة ، وموظف للمالية يدعى procurator ، وموظف مسؤول عن الاسواق Agoranomos وظيفته تشبه وظيفة المحتسب في الاسلام ، وموظف مسؤول عن المنازعات والشؤون القضائية Juridicus وقائد للحامية Argapad وقائد للجيش strategos ومعلوماتنا عن اختصاصاتهم وعلاقاتهم مع بعضهم قليلة جدا ، وأكثرها من عهد هادريان ، فلا نعرف عن تطورها شيئا كثيرا .

كانت السلطة عادة في يد الاراخون الذي كثيرا ما كان يجمع بين هذا المنصب ومنصب الستراتيجوس • وقد ركز أذينة معظم السلطات بيده وبيد ورود الذي كان يشغل منصب متقن المدينة ويشرف على ادارة دوائر المدينة •

وقد أدى تركيز السلطات بيد أذينة وورود الى اضعاف سلطة مجلس العشائر والبولى والى اضعاف نفوذ الارستقراطية •

وكانت للمدينة قوة من البوليس لحماية القوافل والطرق من غزوات البدو الذين كانوا يهددونها دائما • وهي مكونة من رماة النبال والخيالة أو الهجانة ، وتسند رئاستها عادة الى الزعماء والاغنياء • ولا نعلم فيما اذا كانت قوة البوليس هذه تجمع من أهل تدمر أم انها كانت تجمع من المتطوعة المأجورين • وهي على كل حال كانت توضع تحت حماية الالهين أرسو والعزيز •

وبجانب هذا كانت توجد قوات عسكرية تعسكر عند الآبار والمناطق الهامة من الصحراء • وفي فترات الاضطرابات والحروب كانت تنشأ قوة أخرى يقودها الستراتيجوس ، تشترك في الدفاع عن المدينة وتساهم في الحروب والحملات • ولدينا نقش يذكر أن الكردوس الواحد والعشرين كان مرابطا في دورايوروبوس (الصالحية) ، مما قد يدل على انه كان للتدمريين أكثر من عشرين كردوسا •

لا تزال بقايا تدمر قائمة بين دمشق والفرات في منتصف الطريق بينهما تجتلب السياح اليها • وأبرز ما في هذه الآثار الباقية معبد بعل ، وهو مقام على مرتفع من الارض أمامه قوس هائل وطريق عريض طوله ١٢٤٠ ياردة وعلى جوانبه ٣٧٥ عمودا طول كل منها ٥٥ قدما ، ولا يزال قائما منها ١٥٠ عمودا منحوت معظمها من المرمر الابيض وبعضها من الجرانيت السماقي ،

وكانت هذه الاعمدة مرتبطة ببعضها • وهذا الطريق هو الشارع الرئيسي في المدينة وتتفرع منه الدروب الفرعية ، وعلى جوانبه الحوانيت والمخازن المفعمة بالبضائع •

ولا ريب ان معبد بعل لم يكن المعبد الوحيد في المدينة ، بل هناك عدة معابد أخرى منبثة فيها كانت مبنية بالحجارة وتزينها مختلف النقوش والصور وبعض التماثيل • كما أن هناك عددا من الخانات التي تنزل فيها القوافل ويقيم فيها الاجانب ، وهي أبنية ضخمة واسعة • اما المقابر فلا نزال بقايا بعضها قائمة في أطراف المدينة كالابراج العالية ، وفيها غرف منقوشة وصور ملونة ومنحوتات كثيرة • والعادة أن يدفن الميت في أعلاها • ومعظم أبنيتها الفخمة على الطراز الهلنستي •

أما بيوت الشعب فالراجح انها كانت مبنية بالطين اذ لم يبق من آثارها شيء •

لقد كان التدمريون يشربون من مياه الآبار ، وكانت الزراعة عندهم قليلة • ولكن بعد تقدمهم في المدينة أعاروا الزراعة بعض الاهتمام ، فبنوا بعض السدود لحصر مياه السيول وجمعها ، ولا يزال من آثارها سد يبلغ طوله نصف ميل بنى بين تلين لحصر مياه الامطار وتكوين مستودع من الماء يكفي للزراعة •

غير ان اهتمامهم الاكبر كان منصرفا الى التجارة • وقد تحدثنا عن امتداد تجارتهم وجالياتهم في ميسان (عند البصرة الحالية) وفولوكاسكرته (عند النجف) وسلوقية (سلمان باك) ودورايوربوس (الصالحية) والشام والمدن الفينيقية ومصر وروما وداسيا (رومانيا) والغال (فرنسا) واسبانيا • كما أنهم عقدوا معاهدات مع القبائل المقيمة على ضفاف الفرات ، وأعطوا بعض شيوخها الهدايا والاموال لتأمين مرور القوافل بسلام ، ولعل دولة المناذرة قامت في الاصل بتشجيعهم لحماية الطرق التجارية خاصة بعد ضعف البارثيين •

وقد اكتشف نقش يبين مقدار ضرائب الكمرك المفروضة على البضائع التي تمر بتدمر • ويتبين من هذا النقش ان أهم هذه البضائع هي الأنسجة الصوفية وصبغ الارجوان والحرير والزجاج والعطور وزيت الزيتون والفواكه المجففة كالتين والجوز والجبن والخمر • ويستنتج من هذه القائمة المنوعة أن تجارتهم كانت تشمل منتوجات دول متعددة كالصين والهند وبابل والمدن الفينيقية وبلاد الجزيرة •

الفصل الخامس

الغساسنة[1]

لم يكن من الممكن لروما ، حتى بعد استيلائها على تدمر ، أن تبسط سيطرتها التامة على بادية الشام نظرا لطبيعتها الصحراوية وقلة المياه فيها ، لذلك ظلت هذه المنطقة ميدانا للقبائل العربية التي كانت تتجول فيها وتتخذ من مرابعها ديارا لها • وقد لجأ الى هذه المنطقة بعض القبائل العربية التي هاجرت من العراق فرارا من حكم الساسانيين الذين يبدوا أنهم لم يحسنوا معاملة العرب ، فهاجرت تنوخ واستقرت في الشمال ، كما سكنت قضاعة في أطراف حوران والجولان • ولسنا نعلم عن تاريخ هذه القبائل في سوريا ما يمكن الوثوق بصحته • غير أنه يبدو أن الرومان لم يسيئوا معاملتهم بل استعان بهم بعض الاباطرة في حروبهم ضد الفرس ، الا أنهم لم يعترفوا بتشكيل دولة لاحد غير الغساسنة الذين هاجروا ، على ما تقول المصادر العربية ، من اليمن ، وبعد أن أقاموا مدة في جنوب الحجاز وفي يثرب ، تقدموا الى سوريا الجنوبية وأزاحوا الضجاعمة الذين كانوا مقيمين في تلك المنطقة وعاونوا الرومان في حروبهم معاونة فعالة حملت الرومان على أن يمنحوا أمراءهم ألقابا رسمية عالية ويعترفوا لهم ببعض السيادة في المناطق التي يقيمون فيها •

وقد أراد الرومان بذلك الاستفادة منهم في ضبط حدود سوريا الشرقية المفتوحة ، وأن يمدوا بواسطتهم نفوذهم على القبائل العربية ، ويجعلوهم دولة حاجزة بين سوريا والساسانيين ، ويستخدموهم لمساعدتهم في حروبهم وحملاتهم في الشرق الاوسط •

---

(١) اعتمدنا في بحث الغساسنة على كتاب نولدكه « أمراء غسان » الذي ترجمه بندلي جوزي وقسطنطين زريق (بيروت ١٩٣٣) بالاضافة الى كتب جرجي زيدان وفيليب حتي وجواد علي •

وليس لنا عن أصلهم وتاريخهم الاول معلومات يوثق بها ، فان المؤرخين العرب غير متفقين على تاريخهم وعدد ملوكهم وسني حكمهم ، اذ أن بعض هؤلاء المؤرخين يذكرون قائمة طويلة في أسماء ملوكهم لا تذكرها المصادر البيزنطية ، ولعل المصادر العربية كانت تدخل في هذه القائمة الطويلة أسماء الامراء القدماء ومشايخهم . أما البيزنطيون فاكتفوا فقط بذكر من كان له علاقة بهم ومن اعترفوا بسلطانه .

وقد أجمعت الاخبار التاريخية على أن جد هذه الأسرة هو جفنة . ولكن لا ريب أن جبلة هو أول ملوكهم البارزين الذين اعترف بهم البيزنطيون ، وتروى المصادر البيزنطية ان جبلة هذا غزا فلسطين في سنة ٤٩٧م .

وقد تلاه ابنه الحارث بن جبلة ، ويطلق عليه العرب أحيانا الحارث ابن أبي شمر . وقد حارب الحارث هذا المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة وانتصر عليه في سنة ٥٢٨م ، كما انه أبلى بلاءاً حسنا في قمع ثورة السامريين سنة ٥٢٩م ، وعلى أثر هذه الخدمات منحه جستنيان لقب فيلارك وبطريق ، وأقر له سلطته على القبائل العربية في أطراف سوريا ، وكان غرضه من ذلك أن يقيم خصما بوجه المنذر بن ماء السماء الذي سرعان ما هاجم سوريا وعاث فيها . وكان لقب بطريق من أسمى الالقاب البيزنطية ، اذ أن طبقة البطارقة كانت تعد عند البيزنطيين أعلى الطبقات الاجتماعية بعد الامبراطور .

وفي سنة ٥٣٨ نشبت بين الحارث وبين المنذر أمير الحيرة حرب على الارض المعروفة بـ Strata وهي الارض الواقعة قرب الطريق الممتدة من دمشق الى تدمر حتى مدينة سروج . فقد ادعى أمير الحيرة ان القبائل العربية النازلة في تلك الاراضي خاضعة لسلطته وهي تدفع له الجزية ، فنازعه الامير الغساني هذه السلطة ونشب القتال بينهما ؛ وكانت هذه الحرب

من الاسباب التي عادت فأججت نار المنازعات بين الدولتين بعد أن كادت تنطفيء .

وفي سنة ٥٤١م حارب الحارث في العراق بجانب الروم وعبر نهر دجلة على رأس جيشه ثم عاد فارتد الى مركزه السابق عن طريق أخرى غير الطريق التي اتبعها معظم الجيش البيزنطي ، ولم يحصل في حملته هذه على نتائج تذكر الامر الذي أثار شكوك البيزنطيين في اخلاصه .

ثم تجددت الحرب في سنة ٥٤٤م بينه وبين المنذر ملك الحيرة ووقع في هذه الحرب أحد أبناء الحارث أسيرا في يدي المنذر فقدمه ضحية للعزي. وقد استمر القتال في فترات متقطعة بين الغساسنة والمناذرة الى أن أحرز الحارث بن جبلة انتصارا حاسما في سنة ٥٥٤م في معركة قرب قنسرين قتل فيها المنذر وهي الموقعة التي يدعوها العرب يوم حليمة .

سافر الحارث في سنة ٥٦٣م الى القسطنطينية لمفاوضة البيزنطيين فيمن يخلفه من أولاده في امارته في سوريا وفي ما يجب اتخاذه من التدابير لمقاومة عمرو بن هند ملك الحيرة . وقد اثرت مظاهر البذخ والترف في القسطنطينية تأثيرا كبيرا على الحارث ، كما انه أحدث بدوره تأثيرا قويا على سكان العاصمة وبالاخص على جوستين ابن اخي القيصر الذي كان مضطرب العقل . ولما تسنم جوستين هذا منصب الامبراطورية كان أهل البلاد يخوفونه بالحارث بن جبلة كلما أساء التصرف .

وكان الحارث بن جبلة من المؤيدين للمذهب اليعقوبي ، واستطاع أن يقنع البيزنطيين بتعيين يعقوب البردعي وثيودورس (وهما منشئا هذا المذهب) أساقفة في المقاطعات السورية العربية فتوطدت بذلك دعائم المذهب اليعقوبي . وربما كان في تأييده لهذا المذهب مدفوعا بعوامل سياسية لان اكثر ابناء امارته كانوا من اتباع هذا المذهب .

وقد توفى الحارث بن جبلة سنة ٥٦٩م بعد أن حكم أربعين سنة . وأعقبه في الحكم ابنه المنذر الذي بدأ حكمه بالهجوم على المناذرة وانتصر عليهم في موقعة عين أباغ التي تبعد ثلاث مراحل عن الحيرة . غير ان البيزنطين لم يحسنوا السياسة معه وخاصة لتطرفه في تأييد المذهب اليعقوبي ودبروا مؤامرة لاغتياله فثار عليهم . واغتنم المناذرة الفرصة فهاجموا سوريا وعاثوا بها فاضطر الروم الى مفاوضة المنذر ومصالحته سنة ٥٧٨م .

ثم زار المنذر القسطنطينية سنة ٥٨٠م ، فاستقبل فيها بكل احترام وتبجيل ، وأنعم عليه القيصر طيباريوس بالتاج ، مع ان الروم لم يكونوا ينعمون قبلا على عمالهم من العرب الا بالاكليل . وقد وصل خبر هذه الحادثة الى اسبانيا فذكره بعض مؤرخيها المعاصرين . وقد اغتنم المنذر فرصة وجوده في عاصمة الروم فسعى للحصول على العفو عن أصحاب مذهبه وعمل على توطيد السلام بينهما .

غير أن رجال الدين في الدولة البيزنطية ، وهم من المذهب الارثودكسي كانوا يمقتون المذهب اليعقوبي ، لذلك أخذوا يحرضون الامبراطور على المنذر وكان يساعدهم في ذلك بعض كبار رجال الدولة من المتمسكين بالمذهب الارثودكسي . وقد حدث أن قام موريس حاكم سوريا بهجوم على الفرس يعاونه المنذر ، ولكنه لم ينجح فيه فعزى فشله الى خيانة المنذر ، فزاد هذا من ايغار صدور البيزنطين عليه ودبروا مؤامرة ضده ، فأوعز الامبراطور الى حاكم الروم في سوريا بالقبض على المنذر ، فأرسل الحاكم البيزنطي يدعو المنذر لحضور حفلة تدشين بعض الكنائس في حوارين ، فلما جاء المنذر القى القبض عليه وأرسله منفيا الى القسطنطينية ، ثم نقل منها الى صقلية حيث قضى نحبه فيها بعد أن أمضى في الحكم ثلاث عشرة سنة .

لم يكتف الروم بنفي المنذر فحسب بل عمدوا أيضا الى قطع الاعانة السنوية التي كانوا يقدمونها لاسرته ، فكان ذلك دافعا آخر لاثارة الغساسنة

فثار ابناؤه الاربعة وشقوا عصا الطاعة على دولة الروم ، ثم أوغلوا تحت قيادة أخيهم الاكبر ـ النعمان ـ في الصحراء وأخذوا يشنون منها الغارات على أراضي الدولة ويسطون على أموالها وينهبونها ويعيثون في داخل البلاد فسادا وقاموا بهجمات عنيفة موفقة ضد بصرى التي كانت أكبر قاعدة عسكرية بيزنطية في جنوب سوريا •

وقد اضطر القيصر طيباريوس أزاء هذا الى تجهيز حملة بقيادة ماجنوس للقضاء على ثورة النعمان ولكن ماجنوس استعمل الحيلة والدهاء فأرسل يطلب من النعمان مفاوضته ثم القى القبض عليه وأخذه أسيرا سنة ٥٨٤م •

وعلى أثر هذا الحادث تصدعت أحوال العرب في سوريا وتفككت عرى وحدتهم ، حتى اختارت كل قبيلة منهم أميرا لها • ولا ريب في أن هؤلاء الامراء كانوا من المشايخ الذين تقلص قسم كبير من سلطتهم ونفوذهم في أيام الحارث والمنذر فانسحبوا الى الصحراء أو انتقلوا الى بلاد الامبراطورية الفارسية •

ولد زوال دولة الغساسنة بعض الاخطار في سوريا ، اذ أن القبائل العربية البدوية أخذت تتطاحن وتتنازع فيما بينها ، كما أخذ بعضهم يهاجم السكان المتحضرين فينهبون مواشيهم ويدمرون مزارعهم • وقد حملت هذه الاحوال الروم على التفكير في اعادة تعيين عامل جديد مكان المنذر ، وفضلوا أن يكون هذا العامل من آل جفنة نظرا لما كان لهؤلاء الامراء في الماضي من الهيبة في قلوب جميع القبائل البدوية • غير أن المؤرخين السوريين والبيزنطين انقطعوا عن رواية أخبار آل جفنة بعد المنذر • لذلك فان المصدر الوحيد لاخبارهم هو ما جاء في دواوين الشعراء المعاصرين رغم ما في هذه الدواوين من الابهام وعدم تحديد زمان كل أمير يذكرونه •

من المصادر التي تحفظ لنا شيئا من نسب آل جفنة بضعة أبيات تنسب الى النابغة الذبياني يقول فيها :

هذا غلام حسن وجهه مستقبل الخير سريع التمام
للحارث الاكبر والحارث الاصغر والاعرج خير الانام
ثم لهند ولهند وقد أسرع في الخيرات منه امام
خمسة اباه همو ما هم هم خير من يشرب صوب الغمام

فمن هذا نرى ان الشاعر يذكر في هذه الابيات ثلاثة رجال من آل جفنة وامرأتين وتختلف الروايات في البيت الثاني فمنهم من يذكر الحارث الاكبر والحارث الاعرج والاصغر ، ومنهم من يذكر الحارث الاكبر والحارث الاعرج والحارث ، ومنهم من يذكر الحارث الاكبر والحارث الاصغر والحارث الاعرج ، ومنهم من يذكر الحارث الاكبر والحارث الاصغر والحارث ، ومنهم من يذكر الحارث الاصغر والحارث الوسط والاكبر ، مما قد يحملنا على الاعتقاد ان الاعرج هذا كان اسمه الحارث فاما اسم المرأتين فلعلهما أم الممدوح وزوجته والراجح ان الحارث الاكبر المقصود به هو ابن الحارث بن جبلة وان الحارث الاصغر ابنه أما الاعرج فهو ابن الاصغر وأبو الغلام الممدوح .

والحارث الاصغر هذا هو الحارث الوهاب الذي مدحه علقمة في قصيدته الشهيرة التي مطلعها :

طحا بك قلب في الحسان طروب بعيد الشباب عصر حان مشيب

ويبدو من هذه القصيدة ان الحارث كان قد انتصر على بعض القبائل العربية وأسر كثيرا من رجالها منهم أحد أخوة الشاعر نفسه .

وقد مدح النابغة عمرو بن الحارث الاصغر في قصائد منها التي مطلعها :

اهاجك من أسماء رسم المنازل بروضة نعمى فذات الاجاول

وفي قصيدة :

كليني لهم يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطيء الكواكب

وقد أشار النابغة في القصيدة الاولى الى ان الحارث تهدد بني مرة بن

عوف التي كانت تنزل في شمال الحجاز . كما أشار النابغة في قصيدة أخرى الى أحد ملوكهم الذي أراد الاستيلاء على وادي القرى :

اتطمع في وادي القرى وجنابه ‏ ‏ ‏ ‏ وقد منعوا فيه جميع المعاشر

وهذا يدل على امتداد نفوذ الغساسنة الى شمال الحجاز وأطراف نجد.

ومن أمراء غسان كذلك النعمان بن الحارث الذي مدحه النابغة بعدة قصائد منها التي يقول فيها :

وان يرجع النعمان نفرح ونبتهج ‏ ‏ ‏ ‏ ويأت معداً ملكها وربيعها

كما رثاه بقصيدته التي يقول فيها :

دعاك الهوى واستجهلتك المنازل ‏ ‏ ‏ ‏ وكيف تصابي المرء والشيب شامل
بكى حارث الجولان من فقد ربه ‏ ‏ ‏ ‏ وحوران منه موحش متضائل

ويشير النابغة في بعض هذه القصائد الى ان النعمان فتك بقبيلة أسد ، وأراد غزو فزارة ، وكلتا القبيلتان كانتا تسكنان شمال الحجاز وفي أطراف خيبر .

وقد تلا النعمان ولداه عمرو وحجر اللذين مدحهما النابغة وأشار اليهما حسان بقوله :

ملكا من جبل الثلج الى ‏ ‏ ‏ ‏ جانبي أيلة من عبد وحر
اتيا فارس في دارهم ‏ ‏ ‏ ‏ فتاهوا بعد اعصام بقر
ثم صاحا بين غسان اصبروا ‏ ‏ ‏ ‏ انه يوم مصاليت صبر

ويبين البيت الاول مدى امتداد سلطانهم ، وهو دليل على مدى قوتهم.

ولما احتل الساسانيون سوريا سنة ٦١٣م قضوا على ملك بني جفنة ، ففر بعض امرائهم الى بلاد الروم والتجأ البعض الآخر الى داخل الصحراء.

ويبدو ان هرقل لما استعاد سوريا من الفرس سنة ٦٢٩م لم يرجع للغساسنة حكمهم ، وظلت الحدود السورية الجنوبية مفتوحة ، فاعتدت بعض القبائل على التجارة البيزنطية دون أن تلقى مقاومة تذكر .

تروى المصادر العربية ان الغساسنة حاربوا المسلمين مرارا بجانب الروم وان خالد بن الوليد أوقع بهم سنة ٦٣٤م في مرج الصفر جنوبي دمشق وان جبله بن الأيهم قاتل خالد بن الوليد في دومة الجندل ، واشترك في موقعة اليرموك ، الا أن الراجح ان جبلة كان أميرا من بقايا أمراء الغساسنة ولم يكن له ملك كبير ، وقد انضم فيما بعد الى العرب ، ثم عاد وانضم الى الروم بعد أن حكم عليه عمر بأن يلطم قصاصا للطمه أعرابيا عند الطواف حول الكعبة في الحج .

لقد كانت سلطة أمراء غسان تمتد على كل القبائل البدوية التي كانت تنزل في فلسطين ومنطقة الاردن وأطراف الشام .

على اننا لا نرى قط اشارة الى أن الغساسنة كانوا يمتلكون أيا من الاماكن المحصنة أو من المدن التي كانت مراكز للجيش كدمشق وبصرى أو كتدمر التي حصنها جستنيان .

كانت الجابية بالجولان قاعدة ملكهم وفيها معسكرهم ومقرهم ، ومع ان المؤرخين البيزنطيين والسريان كانوا يذكرون حرثا الغساسنة أو معسكر الغساسنة ، الا انه ليس هناك دليل على أن معسكرهم هذا أصبح مدينة كالحيرة اذ كانوا يتنقلون أحيانا ، وقد اتخذوا جلق عاصمة لهم أمدا من الوقت .

يذكر حمزة الاصفهاني عددا من الابنية والقصور وقنوات الماء التي أقامها الغسانيون غير ان المصادر الاخرى لا تؤيد قائمته . ويذكر حسان بن ثابت في شعره فخامة الحياة في قصور الغسانيين ولكن لم تكشف الحفريات القليلة حتى الآن عن هذه الآثار ، ومن الجدير بالملاحظة انه لم يظهر فيهم أي شاعر ، كما ان الشعراء الذين قصدوهم قليلون ، ومع انهم دانوا بالمسيحية ورعوا المذهب اليعقوبي ، الا اننا نشك في عمق فهمهم لهذا الدين .

* * *

الفصل السادس

المناذرة[1]

لقد كانت حدود العراق الغربية مفتوحة للصحراء ، لذا كانت القبائل العربية تستطيع التوغل فيه دون أن تصادف حاجزا جغرافيا يصدها • وكانت مثل هذه الهجرات تزداد بصورة خاصة عندما تكون الحكومات القائمة في العراق ضعيفة • ولم يكن يعيق هذه القبائل حاجز ، الا نهر الفرات الذي يفصل الصحراء عن المناطق الخصبة في العراق • غير ان نفوذ هذه القبائل لا يصبح واضحا الا عندما تكون الحكومات المسيطرة على العراق ضعيفة ، حيث تستطيع القبائل العربية آنذاك التوغل الى الداخل والتمتع بنفوذ قوي ، أو أن تؤثر في أحوال السكان وطرق التجارة • ومع انه ليست لدينا أخبار دقيقة مفصلة عن هذه القبائل الا أن الاشارات القليلة المبعثرة في الكتابات تدل على مدى أثرهم •

ويبدو ان القبائل المقيمة في غربي الفرات استفادت من ضعف الدولة البارثية في أواخر عهدها ، فأخذت تتمتع باستقلال كبير • ولما كانت الطرق التجارية المارة بين سوريا والعراق عبر وادي الفرات تمر من منطقتها ، لذا اضطر التدمريون والتجار وأصحاب القوافل أن يسترضوا هذه القبائل فيدفعوا لرجالها مبالغ كبيرة لقاء حمايتهم للقوافل ، أي انهم اعترفوا ضمنيا بنفوذهم وسلطانهم •

ويروي الرواة العرب ان هذه القبائل التي استوطنت أطراف الفرات

---

(١) ان كتاب الحيرة ليوسف غنيمة (بغداد ١٩٣٦) هو أوسع ما كتب عنها باللغة العربية وعليه كان اعتمادنا •

هم من التنوخيين[1] الذين هاجروا من اليمن بعد انكسار سد مأرب . ولا ريب ان أدعاءهم هذا غير صحيح ، لان سد مأرب بقي الى منتصف القرن السادس الميلادي ، كما ان الأزد كانت تسكن بعيدا عن منطقة سد مأرب ، وليس لدينا دليل ثابت على ان أصلهم من اليمن ، أو انهم كانوا ينتمون جميعا الى قبيلة واحدة . والارجح انهم كانوا قبائل عدة استقرت « تنوخت » في وادي الفرات ، برئاسة شخصيات قوية واستغلت ضعف الدولة البارثية ، فتمتعت باستقلال ذاتي ، وقامت بحماية القوافل المارة بوادي الفرات ، وانشأت لها علاقات وثيقة مع تدمر .

ويذكر المؤرخون العرب من ملوكهم الاول مالك بن فهم وعمرو بن فهم وجذيمة الابرش[2] الذي عاش في أواخر عهد الدولة البارثية وشهد انحلالها وسقوطها ، وقد استفاد من ذلك فوسع نفوذه على الضفة الغربية للفرات ، كما حاول أن يمد نفوذه الى البحرين جنوبا والى بادية الشام غربا . فلما ظهرت الدولة الساسانية لم يخاصمها كما فعلت معظم القبائل العربية المقيمة بالعراق ، بل حالفها . وقد أقر له الساسانيون بالسلطة ، وتركوه يتمتع بالحكم في منطقة غرب الفرات . ولعل الساسانيين أدركوا ما يجنونه من هذه المحالفة في تأمين حدودهم الغربية وايقاف توغل البدو في العراق ، كما يحتمل أنهم أرادوا استخدامه في حروبهم المنتظرة ضد الروم .

وقد استفاد جذيمة بدوره من محالفته الساسانيين ، فأمن لنفسه صداقة الدولة القوية التي أصبحت منذ ذلك الوقت أعظم دولة في الشرق ولمدة تزيد على ثلاثة قرون ، وهكذا نجا من المصير الذي آلت اليه الحضر أو القبائل العربية التي قاومت حكم الساسانيين كقضاعة فأخرجت من العراق .

ويبدو ان جذيمة تأثر بالاوضاع المحيطة به فأراد أن يصبغ ملكه

---

(١) الطبري ج٢ ص٢٧ .

(٢) الطبري ج٢ ص٢٨ — ٢٩ . المسعودي : مروج الذهب ج٢ ص٩٠ فما بعد . السكري : المحبر ص ٣٥٨ .

بصبغة دينية فتنبأ وتكهن على ما يروي الطبري • وأوجد لنفسه صنمين هما الضيزنان • غير أن حكمه لم يدم طويلا ، اذ قتل غيلة على يد ملكة عربية تدعى الزباء • ومن المحتمل أن الزباء المقصودة هي ملكة تدمر ، وان كانت الروايات العربية لا تنص على ذلك صراحة • وتنسج حول مقتله قصصا طريفة لعلها أساطير مختلفة[١] •

وبموت جذيمة انتقل الملك الى ابن أخته عمرو بن عدي[٢] بن نصر الذي يعتبر مؤسس أسرة آل لخم أو آل نصر التي انحدر منها ملوك المناذرة • وقد اتبع عمرو بن عدي سياسة جذيمة في الانضمام الى جانب الساسانيين ، واستفاد من سقوط الحضر ، وهي الدولة العربية الاخرى في العراق فأصبح أكبر أمير عربي بجانب الساسانيين ، وزاد نفوذه على العرب في العراق واتخذ مقرا له في الحيرة التي أصبحت منذ ذلك الوقت عاصمة المناذرة • ولا ريب ان لموقع الحيرة أهمية كبرى ، فهي تقع في مكان تقترب فيه الصحراء من طيسفون ، هذا الى انها تقع قريبة من المكان الذي يصب فيه الفرات بالبطائح ، فهي لذلك مهمة من الناحية العسكرية والتجارية حيث تتحكم في الطريق التجاري بين جزيرة العرب وطيسفون وفي الطريق النهري المار في نهر الفرات •

وقد أعقب عمرو ابنه امرىء القيس[٣] **(٢٨٨ - ٣٢٨)** وكانت أحوال الدولة الساسانية مضطربة ، اذ هاجمها الرومان واقتطعوا منها بعض المقاطعات ، وجرت فيها فتن كثيرة وخلافات على العرش ، اما الدولة الرومانية فكانت تعاني اضطرابات كثيرة • وقد ساعدت هذه الاحوال أمرىء

---

(١) الميداني : مجمع الامثال ج١ ص٢٤٣ المسعودي : مروج الذهب ج٢ ص٩٠ فما بعد • جواد علي : تاريخ العرب قبل الاسلام ج٣ ص ٩٨ - ١٠١ •

(٢) الطبري ج٢ ص٥٩ ابن الاثير : الكامل ج التاريخ ج١ ص١٣٧ •

(٣) الطبري ج٢ ص٦٥ •

القيس على تقوية نفوذه وتوسيع سلطاته ، فأخضع القبائل العربية في بادية الشام والجزيرة ، كما يدل على ذلك النقش الذي اكتشف على قبره في وادي الصفا بسوريا والذي يذكر فيه انتصاراته وترجمته « هذا قبر امرىء القيس بن عمرو ملك العرب كلهم ، الذي تقلد التاج ، وأخضع قبيلتي أسد ونزار وملوكهم ، وهزم مذحج الى اليوم ، وقاد الظفر الى أسوار نجران مدينة شمر وأخضع معدا ، واستعمل بنيه على القبائل وأنابهم عنه لدى الفرس والروم ، فلم يبلغ ملك مبلغه الى اليوم • توفي سنة ٢٢٣ في يوم ٧ بكسلول • وفق بنوه للسعادة » ويقابل تاريخ وفاته سنة ٣٢٨م[١] •

وقد أعقب امرىء القيس عدة ملوك لم تكن لهم أعمال بارزة ، الى أن جاء النعمان الأعور أو السائح[٢] الذي كون له جيشا قويا مؤلفا من كتيبتين هما الشهباء والدوسر[٣] ، وقد اشتهرت الاخيرة بقوة بطشها ، ومن المحتمل انها نظمت على أسس تنظيم الجيش الفارسي • وكانت تقيم عنده في الحيرة قوة فارسية مكونة من ألف جندي ، ولا ريب أن هذه القوة العسكرية قد أعانته على تقوية نفوذه عند القبائل العربية •

وقد بنى النعمان الخورنق ، وهو قصر فخم تردد ذكره في كتب الشعر والادب العربي ، والارجح ان اسمه فارسي معناه موضع الاكل وقد ظل قائما الى اواخر العصر العباسي ، كما بنى السدير وهو أصغر من الخورنق[٤] •

وقد دفع يزدجرد بابنه بهرام جور الى النعمان ليشرف على تربيته ، فقام بذلك خير قيام وأصبح من مهرة الصيادين • فلما مات يزدجرد وأراد

---

(١) جرجي زيدان ص١٩٠ •

(٢) الطبري ج٢ ص٧٢ ابن الاثير ج١ ص١٥٩ •

(٣) الميداني ج١ ص١٢٤ ابن الاثير ج١ ص١٥٩ الطبري ج٢ ص٧٢ ابن الاثير ج١ ص١٥٩ •

(٤) ياقوت الحموي • معجم البلدان مادة خورنق ومادة سدير • وانظر أيضا ما كتبه لامنس عن الخورنق في دائرة المعارف الاسلامية ، وكذلك يوسف غنيمة : الحيرة ص١٩ ــ ٢٤ •

الفرس اقصاء بهرام جور ، أنجده النعمان بقوة مكنته من استرداد العرش ، وبذلك زادت مكانته في البلاط الساساني •

لا نعلم شيئا محققا عن نهاية النعمان ، اذ تروى الروايات العربية انه في نهاية عمره صدف عن زخرف الحياة الدنيا ، فغادر الحيرة وانطلق سائحا ، فلم يعلم أحد عن مصيره شيئا •

ولما توفي النعمان أعقبه عدة ملوك ساعدوا الساسانيين في حروبهم مع البيزنطيين ، وحاولوا توطيد نفوذهم على قبائل الجزيرة العربية ، واشتبكوا مع بعض هذه القبائل في عدة معارك • ومن أبرز هؤلاء الملوك هو المنذر بن ماء السماء[١] (٥١٤ - ٥٦٣) الذي عاصر حكم قباذ وساعده في حروبه الاولى ضد البيزنطيين ولكن العلاقة ساءت بينهما ، ولعل ذلك راجع الى أن قباذا كان قد ناصر المزدكية واتخذها دينا رسميا[٢] فأراد فرضها على المناذرة ، فأبى المنذر بن ماء السماء الاعتراف بها ، الامر الذي أغضب قباذ ، فعزله وولى مكانه الحارث بن عمرو بن حجر الكندي على الحيرة • وقد لجأ المنذر الى القبائل العربية في الصحراء ، وظل عندهم الى أن مات قباذ وتولى مكانه أنوشروان فقاوم المزدكية ، ثم أرجع المنذر الى حكم الحيرة • وقد انتقم المنذر بن ماء السماء لنفسه فتتبع الكنديين ، وأثار عليهم القبائل وأوقع بهم في يوم مرينا وفي يوم أوارة • والواقع أن دولة كندة كما ستتحدث عنها فيما بعد ، انقسمت على نفسها وتفككت بعد موت الحارث ، وأتاح تفككها للمناذرة فرصة في التوسع في الجزيرة حتى أصبحوا أقوى الدول العربية في الجزيرة وأصبح اسم ملوكهم يتردد ذكره عند الشعراء •

اشترك المنذر بن ماء السماء في الحروب التي وقعت بين الساسانيين

---

(١) الطبري ج١ ص٨٦ - ٩٢ •

(٢) راجع عن حكم قباذ والمزدكية • كتاب كرستنسن : ايران في العهد الساساني : (بالفرنسية) •

والبيزنطيين ، فأيد الساسانيين واشتبك مع الحارث بن جبلة في عدة حروب انكسر في أولها ولكنه ثأر لنفسه وأعاد الهجوم على الغساسنة فانتصر عليهم وأسر منهم أربعمائة امرأة قدمهن ضحايا للألاهةالعزى. ثم تجددت الحرب بينه وبين الحارث بن جبلة الذي هاجم المناذرة واستطاع ابنه أن ينتصر على المناذرة في موقعة عين أباغ التي قتل فيها المنذر نفسه كما تحدثنا من قبل . وفي زمنه قوى نفوذ النصرانية في الحيرة ، فكانت زوجته هند نصرانية واليها ينسب دير هند ، ويقال ان المنذر نفسه تنصر . وينسب الى المنذر الغريان ويوم البؤس والنعيم[1] .

وقد تلاه ابنه عمرو بن هند ، وكان ملكا طموحا قوي الشكيمة ، عاون الساسانيين في حروبهم ضد البيزنطيين ، واستغل اضمحلال دولة كندة ، فوسع نفوذه وسلطانه في الجزيرة ، واشتبك مع تغلب وتميم وطي بمعارك كسرهم فيها . وقد قصده عدد من الشعراء الجاهليين كطرفة والاعشى والنابغة ومدحوه بقصائد عدة ، ولكنه قتل أخيرا على يد الشاعر التغلبي عمرو بن كلثوم الذي لم يتحمل ، فيما يقال ، محاولة عمرو بن هند اذلال أمه .

وقد تلا عمرو بن هند على امارة الحيرة عدد من اخوته أبرزهم أبو قابوس النعمان بن المنذر[2] الذي عاش النابغة الذبياني في كنفه ومدحه بعدة قصائد مشهورة ، كما قصده عدد من الشعراء البارزين وخاصة المنخل اليشكري وطرفة بن العبد ، ويبدو من قصائد هؤلاء مدى روعة بلاط النعمان وأثره في نفوس العرب .

وقد امتد سلطان النعمان جنوبا الى منطقة البحرين ، ولعله امتد غربا

---

(١) الميداني : مجمع الامثال ج١ ص١٠٧ . سيرة ابن هشام ج٢ ص٢٠٣ .

(٢) ياقوت : معجم البلدان مادة غرى .

الى جبلي طي حيث بسط نفوذه عليهم ، ويبدوا انه استفاد في ذلك من ضعف منافسيه الغساسنة وكانت قوافله ولطائمـه تذهب الى الحجاز . وقد أدى هذا التوسع الى احتكاكه مع كثير من القبائل العربية فاشتبك مع بني يربوع في يوم طخفة كما اشتبك مع بني عامر بن صعصعه[١] .

وقد ساءت العلاقة بين أبي قابوس وبين بلاط كسرى لاسباب يختلف المؤرخون في ذكرها ، فذكر بعضهم انها بسبب سجن النعمان أبي قابوس لرجل اسمه عدي الذي كان من مقربي كسرى ثم قتله ، فاستغل ذلك خصوم النعمان واوغروا صدر كسرى عليه[٢] . ولكن أبو حنيفة الدينوري ينقل في كتابه الاخبار الطوال كتابا منسوبا الى كسرى ابرويز يقول فيـه « ... فان النعمان وأهل بيته واطأوا العرب وأعلموهم توكفهم خروج الملك عنا اليهم وقد كانت وقعت اليهم في ذلك كتب فقتلته ، ووليت الامـر اعرابيا لا يعقل من ذلك شيئا » ولعل الدافع الاساسي هو ما جاء في هـذا الكتـاب ، وان قصة عدي ، ان صحت فقد اتخذت حجة عليه[٣] .

ألقى كسرى القبض على النعمان وسجنه وبذلك انتهى حكم المناذرة في الحيرة ، وعين مكانه رجلا من طي اسمه أياس بن قبيصة[٤] ، ويبدو ان أياساً لم يكن محبوبا ولم يتمكن من املاء مركز المناذرة ، اذ كان هؤلاء قد ثبتوا سلطانهم ونفوذهم في الحيرة ، فلم يطق أهل الحيرة احتمال أياس ، لذلك اضطر الفرس الى اسناده بحامية فارسية قوية تشد أزره ، ولـكن يبدو انه لم يستطع أن يجلب القلوب اليه ، فظلوا كارهين للفرس .

أدى زوال أسرة المناذرة الى خسران الساسانيين الواسطة المهمة التي

---

(١) الطبري ج٢ ص١٤٦ ـ ٧ .

(٢) الطبري ج٢ ص١٥٠ ، الاغاني ج٢ ص٢٨ .

(٣) الدينوري : الاخبار الطوال ص١٠٧ ـ ٩ .

(٤) الطبري ج٢ ص١٥٢ ، أغاني ج٢ ص٢١ .

كانت تقف أمام العرب وتسيطر عليهم وتمنعهم من الاعتداء على الامبراطورية الساسانية . فلما زال هذا الحاجز وقفت القبائل العربية وجها لوجه أمام الامبراطورية الساسانية ، ولم تعد هناك قوة تصدهم ، فأخذوا يقومون بالغزوات على أطراف الحدود العراقية ، وساعدهم على ذلك الاضطراب الداخلي والحروب المتعددة والفتن والمنافسات على العرش وضعف الاكاسرة ، فتوغل بعضهم الى داخل بلاد العراق .

ولعل أهم هذه الحروب هي حرب ذي قار التي وقعت بين الفرس وبين العرب من بني بكر وخاصة شيبان . ويذكر العرب انها وقعت عقيب زوال أسرة المناذرة من الحيرة وكنتيجة مباشرة لها ، وذلك لان النعمان أودع سلاحه عند هانيء بن مسعود الشيباني فأراد كسرى استرجاعه بالقوة ولكن هانيء رفض ونشب القتال بينهما وكانت نتيجته انكسار الجيش الفارسي[1] .

ورغم صغر القوة الفارسية التي اشتبكت في القتال ، الا أن أهميتها كبيرة فهي أول اصطدام مسلح مباشر بين العرب والفرس ، وهي أول معركة تنتصر فيها القبائل العربية على الجيش الفارسي ، مما أعطاهم الثقة بأنفسهم فجرأ القبائل الاخرى على الهجوم المباشر على بلاد الساسانيين الغنية ، وكانت بمثابة حركة استطلاعية ومقدمة للفتوح الاسلامية التي اكتسحت امبراطورية الساسانيين . فلا عجب أن يروى عن النبي انه قال « هذا يوم انتصف فيه العرب من العجم » .

وعلى أثر معركة ذي قار التي وقعت في أطراف بادية الحيرة ، أقصى الفرس أياس بن قبيصة عن حكم الحيرة ، وعينوا عليها حاكما فارسيا يحكمها بصورة مباشرة[2] ، الا ان هذا لم يؤد الى تحسين العلاقة بين العرب والفرس .

---

(١) الطبري ج٢ ص١٤٧ ، اغاني ج٢ ص١٣١ فما بعد ابن الاثير ج١ ص١٩٦ - ٧ .

(٢) الطبري ج٢ ص١٥٦ ، ابن الاثير ج١ ص١٩٩ .

أما المناذرة فقد حاول أحد أولاد النعمان واسمه المنذر الغرور تأسيس دولة له في البحرين وقد نجح فعلا في ذلك ، وحد من توغل النفوذ الفارسي في الجزيرة العربية ، ولكن نفوذه لم يكن مكيناً ، اذ كان لرؤساء القبائل سلطان قوي حد من سلطان المنذر ، ولما جاء الاسلام يبسط سلطانه على الجزيرة قاومه المنذر ولكن المسلمين تمكنوا من دحره وتشتيت قواته . فدخلت البحرين حضيرة الاسلام ولم نعد نسمع منذ ذلك الوقت عن المناذرة شيئا .

أما الحيرة فلم يعد لها ذكر حتى جاء خالد بن الوليد العراق فهاجمها وتمكن من احتلالها بعد مقاومة بسيطة وفرض عليها مبلغا من المال تؤديه للمسلمين ، يذكر المؤرخون انه ٩٠ ألف درهم[١] وهو مبلغ ضئيل بالنسبة الى واردات العراق التي كانت تبلغ مائة مليون درهم . والواقع انهم لم يبدوا مقاومة فعالة وأسرعوا في مفاوضة خالد والاستسلام له ، وليس في الاخبار ما يظهر أنه كانت تقيم فيها آنذاك جالية فارسية ، بل ان وفد المفاوضة مع خالد كانوا من الحيريين النصارى .

ويبدو من حوادث غزوات خالد ان الحيرة كانت آنذاك مدينة صغيرة وفيها بعض القلاع والحصون والقصور المنبثة حولها وفيها كانت المقاومة ، كما كان حولها عدد كبير من الأديرة المسيحية . هذا الى بعض الترع والقنوات التي كانت تمتد حولها والتي لابد انها كانت تروي الحقول والمزارع حولها .

وقد تأثرت الحيرة من انشاء الكوفة قربها ، ولكنها لم تندثر اذ ظلت الحياة فيها قائمة نشطة فأفاد أهلها من الفتوح الاسلامية ومن نصرانيتهم . فقاموا بكثير من الاعمال التجارية وشراء الغنائم والصيرفة وربما أعمال البنوك[٢] ، كما كانت مدينتهم مركزا للهو وشرب الخمور

---

(١) الطبري ج٤ ص٥ .

(٢) ابن سلام : كتاب الاموال ص٢٥٣ ، البيروني : الجماهر في معرفة الجواهر ص٦٨ - ٦٩ .

والأنس . هذا الى أن الصناعة فيها ظلت قائمة وخاصة صناعة البسط والوشي . وقد نزلها عدد من الخلفاء العباسيين عند مجيئهم الكوفة ونظم الشعراء كثيرا من القصائد في وصفها[١] .

ولما أنشئت الدولة العباسية وبدأت حركة الترجمة قام سكان الحيرة بقسط وافر من ترجمة الكتب الى اللغة العربية ، وبهذا قدموا أساس الحركة العلمية في الاسلام ، كما أنهم قاموا بالتعليم . وتظهر الكلمات التي استعملوها في الترجمة مدى تفهمهم للغة العربية وأسرارها . ومدى قابلية اللغة العربية على الاستعمال في الفلسفة والعلوم والفنون .

حضارة المناذرة

تقع الحيرة[٢] ، عاصمة دولة المناذرة ، في أطراف العراق في منطقة سهلة منبسطة قريبة من الصحراء ، هواؤها جاف عذب صحي ، ويجري بالقرب منها نهر الفرات الذي يتفرع في أطرافها الى عدة فروع وتأخذ منه جداول وترع تروي تلك المنطقة ، فتجعلها من أخصب مناطق العراق وأكثرها انتاجا . وكانت بعض هذه الأنهار تصل الى الحيرة وخاصة نهر الحيرة ونهر برسف ونهر كافر . وتتجمع هذه الانهار في مجتمع الانهر . وهي تصب في بحر النجف الذي كان مليئا بالماء وتصل اليه السفن البحرية فيما يذكر المسعودي[٣] .

وهكذا اجتمعت في هذه المنطقة نقاوة هواء الصحراء وخصب العراق وتجارة البحر . فلا عجب أن اتخذ المناذرة مقرهم فيها ، وقد دعي هذا المقر الحيرة . وهو في الاغلب مشتق من الكلمة الآرامية حرتا ومعناها المعسكر والمقام . وهي قد تشير الى أنها كانت في البداية معسكرا لهم .

---

(١) أنظر يوسف غنيمة : الحيرة ص١٢ فما بعد .

(٢) راجع المقال الذي كتب عن الحيرة في دائر المعارف الاسلامية ، وما كتبه الواموزيل في كتابه « الفرات الاوسط » ص٢٨٧ فما بعد (بالانكليزية) ، والمقال الذي كتبته في مجلة كلية الآداب عن منطقة الحيرة .

(٣) مروج الذهب ج١ ص١٠٣ .

وقد اتخذها آل لخم عاصمة لهم • وليست لدينا تفاصيل عن أصلها أو عن تطوراتها التاريخية ، ولكن يبدو من ثنايا الاخبار عن تاريخ المناذرة ان أغلب سكانها من العرب البدو • ويقسم المؤرخون سكانها الى ثلاثة أقسام عرب الضاحية والعباد والاحلاف[١] فأما عرب الضاحية فهم من القبائل العربية التي استقرت في الحيرة أو في أطرافها • وكانت تسكن اما بيوت الشعر والخيام وتمتهن الرعي ، أو تستقر وتبني البيوت • ويطلق النسابون عليهم تنوخ ، والراجح ان تنوخ ليست في الاصل قبيلة واحدة كما يزعم النسابون • بل هي مجموعة قبائل تجمعت و « تنوخت » وكونت وحدة وعلى ممر الايام ظن النسابون انها قبيلة تربط أفرادها رابطة الدم • ولا نعلم بالضبط من هي القبائل التي اشتركت وكونت تنوخ وان كان من المحتمل أن يكونوا من مختلف القبائل المجاورة كطي وتميم وأسد وافراد من القبائل الاخرى •

أما العباديون فهم قوم من النصارى على الارجح ينتمون الى قبائل شتى ويجمعهم الدين وعبادة الله والزهد ، ويبدو انه يشيع في تسميتهم اسم عبد • وقد عرفوا فيما بعد بنصرانيتهم وبظهور بعض الشعراء منهم كعدي ابن زيد • وقد لعب العباديون دورا كبيرا في مفاوضة خالد بن الوليد وفي مساعدة المسلمين عند الفتح الاسلامي[٢] •

أما الاحلاف فهم القبائل العربية التي حالفت المناذرة واعترفت بسيادتهم وتجولت في أطراف الحيرة أو استقرت عندها • وهم غير ثابتين ، ويتوقف عددهم على مدى امتداد حكم المناذرة وتجول القبائل ، والراجح انه في أواخر أيام المناذرة كان أهم الاحلاف قبيلة تغلب التي هاجرت بعد حرب

---

(١) الطبري ج٢ ص٥٩ •

(٢) أنظر الاغاني ج٢ ص١١٦ ج٨ ص٧٦ ج١١ ص١٥٦ ابن أبي اصيبعة : طبقات الاطباء ج١ ص١٣٥ ، ١٨٤ يوسف غنيمة ص١٦ •

البسوس في أيام عمرو بن هند واستقرت على ضفاف الفرات شمال الحيرة ، وكذلك بكر وخاصة بني عجل وشيبان .

وبجانب هؤلاء فقد كان النبط وهم سكان العراق الاصليون من بقايا البابليين والسريان وكانوا يمتهنون الزراعة والفلاحة[١] .

يضاف الى ذلك اليهود الذين استقروا بعد السبي البابلي في هذه المنطقة وأنشأوا لهم مدارس وكان لجاليتهم رئيس خاص (راس جانوتا) وفي هذه المنطقة كتب التلمود البابلي الذي يعتبر من أعظم كتب الفقه اليهودية[٢] .

وبجانب هذا فقد أقام الفرس جالية لهم في الحيرة ، ولعل عددا من اصحاب المهن والتجار أقام فيها أيضا .

وبامتداد التجارة الحيرية انتشر الحيريون في مختلف البلاد ويروي بعض المؤرخين العرب « انك لا ترى بلدا في الارض ليس فيه حيري[٣] » . ولعل هذا الانتشار قديم ولكن مصادرنا عنه قليلة .

وقد أبدى المناذرة للساسانيين مساعدات فأيدوهم عند تأسيس دولتهم وساعدوهم في الحروب ضد البيزنطيين ، وصدوا القبائل العربية وضبطوها وحاولوا جلبها الى جانب الفرس . وقد قدر الفرس هذه الخدمات العظيمة وهذا الاخلاص ، فمنحوهم قسطا وافرا من الاستقلال ولم يتدخلوا في شؤونهم الداخلية أو يعرقلوا أعمالهم وأباحوا لهم أن ينشئوا نبلاطهم كثيرا من التقاليد والمراسيم بل أن يزدجرد أرسل ولي عهده بهرام جور ليتربى في الحيرة ، الامر الذي قوى من مركز المناذرة ومتعهم بنفوذ خاص في البلاط الساساني . بل انهم كانوا في بعض الاحيان يلعبون دورا هاما في

---

(١) المسعودي : مروج الذهب ج٢ ص١١٩ .

(٢) نيومان : الحياة الزراعية ليهود العراق حسب ما جاء في التلمود (بالانكليزية) .

(٣) الهمداني : مختصر كتاب البلدان ص٥١ .

الشؤون الساسانية • وقد رأينا كيف ان المناذرة كانوا العامل الاول في تغلب بهرام جور على خصومه وتسنمه عرش الاكاسرة •

وقد عزز هذا جانب ملوك المناذرة وقوى من مركزهم ونفوذهم ، فكانوا يلبسون التيجان ولعلهم كانوا يقيمون ستارة تحجبهم عن زوارهم ، فلا يظهرون شخصيا الا لأشد المقربين اليهم ، وقد اتخذوا لهم حجابا ، وكانت تحيتهم الخاصة بهم (أبيت اللعن) • وكانت لهم روادف وهم كالوزراء في الاسلام• فكان الملك اذا ركب يركب الرديف وراءه واذا جلس جلس الرديف عن يمينه ، واذا شرب سقى الرديف بكأسه بعده ، واذا غاب خلفه ، وكانت الردافة مقصورة على بني يربوع • ولما أراد النعمان أبو قابوس تحويلها الى الحارث الدرامي ثار بنو يربوع عليه ، مما يدل على أهميتها[1] •

أما جيشهم فقد رأينا ان النعمان السائح اتخذ جيشا نظاميا كون منه كتيبتين هما الدوسر والشهباء ، فأما الدوسر فيبدو انها نظمت على الطراز الفارسي وانه كان لها قائدان كما قد يستدل من اسمها ، وقد ظلت الى عهد أبي قابوس حيث كانت تعتبر أخشن الكتائب وأشدها بطشا ، وكانت تجمع من مختلف القبائل العربية وخاصة من قبيلة بكر •

وأما الشهباء فلا نعلم عن أصلها شيئا • ويرى المؤرخون العرب ان اسمها مشتق من البياض لان جنودها كانوا بيض الوجوه • ولكن يوسف غنيمة يرى انها مشتقة من شاه باي أي موطأ الملك • فكأنها قد نظمت على الطراز الفارسي أيضا وانها كانت كالحرس الملكي • والواقع ان هذه الكتيبة كانت في زمن أبي قابوس مكونة من أخوته وبنى عمه وأتباعهم وأعوانهم •

وبجانب هذا فقد كان للمناذرة الرهائن وكانوا حوالي خمسمائة رجل يأخذهم الملك رهائن من قبائل العرب ليقيموا عنده سنة ويستخدمهم في حروبه وغزواته • وهم يتبدلون كل سنة •

---

(١) أغاني : ج٢١ ص١١ • ياقوت ج٣ ص٥١٩ •

ثم الصنائع وكانوا خواص الملك والمقربين اليه وهم من بني قيس بن ثعلبة وبني تيم اللات من بكر ولابد ان هؤلاء قد نشأوا مؤخرا أي بعد هجرة بكر الى أطراف العراق .

ثم الودائع وهم حوالي ألف رجل من الفرس يضعهم كسرى تحت تصرف ملك المناذرة في الحيرة ويبدلون كل سنة[١] .

لقد رقيت الصناعة في الحيرة رقيا كبيرا فازدهرت فيها صناعة الانسجة . وقد ذكر عدد من الشعراء في أشعارهم نساجي الحيرة فقال عمرو بن كلثوم :

واذ لا ترجي سليمى أن يكون لها   من بالخورنق من قين ونساج

كما اشتهرت الحيرة حتى العهد الاسلامي بالوشي بالقصب والتطريز بخيوط الذهب . واشتهر عندهم أيضا نسيج الانماط والطوع الحارية وقد ذكرت في الشعر أيضا فقال النابغة :

والادم قد خيست فتلا مرافقها   مشدودة برحال الحيرة الجدد

وقال آخر :

عقما ورقما وحاريا يضاعفه   على قلائص أمثال الهجائنع

وقال امرؤ القيس :

فلما دخلناه أضفنا ظهورنا   الى كل حاري جديد مشطب

واشتهرت أيضا صناعة الاسلحة فاكتسبت السيوف الحيرية سمعة بين العرب . كما ان الصياغة لابد وانها ازدهرت لتموين بلاط المناذرة بحاجاته من الحلي والزينة والادوات وكذلك لتموين الناس بما يحتاجونه .

وقد عرفوا كذلك في النجارة والتنجيد ، وفي صناعة الخزف وأواني الفخار والنقوش[٢] . وان المكتشفات التي ظفرت بها بعثات الآثار في الحيرة وخاصة بعثة تالبوت رايس ورتلنكر لخير دليل على تقدمها فالآثار

---

(١) الميداني : ج١ ص٨٧ أنظر أيضا غنيمة ص٩٨ .

(٢) راجع عن صناعة الحيرة ما كتبه يوسف غنيمة ص٨١ – ٩٥ .

التي كشفوها في أطلال الحيرة سنة ١٩٣١ وجدوا أن معظم الغرف مزينة بزخارف من جص منقوش نقوشا جميلة ، ومصبوغ بألوان لطيفة بهية ، وأغلبها زخارف من رسوم الازهار والفواكه والبقول . وهي مزيج من الطراز الفارسي والروماني[١] .

أما البناء فقد رقى رقياً عظيما ، فبنوا كثيرا من القصور وأهمها الخورنق الذي بناه النعمان الاعور لكي يقيم فيه بهرام جور . وقد أكثر الشعراء والكتاب من ذكره ونسجوا حول بنائه الاساطير . وقد بقى هذا القصر حتى العصر العباسي ولكن ليست لنا تفاصيل وافية عنه .

أما السدير فقد تردد ذكره أيضا مقرونا بالخورنق وكان على ما يقال مكونا من ثلاث غرف ولعله أساس طراز البناء الاسلامي المعروف بالحيرى ذي الكمين . والذي يتكون من ايوان في صدره غرفة وفي جانبيه غرفتين وهو الذي ظل مستعملا في العراق حتى السنوات الاخيرة .

وبجانب هذا توجد قصور أخرى منها قصر سنداد . والقصر الابيض وقصر الفرس وقصر الزوراء التي بناها النعمان المنذر . وقصر العدسيين وهو أول ما فتحه المسلمون[٢] ، وقصر بني بقيلة ، هذا بجانب عدد كبير من الاديرة[٣] . وقد ذكرت معظم هذه القصور عند الفتح الاسلامي .

عبد سكان الحيرة الاول الاصنام ، فقد روي أن جذيمة الابرش قد تكهن وكان له صنمان يدعيان الضيزنين[٤] . وقد ظل هذان الصنمان

---

(١) لقد نشر تالبوت رايس نتائج حفرياته في مجلة الجمعية الملكية لآسيا الوسطى سنة ١٩٣٢ .

(٢) طبري ج٤ ص٥ فما بعد . انظر ايضا ياقوت : معجم البلدان مادة قصر ويوسف غنيمة ص١٩ ـ ٢٩ .

(٣) عن أديرة الحيرة انظر الشابشتي : كتاب الديارات طبع كوركيس عواد ، وياقوت الحموي مادة دير ويوسف غنيمة ص٤١ ـ ٤٩ . ومقالي عن منطقة الحيرة في مجلة كلية الآداب .

(٤) طبري ج٢ ص٢٩ ـ ٣٠ .

حتى أيام المنذر بن ماء السماء حيث نقلهما وأقامهما على باب الحيرة[١] ، ينحني لهما الداخلون الى المدينة • كما كانوا يحلفون بسبد وهو صنم كان في الحيرة[٢] • ولا نعلم تفاصيل عن هذه الآلهة أو عبادتها • وبجانب هذا فقد كانوا يعبدون العزى ، وقد رأينا كيف ان المنذر بن ماء السماء ضحى لها بأربعمائة من الاسرى •

وقد امتدت اليهم بعض الاديان الفارسية ، فقد حاول قباذ نشر الديانة المزدكية ، ولما حاول المنذر مقاومته أقصاه عن الملك وأتى بالحارث الكندي مكانه كي يعينه هـذا على نشرها ، ولكن ذلك لم يدم اذ أن أنو شـروان أعقب قباذ فاضطهد المزدكية وأعاد المنذر الى العرش • ومن المحتمل أن الزرادشتية كانت موجودة وخاصة بين الجالية الفارسية ، وربما دان بها ايضا بعض سكان الحيرة •

على ان أهم الديانات التي انتشـرت في الحيرة هي المسيحية • ولا شك ان بداية التبشير المسيحي في العراق ترجع الى القرن الاول المسيحي ، حيث جاء اثنان من تلامذة المسيح لنشر الدعوة فيه ، وانشآ لهما مقراً في كسكر (عند واسط) • وقد أخذت المسيحية تنتشر ببطء نظرا للعقبات التي كانت تواجهها ، وقد امتدت الى الحيرة • ويدعي الطبري ان امرىء القيس أول من تنصر من ملوك الحيرة • ولكن أخبـار تنصر الملوك لا تأتي واضـحة الا من عهد المنذر بن ماء السماء الذي يقال انه تنصر وبنى عددا من الاديرة وتزوج هند وهي نصرانية ينسب اليها دير هند •

وقد حدثت منافسة بين النساطرة واليعاقبة على اجتذاب الحيريين اليهم، ولكن النساطرة تفوقوا على اليعاقبة ، فانتشر مذهبهم ، وكان لهم في الحيرة اسقفية واشتركوا في المجامع الكنسية التي كـانت تعقد في طيسفون مركز

---

(١) ابن سيده : المخصص ج١٣ ص١٠٤ •

(٢) اغاني : ج٢ ص٢٠ •

البطريركية • على ان اليعاقبه أنشـأوا لهم أيضا مركزا دينيا في عاقولا (الكوفة) في طرف الحيرة[١] •

ومن مظاهر انتشار المسيحية في الحيرة كثرة الاديرة التي كانت منبثة في أطراف الحيرة وقد ذكر في الاخبار أكثر من عشرين ديراً فيها • وقد كشف الحفريات عن آثار عدد من هذه الاديرة والآثار المسيحية • وكانت هذه الاديرة مراكز للتعليم الديني ، فتخرج منها عدد من رجال الدين المسيحيين الذين احتلوا مكانة عظيمة في تاريخ الكنيسة ، ولابد ان هـذا قد ساعد على رقي نظام التعليم عندهم ، ولدينا بعض الاوصاف للنظام التعليمي في الحيرة من القرن الثاني الهجري حيث كان يتميز باستعمال المختصرات وطريقة الاسئلة والاجوبة[٢] •

وكان التعليم الديني يتطلب معرفة للفلسفة ومباحثهـا التي تتعرض للخالق وطبيعته وصفاته وطرق المعرفة ، لذلك أخذوا يتداولون الابحاث الفلسفية ويدرسون الفلسفة اليونانية التي كانت قد عالجت هذه المواضيع • والواقع انهم درسوا وترجموا كثيرا من الكتب الفلسـفية والدينية الى اللغة السريانية التي كانت شائعة عندهم • ولما بدأ العرب بحركة الترجمة الى العربية في العصر العباسي الاول ، قام سـريان الحيرة بالدور الاول فيها • فنقلوا مئات الكتب ، حتى ان حنين بن اسحق وحده تنسب اليه ترجمة أكثر من مائة كتاب الى العربية• ولم يكن عملهم مقصورا على الترجمة فحسب بل

---

(١) عن المسيحية في الحيرة أنظر : لابور : المسيحية في الشرق في العهد الساساني •

ناو : العرب النصارى في الجزيرة وسوريا في القرن السابع والثامن •
كرستنسن : ايران تحت حكم الساسانيين •
اوليري : جزيرة العرب قبل محمد ص١٢٥ ــ ١٥٠ (بالانكليزية) •

(٢) أنظر ما كتبه ماكس مايرهوف في مقدمة كتاب المقالات العشر في العين لحنين بن اسحق والفصل الذي كتبه في كتاب تراث الاسلام عن الطب والعلوم •

وعلى الشرح والتأليف والدرس سواء في الفلسفة أو الطب أو العلوم الاخرى ، وهكذا كان لهذه المدينة الأثر الاول في نقل تراث الفكر اليوناني الى العرب وفي ترويض اللغة العربية وجعلها أداة ممتازة للتعبير عن الفلسفة والعلوم[١] .

ملوك المناذرة اللخميين[٢]

اسم الملك	مدة حكمه	
	يوسف غنيمة	كوسن دي برسفال
١ ـ عمرو بن عدي	٢٦٨ ـ ٢٨٨	٢٦٨ ـ ٢٨٨
٢ ـ امرىء القيس الاول	٢٨٨ ـ ٣٢٨	٢٨٨ ـ ٣٣٨
٣ ـ عمرو الثاني	٣٢٨ ـ ٣٧٧	٣٣٨ ـ ٣٦٣
٤ ـ أوس بن قلام العمليقي	٣٧٧ ـ ٣٨٢	٣٦٣ ـ ٣٦٨
٥ ـ امرىء القيس الثاني	٣٨٢ ـ ٤٠٣	٣٦٨ ـ ٣٩٠
٦ ـ النعمان الاول السائح	٤٠٣ ـ ٤٣١	٣٩٠ ـ ٤١٨
٧ ـ المنذر الاول	٤٣١ ـ ٤٧٣	٤١٨ ـ ٤٦٢(**)
٨ ـ الاسود	٤٧٣ ـ ٤٩٣	٤٧١ ـ ٤٩١
٩ ـ المنذر الثاني	٤٩٣ ـ ٥٠٠	٤٩١ ـ ٤٩٨

(١) راجع الفهرست لابن النديم ففيه قائمة طويلة بأسماء ما ترجم الى العربية .
ماكس مايرهوف : من الاسكندرية الى بغداد (فصل في كتاب التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية) .
أحمد أمين : ضحى الاسلام : الجزء الاول

(٢) نقلنا هذين الجدولين من كتاب الحيرة ليوسف غنيمة ص٢٤٢ ـ ٣ ، وهي تطابق القائمة التي أوردها جرجي زيدان في كتابه (ص١٨٥ ـ ١٨٦) .

(**) يضيف برسيفال ملكا اسمه النعمان قبل حكم الاسود (١٦٢ ـ ٤٧١) حكم الحارث الكندي بين ٥٢٩ ـ ٥٣١ .

اسم الملك	مدة حكمه	
	يوسف غنيمة	كوسن دي برسفال
١٠– النعمان الثاني	٥٠٠ – ٥٠٤	٤٩٨ – ٥٠٣
١١– أبو يعفر علقمة	٥٠٤ – ٥٠٧	٥٠٣ – ٥٠٥
١٢– امرىء القيس الثالث	٥٠٧ – ٥١٤	٥٠٥ – ٥١٣
١٣– المنذر الثالث بن ماء السماء	٥١٤ – ٥٦٣	٥١٣ – ٥٦٢
١٤– عمرو بن هند	٥٦٣ – ٥٧٨	٥٦٢ – ٥٧٤
١٥– قابوس	٥٧٨ – ٥٨١	٦٧٤ – ٥٧٩
١٦– فيشهرت	٥٨١ – ٥٨٢	——
١٧– المنذر الرابع	٥٨٢ – ٥٨٥	٥٨٠ – ٥٨٣
١٨– النعمان أبو قابوس	٥٨٥ – ٦١٣	٥٨٣ – ٦٠٥
١٩– المنذر الغرور	٦٢٨ – ٦٣٢	٥١٤ – ٦٣١

الفصل السابع

كندة[1]

لقد نشأت كندة في الجزيرة العربية وبسطت نفوذها على القبائل الموجودة فيها بالمحالفات والمصاهرات أو بالقوة . وحاولت توحيد هذه القبائل ونشر السلم والامن . وقد امتد حكمها فترة من الزمن الى الحيرة نفسها ، كما ظهر فيها أعظم شاعر جاهلي وهو امريء القيس .

ويبدو من اسمائهم « شرحبيل ومعد يكرب » أنهم في الاصل من جنوب الجزيرة العربية ، ويؤيد هذا قول امريء القيس :ـ

تطاول علينا الليل دمون دمون انا معشر يمانون وانا لاهلنا محبون

وليس لدينا معلومات عن أصلهم أو البلد الذي جاءوا منه ، اذ أن النقوش والمصادر الاغريقية لا تذكر بوضوح اسم قبيلة كندة في الجنوب ، سوى نقش في مأرب يذكر قبيلة اسمها (كدت) تقطن حضرموت ، الا أنه من الصعب الجزم بأن المقصود بهم قبيلة كندة . ومع اننا نعلم ان قبيلة كندة كانت تسكن عند ظهور الاسلام في حضرموت ، الا ان هذا لا يستلزم حتماً أن يكون أصل كندة من حضرموت اذ يجوز أن تكون قد جاءت الى حضرموت بعد سقوط دولتهم .

أما الاخبار العربية عن نشأتهم فمتباينة اذ أن ابن خلدون يروي أن

---

(١) اعتمدنا في البحث عن كندة على ما كتبه ابو الفرج الاصبهاني في كتاب الاغاني ج٨ ص٦٠ ـ ٧٣ وابن قتيبة في كتاب الشعر والشعراء ص٣٧ ـ ٥٦ ، واليعقوبي في كتاب التاريخ ج١ ص١٧٦ ـ ١٨١ ، وعلى كتاب أو لندر عن « مملكة كندة وأسرة آكل المرار » (بالانكليزية) .

التبابعة حاربتهم ، وأما ياقوت الحموي فيروى ان حرباً نشبت بين حضرموت والسكون وكندة انكسرت فيها كندة واضطرت الى الانسحاب • وقد أدى انكسارها الى التفافها حول ملك واحد[١] ، ولكن ليس في النقوش ما يؤكد هذه الاخبار • ولعل الكنديين كانوا في جنوب اليمن ثم هاجروا بعد الانحطاط الذي أصاب اليمن من جراء تحول الطريق التجاري • غير اننا لا نستطيع أن نعين بالضبط زمن هجرتهم سوى اشارة في معجم البلدان لياقوت يذكر فيها عدة ملوك سبقوا حجر بحوالي قرن أو قرن ونصف من الزمن ، ولما كان حجر قد ظهر في القرن الخامس ، فتكون أول هجرة الكنديين في منتصف القرن الثالث الميلادي •

وليس لدينا من أخبار ملوكهم الاول شيء سوى أسماء وسني حياتهم التي يذكرها اليعقوبي • فهو يقول بأن مرتع بن معاوية حكم عشرين سنة وابنه ثور مات في سن مبكرة ثم تلاه معاوية ثم الحارث الذي حكم اربعين سنة ثم وهب الذي حكم عشرين سنة •

ويجمع المؤرخون العرب على أن حجراً كان أول ملوكهم ، ولكننا لا نعلم شيئاً ثابتاً عن كيفية تعينه فان ابن الكلبي يقول بأن تبعاً عينه عندما كان في طريقه الى العراق • ويروى ايضاً بأن حسان تبع هو الذي عينه ، ولعل كلمة تبع كانت لقبا للملوك العظام ، ومهما يكن فان هذه الروايات تدل على وجود علاقة قوية بين كندة ودولة حمير •

ويبدو أن حجراً وسع سلطته بطريق الزواج ، فيروى ابن الكلبي بأنه تزوج امرأة من تميم هي هند بنت ظالم بن وهب ، كما تزوج بامرأة من حمير وبزوجة ثالثة من شيبان هي أم أياس بنت عوف بن محلم •

---

(١) ياقوت الحموي : معجم البلدان ج١ ص٢٤٧ •

وكان موضع مملكة حجر الكندي في الطرف الغربي المرتفع من هضبة نجد ، على حدود الحجاز الشرقية في منطقة ضريه ، وهي منطقة تتوفر فيها الوديان والآبار والمياه والواحات الخصبة ، كما تكثر فيها مناجم الذهب[١] .

يبدو أن حجراً اتخذ مقره في غمر كندة ، وقام منها بحملات ضد القبائل الساكنة في الحجاز وشمال الجزيرة العربية والبحرين بل وصل في فتوحاته الى حدود دولة المناذرة وانتزع منها بعض الاراضي[٢] . كما أنه بسط نفوذه على بعض أجزاء اليمامة حيث عين ابنه معاوية حاكماً عليها .

ليس لدينا دليل على تاريخ حكم حجر سوى أن حفيده مات سنة ٥٢٨م ، ويمكننا أن نقدر على أساس هذا التاريخ انه عاش في الثلث الاخير من القرن الخامس الميلادي .

وقد اعقبه ابنه عمرو المقصور الذي سمي بهذا الاسم لاقتصاره على ملك أبيه ، على ما يقول ابن الكلبي ، أي ان سلطته كانت محدودة جداً ومقصورة على قبيلة كندة ، اذ فقد سلطته على قبائل ربيعة التي ظهر فيها في هذا الوقت قائد جديد هو كليب التغلبي . على انه حافظ على علاقته الطيبة مع الحميريين ، كما كان مرتبطاً مع المناذرة بأواصر الصداقة والقربى ، فكانت ابنته زوجة المنذر بن ماء السماء وأم النعمان الاسود الذي حكم الحيرة مدة أربع سنوات .

الا أن علاقته مع الغساسنة كانت غير وثيقة . فقد اشتبك مع الحارث ابن أبي شمر في حروب قتل فيها .

وقد أعقبه الحارث بن عمرو الذي يعتبر أقوى ملوك كندة وأبرزهم ، كما ان معلوماتنا عنه أوسع وأوضح ، وقد ورد ذكره في الكتب البيزنطيه ،

---

(١) ياقوت ٢ : ٧٤٦ . وانظر ايضا البكري : معجم ما استعجم مادة ضرية .

(٢) ابن الاثير : الكامل ج١ ص٣٧٥ .

فيقول المؤرخ ثيوفانس بأن رومانوس حاكم فلسطين في عهد الامبراطور انستاسيوس كسر سنة ٤٩٧م قائدين عربيين ، فطرد الحارث بن جبلة وأسر الحارث،وبعد أربع سنين قام أخوه معد يكرب بهجوم انتقامي على فلسطين، الامر حمل انستاسيوس على أن يعقد صلحاً مع الحارث بن عمرو لتأمين المدن السورية • ولعل هذا الحلف موجه ضد الساسانيين والمناذرة ، ويشير المؤرخ البيزنطي ملالاس الى تاريخ وفاة الحارث •

وقد حكم الحارث مدة طويلة من الزمن تزيد على الاربعين عاما ، وتوسط بين بكر وتغلب وعقد بينهما صلحا انتهت به حرب البسوس التي دامت بينهما أربعين سنة انهكتهما جميعا ، وقد بسط سيادته على قبيلة بكر بعد ذلك •

استغل الحارث فرصة ضعف ملوك المناذرة وسوء علاقتهم مع الساسانيين في زمن قباذ • فاستطاع أن يصبح ملكا على الحيرة مدة من الزمن بتأييد من قباذ • ويبدو أن قباذا كان يريد أن يستغل نفوذ الحارث لاخضاع القبائل العربية ، وخاصة بكر وتغلب التي أخذت تنزح الى أطراف العراق ، على ان الحارث لم يتخذ الحيرة مركزا له بل كان يتجول أطرافها ولعل ذلك راجع الى كره أهل الحيرة له ، والواقع انهم لم يذكروا اسمه في قائمة ملوكهم • ويقال أن قباذا حاول اقناعه باعتناق المزدكية ولكنه لم يفلح ، فعزله •

ثم حاول على أثر ذلك أن يتفق مع البيزنطيين ، ولكن ليست لدينا معلومات واضحة عنه وعن علاقته بالحارث بن جبلة الذي عينه البيزنطيون ملكا على العرب في دولتهم • وقد اشار امرؤ القيس الى مطاردة أنو شروان لـه •

الا يا عين بكي لي شنينا ... وبكي لي الملوك الذاهبينا
ملوكاً من بني حجر بن عمرو ... يساقون العشية يقتلونا
فلو في يوم معركة اصيبوا ... ولكن في ديار بني مرينا

وقد ارتبط الحارث مع عدة قبائل برابطة الزواج فتزوج أم قطام بنت سلمة بن الحارث بن معاوية فولدت له حجراً ، واختها أسماء فولدت له شرحبيل ومعد يكرب ، وجاريتهما فولدت له سلمة ، كما تزوج بنت عوف بن محلم فولدت له عمرو .

ولى الحارث ابان حكمه أولاده على القبائل التي يحكمها بعد أن احتفظ لنفسه بحكم كندة . وتتفق أغلبية الروايات على انه :

عين حجراً على أسد وكنانة وغطفان ، وهم يقطنون عند وادي الرمة بين جبل شمر وخيبر ، اي في الشمال الغربي من نجد .

وعين شرحبيل على بكر وحنظلة والرباب وتميم ، وهم يقيمون في شرقي نجد بين الفرات والبحرين .

وعين سلمة على تغلب والنمر بن قاسط ومساكنهم بادية الشام .

ومعد يكرب على قيس عيلان وهم يقطنون في تهامة وأطراف الحجاز .

ومن هذا يتجلى مدى سعة سلطان الحارث وامتداد حكمه الى نجد وأطراف الحجاز والبحرين واليمامة .

لقد كانت مناطق حجر ومعد يكرب عند حدود الدولة البيزنطية ، لذا كانت لهما علاقة بها ، وقد ذكر المؤرخ ثيوفانس بأنهما قاما بحملة ضد فلسطين .

كان حجر أكبر اخوته ، وكانت له بعض الاقدمية عليهم .

وتختلف الروايات في كيفية مقتله ، فيروى عدد من الرواة ان حجرا أرسل جباة لأخذ الاتاوة من أسد ، فرفضت هذه القبيلة ، فتقدم اليهم حجر بجيش من ربيعة وقيس وكنانة ، وأسر رؤساءهم وقتل كثيرا منهم بالعصا فسموا عبيد العصا ، ثم نهب أملاكهم وأمرهم بترك تهامة ، ولكن عبيد بن الابرص ألقى بين يديه قصيدة استعطفه فيها ، فعفا

عنهم . ثم أن كاهناً لأسد تنبأ بموت حجر فقويت معنوياتهم وركبوا خيولهم وأعادوا عليه الكره فقتلوه ، ودعوا كنانة وقيسا لمناصرة اخوانهم بدل أن يناصروا غريبا ، فثارت هاتان القبيلتان ونهبت متاع حجر . ويقول بعض الرواة بأن حجرا شعر بخطر أسد فأرسل ثقله الى بعض التميميين ووعد قبيلة أسد أن يتركها اذا سمحت له بمغادرة البلاد فرضوا بذلك ولكن بعض الاسديين قتلوه في طريق عودته . ويروى البعض ان بني اسد لما سمعت بموت الحارث ثاروا على ابنه حجر وأسروه ثم قتله علباء . وفي رواية أخرى أن حجرا جهز جيشا ليحارب أسدا ولكن علباء قائد بني اسد عاجله فقتله .

أما ابن قتيبة فيقول بأن حجرا ظلم أسد فتذمرت منه ، وشعر بالخطر فطلب من قبيلة حنظلة المساعدة ولكن هذه اتخذت موقف الحياد ، مما أضعف مركز حجر فانكسر في المعركة ولكنه قتل أثناء هروبه . وقد أشار امرؤ القيس الى قتل علباء لحجر بقوله :

وقصده ابن قيس بن كاهل منية حجر في جوار ابن جدان

أما شرحبيل وسلمة فقد حكما ربيعة وتميم اللتين كانتا تقطنان شرقي نجد . وقد دب الخلاف بين الاخوين بعد موت أبيهما ، وربما كان للمنذر ابن ماء السماء أثر في توسيع شقة الخلاف بينهما ، اذ يروي انه دس لكل من الاخوين من يفهمه أن الآخر يريد الاتفاق مع المنذر مما آثار ضغينتهما وقد أدى هذا الخلاف الى اشتباكهما في القتال .

أما معد يكرب فيقال أنه جن .

وقد حاول امرؤ القيس ، وهو أصغر أولاد حجر ، أن يثأر لمقتل أبيه ويسترجع الملك ويعيد لم شتات الكنديين . وامرؤ القيس لقب له . أما اسمه الاصلي فمختلف فيه ، فهو يروي حندج أو عدي أو

مليكة أو سليمان ، وأمه مختلف في اسمها فمنهم من يقول انها فاطمة أخت كليب والمهلهل التغلبيين ومنهم من يقول ان اسمها علباء . وقد ولد في بني أسد كما تدل على ذلك كثرة ورود أسماء بلادهم في شعره . وقد غضب عليه أبوه لسبب يختلف الرواة في ايراده فيروى البعض ان أباه غضب عليه لأنه أحب الشعر ويروى آخرون ان سبب ذلك ما ذكره امرؤ القيس بما حدث في يوم دارة جلجل . ولعل سبب غضبه عليه تكلمه في زوجات أبيه ، فانضم الى صعاليك العرب من طي وبكر وكلب . ويروى بعض الرواة بأنه التجأ بعد طرده الى عمه شرحبيل في بني دارم وظل هناك الى أن قتل شرحبيل ، ويذكر آخرون بانه كان مع أبيه عند هجوم بني أسد عليه وانه فر على حصانه ، ويروي ابن الكلبي بان امرىء القيس بعد ان طرده أباه ذهب الى دمون التي ذكرها في شعره مرتين .

كأني لم ألهو بدمون مرة ولم أشهد الغارات يوماً بعندل

تطاول علينا الليل دمون دمون انا معشر يمانون وانا لاهلنا محبون

ويضيف ابن الكلبي الى انه عند مقتل أبيه جاءه رسول يبلغه الخبر وقد أشار الى ذلك بشعره :

أتاني وأصحابي على رأس صيلع حديث أطال النوم عني فأنعما

فقلت لعجلي بعيد ما به ابن لي وبين لي الحديث المجمجما

فقال أبيت اللعن عمرو وكاهل أباح حمى حجر فأصبح مسلما

أما الهيثم بن عدي فيقول بأن امرىء القيس كان في حنظلة عند قتل أبيه ويلاحظ أن بقية أولاد حجر لم يحاولوا الثأر لأبيهم ولم ينضموا الى امرىء القيس في محاولته .

حاول امرؤ القيس أن يجلب تغلبا وبكرا الى جانبه .

ومهما يكن فقد عرفت قبيلة أسد باستعدادات امرىء القيس ، وحاولت تفادي الحرب ، فأرسلت كبار رجالها يسترضونه ولكنه امتنع عن مقابلتهم ثلاثة أيام فلما سألوا عن السبب أخبروهم بأنه يستعد للحرب • ويقول ابن الكلبي بأن بني أسد لما فقدت أملها من استرضائه هاجرت من دارها فلم يلقها امرؤ القيس وهاجم كنانة للثأر من أبيه وقد اشار الى ذلك بشعره :

ألا يا لهف هند أثر قوم　　　هم كانوا الشفاء فلم يصابوا

وقاهم جدهم ببني أبيهم　　　وبالاشقين ما كان العقاب

وأفلتهن علباء جريضا　　　ولو أدركته صفر الوطاب

وقد لحق امرؤ القيس بأسد وقتل بعضهم ، ولكن بكرا وتغلبا أبتا أن تستمرا بمطاردتهم لانهما رأتا انه قد أخذ بثأره • وقد ذهب امرؤ القيس الى أزد شنوءة يطلب معونتها فرفضت معاونته ضد حليفتها أسد نذهب الى مرثد ذو جدن أحد أقيال اليمن • ولكن مرثدا مات وخلفه قرمل الذي تلكأ في ذلك وحاول أن يصده فقال :

واذ نحن ندعو مرثد الخير ربنا　　　واذ نحن لا ندعى عبيداً لقرمل

وقد اضطر قرمل بعد هذا أن ينجده بقوة سار بها للانتقام من أسد • وقد مر بوادي بيشة فوقف يستخير ذا الخلصة • فلما كانت الاستخارة ضد ما يريد ضرب الصنم وقال :

لو كنت ياذا الخلص الموتورا　　　مثلي وكان شيخك المقبورا

لم تنه عن قتل العداة زورا

ولكنه لم يستطع أن ينتقم من أسد لان المنذر بن ماء السماء كان قد بسط نفوذه على الجزيرة فاحتمت به أسد ، وخشي من معه من الجيش

بطش المنذر وتفرقوا الا عدداً قليلا من المخلصين ، فأخذ يتنقل في القبائل يطلب معونتهم وعونهم دون جدوى ، وقد أشار في شعره الى استجاده بالعشائر ، وخاصة المعلى الجديلي :

كأني اذ نزلت على المعلى نزلت على البواذخ من شمام
فما ملك العراق على المعلى بمقتدر ولا الملك الشامي
أصد نشاص ذي القرنين حتى تولى عارض الملك الهمام
أقر حمى امريء القيس بن حجر بنو تيم مصابيح الظلام

ثم اشار عليه السموأل بالاستنجاد بالروم ، فسار الى القسطنطينية مارا ببعلبك وحمص وحماه وشيزر كما ذكر ذلك في شعره :

لقد انكرتني بعلبك وأهلها ولابن جريج كان في حمص أنكرا
تقطع أسباب اللبانة والهوى عشية جاوزنا حماة وشيزرا

لا يذكر امرؤ القيس فيما حفظ من شعره شيئاً من مقابلته للقيصر ولكن الكتب العربية تروي بأن قيصر تلكأ في مساعدته ، وكان في القسطنطينية بعض أنصار بني أسد أثاروا عليه القيصر ، فأعطاه حلة مسمومة تسمم جسمه منها بعدما لبسها • ولا ريب ان على حديثهم هذا مسحة اسطورية وهو يدل على ان القيصر لم ينجده فمات هناك • ولعل القيصر لم يرد أن يغامر بارسال جيش مع عربي ليس له من يسنده ليحارب لمصلحة هذا العربي فقط ، لا لمصلحة الروم أنفسهم • هذا الى ان الغساسنة كانوا لما يزالوا محالفين للروم يقومون لهم ببسط النفوذ على القبائل ويعينوهم في حربهم ضد المناذرة والساسانيين •

لا تدل الاخبار على انه كان لكندة مستوى راق من الحضارة المادية ، أو انهم ادخلوا الى الجزيرة دينا أو ثقافة جديدة • كما ان نظمهم البدوية لم تكن تختلف كثيراً عن نظم القبائل الاخرى • غير انهم انتجوا أعظم

شاعر عربي جاهلي هو امرؤ القيس الذي أدخل في الشعر العربي فنوناً وأبواباً جديدة • ولا ريب ان ظهوره في كندة يدل على ان الحركة الادبية ونظم الشعر كان راقياً فيها ومن المحتمل انهم كانوا موئل الشعراء وملجأهم • فلما انقرضت دولتهم توجه الشعراء صوب المناذرة يقصدونهم • والواقع ان كل الشعراء الجاهليين البارزين نشأوا في مناطق كانت كندة تبسط نفوذها عليها • هذا الى أن هؤلاء الشعراء لم يقصدوا المناذرة الا بعد سقوط دولة كندة •

لم يحاول الكنديون في تنظيمهم السياسي أن يغيروا النظم السياسية القبلية ، فتركوا كل قبيلة تحتفظ بتنظيماتها وتقاليدها بل ورؤسائها مكتفين بالاعتراف برئاستهم العليا ، وبذلك كونوا نوعا من الاتحاد **Confederation** كانت كندة رأسه ومنظمته وموجهته ، فنظامها الذي اتبعته أقرب الى مجلس هيئة الامم ، أدى الى نشر الامن والسلم والحد من الخصومات والحروب الطاحنة في الجزيرة • فلما انقرضت دولة كندة حلت دولة المناذرة محلها مدة قصيرة ثم سقطت فتفككت القبائل البدوية واستقل كل منها في شؤونها الداخلية وأخذت تتبع مصالحها الخاصة ، وكثيراً ما كانت تحارب القبائل الاخرى • مما أدى الى اضطراب الامن والنظام وأرهاق كثير من القبائل وتركها بحالة اعياء ، الامر الذي ساعد الاسلام في محاولته لضم الجزيرة العربية اليه •

الفصل الثامن

مكة

أهميتها :

لمكة أهمية كبيرة في التاريخ العربي والاسلام ، فقد ولد فيها النبي وعاش وبلغ رسالته لمدة عشر سنوات ، وكان لأوضاعها الدينية والاجتماعية الاثر الاكبر في تكوين آرائه ومعتقداته • فقد أقر الاسلام بعضها ، وعدل بعضاً ، وهاجم الكثير مما كان سائداً فيها من معتقدات وأوضاع • فمعرفة أحوالها اذاً ضرورية لفهم الاساس الذي قام عليه الاسلام الاول • وقد كانت في مكة عند ظهور الاسلام ادارة خاصة لا تعتمد على السلطة الرادعة بل على الاقناع ، كما كانت مركزاً تجارياً نشطاً وسع أفق نظر أهلها وأعانهم على الاطلاع على البلاد المجاورة وأحوالها ، هذا الى انها كانت من أكبر المراكز الدينية في الجزيرة ، يؤمها عدد كبير من مختلف أنحاء الجزيرة من القبائل المختلفة ، وقد ساعد هذا على اكساب أهلها سعة نظر ومرونة في معاملتهم الناس • فكانت مكة مدرسة دربت اداريين استطاعوا بعد الفتح الاسلامي أن يديروا الامبراطورية الجديدة بنجاح وتوفيق •

مناخها :

وتقع مكة في منطقة جافة مناخها قاري حار جداً في الصيف وكان القرشيون يعذبون بعض المسلمين الاول بايقافهم في رمضاء الصيف • غير ان جفاف المناخ أدى الى جعلها صحية فكانت خالية من الاوبئة ، وخاصة الملاريا التي كان يعاني منها سكان المناطق ذات المياه الوفيرة كخيبر ويثرب •

وأمطارها قليلة ، وقد تمر سنوات بدون أن يسقط أي مطر لذلك كانت مياهها شحيحة ، وأعتمد سكانها على مياه الآبار للشرب ، ولكن معظم هذه الآبار ذات مياه مالحة ، ومنها بئر زمزم . وقد ألقت قلة المياه على المسؤولين عن ادارة مكة عبء ايجاد المياه لها ، فحفروا فيها كثيراً من الآبار[١] ، وعينوا رجلا أودعوا له مهمة تدبير سقاية الحجيج ، وكثيراً ما كانوا يضطرون الى مزج الماء بالزبيب كيما يجعلوه صالحاً للشرب[٢] .

غير انه اذا سقطت الامطار ، وخاصة في الشتاء وأوائل الربيع ، فانها تكون غزيرة وتسيل المياه من الجبال الى الوديان والشعاب ، مكونة سيولا قوية جارفة تهدد الابنية في بطون الوديان ، وكثيراً ما كانت تجرف الكعبة ، وقد حاول البعض اقامة بعض السدود لايقاف السيول كي تقي محلاتهم ، فمن ذلك ردم بني جمح وردم آل عبدالله ، ثم أقام عمر بن الخطاب سداً كبيراً استعان في بنائه بمهندسين وبنائين من العراق[٣] .

لا تكفي هذه المياه للزراعة ، لذلك كانت مكة « في واد غير ذي زرع » الا انه قد تنبت بعض الاعشاب مدة قصيرة من السنة فتكفي لرعي المواشي ، وقد تنبت بعض الشجيرات الصحراوية في الجبال المحيطة بها . ويروى ان قصياً عندما أراد بناء الكعبة اقتطع شجيرات كانت قائمة هناك[٤] . غير ان هذه لم تكن تكفي لسد حاجة السكان في المواد الغذائية . لذلك كانوا يضطرون الى استيراد الاغذية من البلاد الاخرى وخاصة من الطائف واليمامة ، مما جعل المواد الغذائية تتوفر فيها ، وقد أشار القرآن الى ذلك « رب اجعل هذا البلد آمناً وارزق أهله من الثمرات » (البقرة ١٢٦) .

---

(١) الازرقي : اخبار مكة ج١ ص٦٤ - ٦٥ ج٢ ص١٧٢ - ١٨٣ خاصة .

(٢) كذلك ج١ ص٦٥ .

(٣) راجع عن السدود : الازرقي ج٢ ص١٤٢ - ٤ اما عن الردم فراجع ما ذكره في ص١٦٥ - ٦ .

(٤) ابن اسحق : في الطبري ج٢ ص١٨٤ سيرة ابن هشام ج١ ص١٣٧ .

التجــارة :

وقد أدت هذه الاحوال الجغرافية الى اتجاه سكانها نحو التجارة ، وساعدها على ذلك كونها واقعة على الطريق التجاري البري بين اليمن والهلال الخصيب ، وهو يفضل طريق البحر الاحمر الذي تتعرض السفن فيه لخطر الجزر المرجانية الكثيرة • وقد أصبحت منطقتها حرماً مقدساً منع فيه قتل الحيوان أو قطع الشجر ، وكانت مساحته عند ظهور الاسلام تبلغ حوالي ١٢٥ ميلا مربعا[١] • وكانت تتخذ محطة للقوافل منذ قديم الزمن ، ولا أدل على قدسية هذا المكان من تسميته في كتب اليونان باسم مكارابو التي تعني بلغة الحميريين المقدس •

ويبدو ان أهميتها التجارية قد جلبت أنظار الدول المجاورة ، وخاصة البيزنطيين اليها ، فاستولى عليها أليوس كالوس في طريقه الى اليمن[٢] ، كما ان قصيا عندما قام بانتزاع ملك مكة من خزاعة ، استعان بقضاعة[٣] التي نشأ فيها والتي كانت ضمن نطاق حكم البيزنطيين ، وقد حاول أبرهة الاستيلاء عليها بتحريض من البيزنطيين كما ان عثمان بن الحويرث الاسدي اعتمد على مساندة البيزنطيين عندما حاول أن يضع مكة تحت نفوذهم[٤] • ويروي الطبري في تفسير آية « ألم غلبت الروم وهم من بعد غلبهم سيغلبون » ، بأن قريشاً كانت تميل الى الفرس[٥] ولعل ذلك راجع الى ارتيابهم في نوايا الروم •

وقد أخذت أهمية مكة بالازدياد منذ القرن الخامس عندما سقطت الدولة الحميرية بيد الاحباش ونشبت بين الفرس والبيزنطيين حروب دامية

---

(١) أنظر في حدود الحرم : الازرقي ج٢ ص١٠٤ •

(٢) أنظر ص١٧ •

(٣) الازرقي : ج١ ص٥٧ ـ ٥٨ طبري ج٢ ص١٨٣ • ويقول ابن قتيبة ان قيصر (ملك البيزنطيين) هو الذي أعانه ، (المعارف ص٢٧٩) •

(٤) مصعب الزبيري : نسب قريش ص٢١٠ • شفاء الغرام للفاسي ص١٤٣ ـ ٤ •

(٥) الطبري : تفسير القرآن ج٢١ ص٣ ـ ٤ •

مما عرقل التجارة العالمية المارة بالعراق ، وحمل البيزنطيين على الاهتمام بطريق البحر الاحمر الذي لم يكن تحت النفوذ الساساني . ومع ان أنو شروان أرسل حملة احتلت اليمن ، الا أنه لم ينجح في ايقاف التجارة ، لان اليمن كانت بعيدة عن بلاد الفرس فلم يكن بمقدور الملك الساساني أن يوطد نفوذه فيها ويقضي على تجارة البيزنطيين . لذلك ظلت التجارة نشطة بين اليمن وسوريا تمر في مكة .

على ان المكيين لم يكتفوا بأن تكون مدينتهم ممراً للقوافل فقط ، بل ساهموا بأنفسهم في النشاط التجاري ، ولا أدل على ذلك من كثرة التعابير المالية والتجارية التي استعملها القرآن كالحساب والميزان والقسطاس والذرة والمثقال والقرض[1] ، وقد ساعدها ذلك كونها مركزاً دينياً يحج اليه سنوياً عدد كبير من العرب ، وبذلك يتيحون للمكيين سوقا تجارية للمبادلة والاستهلاك . كما انهم مدوا تجارتهم الى الاقطار الاخرى في سوريا واليمن والحبشة والعراق .

العـراق :

فأما مع العراق فقد كانت تجارتهم بصورة خاصة مع الحيرة ، والواقع ان المناذرة استطاعوا أن يمدوا نفوذهم التجاري الى أواسط وجنوب وغربي الجزيرة العربية ، وكانوا يرسلون قوافل تجارية الى الاسواق الرئيسية ومنها عكاظ ، وكانت تسمى اللطائم وهي تحمل المسك والمنسوجات ، وربما بعض المنتوجات التي يستعملها العرب . وكانوا يأخذون لها الادلاء والخفراء ويؤمنوها من هجمات القبائل الساكنة على طول الطريق التجاري[2] . وبجانب هذا فقد كان التجار المكيون أنفسهم

---

(١) لقد جمع توري وحلل « التعابير التجارية في القرآن » بكتاب موسوم بهذا الاسم (بالانكليزية) .

(٢) راجع مصعب الزبيري ص١٣٦ الاغاني ج١٩ ص٧٥ ج٢٠ ص١٣٤ ابن سعد ج٢ ص٦ وقد بحث لامنس في كتابه « مكة في أيام الهجرة » (بالفرنسية) وفي مقالته عن مكة في دائرة المعارف الاسلام أحوال مكة ونشاطها التجاري بالتفصيل .

يذهبون الى الحيرة ليتاجروا معها حتى بعد انقراض دولة المناذرة ٠

الشـام :

فأما مع الشام فقد كانت علاقتهم وثيقة أيضا حيث كانوا يصدرون لها بضائع الهند واليمن ، ويستوردون منها الزيت والحبوب والخمر ، وربما الاسلحة والجواري والمنسوجات ٠ والواقع انه كان في مكة عند ظهور الاسلام عدد من الاغريق العبيد والمحررين منهم صهيب وسنان وزيد بن حارثة ربيب النبي ٠ وكانت القوافل التجارية تذهب اليها سنوياً في الصيف ، وكل قافلة تضم أعدادا ضخمة من الرجال ، وكانت تجاراتهم تذهب الى غزة حيث دفن هاشم جد النبي ، والى أيلة وبصرى ، فكانت الاولى ميناء فلسطين وربما كانت الثانية مركزاً تنقل منه البضائع الى مصر ٠ ولا يخفي انه كان للعرب تجارة مع مصر وكان المكيون يذهبون اليها ومن اشهر من كان يذهب اليها في الجاهلية عمرو بن العاص ٠

الحبشـة :

ولم تؤثر غزوة أبرهة على تجارة مكة مع الحبشة كثيراً ، بل سرعان ما عادت الى الانتظام الذي كانت عليه في السابق ، فكانت أرض الحبشة « متجراً لقريش يتجرون فيها ورفاغا من الرزق وأماً ومتجراً حسناً »[١] وكانوا يصدرون لها الادم[٢] وقد اختارها المسلمون الاولون ملجأ لهم من اضطهادات قريش ، كما ذهب اليها وفد من أهل مكة الى النجاشي يطلب

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٣١٨ ٠
(٢) طبري ج ٢ ص ٢٣١ ٠

ردهم . وقد ذهب اليها عمرو بن العاص كذلك[١] . وكانت هذه التجارة تجري بطريق البحر ، فكانت الجار ميناء المدينة[٢] والشعيبة ميناء مكة[٣] . وقد تردد ذكر السفن والجواري المنشآت في البحر في القرآن ، كما تردد فيه ذكر تجارة البحر وما اليها . والراجح ان المكيين لم يكونوا ملاحين أو ملاكين للسفن ، ويبدو أنهم كانوا يجهلون الملاحة ويتهيبون ركوب البحر ، فأغلب السفن في البحر الاحمر لابد وان كانت مصرية أو حبشية أو عدولية[٤] (ميناء الصومال) وقد بنى القرشيون الكعبة بأخشاب سفينة حبشية تحطمت على ساحلهم[٥] ، وجاء عدد غير قليل من أهل اليمن الى الحجاز بالبحر .

اليمـــن :

أما تجارة اليمن فكانت تجري في الشتاء وكانت أغلبها من العطور والجلود والاقمشة والسيوف .

التجـــارة :

لقـد اشتهر المكيون بالتجارة فمن لم يكن تاجـرا لم يكن عندهم بشيء[٦] ، وقد قيل ان تسعة أعشار الرزق في التجارة . وكانت تجاراتهم متنوعة . وقد عدد بعض المؤرخين التجارات التي كان يمتهنها أشراف مكة

---

(١) طبري ج ٢ ص ٢٢٥ ج ٣ ص ١٠١ اغاني ج ٨ ص ٥٢ . سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٣١٨ .

(٢) ياقوت معجم البلدان ج ٢ ص ٥ ، البكري : معجم ما استعجم ص ٣٢٥ . ابن حوقل : المسالك والممالك ج ١ ص ٣١ .

(٣) أنظر عن الملاحة البحرية عند ظهور الاسلام كتابي : التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ص ٢٢٤ فما بعد .

(٥) طبري ج ٢ ص ٢٠٠ الازرقي ج ١ ص ٩٩ ، ١٠١ ، ١٠٤ .

(٦) أغاني ج ١١ ص ٦٧ .

فهي منوعة فمنهم تاجر الارز والحبوب والخياطة والحياكة والخمر والزيت والاسلحة والسيوف والنبال[١] • ولم تكن التجارة مقصورة على الرجال بل شاركت فيها النساء ، ولعل أبرز مثل على ذلك خديجة زوجة النبي وهند بنت عبدالمطلب • وقد نقل المهاجرون مهارتهم في التجارة معهم الى المدينة فجعلوها مركزا تجاريا ينافس مكة بعد أن كانت بلدا زراعيا • وقد ضرب المثل بمهارة بعضهم في التجارة فقيل عن عبدالرحمن بن عوف انه كان يحصل الذهب من الحجارة[٢] • ورغم انهم جاءوا المدينة ولا مال لهم فقد استطاعوا بمدة وجيزة أن يحصلوا على ثروات طائلة ، فاستطاع عثمان ان يجهز في حملة تبوك الف بعير[٣] ، وجهز عبدالرحمن بن عوف عددا من الجمال كذلك •

وكان بعض هؤلاء التجار يقوم بالتجارة لنفسه مستقلا ، ولكن الغالب ان التجارة الخارجية كان يساهم فيها عدد كبير ، فالقافلة التي هاجمها المسلمون في ذي قرد بلغ خمسها عشرين الفا[٤] ، أي ان تجاراتها كانت حوالي مائة الف ، كما ان القافلة التي هاجمها المسلمون في بواط كانت مكونة من الفين وخمسمائة بعير[٥] ، ويقال ان القافلة التي أرادوا مهاجمتها في بدر « لم يكن من قريش بيت الا وله فيها شيء »[٦] • وكان أصحاب التجارة يسيرون مع القافلة أو يرسلون شريكا لهم او أجيرا ، أو عبدا ، على أن القوافل كانت تنظم بصورة اجماعية ، فيعين لها رئيس وحراس وأدلاء وأناس يعملون فيها ، هذا الى عدد من التجار الذين يرافقونها ، ويمهد لسيرها عادة باتفاقات دبلوماسية مع رؤساء القبائل التي تمر فيها

---

(١) ابن قتيبة : المعارف ص ٢٤٩ •
(٢) ابن حنبل : المسند ج ٣ ص ٢٧١ ج ٦ ص ١١٧ •
(٣) أغاني : ج ١٣ ص ١ ـ ٥ •
(٤) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج ١ قسم ٢ ص ٢٥ • المسعودي : التنبيه والاشراف ص ٢١٠ •
(٥) ابن سعد : ج ١ قسم ٣ ص ٢ • المسعودي : ص ٢٠٢ •
(٦) ابن سعد : ج ١ قسم ٢ ص ٢ •

لكي لا تنهب أو يعتدي عليها • وكذلك تجري اتصالات مع الدول التي تقصدها ، وتدعى هذه الاتفاقات بالايلاف ، وقد ذكرها القرآن في سورة خاصة ، ويروى ان أول من أخذ الايلاف هاشم[١] •

وكان بعض التجار يتخذون لهم شركاء[٢] بشروط مختلفة لا نعلم عن تفاصيلها شيئا سوى شركة القراض التي يعطى فيها الغني مالا لرجل يستعمله في التجارة على أن يقتسما الربح بنسبة يتفقان عليها • ومن المحتمل أن بعضهم انشأ له فروعا تجارية في البلاد التي كان يتاجر معها ، هذا الى أن بعض أهل البلاد الاخرى انشأوا لهم في مكة فروعا تجارية مستقلة أو بالاشتراك مع المكيين • والراجح ان أغلب الحلفاء في مكة كانوا من هؤلاء الوكلاء التجاريين ، ولدينا أسماء عدد منهم •

الصيرفة :

لم يقتصر نشاط أهل مكة على التجارة فقط بل قاموا بأعمال الصيرفة كذلك • وقد استفادوا من موقعهم المتوسط بين الامبراطورية الساسانية التي تعتمد على الدراهم الفضة ، والبيزنطيين الذين كانت عملتهم الاساسية هي الذهب ، فأخذوا يقومون بأعمال الصيرفة • وكان لاستقلال مكة أثر في اعطائها حرية واسعة في مبادلة العملة بدون قيد ، اذ لم يكن يفرض على العملة سعر رسمي ، بل كانت تقدر قيمتها بحسب وزنها باعتبارها معدنا • وهكذا كانت النقود ، وخاصة الكميات الكبيرة منها تقدر بالوزن كالقنطار والاوقية والنش والمثقال ، وأغلب ما ورد في القرآن عن الثروات ، كان يقدر بالوزن لا بالعدد كالقناطير والمثاقيل • وكانت النقود التي ترد مكة

---

(١) طبري : ج ٢ ص ١٨١ ، سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٤٧ • المحبر : ص ١٦ ــ ١٧ •

(٢) ابن سعد : ج ٤ ص ٣٢ ، ٥١ ابن حنبل : ج ٤ ص ٦ • طبري : ج ٣ ص ٩٦ •

فضية من الساسانيين واليمن ، أو ذهبية من الدولة البيزنطية[١] . ولا ريب أنه كان للدينار البيزنطي أهمية كبرى لدقة عياره وسكه ولاهميته في التجارة الخارجية ، وخاصة مع الهند حيث كان يستخدم وحده في التبادل .

ولم تكن مهمة الصراف هينة . اذ كان عليه أن يكون عارفا بالمعادن ليميز جيدها من رديئها ، متقنا للاوزان ، مطلعا على الاسعار العالمية لكي يقدر سعر التبادل ، وهذا أمر ليس بالسهل .

الربـــا :

لقـد كان المثرون يقومون بأعمـال التجارة والصيرفة بمفردهم أو يكونون شركات ، ولم تكن أعمالهم مقصورة على نوع واحد من التجارة . بل حيثما وجدوا الربح . وفي كثير من الاحيان يقومون بالاقراض ولم يكن لهم على اقراضهم ضمان الا الثقـة . اذ لم تكن هنـاك سلطة تجبر المدين على دفع دينه ، وهذا قد يحمل المدين على العصيان وعدم الدفع . لذلك فلما كانوا يقرضون البدو الرحل لصعوبة استرجاع دينهم منهم . وكانوا يفرضون فوائد عالية على ديونهم ، وقد أشار القرآن الى ذلك بقوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون » (آل عمران ١٣١) كما حرم تعالى الربا وقال « الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا انما البيع مثل الربا ، وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره الى الله ، ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » (البقرة ٢٧٥) « وما أتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله » (الروم ٣٩) .

لقد كان على الدائن أن يسترجع دينه بنفسه ، وهذا لا يتم غالبا الا بعد الحاح شديد . وقد حفظ الادب العربي كثيرا من الاقوال والاشعار التي تصور الحاح الدائن وتهرب المدين .

---

(١) البلاذري : فتوح البلدان ص٤٥١ فما بعد .

يؤمنك مهما طارق كل ليلة حثيث كما وافى الغريم المداين[١]
وكل غريم حظه جحد ماله اذا شح يوما أو أساء التقاضيا[٢]
من أفلس الناس من دين ومن حسب وأظلم الناس طرا للمساكين[٣]

وقد حملت هذه المعاملة البعض على وصم التجار بأشنع الأوصاف فقالوا ان التجار هم الفجار .

الموقع :

تقع مكة في وادي طويل تحيطه الجبال من معظم الجهات وتخفيه ، حتى ان ابنيتها لا تظهر للقادم الا اذا اقترب منها وأطل على الوادي ، وقد سهلت هذه الجبال على أهلها مهمة الدفاع عنها[٤] . غير ان في هذه الجبال وديانا وشعابا تجري فيها السيول بعد الأمطار ، وكثيرا ما تهدد أبنية مكة ، وقد اغرقت الكعبة وهدمتها عدة مرات . كما ان هذه الشعاب كانت ملجأ لمن يكره أهل مكة أو يكرهونه ؛ وقد اتخذ المسلمون من بعض هذه الشعاب لهم مركزا يقيمون فيه طقوسهم الدينية وعباداتهم بمأمن من أعين النظار[٥] ، كما لجأوا اليها عندما قاطعهم القرشيون .

السكان :

ويرجع تاريخ مكة الى عهود قديمة ، فقد ذكرها بطليموس باسم مكرابو[٦] ، أي المقدسة مما يدل على قدم قدسيتها ، ويزعم بعض النسابين

---

(١) البكري : معجم ما استعجم ص ١٢٦٨ .
(٢) أغاني : ج ١ ص ١٣ ، ٣٧ .
(٣) البحتري : الحماسة ص ١٤١٥ .
(٤) الازرقي : ج ١ ص ٣٨ .
(٥) ابن هشام : السيرة ج ١ ص ٢٦٥ ، ٢٧٥ الطبري : ج ٢ ص ٢٣١ (عن ابن اسحق) .
(٦) جغرافية بطليموس الكتاب السابع (نقلا عن دائرة المعارف الاسلامية مادة مكة) .

العرب ان آدم نزل فيها ، ويذكر القرآن ان ابراهيم نزل فيها ودعا « رب اجعل هذا البلد آمنا وارزق أهله من الثمرات » (البقرة ١٢٦) .

وقد ورد ذكرها في القرآن باسم مكة (الفتح ٢٤) ، وبكة (آل عمران ٩٦) ، وأم القرى (الانعام ٩٢) (الشورى ٧)[١] كما سماها البلد وقد أشار القرآن الى المناطق التابعة لها وسماها حاضري المسجد الحرام (البقرة ١٩٦) . ويذكر الطبري في تفسير هذه الآية ان حاضري المسجد الحرام هم عرفة وعرنة ومر وضجنان والرجيع ونخلتان[٢] .

وتروي المصادر العربية انه كانت السيادة في مكة في القديم لجرهم ، ثم انتزعتها منهم خزاعة ، ثم انتزع قصي السيادة من خزاعة[٣] ، وبذلك جعل لقريش المكانة الاولى ، ولكنه ترك بعض الوظائف الدينية بيد أصحابها القدماء كما سنتحدث في آخر هذا الفصل .

قريش :

لا نعلم تفاصيل عن مكانة قريش ونشأتها في القديم ؛ فان النسابين العرب يذكرون ان أصلهم يرجع الى ابراهيم الخليل ، حيث تحدروا من ابنه اسماعيل الذي أسكنته أمه في هذا الوادي غير ذي الزرع . ويختلف النسابون اختلافا كبيرا في شجرة النسب[٤] : ويظهر البعض ارتيابهم في القيمة التاريخية للاسماء التي تذكر بين عدنان واسماعيل .

ومهما يكن فان القبائل الشمالية كلها تحدرت من نسل اسماعيل . كما اختلفوا في تعين أول من سمي باسم قريش ، وفي معنى هذه الكلمة ،

---

(١) أنظر ايضا عن أسماء مكة : ابن المجاور ، المستبصر : ج١ ص٢ .
(٢) مجمع البيان في تفسير القرآن : ج ٢ ص ١٤٩ ـ ١٥٠ .
(٣) الازرقي : ج ١ ص ٥٩ ـ ٦١ ، ابن سعد : الطبقات ج ١ ص ٤٠ ، ابن هشام : ج ١ ص ١١٧ ، ١٣٠ .
(٤) راجع عن اختلاف النسابين الطبري ج٢ ص١٩١ ـ ١٩٤ .

وقد اجمل الطبري ذلك في قوله « وقيل سميت قريش قريشا بقريش بن بدر بن يخلد بن الحارث بن يخلد بن النضر بن كنانة ، وبه سميت قريش قريشا لان عير بني النضر كانت اذا قدمت قالت العرب قد جاءت عير قريش ؛ قالوا وكان قريش هذا دليل بني النضر في أسفارهم وصاحب ميرتهم ، وكان له ابن يسمي بدرا .. وقال ابن الكلبي انما قريش جماع نسب ليس بأب ولا أم ولا حاضن ولا حاضنة ، وقال آخرون انما سمي بنو النضربن كنانة قريشا لان النضر بن كنانة خرج يوما على نادى قومه فقال بعضهم لبعض أنظروا النضر كأنه جمل قريش ، وقيل انما سميت قريش قريشا بدابة تكون في البحر تدعى القرش ، فشبه بنو النضر بن كنانة بها لانها أعظم دواب البحر قوة ، وقيل ان النضر بن كنانة كان يقرش عن حاجة الناس فيسدها بماله ، والقرش فيما زعموا التفتيش ، وكان بنوه يقرشون أهل الموسم عن الحاجة فيسدونها بما يبلغهم .. وقيل ان النضر بن كنانة كان اسمه قريشا ، وقيل بل لم تزل بنو النضر بن كنانة يدعون بني النضر حتى جمعهم قصي بن كلاب فقيل لهم قريش من أجل ان التجمع هو التقرش فقالت العرب تقرش بنو النضر أي قد تجمعوا ، أو قيل انما قيل قريش من أجل انها تقرشت عن الغارات .. وعن محمد بن سعد .. سميت قريش قريشا حين اجتمعت الى الحرم من تفرقها فذلك التجمع التقرش ، قال عبدالملك ما سمعت هذا ولكن سمعت ان قصياً كان يقال له القرشي ولم يسم قريشي قبله[١] » .

ويتبين من هذا النص ان قريشا ليس اسم شخص بل هو اسم سمكة أو طوطم ، أو صفة أطلقت اما على (١) قريش بن بدر بن يخلد ، ويؤكد هذه الرواية مصعب الزبيري[٢] وابن حزم[٣] . أو على (٢) النضر ويؤيد

---

(١) الطبري : ج ٢ ص ١٨٧ .

(٢) مصعب الزبيري : نسب قريش ص ١٢ .

(٣) ابن حزم : جمهرة النسب ص ١٠ .

ذلك ابن دريد[١] وأبو الفرج الاصبهاني[٢] والازرقي[٣] • أو على (٣) فهر ويؤيد ذلك ابن الكلبي[٤] ، ومصعب الزبيري وابن قتيبة[٥] وأخيرا يدعي البعض انها تطلق على قصي[٦] •

قصي :

ولا ريب ان أول رئيس بارز هو قصي الذي استطاع أن ينتزع السيادة والادارة المكية من خزاعة ، بعد أن عاونته كنانة وقضاعة كما سنتحدث عند البحث عن نسب الرسول • وينسب اليه انه أول من قسم قريش الى بطون ، وميز بين قريش الظواهر والبطاح[٧] ، وعلى اننا لا نعلم بالضبط طبيعة وماهية هذا التقسيم ، ولا الأساس الذي استند عليه ، ولا فيما اذا كان قد اقتبسه من البلاد الاخرى أم أنه كان قائما على تنظيم القبائل القائمة في عصره ، على انه من المؤكد ان الاسماء التي ترددها كتب النسب لمن تحدر من النضر أو فهر عددها أقل مما يكفي للاعتماد عليه في القيام بحركات مؤثرة لانتزاع السيادة من خزاعة ، فان الاسماء التي يذكرونها هي أجداد العشائر التي كانت في زمن النبي ، ولابد ان عددا كبيرا من الاشخاص أغفلت أسماؤهم •

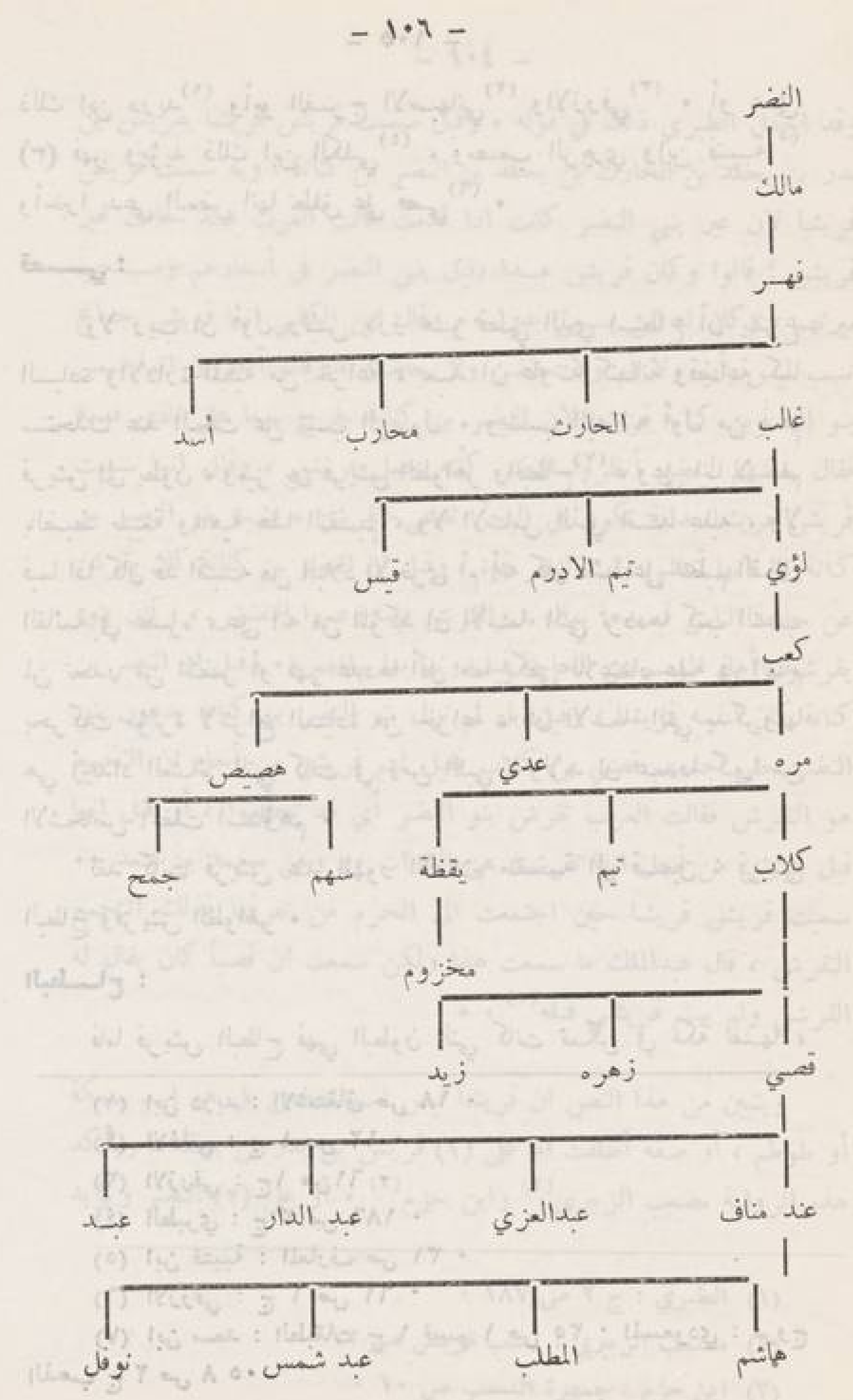
لقد كانت قريش عند ظهور الاسلام منقسمة الى قسمين : قريش البطاح وقريش الظواهر •

البطاح :

فاما قريش البطاح فهي البطون التي كانت تسكن في مكة نفسها ،

---

(١) ابن دريد : الاشتقاق ص ١٨ •
(٢) الاغاني : ج ١ ص ١٢ •
(٣) الازرقي : ج١ ص٦١ •
(٤) الطبري : ج ٢ ص ١٨٦ •
(٥) ابن قتيبة : المعارف ص ٣١ •
(٦) الازرقي : ج ١ ص ٦١ •
(٧) ابن سعد : الطبقات ج ١ قسم ١ ص ٣٥ • المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٥٨ •


النضر
مالك
فهر
غالب
الحارث
محارب
أسد
لؤي
تيم الادرم
قيس
كعب
مره
عدي
هصيص
كلاب
تيم
يقظة
سهم
جمح
مخزوم
قصي
زهره
زيد
عبد مناف
عبدالعزي
عبد الدار
عبد
هاشم
المطلب
عبد شمس
نوفل

ويحتكر رجالها الادارة والوظائف الكبرى ، ومنهم التجار والرأسماليون والمثرون الذين كانوا يقومون بالحركة التجارية وهم نيما يروي أغلب بنو عبد مناف ، وبنو عبدالدار ، وبنو عبد بن قصي ، وبنو زهرة بن كلاب ، وبنو تيم بن مرة ، وبنو مخزوم بن يقظة بن مرة ، وبنو سهم ، وبنو جمح أبناء عمرو بن هصيص ، وبنو عدي بن كعب ، وبنو حسل بن عامر بن لؤي ، وبنو هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر ، وبنو هلال بن مالك بن ضبة بن الحارث بن فهر[١] • ويحذف المسعودي من هذه القائمة بني هلال بن أهيب ، وهلال بن مالك ، ولكنه يضيف في مكان آخر من كتابه[٢] بني هاشم بن عبد مناف ، وبني المطلب بن عبد مناف ، وبني الحارث بن عبد مناف ، وبني أمية بن عبد شمس ، وبني نوفل بن عبد مناف ، وبني أمية بن عبد شمس ، وبني نوفل بن عبد مناف ، وبني الحارث أبن فهر • ومما لاشك فيه ان هذه الاضافة الاخيرة تنطبق على عصر النبي ، وان قائمة النسابين لا تنطبق كلها على زمن قصي اذ أن عبد مناف وعبدالدار وعبدهم أولاد قصي ، فلابد أنهم لم يكونوا عشائر في زمنه •

ولا ريب أنه كان هناك تداخل كبير بين هذه العشائر بنتيجة التزاوج ، وعند بحثنا عنه في حياة الرسول ، سنأخذ عن عبدالمطلب وأولاده مثلا يوضح مثل هذا التداخل •

كما اننا لا نستطيع أن نقدر عدد أفراد كل عشيرة ، فان كتب النسب لا تذكر لكل عشيرة الا أفرادا قليلين ، بعضهم لا يتجاوز أصابع اليد ، كبني عبد بن قصي ، الأمر الذي يحملنا على الاعتقاد بأن ما ورد في كتب الانساب من أسماء ، هي ناقصة جدا ، ولكن المصادر التي بين أيدينا ليس فيها أي دليل على عدد من حذف أو سبب حذفه •

---

(١) المحبر : ص ١٧٦ •

(٢) مروج الذهب : ج ٢ ص ٥٨ ، ١٧٦ •

الظواهــــر :

أما قريش الظواهر فهي التي كانت تسكن أطراف مكة وهم بنو عامر ابن لؤي ، وبنو فهر ؛ ولم يسمع لهم صوت في الاحداث التي جرت عند ظهور الاسلام أو بعده ، غير انهم على ما يقول الزبير بن بكار كانوا في الجاهلية يفخرون على أهل الحرم بظهورهم للعدو واصحارهم للناس[١] أي انهم يساهمون بالدفاع عن مكة .

وبجانب هذا كانت الاحلاف ، وهم قبائل بدوية لم تتمثل في النظام القائم بمكة ، ولم تنضم الى قبائلها ، وهم خاصة من كنانة وكانوا يشاركون المكيين في معظم حروبهم ، ويسمون الاحابيش[٢] .

كما كان يقيم في مكة عدد غير قليل من الاجانب المنتمين الى عشائر أو أمم منوعة ، ولكنهم استوطنوا مكة لاسباب متعددة ، وكثيرا ما يسكنون الشعاب ، ولبعضهم حق دخول دار الندوة[٣] .

التنظيم السياسي والرؤساء :

لقـد أدى اجتماع الناس في مكة واستقرارهم في مكان واحد الى اضعاف بعض مظاهر التكتل القبلي والى ظهور الفردية ، كما يتجلى ذلك في انتشار الاسلام بين مختلف القبائل رغم معارضة المشركين ؛ وقد أدى الاستقرار والمصالح المشتركة الى تكيف الناس الى المجتمع الجديد ، وخاصة في أوقـات الشدائد والازمات التي تمس الغالبيـة العظمى ، حيث كانوا يجتمعون ويتنافسون . ومع نفور الناس من السلطة العليا وعدم رغبتهـم للانصياع والخضوع في الاوقات العـادية ، الا أنهم عنـد الشدائد كانوا لا يعارضون اتباع شخص أو أشخاص تقدمهم مواهبهم وقابلياتهم الى الصف

---

(١) البكري ص ٢٥٧ .
(٢) أنظر ص ١١٦ .
(٣) النهاية : ٤٤ ، ٥٩ أسد : ٣٨١ .

الاول ليقودوا الناس • وقد أشارت الاخبار الى بعض هؤلاء الرؤساء ، كقصي ، وعبد مناف ، وعبدالمطلب • كما أشارت الاخبار الى هشام بن المغيرة الذي كان سيدا مطعاما ، ولما هلك نادى مناد بمكة اشهدوا جنازة ربكم(١) ، وقيس بن عدي بن سهم الذي كان سيد قريش في زمانه(٢) وعبدالله بن جدعان التيمي سيد قريش في الجاهلية وفي داره كان حلف الفضول(٣) وكان عتبة بن ربيعة « كبير قريش وسيدها المطاع(٤) » ، كما كان أبو سفيان شيخ قريش وكبيرها وسيدها المطـاع الذي كان يقـود القوافل ويتزعم الحروب ضد الرسول(٥) • ويقول محمد بن حبيب « فلما هلك حرب بن أمية ، وكان حرب رئيسا بعد عبدالمطلب ، تفرقت الرياسة والشرف في بني عبد مناف ، فكان في بني هاشم : الزبير وأبو طالب والحمزة والعباس بنو عبدالمطلب ؛ وفي بني أمية : أبو احيحة وهو سعيد بن العاص بن أمية وهو ذو العمامة كان لا يعتم أحد بمكة بلون عمامته اعظاما له • وله يقـول الشاعر :

فتاة أبوها ذو العمامة منهم ومروان ما اكفاؤهـا بكثـير

وفي بني المطلب : عبد يزيد بن هاشم بن المطلب ، وعبد يزيد هذا هو المحض لاقذى فيه ، وفي بني نوفل المطعم بن عدي بن نوفل ، وفي بني أسد بن عبدالعزى : خويلد بن أسد ، وعثمان بن الحويرث بن أسد(٦) » •

---

(١) المحبر : ص ١٣٩ ، ٤٢٧ الاشتقاق : ص ٦٣ ، ٩٤ المعارف : ص ٣٢ ولمحمد حميدالله مقالة قيمة عن ادارة مكة نشرها في مجلة الثقافة الاسلامية سنة ١٩٤٣ (بالانكليزية) •

(٢) جمهرة النسب : ص ١٥٦ ، الاشتقاق ص ٥٧ •

(٣) اشـتقاق : ص ٨٨ نسـب قريش : ص ٢٩١ ، أغـاني : ج ٨ ص ٢ - ٣ •

(٤) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٦٢ ، الطبري : ج ٢ ص ٢٨٨ •

(٥) الطبري : ج ٣ ص ٤٤ ، ٧٧ •

(٦) المحبر : ١٦٤ •

ولما لم يكن من السهل عمليا في الاوقات الاعتيادية جمع كافة الناس ومناقشتهم في الامور العامة ، لذا كان لابد من اختيار ذوي القابليات الخاصة للقيام بأمر بحث الامور العامة ومناقشتها ، وقد أشار اليهم القرآن باسم الملأ .

دار الندوة :

كان هذا الملأ يجتمع منذ زمن قصي في دار الندوة التي كانت تقع قرب الكعبة من جهة الشمال[١] ، ولعل الغرض من اقامتها قرب الكعبة هو اسباغ شيء من الحرمة عليها . ولو لم تكن دار الندوة من الابنية العامة ، بل هي ملك خاص لبني عبدالدار ، توارثوها حتى صارت لعكرمة ابن عامر بن هشام الذي باعها لمعاوية بن أبي سفيان بمائة ألف دينار[٢] . وليس في الكتب اشارة الى سلطة مالكي دار الندوة أو الرسوم التي كانوا يتقاضونها .

لقد كانت قريش لا تقضي أمرا الا في دار الندوة ، فهي أشبه بمجلس الشيوخ ، تجري فيها المناقشات والمباحثات في الامور المهمة كالاشتراك في الحروب أو عقد المعاهدات والاتفاقات أو تجهيز القوافل وتنظيمها ، ويروى أيضا ان الفتيات اذا بلغن أدخلن فيها فشقت جيوبهن[٣] ومعنى هذا انه كان يجري فيها ما يشبه عند الاغريق من الاقرار بالوصول الى سن المواطنة .

يروي ابن جريج وابن اسحق انه لم يكن يدخلها من قريش من غير ولد قصي الا ابن اربعين سنة للمشورة ، وكان يدخلها ولد قصي كلهم اجمعون ، وحلفاؤهم[٤] . ولا ريب ان هذا النص قد ينطبق على الاوضاع

---

(١) الازرقي : ج ٢ ص ٧٤ .

(٢) ياقوت الحموي : معجم البلدان ج ٢ ص ٥٢٤ عن ابن الكلبي ، ويقول مصعب الزبيري ان حكيم بن حزام اشتراها من هشام ثم باعها لمعاوية (نسب قريش ص ٢٥٤) ، ابن سعد ج ١ قسم ١ ص ٤٥ . أنظر ايضا ابن الاثير: أسد الغابة ج ٢ ص ٤١ ، وياقوت ج ٢ ص ٥٢٤ .

(٣) الطبري : ج ٢ ص ٢٤٢ . الاشتقاق : ص ٩٧ .

(٤) الازرقي : ج ١ ص ٦١ .

أيام قصي حيث كان عدد أولاده محدودا ولا يمكن أن ينطبق على أيام ظهور الرسول حيث أصبح عدد أحفاد قصي كبيرا . ويلاحظ ان كتب السيرة روت عن أحد اجتماعات دار الندوة للنظر في أمر المسلمين ، فقد حضرها ، حسب ما روى ابن اسحق ، من بني عبد شمس عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، وأبو سفيان بن حرب ؛ ومن بني نوفل بن عبد مناف طعيمة بن عدي وجبير بن مطعم والحرث بن عامر بن نوفل ؛ ومن بني عبدالدار النضر بن الحارث بن كلدة ؛ ومن بني أسد بن عبدالعزى أبو البختري بن هشام وزمعة بن الاسود بن المطلب وحكيم بن حزام ؛ ومن بني مخزوم أبو جهل ؛ ومن بني سهم نبيه ومنبه أبنا الحجاج ؛ ومن بني جمح أمية بن خلف[١] ، أي من كل قبيلة بين الواحد والثلاثة .

ولكن ذلك لم يكن ليراعى بدقة ، فقد دخلها حكيم بن حزام وعمره خمسة عشر سنة[٢] . ودخلها أبو جهل وعمره ثلاثون سنة[٣] .

لم تكن للملأ سلطات تنفيذية ، فكان لابد أن تكون قراراته بالاجماع اذا أريد تنفيذها ، ولكن بمقدور الاكثرية اذا أقرت قرارا أن تقاطع معارضيها أو تستخدم الضغط الاجتماعي ضدهم .

وبجانب هذا فقد كان لكل قبيلة ناد أو مجلس خاص تجري فيه المسامرات والمناقشات ، وقد أشار القرآن الكريم الى النوادي في بعض الآيات « فليدع ناديه سندع الزبانيه » (العلق ١٧) « تأتون في ناديكم المنكر » (العنكبوت ٢٩) ؛ ويبدو ان لكل قبيلة رئيس فكان نبيه ومنبه ابنا الحجاج سيدي بني سهم[٤] .

---

(١) الطبري : ج ٢ ص ٢٤٣ . ابن هشام : ج ٢ ص ٩٣ .

(٢) ابن عساكر : تاريخ دمشق ج ٤ ص ٤١٩ .

(٣) الاشتقاق : ص ٩٧ .

(٤) الاشتقاق : ص ٧٨ .

الوظائف الدينية :

ونظرا لان مكة مركز ديني مهم يحج اليه سنويا عدد كبير من الناس، فان هذا دعا الى ظهور عدة وظائف للقيام بما يتطلبه الحج ؛ ومع ان هذه الوظائف متصلة بالدين وأموره ، الا انها ليست وظائف دينية بالمعنى الدقيق ، بل تتطلب مهارة وأسلوبا خاصا وقابلية تنظيمية ومالا للقيام بخدمات العدد الكبير من الحجاج •

وكانت أغلب هذه الوظائف قديمة جدا ، ولما ظفر قصي بسيادة مكة أبقى بعضها بيد أصحابها القدماء ، ويقول الطبري انه بعد جرهم (وليت خزاعة البيت ، غير انه كان في قبائل مضر ثلاث خلال : الاجازة بالحج للناس من عرفة وكان ذلك الى الغوث بن مر وهو صوفة ، فكانت اذا كانت الاجازة قالت العرب اجيزي صوفة ، والثانية الافاضة من جمع غداة النحر الى منى ، فكان ذلك الى بني زيد بن عدوان ، فكان آخر من ولى ذلك منهم أبو سيارة عميلة بن الاعزل بن خالد بن سعد بن الحارث بن وابش بن زيد ، والثالثة النسيء للشهور الحرم فكان ذلك الى القلمس وهو حذيفة بن فقيم بن عدي من بني مالك بن كنانة ثم بنيه ، حتى صار ذلك الى آخرهم أبي تمامة وهو جنادة بن عوف بن أمية بن قلع بن حذيفة ، وقام عليه الاسلام وقد عادت الحرم الى أصلها فأحكمها الله وابطل النسيء)[١] •
ويروي الطبري أيضا عن ابن اسحق ان قصياً قد أقر للعرب في شأن حجهم ما كانوا عليه لانه كان يراه دينا في نفسه لا ينبغي له تغييره ، وكانت صوفة على ما كانت عليه حتى انقرضت صوفة فصار ذلك من أمرهم الى آل صفوان

---

(١) الطبري : ج ٢ ص ٩٩ • التفسير : ج ٢ ص ١٦ • المسعودي : ج ٢ ص ٥٧ • ابن هشام : ج ١ ص ٤٥ ، ويروي ياقوت (ج ١ ص ٩١٧) ان الاجازة كانت في خزاعة ثم الى عدوان ثم الى صوفة ، ويروي ابن قتيبة ان « من عدوان أبو اسامة الذي كان يفيض بالناس (المعارف ص ٣٦) » •

ابن الحارث بن شجنة وراثة ، وكانت عدوان على ما كانت عليه ، وكانت النسأة من بني مالك بن كنانة على ما كانوا عليه ومرة بن عوف على ما كانوا عليه فلم يزالوا على ذلك حتى قام الاسلام فهدم الله به ذلك كله[١] . ويقول محمد بن حبيب السكري ان أئمة العرب بعد عامر بن الضرب (العدواني) في مواسمهم وقصائدهم بعكاظ (بنو تميم) .. وكان ذلك يكون في أفخاذهم كلها ، ويكون الرجلان يليان هذا من الامرين جميعا ، عكاظ على حدة ، والموسم على حدة ، فكان من اجتمع له الموسم والقضاء سعد بن زيد مناة ابن تميم ، ثم تولى ذلك حنظلة بن زيد مناة بن تميم ، ثم تولاه ذؤيب ابن كعب بن عمرو بن تميم ، ثم مازن بن مالك بن عمرو بن تميم ، ثم ثعلبة بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة ثم معاوية بن شريف بن جروة بن أسيد بن عمرو بن تميم ، ثم الاضبط بن قريع بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة ، ثم صلصل بن أوس بن مخاشن بن معاوية بن شريف بن جردة بن أسيد ، ثم سفيان بن مجاشع بن دارم بن مالك بن حنظلة ؛ فكان سفيان آخر تميمي اجتمع له الموسم والقضاء بعكاظ ، فمات سفيان فافترق الامر ،فلم يجتمع الموسم والقضاء لاحد منهم حتى جاء الاسلام ، فكان محمد بن سفيان بن مجاشع يقضى بعكاظ ، فصار ميراثا لهم فكان آخر من قضى بينهم الذي وصل الى الاسلام الاقرع بن حابس بن عقال بن محمد بن سفيان وأجاز بالموسم بعد صلصل بن أوس العلاق بن شهاب بن لؤي ، من بني عوافة بن سعد بن زيد مناة ، فكان آخر من أفاض بهم كرب بن صفوان بن جناب بن شجنة بن عطارد بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة[٢] .

النسيء :

أما الافاضة فسنتحدث عليها عند الكلام عن الحج ، وأما النسيء

---

(١) الطبري : ج ٢ ص ١٨٤ . أنظر ايضا نسب قريش ص ٣٣ المعارف : ص ٣١ .

(٢) المحبر : ص ١٥٦ - ١٥٨ .

فوظيفة يعلن فيها القائم عليها الاشهر الحرم . ومن المعلوم انه كانت هناك أربعة أشهر حرم لا يجوز فيها الحرب والقتال ، بل يسود السلم والامن ، وهي أحوال ضرورية للتنقل وممارسة التجارات وغيرها . وكانت أشهر الحرم في قريش هي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم (للحج الاكبر) وصفر (للحج الاصغر والعمرة) . وقد أشار القرآن الكريم الى الاشهر الحرم بقوله تعالى « ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السماوات والارض منها أربعة حرم » (التوبة ٣٦)[١] ويظهر انه كان لقريش دور كبير في جعل العرب تحترم هذه الاشهر الحرم ، ولكنها لم تنجح نجاحا تاما في ذلك ، فلم تكن خثعم وطي لترعاها[٢] ، كما كانت لبعض القبائل الاخرى أشهر[٣] حرم غير هذه ، فكان لغطفان البسل وهي ثمانية أشهر حرم لهم من كل سنة من بين العرب .

ولما كانت العرب تستخدم الاشهر القمرية ، وهي تختلف عن الاشهر الشمسية ، لذلك كان الاعتماد عليها قد يخل بأمور التجارة التي تجري حسب فصول السنة ؛ لذلك « كانت العرب في الجاهلية تكبس في كل ثلاث سنين شهرا وتسميه النسيء[٤] » ، أي انه كان يضاف شهر في كل ثلاث سنوات لكي تتطابق السنة الشمسية مع القمرية ، وهذا يؤدي الى تغيير في الاشهر الحرم ، وكان المختص بالنسيء هو الذي يعين الشهر المضاف

يروي الازرقي ان النسيء كان في كندة ثم صار في بني مالك بن كنانة ؛ ولبني القلمس منهم خاصة ، وقد يقومون فيه حتى جاء الاسلام فحرمه[٥] بعد فتح مكة على ما يظهر حيث نزلت الآية « انما النسيء زيادة

---

(١) تفسير الطبري : ج ١٠ ص ٨٨ فيما بعد .

(٢) المحبر : ص ٣١٩ . اليعقوبي : ج ١ ص ٢٢٧ . الطبري ج ٣ ص ٦٠٣ .

(٣) ابن هشام ج ١ ص ٤٣ .

(٤) المسعودي : ج ٢ ص ٢١٤ وأنظر عن النسيء ما كتب عنه في دائرة المعارف الاسلامية .

(٥) الازرقي : ج ١ ص ١١٨ .

في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما انزل الله » (التوبة ٣٧) ولا نعلم بالضبط الامور الاخرى الناجمة عن النسيء والتي أوجبت اعتباره زيادة في الكفر .

يروي ابن اسحاق ان قصياً كانت اليه الحجابة والرفادة والسقاية والندوة واللواء[١] ، أي انه أخذ لنفسه الامور المالية والادارية والعسكرية ؛ وهناك اشارات في الكتب الى وظائف أخرى لا نعلم ما موقف قصي منها ، وهل انه هو الذي أوجدها أم أقرها أم ظهرت بعده .

الحجـــابة :

فأما الحجابة فكان القائم بها يمتلك مفاتيح الكعبة ، أي انه كان يأذن للناس بالدخول في الكعبة ، والراجح انها لا تتطلب أن يكون صاحبها عالما في الدين ؛ وكانت تدر على القائمين بهـا ارباحـا . وقـد أخذها قصي من خزاعة ، ثم صارت من بعده لابنه عبدالدار ثم لأولاد عبدالدار من بعده ، وقد أرجعها الرسول الى بني عبدالدار[٢] بعد فتح مكة تطبيقا لحكم الآية التي نزلت في ذلك « ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها » (النساء ٥٨) .

عمارة البيت :

وقد أشار القرآن الى وظيفة أخرى هي عمارة البيت فقال تعالى : « أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله » (التوبة ١٩) . ويروي ابن حجر ان السقاية والعمارة كانت في الجاهلية للعباس[٣] .

---

(١) الطبري : ج ١ ص ١٨٤ . ابن هشام : ج ١ ص ١٣٧ .
(٢) الازرقي : ج ١ ص ٦٢ ، ٧٧ ج ٢ ص ١٢ . نسب قريش : ص ٢٥١ . المعارف : ص ٣٢ . ابن سعد ج ٤ قسم ١ ص ١٠ ، ١٦ .
(٣) الاصابة ج٢ ص ٣٦٣ (٤٥٠٧) .

الرفـــادة :

أما الرفادة فكانت « خرجا تخرجه قريش في كل موسم من أموالها الى قصي بن كلاب فيصنع منه طعاما للحاج يأكله من لم يكن له سعة ولا زاد ممن يحضر الموسم ، وذلك ان قصيا فرضه على قريش فقال لهم حين أمرهم به : يا معشر قريش انكم جيران الله وأهل بيته وأهل الحرم وان الحاج ضيف الله وزوار بيته وهم احق الضيف بالكرامة ، فاجعلوا لهم شرابا وطعاما أيام هذا الحج حتى يصدروا عنكم ، ففعلوا ، فكانوا يخرجون لذلك كل عام من أموالهم فيدفعونه اليه فيضعه للناس أيام منى فجرى ذلك من أمره على قومه في الجاهلية حتى قام الاسلام ، ثم جرى في الاسلام الى يومنا هـذا فهو الطعام الذي يصنعه السلطان كل عام بمنى للناس حتى ينفض الحجيج[١] » ؛ ويبدو ان مقدار هذه الضريبة يختلف تبعا لثروة الدافعين وهي قد تصل مائة دينار[٢] . وكانت هذه الوظيفة لبني عبدالدار ، ثم أخذها منهم هاشم فكان « يطعم الناس في كل موسم بما يجتمع عنده من ترافد قريش ، كان يشتري بما يجتمع عنده دقيقا ويأخذ من كل ذبيحة من بدنة أو بقرة أو شاة فخذها فيجمع ذلك كله ثم يحرز به الدقيق ويطعمه للحجاج ، فلم يزل على ذلك من أمره حتى أصاب الناس في سنة جدب شديد ، فخرج هاشم بن عبد مناف الى الشام ، فاشترى بما اجتمع عنده من ماله دقيقا وكعكا فقدم به مكة في الموسم »[٣] .

ونظرا لقلة الاخبار ، لا نستطيع أن نعين مقدار ما كان يجبى منها أو من كانت تسند اليه ، فيروي ابن سعد أن وهب بن عبد بن قصي كان

---

(١) الطبري : ج ٢ ص ١٨٥ . ابن هشام : ج ١ ص ١٤٤ ، ١٤٦ . الازرقي : ج ١ ص ٦٢ ، ١٢٧ . ويروي المسعودي ان عبدالمطلب أول من أقام الرفادة والسقاية للحاج (ج ٢ ص ١٢٧) .

(٢) ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٤٥ .

(٣) الازرقي : ج ١ ص ٦٣ .

صاحب الرفادة[١] ، كما يروي مصعب الزبيري ان الرفادة كانت في ؟ حميد بن زهير من بني أسد بن عبدالعزى[٢] • ويروي البلاذري انها صارت من بعد هاشم للمطلب ثم لعبدالمطلب ثم للزبير ثم لأبي طالب ، ثم أخذها العباس وظلت في أولاده[٣] •

وما دام بحث الرفادة يتصل بالمالية ، فجدير أن نشير الى مصادر أخرى من الواردات ، منها ما كان يؤخذ من الحجاج ، مما يمكن استدلاله مما رواه ابن دريد من أن بني لؤي بن سمخ (من ذبيان) ومن رجالهم ظويلم ويلقب مانع الحريم ، وانما سمي بذلك لانه خرج في الجاهلية يريد الحج فنزل على المغيرة بن عبدالله المخزومي ، فأراد المغيرة أن يأخذ منه ما كانت قريش تأخذ ممن نزل عليها في الجاهلية ولذلك سمي الحريم ، وكانوا يأخذون بعض ثيابه أو بعض بدنته التي ينحر فامتنع عليهم ظويلم[٤] • ولعل هذه هي من الضرائب التي كانت تؤخذ من تأخير ثياب الحاج من الحله ، اذ كان على الحجاج من غير قبائل الحمس (وهم قريش وحلفائها) أن يؤجروا ثيابا خاصة ، أو يحجوا عرايا كما سنتحدث عن ذلك عند البحث عن الدين •

ومن مصادر ماليتها كذلك ضريبة العشور على التجارات[٥] ، وقد يعفى منها البعض لظروف خاصة مثلما اعفوا منها بحارة السفينة التي بنيت الكعبة من حطامها •

ومن مصادر ماليتها كذلك العطايا التي كانت تقدم الكعبة ، وكانت تودع في بني سهم[٦] •

---

(١) ابن سعد : ج ٣ قسم ١ ص ١٥٢ •
(٢) نسب قريش : ص ٢١٢ •
(٣) أنساب الاشراف : ج ٣ ص ٥٣٣ (مخطوطة القاهرة) •
(٤) الاشتقاق : ص ١٧٢ •
(٥) الازرقي : ج ١ ص ١٠١ • المسعودي : ج ٢ ص ٥٨ •
(٦) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٢ ص ٣ •

السـقاية :

اما السقاية فهي حياض من ادم كانت في عهد قصي توضع بفناء الكعبة ومنى وعرفه ، وتملأ بالماء العذب من الآبار على الابل ويسقاه الحجاج[١] •
وهي لا ريب مهمة في بلد كمكة يقل فيها الماء العذب الصالح للشرب ، وكانت مثل هذه الوظيفة تدر في تدمر ثمانمائة دينار سنويا ، ولعلها كانت تدر في مكة أيضا أرباحا طيبة ؛ ومن المحتمل ان السقاية كانت تقتصر على الحجيج ، أما أهل مكة فلم يكونوا يدفعون شيئا عن الماء ، وكانت السقاية عند ظهور الاسلام مودعة للعباس الذي كثيرا ما كان يمزج الماء بالزبيب[٢] •

الأمـن :

وكانت مشكلة الامن من الامور الهامة التي توجب الاهتمام في مكة نظرا لكثرة الخلعاء والصعاليك وسراق الحجيج الذين تدفعهم نزعاتهم الخاصة وسوء الاحوال الى ارتكاب الجرائم كالسرقة أو عدم مراعاة قدسية الحرم ، يضاف الى ذلك الاخطار الخارجية التي قد تهدد مكة من الغزوات ، أو قد تقوم مكة نفسها بحرب ضد أعدائها • لذلك كانت مضطرة الى اعداد جيش لمواجهة الاخطار ، ومع ان أهل مكة كان أغلبهم تجارا ، الا أنهم لم يغفلوا عن الاستعداد العسكري ، فكانوا يساهمون في الحروب التي تقوم بها مكة ، فضلا عن انهم عقدوا محالفات عسكرية مع القبائل كالقارة والحيا والمصطلق وبني الحارث بن كنانة لكي تعاونهم في الحروب التي ينشبونها • ويسمى هؤلاء الحلفاء الاحابيش[٣] •

وبجانب هـذا فقـد كان المكيون يستخدمون المرتزقة وخاصة من

---

(١) ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٤١ ، ٤٥ •

(٢) ابن سعد : ج ٤ قسم ١ ص ١٦ • الازرقي : ج ١ ص ٦٥-٦٦ ، ج ٢ ص ٤٧ •

(٣) نسب قريش : ص ٩ • الاشتقاق : ص ١١٩ • ابن سعد : ج٢ ص٤٧ وص٧٠ وفي انساب ابن حزم ، نشر عبدالسلام محمد هارون ، ص ٢٦٣ : ومن بني ثعلبة بن بهثه بن سليم : حكيم بن أمين بن حارثة بن الاوقص بن مره بن هلال بن فالح بن ذكران بن ثعلبة بن بهثه كان بمكة في الجاهلية محتسبا يامر بالمعروف وينهى عن المنكر وفي ذلك يقول بعض سفهاء قريش :

السودان والاحباش الذين اشتهروا بحسن استعمالهم للحراب والسكاكين التي ترمى من مسافة ، ويدعي لامنس ان هؤلاء هم القسم الاعظم من الجيش المكي ، وانهم هم الاحابيش[١] • ويستنتج من هذا ضعف شجاعة قريش وانعدام الروح العسكرية ، وهو رأي بعيد عن الصواب لان أخبار الحروب بين أهل مكة تظهر بوضوح ان قريشاً كانت تكون القسم الاكبر من الجيش وتقوم بالقسط الاعظم من الحرب • وكان منها المهاجرون الذين حاربوا مع الرسول في عدة وقائع ، كما ظهر منها عدد كبير من الرجال الذين قادوا الجيوش الاسلامية في معارك ناجحة ضد الروم والساسانيين في بلاد نائية •

ومما يتعلق بتنظيم الحروب عدة وظائف ، منها اللواء والقيادة والأعنة والحكومة •

فأما اللواء فكان العلم الذي يحمل في المعارك ، وتدور حوله المعركة ، وكان يسند الى بني عبدالدار ، وقد قتل منهم في غزوة أحد سبعة وهم يدافعون عنه[٢] •

أما القيادة ، وهي غير اللواء ، فكانت بيد بني أمية[٣] ، فقد قاد حرب بن أمية الناس في الفجار وفي ذات نكيف ، كما قاد الناس في بدر عتبة بن ربيعة ، لان أبا سفيان كان في القافلة التي سببت المعركة ، وقاد أبو سفيان قريشا في أحد والخندق •

وهناك ذكر للاعنة ، ويكون صاحبها المقدم على خيول قريش في الحرب[٤] • والحكومة وهي الاموال التي يسمونها لآلهتهم ، وكانت عند ظهور الاسلام للحارث بن قيس السهمي[٥] •

---

(١) أنظر في ذلك مقال لامنس عن الاحابيش والتنظيمات العسكرية في مكة الذي نشره في كتابه (العربية الغربية عند ظهور الاسلام) (بالفرنسية) •

(٢) نسب قريش : ص ٢٥١ ـ ٢ • الازرقي : ج ١ ص ٦٣ •

(٣) الازرقي : ج ١ ص ٦٣ ، ٦٦ •

(٤) ابن الاثير : أسد الغابة ج ٢ ص ١٠١ •

(٥) ابن الاثير : أسد الغابة ج ٣ ص ٢٠٦ الاصابة ج ١ ص ٢٨٧ •

لم تكن في مكة وظيفة لقاض أو حاكم يفصل في القضايا التي تنشب بين الناس • فاذا حدث خلاف بين أفراد عشيرة واحدة فان رئيس العشيرة هو الذي يحكم فيه • أما اذا حدث خلاف بين أفراد قبائل متعددة فانهم كانوا يلجأون الى الكاهن أو الهاتف أو العايف أو الاستقسام بالانصاب والايسار • وكان تقدير قيمة الخسائر يدعى الاشناق وهي وظيفة كانت تقوم بها أسرة أبي بكر[(١)] • وقد أورد محمد بن حبيب أسماء عدد من الحكام في قريش[(٢)] •

غير انه حتى في حالة حكم الحكم بقضية ما فانه كان يترك ذلك لتراضي الناس وموافقتهم ، اذ لم تكن هناك سلطة تنفذ قرارات الحكام• وقد أدى هذا الى غبن الضعفاء وكثرة المظلومين • وقد استفزت هذه الحالة الخطرة بعض الناس فكونوا حلف الفضول لمساعدة المظلومين وحمايتهم من الظالمين • وكاد هذا يتطور الى تكوين سلطة تنفيذية • ولكن مجيء الاسلام عوض عنه وحل محله في العمل •

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٢ ص ٣٠٣ ، أنظر سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٢٥ •

(٢) المحبر ص ١٣٢ ـ ٣ انظر أيضا نسب قريش ص ٢٩١ • شفاء الغرام للفاسي ص ١٤١ ـ ٢ •

القسم الثانى

الحياة البدوية ونظمها

الفصل التاسع عشر

النظم البدوية قبيل ظهور الاسلام

أهميتهـــا :

لقد انحلت قبيل ظهور الاسلام الدول العربية التي حاولت أن تقيم نظاما سياسيا عاما لا يقتصر على مجموعة صغيرة • وأصبح النظام القبلي هو السائد لا في الصحراء فحسب ، بل حتى في أغلب المدن الموجودة في أطراف الجزيرة •

في الدين الاسلامي :

ولم تقتصر النظم البدوية على تأثيرها في نظم الحياة عند ظهور الاسلام • بل كان لها تأثير في الاسلام نفسه • والواقع ان الاسلام وقف موقفا معاديا للبدو بصورة عامة فوصفهم بأنهم أشد كفرا ونفاقا • وأجدر ألا يعلموا حدود الله (التوبة ٩٧) « قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم » (الحجرات ١٤ أنظر أيضا سورة التوبة ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ الاحزاب ٢٠ ، الفتح ١١ ، ١٦) وقد حارب الاسلام كثيرا من معتقداتهم ونظمهم الاجتماعية ومثلهم الاخلاقية • غير انه في نفس الوقت أقر بعض هذه العادات واعترف بها حرفيا ، أو بعد تعديل بسيط • وهكذا دخلت كثير من النظم البدوية كجزء من الاسلام ، وأصبحت قانونا يسير عليه المسلمون حيثما كانوا ومتى عاشوا •

في الدولة الاسلامية :

غير انه حتى المظاهر والنظم التي شن عليها الاسلام حربا ، لم يقض عليها تماما ، بل ظل العرب يدينون بها أمدا طويلا ، ذلك ان هؤلاء البدو

كونوا مادة الاسلام الاولى والجزء الاعظم من الجيوش الاسلامية التي دحرت الفرس والروم وانشأت الامبراطورية الاسلامية ، حتى لقد كان الاسلام مقرونا بالعرب ، في أدواره الاولى ، وكان من الصعب التمييز بينهما • وكان للدور الذي لعبه هؤلاء البدو في الفتوح والانتصارات أثر في زيادة اعتدادهم بنفسهم وبمثلهم الاخلاقية والروحية وبلغتهم وبثقافتهم • فأصبحت هذه جزءاً هاما من المدنية الاسلامية ومثلها •

في الفكر الاسلامي :

ثم ان اللغة العربية والشعر الجاهلي كانا صدى لحياة البداوة وتعبيرا عنها ، يرسمان مثل البدو وغاياتهم كما كانت اللغة تعبر عن عواطفهم وخيالاتهم[١] ، وقد أصبحت اللغة العربية أداة التعبير في الامبراطورية الاسلامية ، وصار الشعر الجاهلي مثالا يحتذى في طريقة نظمه وأسلوبه وأخيلته وأفكاره وظل كذلك أمدا من الزمن • وبهذا أدخل المثل البدوية في الحياة الثقافية الاسلامية •

في تاريخ الاسلام :

ويلاحظ كذلك ان البدو كانوا أهم عنصر في الامصار الاسلامية وهي أهم قواعد عسكرية وادارية في الامبراطورية الاسلامية • وقد تأثرت نظم هذه الامصار بالانظمة البدوية سواء في النواحي الادارية أو المالية أو السياسية أو القانونية • ولما ظهر الفقهاء في هذه الامصار دونوا معظم مظاهر الحياة فيها ، وبذلك سجلوا كثيرا من النظم البدوية باعتبارها جزءاً من النظم الاسلامية ، وقد صارت بذلك هذه النظم البدوية جزءاً من الشريعة الاسلامية المقدسة التي يسير عليها المسلمون • والتي يقوم القسم الاعظم منها على ما دونه فقهاء الامصار الاول[٢] •

---

(١) أنظر في ذلك أحمد أمين : فجر الاسلام ص ٦٢ فما بعد •

(٢) لقد وصفت في كتابي « التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الاول الهجري » تنظيمات احدى هذه الامصار وأشرت في مواضع مختلفة الى علاقتها بالفقه •

في التاريخ عامة :

والواقع ان النظم البدوية لم تقتصر على الفترة التي سبقت ظهور الاسلام ، بل يبدو أن تاريخها أبعد . اذ أن الاخبار القليلة التي لدينا عن نظم سكان الجزيرة في العصور السحيقة توحي بأن نظمها كانت نظما بدوية ، ولم تقتصر على سكان الجزيرة فقط بل وامتدت الى الشعوب السامية ، ففي شريعة حمورابي وحياة العبرانيين كثير من مظاهر النظم البدوية التي تشبه نظم البدو قبيل ظهور الاسلام ؛ كما اننا لما نزل في الوقت الحاضر متمسكين بكثير من نظم البداوة لا في البوادي والارياف فحسب بل في المدن كذلك .

فدراسة النظم البدوية اذاً مهمة جدا لفهم حياة العرب عامة ، وكذلك لفهم القرآن والاسلام والمدنية الاسلامية والشعر والثقافة العربية بل ولفهم حياتنا الحاضرة أيضا .

عزلة الصحراء :

ونظرا لبيئة البدو الصحراوية التي لم تتغير منذ الازمنة التاريخية ، فقد أصبح البدوي منعزلا عن الامم الاخرى ، فلم يؤثر احتكاكه المحدود بالامم الاخرى بعاداته وأساليب حياته ، اللهم الا اذا خرج من الصحراء وسكن المناطق الغزيرة المياه وشيد له الحضارة بعد ترك البداوة . والواقع ان المؤثرات الاجنبية على الجزيرة العربية والتي وصفها وصفا طيبا كل من اوليري في كتابه عن الجزيرة العربية قبل محمد وأحمد أمين في فجر الاسلام ، كانت مقصورة على أطراف الجزيرة وفي المناطق الزراعية التي تحضر أهلها ؛ كما ان هذه المؤثرات لم تتوغل في الحياة والنظم البدوية ، بل ظلت في الغالب سطحية محدودة ، فلم تنفذ الى الاعماق ، وظلت حياة البداوة تتسم بطابع خاص لا يزول الا بعد استقرار طويل في أرض معينة وممارسة الزراعة والاتصال الدائمي مع الامم الاخرى .

صفات البدوي :

ويتسم البدوي بصفات عامة تميزه عن غيره ، ولكن يجدر قبل ذكرها أن نؤكد انها نتيجة وراثة اجتماعية لا بيولوجية ، وانها تولدت في الغالب نتيجة حياتهم الطويلة في الصحراء • هذا الى انها صفات عامة ، وبجانبها فوارق فردية كبيرة •

فأما صفاتهم الجسمية فهم في الغالب نحاف الاجسام ، متوسطو القامة ، ذوو أنف أقنى ، وعيون سوداء لوزية مفتوحة ، وشعر مسترسل وجمجمة مستطيلة ، غير ان عرب الجنوب هم ذوو رؤوس مستديرة وشعر اجعد ؛ ولهم قابلية كبيرة على الصبر وتحمل المشاق الجسمية من مشي طويل وغذاء يسير ، وهم يتميزون كذلك بالشجاعة والاقدام وانجاد الضعيف وحماية المرأة •

والبدوي عصبي المزاج ، مرهق الحس ، سريع التهيج ، يحب الحرية والمساواة ، ويتميز بالنظرة الواقعية ودقة النظر وقوة الذاكرة وقلما يهتم بما وراء الطبيعة والافكار الفلسفية العميقة ، هذا الى أنه يميل الى وصف المرئيات ، وما البراعة التي اشتهر بها البدوي في القيافة الا مظهر من مظاهر دقة الملاحظة والاهتمام بالمظاهر المادية •

ثم ان البدوي دقيق الملاحظة والحس ، يهتم بالجزئيات دون الكليات ، ويتميز تفكيره بالتنقل دون أن يهتم بالروابط بين الاشياء ، فاذا وصف بعيرا مثلا فقد يبدأ بذكر اذنه ثم ذيله ثم يعود الى وصف رأسه ورجله وسنامه ، وهو يدقق في وصف كل من هذه الاجزاء تدقيقا رائعا ، ولكنه لا يتبع طريقا منطقيا في تسلسل الاجزاء التي يصفها ؛ هذا الى انك لو قرأت وصفه للبعير ولم تكن قد رأيته فانك قلما تستطيع أن تتصوره من وصفه • ولا أدل على ما نقول من الشعر البدوي الذي نجده في قصائده الطويلة يطرق عدة مواضيع لا رابط بينها ولا تسلسل •

وخيال البدو من نوع خاص فهو خيال تصوري لا سمعي ، صوره منتزعة من الواقع لا من ابتكار الخيال وأوضح مثل على هذه التشبيهات التي كانوا يذكرونها :ــ

فيقول امرؤ القيس :

له أيطلا ظبي وساقا نعامة   وارخاء سرحان وتقريب تتفل

ويقول طرفة :

كأن حدوج المالكية غدوة   خلايا سفين بالنواصف من دد

ويقول امرؤ القيس :

مكر مفر مقبل مدبر معا   كجلمود صخر حطه السيل من عل

وهذه التشبيهات تختلف عن تشبيه الشاعر الهندي مشية البقر بمشية المخمور بسكرة الشباب المغرور . أو تشبيه الولد ذاهبا الى أمه ساكتا كدبيب الخيال . أو قوله مخاطبا النجم « تعال مع مركبك الذي هو أسرع من طروق الخيال » وتشبيه شيلي القبرة بالفرح مجردا عن المادة .

ان هذه التشبيهات تختلف عن تشبيه شعراء البدو بعر الآرام بحب الفلفل ، والشحم بهداب الدمقس المفتل ، وجيد الفتاة بجيد الريم ، وفرع الشعر بقنو النخلة المتعثكل ، وآثار الطلول بالوشم ، أو الرماح بأشطان البئر .

حقا ان هذه صور جديدة جميلة ، ولكنها مستمدة من الواقع وهي أقرب الى المقارنة واستثارة الذاكرة عن شيئين متباعدين ؟ بل حتى الاشخاص الخرافيون لم يتصورهم العرب خارقين في شكلهم أو قدرتهم .

ونعيد الذكر بأن تصورهم بصري وقلما يهتمون بالتصور السمعي كأصوات الطيور وغيرها[١] .

---

(١) انظر في ذلك أحمد امين : فجر الاسلام ص ٣٧ فما بعد . محمد عبدالمعيد خان : الاساطير العربية قبل الاسلام ص ٢٢ فما بعد .

القبيـــلة :

لقد كان النظام البدوي قائما على أساس القبيلة ، وهي جماعة من الناس ينتمون ، أو يزعمون انهم ينتمون ، الى جد واحد مشترك انحدروا منه ، ويسكنون عادة في منطقة واحدة ، واذا انتقلوا ساروا جميعا ، وهم يتحملون واجبات مشتركة في الدفاع ودفع الدية • ومع ان خير ما يميز القبيلة عن غيرها هو اشتراك أفرادها في دفع الدية ، الا انه من الصعب جدا تحديد عدد أفراد القبيلة والارجح ان عددها يتوقف على قدرتها على الدفاع وعلى قابلية المراعي على اعاشة مواشيها • فالقبيلة التي تقطن في أرض ممرعة ، يمكن أن يتزايد عدد أفرادها مع الاحتفاظ بوحدتها ، أما اذا زاد عددها وعدد مواشيها فوق ما يمكن أن تحتمله الارض ، فانه ينخزع منها بعضها ويكونون لانفسهم وحدة مستقلة تتخذ لها أرضا خاصة ، وتكون بذلك قبيلة مستقلة • الا انها تبقى متصلة بالقبيلة الأم برابطة النسب التي تعتز بها • أما اذا كانت هذه الوحدة المنخزعة صغيرة لا تستطيع الدفاع عن نفسها أو الاحتفاظ بكيانها ، فانها تندمج بالقبائل الاخرى ، والغالب انها تفضل الاندماج بأقرب القبائل نسباً منها • وهكذا فان عدد القبائل غير ثابت ، بل قد يزيد أو ينقص ، وقد تظهر قبائل جديدة أو تندثر قبائل أخرى أما بانقسامها الى قبائل أصغر منها اذا كانت كبيرة ، أو بانضمامها الى قبائل أخرى اذا كانت صغيرة لا تستطيع الدفاع عن كيانها •

ولا يمكن تحديد عدد أفراد كل قبيلة بالضبط ، فبعض القبائل صغيرة جدا ، وقد ذكر محمد بن حبيب عددا من القبائل لا يزيد أفراد كل منها على أصابع اليد[١] ، كما أن هنالك قبائل كبيرة العدد ؛ والغالب ان القبائل الكبيرة تقسم الى أجزاء يدعى كل جزء العشيرة والبطن والفخذ والفصيلة والرهط والحي ، ولكن حتى هذه الاقسام لا يمكن تحديدها بالضبط •

---

(١) المحبر ص ٢٥٦ •

تطورها في الاسلام :

لقد حافظ العرب على نظامهم القبلي عندما استوطنوا الامصار الاسلامية • فكانت هذه الامصار مقسمة الى قبائل ، ولكل منها خطة خاصة يسكن أفرادها معاً فيها ، كما كانوا يستلمون عطاءهم سوية ، وعلى كل قبيلة عريف خاص بها ؛ والغالب ان أفرادها يحملون مسؤوليات مشتركة • فيدفعون دية القتل غير العمد الذي قد يرتكبه أحد أفرادها ، كما تكون لهم الشفعة أو حق الافضلية في شراء البيت الذي يباع في خطتهم ، ويرثون مال من لا وارث له في عشيرتهم ، ويتحملون مسؤولية أعمال المشاغبين والمتمردين في عشيرتهم • وهكذا صار نظام القبائل هو أساس التنظيم الاجتماعي والاداري والمالي والجنائي في الامصار الاسلامية •

غير انه نظرا لان كلا من هذه الامصار الاسلامية كانت تضم قبائل كثيرة متنوعة ، فقد اضطر الولاة أحيانا الى دمج القبائل الصغيرة بالكبيرة ، وعلى مر الايام أخذت هذه الوحدات الصغيرة تفقد كيانها المستقل • غير انه اذا كانت أفراد الوحدات المندمجة شديدة التماسك فانها تحافظ على كيانها ، ولكن تصبح من الناحية الادارية مندمجة في القبائل الكبيرة • واذ ذاك يقال ان عدادها مع القبيلة الكبيرة[١] • ومن هذا يتبين ان الامصار وان كان تنظيمها قد قام على أسس قبلية ، الا أنه دخل عليها تعديلات غير قليلة •

نظرية سميث :

وقد حملت هذه التغيرات بعض المستشرقين وخاصة روبرتسن سميث على الاعتقاد بأن الانساب العربية مختلقة كلها منذ زمن عمر لكي ينظم توزيع العطاء[٢] • ومما استند اليه في تشككه في شجرات الانساب ان جميع

---

(١) في الفصل الاول من كتابي « عن التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة » شرح واف عن هذه التطورات •

(٢) روبرتسن سمث : القرابة والزواج عند العرب الفصل الاول (بالانكليزية) •

ما خلف الينا منها كتب منذ منتصف القرن الثاني فما بعد • فهي اذاً متأخرة ، كما انها متأثرة بأحوال المدن التي كتبت فيها وخاصة الكوفة والبصرة ، فهي لا تعطي تفاصيل وافية أو مضبوطة عن قبائل وأنساب النواحي الاخرى من الجزيرة العربية كاليمن مثلا ، هذا الى انها قد لا تمثل الاحوال التي كانت عليها قبل الاسلام ، يضاف الى ذلك ان شجرات النسب التي يذكرها هؤلاء النسابون قلما تذكر أكثر من ستة آباء بين أفراد القبيلة الذين عاشوا عند ظهور الاسلام وبين الجد الاعلى لكل قبيلة ، واذا افترضنا ان كل جيل كان ٢٥ سنة ، كانت القبائل العربية حسب شجرات النسب أو أغلبها قد تفرع منذ القرن الرابع الميلادي وهو أمر لا تقره الادلة التأريخية •

على أنه اذا كان ما ورد في كتب الانساب المتداولة بين ايدينا عما يتعلق بالعصور السحيقة قبل الاسلام غير مضبوط أو مغلوط ، فانه يجب أن لا تنكر الانساب نفسها ، أو نعتقد انها اختلقت كلها في زمن عمر لكي تخدم المسلمين في توزيع العطاء ، وذلك لان الاخبار التأريخية عن حياة النبي وحروب الردة تؤيد وجود هذه القبائل كوحدات مستقلة في معظم أنحاء الجزيرة ، كما أن الشعر العربي الجاهلي ترد فيه أسماء هذه القبائل ، وهو يلقي ضوءاً هاما على العلاقات بينها ، بل نذهب أبعد من هذا فنقول ان التوراة قد ذكرت بعض القبائل العربية كسليم مثلا ، كما ان النقوش اليمانية التي ترجع الى القرون الاولى قبل الميلاد تذكر الادوار المهمة التي لعبتها القبائل اليمانية كبكيل وحاشد وهمدان التي ظلت الى العصر الاسلامي محتفظة بوحدتها •

أهمية النسب :

لقد كان الاهتمام بالنسب مهماً منذ العصر الجاهلي ، اذ هو المرآة التي تظهر فيها نقاوة دم الفرد وارتباطه بالقبيلة • وقد ظل الاهتمام به حتى بعد مجيء الاسلام فأصبح أساسا للتنظيم المدني والاجتماعي في الامصار

الغربية وعند العرب ، بل حتى غير العرب كثيرا ما اضطروا عند سكناهم الامصار الى الانتساب الى القبائل العربية باعتبارهم موالي لها ، ثم أصبح كثير منهم على مر الايام يدعون بأنهم صرحاء في النسب • ولا أدل على الاهتمام بالنسب في الاسلام من الاحاديث التي تنسب الى النبي والتي يحض فيها على حفظ النسب[١] •

ولا ريب ان للاهتمام بالنسب في الاسلام أهمية كبيرة ، فهو يوضح علاقة الانسان بالعرب الفاتحين الحكام ، ويوضح العلاقة بالنبي وأصحابه الذين أصبح الانتساب اليهم فخراً ، أو بالخلفاء والولاة الذين قد يؤدى الاقتراب منهم الى بعض المنافع ، هذا الى اهميته في الوراثة اذ ان الارث يتقرر حسب النسب ، كما أن الزكاة تعطى للاقربين الذين هم أولى بالمعروف[٢] • والمعروف الذي يحسن بالاغنياء أن يدفعوه الى الاقرباء تبعا لما أمر الرسول « تعلموا أنسابكم ما تصلوا به أرحامكم » •

وان الاهمية الكبرى التي كانت للانساب في صدر الاسلام جعلتها تمتد الى غير العرب فرتبت لهم على مر الايام شجرات من النسب أوصلتهم بأجداد العرب القدماء جدا •

أسماء القبائل :

ان أسماء القبائل العربية مستمدة اما من الآلهة الوثنية القديمة كزيد اللات ووهب اللات وسعد مناة وعبد شمس ، أو من أسماء أشخاص ؛ ولكن أغلبها مستمدة من أسماء حيوانات مثل بكر ، أسد ، بهثة (بقر الوحش) ، ثعلبة ، ثور ، جحش ، جعدة (غنم) ، جعل ، حداء ، حمامة ، حنش ، الأرقم ، دؤل ، دب ، ذئب ، ضبة ، ضبيعة ، عنزة ، غراب ، فهد ، قرد ، خندف ، فهد ، كلب ، نعامة ، غبر ، هوازن ، يربوع ، جراد ، ظبيان ، عقاب ، أوس ، قرش ، حمير ، حنظلة ، صخر ، بدن •

---

(١) ابن حنبل : المسند ج ٢ ص ٣٧٤ •
(٢) ابن حزم : جمهرة انساب العرب ص ٣ ـ ٦ •

الطوطمية :

ان كثرة أسماء الحيوانات في تسمية القبائل حملت المستشرق الانكليزي روبرتسن سميث الى الاعتقاد بأنها مظهر من مظاهر الطوطمية التي كانت سائدة عند العرب قبل الاسلام[١] .

والطوطم كائنات تحترمها بعض القبائل الابتدائية ويعتقد كل فرد من أفراد القبيلة بعلاقة نسب بينه وبين أحد منها يسميه طوطمه . والطوطم قد يكون حيوانا أو نباتا ، وهو يحمي صاحبه ويبعث اليه الاحلام اللذيذة ، كما ان صاحبه يحترمه ويقدسه ، فاذا كان حيوانا فلا يقدم على قتله ، واذا كان نباتا فلا يقطعه ولا يأكله الا في الازمات الشديدة . والقبيلة تسمى باسم الحيوان ، وتعتبره أباً لها وتعتقد انها من سلالته ، وهي تحترمه وتحرم لمسه أو النظر اليه والتلفظ به ، وتحتفل بدفنه عند موته ، وتعتقد انه يدافع عن القبيلة عند الملمات[٢] .

وللتدليل على أن تسمية القبائل العربية بأسماء حيوانات هو مظهر من مظاهر الطوطمية يقول روبرتسن سمث بأن العرب اعتقدوا بأن بعض الحيوانات أصلها انسان ثم مسخت كالقردة والخنازير ولذلك حرم أكلها ، ثم ان العرب عبدت بعض الاصنام التي تمثل الحيوانات ، فكان يغوث بشكل أسد ، ويعوق بشكل حصان ، ونسر بشكل نسر ، كما عبد الاسبذيون الفرس ؛ ولعل اسم ربيعة الفرس يدل على أن ربيعة كانت تعبد الفرس . كما ا نالحمام كان بمكة مقدسا لا يجوز قتله[٣] .

على ان روبرتسن سمث متطرف في استنتاجاته ؛ فانه لم يعرف عن العرب انهم عبدوا الحيوانات نفسها أو اعتقدوا أنهم منحدرون منها ، وليس مسخ الحيوان دليل على قدسيته ، كما ان نحت الصنم على شكل حيوان

---

(١) روبرتسن سمث : القرابة والزواج عند العرب الفصل السابع .
(٢) راجع الاساطير العربية قبل الاسلام ص ٥٥ – ٨٥ .
(٣) جمعة : ص ١١٦ فما بعد .

لا يعني انهم عبدوا الحيوان نفسه ، ما عدا الاسبذيين . وليس هناك دليل على أن القبائل التي كانت تعبد النسر أو الفرس وغيرها كانت تسمى بأسماء هذه الحيوانات أو تدعي انها متحدرة منها[١] .

يقسم النسابون القبائل العربية الى قسمين كبيرين هما القبائل القحطانية أو العاربة وأصل موطنها جنوب الجزيرة ، وخاصة اليمن ، والمستعربة وموطنها وسط وشمال الجزيرة ، ويذكر بعضهم ان بين هذين الفرعين خصومات منذ أيام الجاهلية . والواقع ان الاجزاء الجنوبية من الجزيرة يختلف سكانها بعض الاختلاف عن سكان الاجزاء الشمالية ، في بعض مظاهرهم الجسمية ، وفي لهجاتهم التي يتكلمون بها[٢] . الا أنه ليس هناك دليل على وجود الخصومات بين الطرفين ، اذ ان الخصومات تنشأ عادة بين القبائل المتجاورة في محل السكن حتى ولو كانت من فرع واحد . وان أغلب أيام العرب التي ذكرت لنا في التاريخ[٣] نشبت بين قبائل يعدها النسابون متقاربة مع بعضها في النسب . ثم ان التقسيم الذي يذكره النسابون ليس دقيقا دائما ، فهناك بعض القبائل كقضاعة كانت في الاسلام تنتسب مرة الى قحطان ومرة الى عدنان ، ولكن مثل هذه القبائل محدودة والغالب ان سبب تغير نسبتها ترجع الى العصر الاموي حيث اشتدت الخصومة بين المضريين واليمانيين فأخذت بعض القبائل تنحاز الى أحد الجوانب لاسباب خاصة مدعية بأنها ترتبط فيها بصلة النسب .

---

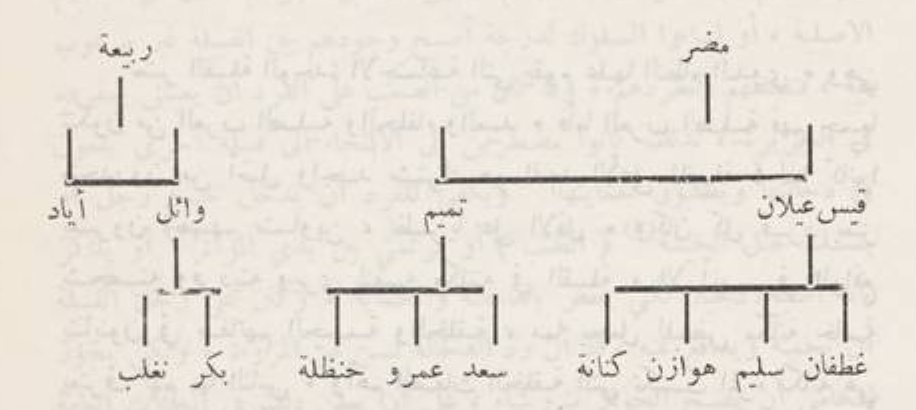
(١) راجع : جرجي زيدان : الانساب العربية القديمة .

(٢) فيليب حتي : تاريخ العرب ص ٣٠ (بالانكليزية) .

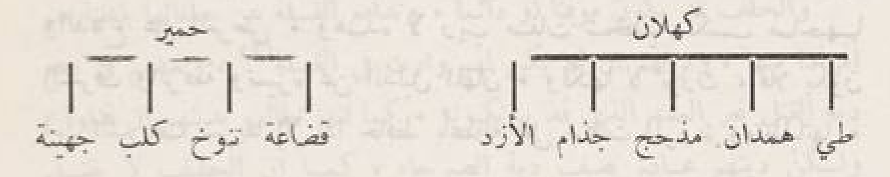
(٣) راجع عن أيام العرب : ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ١ ص ٢٠٥ ـ ٢٨٨ .

ان اهم القبائل على ما تقوله كتب النسب الشائعة هي المبينة في الجدول التالي [١] :ــ

القبائل الشمالية (العدنانية)



القبائل الجنوبية (القحطانية)



(١) أنظر في كتب النسب : نسب قريش لمصعب الزبيري ، جمهرة أنساب العرب لابن حزم ، الاشتقاق لابن دريد ، والانباه على قبائل الرواة لابن عبدالبر • وقد نظم وستنفيلد جدولا مفصلا في أنساب القبائل وتفرعاتها •

الفصل العاشر

الصـلبية :

تعتبر القبيلة الوحدة الاجتماعية التي يقوم عليها النظام البدوي • وهي تكون من العرب الصلبية والحلفاء والعبيد • فأما العرب الصلبية فهم جميعا متحدرون من أصل واحـد مشترك هو الجد الأعلى للقبيلة ؛ لذا كانوا يعتبرون أنفسهم متساوين ، نظـريا على الأقل • وكان كل فـرد يعتز بشخصيته وفرديته ويرى لنفسه مكانته في القبيلة • الا أنهـم في الواقع يتباينون في صفاتهم الجسمية والخلقية ، مما يجعل للبعض مكانة خاصة يعترف لهم بها الناس • وأهم الصفات الخلقية التي تكسب المرء مكانة هي المروءة والشرف[1] ، وهي تعبيرات خلقية يصعب تحديد معانيها بالضبط ، ولكن أهم متطلباتها هي الشجاعة وحب الحرية والثأر وحماية الجوار والدفاع عن العرض • وهـذه لا ريب صفات شخصية تكسب صاحبهـا الشرف والرفعة وتميزه عن الذليل المهان • ولكنها لا تورث ، فلا يكون ابن الشريف شريفا الا اذا حافظ بأعماله على صفات المروءة ومتطلباتها •

الحلفـــاء :

أما الحلفاء فهم ليسوا متحدرين من الجد الأعلى للقبيلة ولا تربطهم بأفرادها رابطة الدم ، ولكنهم لجـأوا الى القبيلة ووضعوا أنفسهم تحت حمايتها أو حماية أحد أفرادها • وقد يكون الحليف فردا أو قبيلة • فأما

---

(١) بشر فارس : الشرف عند العرب (بالفرنسية) ، مباحث عربية ص ٩٣ فما بعد •

حلف القبيلة للقبيلة فسنتحدث عنه في الفصل التالي • أما حلف الافراد فان الغرض منه أن ينال الفرد حماية القبيلة التي يحالفها ويستطيع أن يعيش في كنفها بأمان • ومثل هؤلاء الحلفاء عادة غرباء يأتون الى القبيلة ليتاجروا معها ، أو ليتزوجوا احدى نسائها ويسكنوا مع قبيلة المرأة ؛ ولكن كثيرا منهم كان من الخلعاء وهم الذين ارتكبوا جرائم القتل في قبائلهم الاصلية ، أو اساءوا السلوك لدرجة أصبح وجودهم بين القبيلة غير مرغوب فيه ، فتخلعهم وتطردهم • ولما كان من الصعب على الفرد أن يعيش بمفرده في الجزيرة ، لذلك كانوا مضطرين الى الالتجاء الى قبيلة أخرى يقعون في دخالتها ويطلبون حمايتها[١] ويكفي للفرد أن يدخل خيمة رجل أو يمسك حبل الخيمة[٢] (الطنب) أو يرتمي بين يدي المرأة[٣] أو يذكر بأنه أصبح دخيلا لكي يظفر بالدخالة والحماية • وكان على رجل القبيلة أن يحميه ويدافع عنه ، اذ أن رد الدخالة ليس من المروءة • ولكن يجوز للحامي أن يفسخ الجوار متى شاء ، على أن يعلن ذلك في المحلات العامة ويعطي الدخيل مهلة ليدبر أمره •

والحلف قد يكون موقتا أو دائما • وتدافع القبيلة عن حلفائها باعتبارهم أفرادا منها ، وترثهم ان لم يكن لهم وارث في القبيلة[٤] ، وتعينهم في دفع دية القتل غير العمد الذي قد يرتكبونه • كما انها تطالب بديتهم ان قتلوا ، ولكن ديتهم عادة نصف دية الصرحاء ، كما أن الحليف لا يقتل بالصريح[٥] •

ويتم الحلف عادة بالقسم ليكتسب صبغة قدسية ، وقد يصحبه لعق

---

(١) محمد محمود جمعة : النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء الساميين ص١٤٨ فما بعد (وسنرمز اليه جمعة) ، محمد أحمد الحوفي : الحياة العربية في الشعر الجاهلي ص٣١٧ فما بعد •

(٢) الاغاني : ج١٩ ص٨٠ •

(٣) المحبر : ص٤٣٣ •

(٤) الاغاني : ج٢ ص١٦٧ •

(٥) الاغاني : ج٣ ص٤١ •

الدم ليعوض الدم المعوق عن الدم الموروث[١] . وقد يغمس في الطيب كما حدث في حلف المطيبين في مكة[٢] .

لا يكون الحلفاء عادة مشاكل للقبيلة ، لان قبائلهم الاصلية قد تركتهم ونفضت أيديها منهم ، فلم تعد لهم علاقة بها ، ولذلك فهم يستطيعون تكوين علاقات جديدة مستقلة مع القبيلة الجديدة .

العبيـد :

أما العبيد فأغلبهم من أسرى الحروب ولـكن بعضهم نتيجة الشراء وخاصة من أفريقية ، أو الولادة ، أو الدين ، أو القمار . ويعملون عادة في الاعمال اليدوية والحلب ويعاونون أسيادهم في الاعمال التي تسند اليهم . ولا يشتركون في الحروب . ولما كان الرق المتولد من الاسر له حالة خاصة فان الرقيق فيه يكون من العرب وقد تكون له مكانة في قبيلته ، والغالب انه يحسن معاملتهم . كما أن قبائلهم الاصلية تعمل على فكهم بالفداء أو بمبادلة الاسرى ، اذ ليس من الشرف للقبيلة أن تترك أفرادها المأسورين ارقاء عند القبائل الاخرى .

المـرأة :

لقدكان المجتمع البدوي يتبع نظام الابوة Patrimonial system فللرجل السيادة والسلطة على البيت وعلى المرأة وعلى الاولاد قبل البلوغ . ولكن مع هذه الحقوق كانت للمرأة مكانة كبيرة تتناسب مع الخدمات التي تقوم بها اذ انها كانت تقوم بقسط كبير من العمل في البيت وخاصة في ذلك المجتمع القاسي الذي كان الرجال فيه يمتهنون الحرب والرعي ، ثم ان المرأة هي الوسيلة الوحيدة لانتاج الرجال الذين يزيدون قوة القبيلة في

---

(١) الاغاني : ج٧ ص٢٦ وكذلك ابن منظور : لسان العرب مادة دم .
(٢) سيرة ابن هشام : ج١ ص١٤٢ – ٣ .
(٣) جمعة : ص١٢ .

السلم والحرب • وخاصة اذا كان أولادها « نجباء » قادرين على أن يكونوا لانفسهم مكانة مرموقة في المجتمع • ولا ريب ان المرأة كانت تقوم بنفسها بدور في الحروب ، كتضميد الجرحى ورعايتهم وتزويد المقاتلين بالزاد والماء ؛ هذا الى أن المرأة قد تكون مصدر ربح لوليها الذي يأخذ عند زواجها صداقا • وأخيرا فان المرأة قد توحي للشعراء بالخيال وللرجل بالطموح وقد تدخل في البيت بهجة وحياة روحية جميلة[١] •

وقد أعطتها هذه الخدمات مكانة مرموقة في المجتمع ، فكانت تعتبر من أهم عناصر الشرف ، والدفاع عنها من المروءة التي تستحق الفخر ، كما لا يجوز رفض من يستجير بها • ولا أدل على احترامها من مخاطبتها بالحرمة من الاحترام وبربة البيت كدليل على تقدير مكانتها فيه[٢] •

الـوأد

والواقع ان المرأة كانت تلقي على الرجال أعباءاً ثقيلة في مداراتها والمحافظة عليها من اعتداء الآخرين أو من الفقر أو عاديات الزمن • وقد أدى بهم هذا الى الاغتياظ من ولادتها • وقد أشار القرآن الكريم الى ذلك « واذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم • يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب » (النحل ٥٧ ـ ٩) « أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين • واذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم » (الزخرف ١٦ ـ ١٧) • وقد أدى هذا بالبعض الى أن يئد البنات تخلصا مما قد تلقيه من مسؤوليات •

---

(١) الحوفي : الحياة العربية في الشعر الجاهلي ص١٥٧ • وعن مساهمة نساء قريش في بدر راجع سيرة ابن هشام ج٣ ص٥ ـ ٦ ، وعن مساهمتهم في أحد ج٣ ص٧ ، ٥٨ •

(٢) الحوفي : المصدر السابق ص١٥٥ ـ ٦ • المرأة العربية ص١٦٠ فما بعد •

يروي البعض ان الوأد حدث قبيل الاسلام عند بني تميم عندما حاربهم النعمان بن المنذر فأسر نساءهم ، ولما أرادوا افتداءهن رفضت بنت قيس بن عاصم شيخ بني تميم ، أن تفدى من الأسر وفضلت البقاء مع آسرها ، فقرر مع قبيلته أن يئد كل بنت تلد[١] • غير ان هناك روايات تشير الى وجودها في قبائل أخرى ، فيروي الميداني عن الهيثم بن عدي انـه كان في قبائل العرب قاطبة يستعمله واحد ويتركه عشرة فجاء الاسلام وقد قل الا في بني تميم فانه تزايد فيهم قبيل الاسلام ، رغم ان جد الفرزدق بذل مجهودا في ابطاله حيث كان يشتري البنات التي يريد أهلهن وأدهن[٢] ، ويقـول السكري بأنه اشترى أربعمائة وأربعـة جـوار لافتدائهن من الوأد[٣] ؛ ويذكر القرطبي ان الوأد كان في مضر وخزاعة[٤] ، وقد تردد ذكر الوأد في القرآن الى درجة توحي بأنه كان مألوفا في الحجاز « واذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه في التراب » (النحل ٥٧ ـ ٩) « يا أيها النبي اذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله ان الله غفور رحيم » (الممتحنة ١٢) « واذا المؤودة سئلت بأي ذنب قتلت » (التكوير ٨ ـ ٩) « وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون •• » (الانعام ١٣٦) « قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراءا على الله ، قد ضلوا وما كانوا مهتدين » (انعام ١٤٠) « ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق • نحن نرزقهم واياكم » (الاسراء ٣١) « ولا تقتلوا أولادكم من املاق • نحن نرزقكم واياهم » (انعام ١٥٠) •

---

(١) الاغاني : ج١٢ ص١٤٤ •
(٢) الاغاني : ج١٩ ص٢ ـ ٥ •
(٣) المحبر : ص١٤١ •
(٤) تفسير القرطبي : ج٢ ص١١٧ •

ان الآيتين الاخيرتين (الاسراء ٣١ ، الانعام ١٥٠) تظهران ان الوأد كان لعامل اقتصادي أما الآية الاولى (النحل ٥٧ ـ ٩) فتدل على ان الدافع اليه اجتماعي ، أما الآية (١٣٦ ، ١٤٠ من سورة الانعام) فواضح منها ان الدافع ديني ؛ والواقع ان تقديم الضحايا البشرية للآلهة أمر معروف لدى الساميين ، فقد ذكر القرآن تقديم ابراهيم ابنه قربانا الى الله ، كما أشرنا من قبل الى تقديم المنذر بن ماء السماء الاربعمائة أسرى ضحايا للعزى[١] ، وأراد عبدالمطلب أن يقدم ابنه عبدالله ضحية وقربانا[٢] . وربما كان مما يتصل بالدين أن البنت توأد عادة عند ولادتها أو عندما تبلغ السادسة من العمر . ويلاحظ ان الآيات الاربعة الاخيرة تستعمل « قتل الاولاد » وليس « وأد البنات » .

وكثيرا ما تعارض الأم في وأد البنت فيهددها الاب ، ويروي الطبري عن عكرمة في تفسير آية سورة الانعام انه « كان الرجل يشترط على امرأته أن تستحيي جارية وتئد أخرى ، فاذا كانت الجارية التي توأد غدا الرجل أو راح من عند امرأته وقال لها انت علي كظهر أمي ان رجعت اليك ولم تئديها فتخد لها في الارض خدا وترسل الى نسائها فيجتمعن عندها ثم يتداولنها حتى اذا بصرته راجعا دستها في حفرتها ثم سوت عليها[٣] .

مكانة المرأة :

على ان الوأد لا يمكن أن يكون دليلا على احتقار العرب للمرأة ، فان بعض الآلهة كن بنات . والواقع ان المرأة كانت لها حقوق غير قليلة ، فكان لها الحق أن تمتلك أملاكا خاصة ، وخير مثل على هذا خديجة زوجة النبي ، وجليلة بنت المهلهل التي كان لها غنم يرعاها أخوها زيد الخيل[٤] . وهي

---

(١) انظر ص٥٥ .

(٢) سيرة ابن هشام : ج١ ص١٦٧ وانظر أيضا سمث : القرابة والزواج ص٢٩١ فما بعد .

(٣) تفسير الطبري : ج٨ ص٣٨ .

(٤) الاغاني : ج١٦ ص٤٩ ـ ٥٠ .

لا تفقد هذه الحقوق حتى بعد الزواج ، لان عقد الزواج كان يبيح للزوج حق الحياة مع الزوجة وحق انجاب الاولاد له ، لا حق تملكهـا . والغالب انها لا تزوج الا بعد أخذ موافقتها ولها الحق في رفض من لا تريده ممن يطلب يدها[١] . كما انها تظل حتى بعد زواجها مرتبطة بقبيلة أهلها التي تحميها وتدافع عنها[٢] ولبعضهن حق الطلاق[٣] ولذلك فهي تشعر بأن لها شخصيتها التي لا تذهب بعد الزواج رغم الحقوق الواسعة التي يتمتع بها الزوج . على انه لا ريب ان سلطتها تضعف كلما بعد محل سكنى زوجها عن قبيلتها .

الامومـة :

وقد حملت هـذه المكانة السامية بعض الباحثين ، وخاصة روبرتسن سميث[٤] ، على القول بأن العـرب كانت تتبع في الازمنة القديمة نظـام الامومة ، وهو النظام الذي تكون فيه المرأة هي صاحبة السيادة والسيطرة في المجتمع ، ويكون عادة سائدا في المجتمعات التي يمتهن رجالها الرعي والصيد ويقضون معظم أوقاتهم خارج بيوتهم . وقد استدلوا على ذلك من أن المجتمع البدوي العربي يمتهن أهله الرعي والصيد ، وانه يمكن أن نرى في اللغة العربية آثارا لنظام الامومة : فالرحم تدل على القرابة فهم يقولون « وصـل وقطع رحمه » ، والبطن تطلق على احدى الوحـدات الاجتماعية في القبيلة ، وان كثيرا من القبائل تسمى بأسماء مؤنثة كخندق ومزينة وعاملة وعائدة ، كما ان كثيرا من الناس كانوا يسمون باسم أمهم .

(١) ابن سعد : ج١ قسم١ ص٤١ سيرة ابن هشام ج١ ص١٤٨ .
(٢) الطبـري : ج٢ ص١٧٦ سـمث : القرابـة والزواج ص١٦٦ فما بعد .
(٣) المحبر : ص٣٩٨ .
(٤) سمث : القرابة والزواج ص١٥٤ فما بعد انظـر ايضـا ولكن : الامومة عند العرب (ترجمة بندلي جوزي) محمد عبدالمعيد خان : الاساطير العربية قبل الاسلام ص٦٥ جمعة : ص٧٩ فما بعد . الحوفي : المـرأة العربية ص٥٦ ـ ٦٧ .

وقد ألف محمد بن حبيب كتابا قيما فيمن سمي باسم أمه من الشعراء .
بل يروى ان عوف بن محلم شرط على عمرو بن حجر عندما خطب هذا ابنة عوف أن « أزوجكها على أن أسمي بنيها وأزوج بناتها ، فقال عمرو بن حجر أما بنونا فنسميهم بأسمائنا وأسماء آبائنا وعمومتنا وأما بناتنا فينكحهن اكفاؤهن من الملوك[١] » وجدير بالذكر ان أغلب الاشياء المهمة في الحياة كالشمس والارض مؤنثة[٢] . هذا الى أن شخصيات نسوية بارزة ظهرت في المجتمع الجاهلي في الدين والسياسة كالزباء التدمرية وسجاح التميمية وهند زوجة أبي سفيان وخديجة زوجة النبي . كما انه كان للخال مكانة كبيرة في النسب وكان يعتقد ان أغلب صفات الولد تورث من خاله فالعرب تقول نزعه عرق الخال[٣] ، ويقول الفرزدق « نزعتك والام اللئيمة تنزع » . ويقول جرير :

لا تطلبن خؤولة في تغلب   فالزنج اكرم منكم اخوالا

غير ان الادلة التي يسوقها سميث غير كافية لاثبات وجود الامومة عند العرب بل هناك دلائل تنقض ذلك : فالمجتمع السامي منذ عرف في التاريخ كان يعتبر الاب هو رأس الاسرة . والبعل أو الزوج هو السيد ، والقبائل المنسوبة الى أمها قليلة جدا اذا قورنت بمن دعي باسم أبيه ، كما ان أصلها قد يكون سببه الزواج بامرأتين مما يجعل الاولاد ينتسبون لامهاتهم لكي يتميزوا ، يضاف الى ذلك ان صيغة التأنيث للفظ القبيلة لا لاسمها . وان زواج المباضعة والمتعة أحوال شاذة[٤] .

الزواج :

لقد ذكرنا ان الوظيفة الرئيسية للمرأة هي انجاب الاولاد ، حيث

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج٣ ص١٩١ .
(٢) فنسنك نظرية الجنس في اللغات السامية (بالانكليزية) انظر في الزواج أيضا : شترن الزواج في العهود الاسلامية الاولى .
(٣) ابن سعد : ج٣ قسم١ ص٢٣٥ .
(٤) انظر : جرجي زيدان : الانساب العربية وجمعة ص٧٥ فما بعد ، ناشد سيفين : الامومة عند العرب (المقتطف سنة ١٩٣١) .

يتوقف عليها مستقبل العشيرة ومكانة الجيل الجديد ، فهي قد تنجب النجباء والسامين أو بالعكس ، هذا الى انها قد تقوم بدور سياسي واجتماعي هام فالزواج يؤدي الى ترابط الاسر البعيدة ، وقد يؤدي الى ترابط العشائر مع بعضها ؛ فان رابطة الفرد مع عشيرة أخواله قد لا تقل قوة عن رابطته مع أعمامه وفي هذا أثر كبير على تقارب الناس وتعاونهم •

لذلك كانت العرب تهتم باختيار الزوجة ، وكانوا يهدفون دائما ان تكون الزوجة كفوءاً وأن تكون من النجيبات المتوفرة فيهن النجابة والذكاء والجمال • ويمكن أن نستنتج من أوصاف النساء اللاتي اعجب بهن الشعراء بان العربي كان يستذوق المرأة اذا كانت طويلة العنق فارعة القامة لينة الجسم ممتلئة الذراعين والساقين عظيمة الوركين ناعمة البشرة طيبة رائحة الفم •

الزواج بالاباعد :

لقد كانت العرب تعتقد ان الزواج بالاباعد أدعى الى انجاب النجباء من الاولاد[1] ، الا انهم قلما يميلون الى الزواج خارج العشيرة ، لان هذا يستلزم منهم أن يأخذوا من ترضى بترك عشيرتها وأهلها لتسكن مع عشيرة زوجها الغريبة البعيدة عنها ، والا فان الرجل اما أن لا يرى زوجته الا فترات قصيرة يزورها خلالها ، أو ان عليه أن يسكن مع عشيرة زوجته الغريبة عنه والتي قد لا تعطف عليه • لذا فان مثل هذا الزواج كان في الغالب مقصورا على رؤساء القبائل الذين يريدون مثل هذا الزواج لاسباب سياسية أو لكي يصاهروا من هو كفوء لهم • وقد يتزوج الخلفاء أيضا مثل هذا الزواج من خارج قبيلتهم الاصلية ، ويختارون زوجاتهم من القبيلة التي تجيرهم ، وهو أغلب شيوعا • وتستطيع المرأة الطلاق لمجرد تغير باب خبائها او تضع عليه حجابا •

الزواج الداخلي :

فالزواج الشائع عند العرب اذاً هو الزواج في داخل العشيرة ، فهو

---

(١) الحوفي : المرأة العربية ص١٢٦ •

أدعى الى أن تحافظ العشيرة على انسجامها ووحدتها ، ويتم عادة بأن يخطب الرجل ، أو من يرسله ، البنت من أبيها أو وليها وهو أقرب أقربائها الكبار . وتستشار المرأة عادة في الزوج ، وقلما تجبر على الزواج بمن لا ترغب . وليس من الضروري أن تكون موافقتها بالنطق ، بل ان سكوتها يكون دليلا على رضاها . وقد تخطب الفتاة عند الطفولة ، وتكون ملزمة أدبيا بالزواج عندما تكبر ، ولكن يحق لها أن ترفض من يتقدم لطلب الزواج منها .

المهر :

وعلى الخطيب أن يدفع بعد الموافقة مهرا لأبيها ، ويختلف مقداره باختلاف مركز الخطيب وابيه أو الفتاة وأبيها[١] . ولا ريب ان العرب كانت تراعي في تزويج بناتها الاكفاء . وقد تعطى المرأة صداقا أو هدية لها . ولا يحق للرجل استرداد الصداق ، ولكن يحق له رد المهر اذا لم يتم الزواج ، بل انه كان الزوج أحيانا يطلب رد المهر اذا ماتت زوجته ، أو قد يطلب من أبيها أن يزوجه باختها بعد موتها .

واذا مات الرجل فلابنه الاكبر حق التزوج بها من دون مهر ، لان الاب كان قد دفع المهر . ويدعى هذا الزواج زواج الضيزن وقد حرمه القرآن بقوله تعالى « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم الا ما قد سلف انه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا (النساء ٢٢)[٢] » .

كما ان القرآن منع استرداد ما يعطى للمرأة (الطلاق مرتان ، فامساك بمعروف أو تسريح باحسان ، ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً الا أن يخافا ألا يقيما حدود الله .. (البقرة ٢٢٩) « وان طلقتموهن من

---

(١) الحوفي : المرأة العربية ص١٤٩ ، ١٥١ جمعة : ص٤٤ فما بعد ، سمث : القرابة والزواج عند العرب القدماء ص٥٠ فما بعد .

(٢) تفسير الطبري : ج٤ ص٢١٧ . مصعب الزبيري : نسب قريش ص١٠ ، ٩٩ . ابن قتيبة : المعارف ص٥٠ ـ ٥١ . المحبر : ص٣٢٥ .

قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم الا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح » (البقرة ٢٣٧) « وان أردتم استبدال زوج مكان زوج وأتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئاً ، أتأخذونه بهتانا واثما مبينا • وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم الى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا » (النساء ٢٠) •

وقد يستعاض عن المهر بأن يدفع الخطيب أخته لأخ خطيبته بدل المهر ، ويدعى مثل هذا الزواج زواج الشغار ، وقد حرمه الاسلام فقال تعالى « وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فان طبن لكم عن شيء منه فكلوه هنيئاً مريئاً » (النساء ٤)[١] •

تعدد الزوجات :

وللرجل حق الزواج بأكثر من واحدة • ولا ريب ان تعدد الزوجات موجود عند معظم الشعوب القديمة والابتدائية ، وله أهمية كبرى في تكثير عدد المولودين ، وتصريف النساء الفائضات في المجتمع الذي يزيد فيه عدد النساء على الرجال ، هذا الى أنه قد يحل مشكلة العقم • أي ان الرجل يحتفظ بزوجته العاقر اذا كان راضيا عنها ، ويتزوج بجانبها من تنتج له نسلا • ويقول الطبري انه كان للرجل أن يتزوج عشراً [٢] ويعدد محمد ابن حبيب أسماء عدد من الثقفيين تزوج كل منهم عشراً[٣] • وقد حدد الاسلام عدد الزوجات بأربعة « وان خفتم الا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » (النساء ٣) • وكان يجوز الجمع بين الاختين فحرم الاسلام ذلك « حرمت عليكم امهاتكم •• وان تجمعوا بين الاختين الا ما قد سلف » (النساء ٢٣) •

---

(١) تفسير الطبري : ج٤ ص١٦٢ • أما عن الاحاديث النبوية عن الشغار فانظر فنسنك : الفهرس المفصل لالفاظ الحديث النبوي مادة شغار، جمعة : ص٤٠ ــ ٤١ •

(٢) تفسير الطبري : ج٤ ص١٥٧ •

(٣) المحبر : ص٣٥٧ وانظر ايضا جمعة ص٥٩ فما بعد •

التسـري :

وللرجل أن يمتلك ما شاء من الاماء • وقد أقر الاسلام تملك الجواري « وان خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم » (النساء ٣) « حرمت عليكم امهاتكم •• والمحصنات من النساء الا ما ملكت أيمانكم •• ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات » (النساء ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥) (أنظر أيضا النساء ٣٦ ، النحل ٧١ ، المؤمنون ٦ ، النور ٣١ و٣٣ ، ٥٨ ، الروم ٢٨ ، الاحزاب ٥٠ ، ٥٢ ، المعارج ٣٠) • ولكن مكانة الاماء والسراري أقل من مكانة المرأة الحرة ، وأولادها احط مكانة من أولاد الحرائر •

غير انه رغم فوائد تعدد الزوجات ، فانه لم يكن عاماً ، لأنه كان يلقي على الرجل عبئا اقتصاديا ، فضلا عما يخلقه من مشاكل عائلية واجتماعية ، وما يحدثه من خصومات بين الضرائر •

نكاح الرهط :

والسائد في الجاهلية أن يختص المرء بزوجته ، ولكن هناك نوعا من الزواج يدعى زواج المشاركة أو الرهط يشترك فيه عدة رجال بزوجة واحدة • ولعل أصل منشئه الاسرى وصعوبة توزيعهن فتعطى لكل جماعة فتاة من الاسرى يشتركون فيها • وقد يكون منشؤه الصعوبات المالية في الزواج فيشترك الاخوة في زوجة واحدة • أو قد يكون بسبب الوراثة ، اذ يرث الاولاد زوجة أبيهم فيشتركون فيها ، وقد روى البخاري عن عائشة انها ذكرت أربعة أنواع من الزواج ، أحدهما هو نكاح الرهط وهو (أن يجتمع الرجال ما دون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها ، فاذا حملت ووضعت ومرت ليال بعد أن تضع حملها أرسلت اليهم فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها فتقول لهم قد عرفتم

الذي من أمركم وقد ولدت فهو ابنك يا فلان تسمي من أحبت باسمه فيلحق به ولدها لا يستطيع أن يمتنع منه الرجل[١] » . وفي مثل هذا الزواج تختار الام عادة الاب من بين أزواجها المتعددين ، أو قد يسمى الولد باسم أمه .

ولا ريب ان هذا النوع من الزواج كان قليل الانتشار وشاذاً ، وكان يتطلب من الرجل تضحية كبيرة في عواطف الابوة ، والانانية التي هي عماد الحياة الزوجية .

المتعـــة :

والزواج عقد دائم بين الرجل والمرأة ، غير أنه كان في بعض الاحيان يحدد الزواج بمدة معينة يكون خلالها الاتصال حلالا ، فاذا انتهت المدة حرم اتصال الرجل والمرأة . وتختلف مدة العقد حسب رضاء الطرفين ، ولكن يجوز تمديده بموافقة المرأة ، ويكون الاولاد تابعين عادة لأمهم ، فهي التي تسميهم وتنسبهم .

وفي القرآن آية قد يفهم منها المتعة ، وان لم تكن صريحة في ذلك « والمحصنات من النساء الا ما ملكت أيمانكم كتاب الله عليكم وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ولا جناح عليكم فيما تراضيتم من بعد الفريضة » (النساء ٢٤) .

وقد أباح الرسول المتعة فترة من الزمن ، في غزوة بني المصطلق وفي فتح مكة لمدة ثلاثة أيام[٢] ، ثم حرمت فيما بعد[٣] . والمتعارف ان الذي

(١) البخاري : كتاب النكاح الباب الخامس عشر . وانظر أيضا سمث : القرابة والزواج عند العرب القدماء ص ١٤٥ فما بعد ، جمعة : ص ١٤ فما بعد .

(٢) عن ترخيص الرسول بنكاح المتعة أنظر كتب النكاح في البخاري : الباب ٣١ ، النسائي الباب ٧١ ، مسلم ٣ ـ ١٥ ، ابن ماجة الباب ٤٤ ، الدارمي الباب ١٦ ، ابن حنبل ج ١ ص ٤٢٠ ، ٤٣٢ ج ٣ ص ٣٢٥ ، ٣٥٦ ، ٣٩٣ ، ٣٧٠ ج ٤ ص ٤٧ ، ٥١ .

(٣) البخاري : كتاب المغازي : الباب ٣٨ ، كتاب النكاح : =

شدد في تحريمها هو عمر الذي استند على شهادة شهود في تحريم الرسول لها[١] . ولا ترى الشيعة ان هناك دليلا ثابتا على تحريم الرسول لها ، ولا تعترف بصحة الاحاديث المنسوبة الى النبي في تحريمها ، كما لا تعترف بأن تحريم عمر لها يقر الالتزام الشديد في المنع ، فهي لذلك لا تنكرها . والواقع ان المتعة تحل مشكلة العلاقات الجنسية وخاصة في المجتمعات التي تتخذ موقفا صلبا تجاهها كالاسلام ، وخاصة في الاحوال التي يضطر فيها المرء الى الاقامة موقتا بعيدا عن أهله . ولكنها لا تحقق الغاية الاساسية من الزواج وهو ايجاد حياة اجتماعية مستقرة دائمية .

لقد كان الطلاق مباحا وهو أنواع : منه الطلاق المعروف ، والعادة أنه يتم الاتفاق بين الزواج وابي الزوجة لكي يسترد الزوج الصداق . ولكن الزوج أحق بمطلقته من غيره اذا أراد الزواج بها . ويقول السكري : (انه كانت عند الجاهلية ثلاث تطليقات . وقد أقر الاسلام ذلك ، وحرم جواز الرجوع الى الزوجة بعد التطليقات حتى تنكح زوجا غيره) « الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان .. فان طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره ، فان طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا ان ظنا أن يقيما حدود الله وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون » (البقرة ٢٢٩ - ٢٣٠) .

وهناك أنواع أخرى من الطلاق منها الظهار[٢] ، وهو أن يقول

= الباب ٣١ ، كتاب الذبائح : الباب ٢٨ ، كتاب الحيل : الباب ٤ ، مسلم : كتاب النكاح ٢١ - ٣٢ ، ابن حنبل : ج ١ ص ٧٩ ، ١٠٣ ، ١٤٢ ج ٢ ص ٩٥ ، ١٠٣ ج ٣ ص ٤٠٤ ، ٤٠٥ ج ٤ ص ٥٥ .

(١) مسلم : كتاب النكاح ص ١٦ - ١٧ . ابن حنبل : ج ٣ ص ٣٠٤ ، ٣٢٥ ، ٣٥٦ ، ٣٦٣ ، ٣٨٠ . المسعودي : مروج الذهب ج ٥ ص ١٨٦ - ٩ . ويذكر السكري ان خالد بن عبد الانصاري وزيد بن ثابت وسلمة بن الاكوع وعبدالله بن عباس كانوا من أصحاب النبي ويرون المتعة (المحبر : ص ٢٨٩) .

(٢) البخاري : كتاب الطلاق : الباب ٢٣ . ابن حنبل : ج ٤ ص ٣٧ ، ج ٦ ص ٤١٠ .

الرجل لزوجته أنت علي كظهر أمي أو اختي نتحرم عليه ، وقد أشار اليها القرآن « والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فاطعام ستين مسكينا » (المجادلة ٣ ، ٤) « ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن امهاتكم » (الاحزاب ٤) .

ومن أنواع الطلاق الايلاء وهو أن يقسم الرجل يميناً بألا يمسها[١] ؛ وقد أقره الاسلام ، ولكن حدده بأربعة أشهر يقرر بعدها الرجل فيما اذا كان يبقي المرأة أم ينفصل عنها « للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر ، فان فاؤا فان الله غفور رحيم ، وان عزموا الطلاق فان الله سميع عليم » (البقرة ٢٢٦ - ٢٢٧) .

وقد تبقى الزوجة في عصمة الرجل ولكنه لا يمسها ، يريد بذلك أن يحرجها ويستغلها مادياً لترجع ما دفعه لها وقد حرم القرآن ذلك « واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فامسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ، ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه . واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن ازواجهن اذا تراضوا بينهن بالمعروف » (البقرة ٢٣٠ - ٢٣١) « يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن الا أن يأتين بفاحشة » (النساء ١٩) .

واذا مات الرجل فلا يحق للمرأة الزواج الا بعد أن تتربص سنة فلا تتزين خلالها[٢] ، وقد اشار القرآن الى ذلك باسلوب يفهم منه اقراره لذلك « والذين يتوفون منكم ويذرون ازواجا وصية لازواجهم متاعا الى الحول غير اخراج فان خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معروف » (البقرة ٢٤٠) .

---

(١) البخاري : كتاب الطلاق : الباب ٢٣ .

(٢) تفسير الطبري : ج ٢ ص ٣١٦ - ٣١٩ ، ٣٦١ . المحبر : ص ٣٣٨ .

ويبدو ان صداقة النساء للرجال ومخادنتهن كانت معروفة عند العرب ، ذكرها القرآن في معرض الانكار « محصنات غير مسافحات ولا متخذات اخدان » (النساء ٢٥) • كما ان القصص الكثيرة التي يرويها الشعراء عن أيام الانس التي قضوها مع صديقاتهم اللواتي كثيراً ما تذكر اسماؤهن ، وخاصة في شعر امرىء القيس ، انما هو دليل على الحرية الواسعة التي كانت تعطى لمثل هذه العلاقات • والغريب اننا قلما نسمع بشاعر قتل أو هدد لوصفه ليالي الانس وتمتعه بخدينانه ، وقد ظلت آثار ذلك بعد الاسلام كما يظهر من دراسة حياة عمر بن أبي ربيعة وغيره من شعراء الحجاز •

أما الزنا فقد كان موجوداً ، وان كنا لا نعلم مدى انتشاره ، وقد ذكره القرآن وشدد في تحريمه بعدة آيات « ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلا » (الاسراء ٣٢) « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين • الزاني لا ينكح الا زانية أو مشركة ، والزانية لا ينكحها الا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين » النور (٢ ـ ٣) « يا ايها النبي اذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن اولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين ايديهن وارجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله ان الله غفور رحيم » (الممتحنة ١٢) « والذين لا يدعون مع الله الاهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله الا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما » (الفرقان ٦٨) •

وفي القرآن تعبير آخر عن الفاحشة ، وقد تكررت في القرآن اربعاً وعشرين مرة ، مقرونة بالكبائر وبأنها من عمل الشيطان ، وان الله لا يأمر بها ، وهم يفعلونها لانهم وجدوا آباءهم عليها ، وتأتي النساء بالفحشاء ، « واللائي يأتون الفاحشة من نساءكم فاستشهدوا عليهن اربعة منكم فان شهدوا فامسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا »

(النساء ١٥) و « يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن . الا أن يأتين بفاحشة مبينة » (النساء ١٩) « ومن يأت منكم بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين » (الاحزاب ٣٠) « يا أيها النبي اذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن واحصوا العدة واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن الا أن يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله » (الطلاق ١) وكل هذه الآيات تدل على ارتكاب بعض النساء الفحش الذي هو عمل وجدوا آباءهم عليه (أنظر الاعراف ٢٨) ويدلهم عليه الشيطان (أنظر البقرة ١٦٩ ، ٢٦٨) وهي حرام (الانعام ١٥١ ، ٣٣) ؛ ومع أن الزنا فاحشـة ومقتاً وساء سبيلا (الاسراء ٣٢) الا أنه يصعب الجزم بأن الفاحشة مرادفة للزنا ، بل الارجح ان اسم الفاحشة اسم عام لرذائل اجتماعية كانت موجودة ولا نعرف تفاصيلها .

وقـد أشار القرآن أيضاً الى السفاح وهو الاتصال الجنسي غـير الشرعي ، وتردد ذكره مقابل المحصن « واحل لكم ما وراء ذلك أن تبتغوا بأموالـكم محصنين غـير مسافحين » (النساء ٢٤) « .. اذا آتيتموهن اجورهن محصنين غير مسـافحين ولا متخذي أخـدان » (المائدة ٥) « وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات » (النساء ٢٥) .

لقد كان البغاء موجوداً ، وقد ورد ذكره في القرآن « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان أردن تحصناً » (النور ٣٣) وقد وردت كلمة الفتيات في آية أخرى بمعنى الامة « فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات » (النساء ٢٥) ، ويورد الطبري في تفسير هذه الآية أسماء عدد من البغايا ومن كان يملكهن ، مما يدل على وجوده[١] . والراجح انه يكثر في الاسواق والمدن كمكة والطائف ، وكان لبيوت البغايا عادة رايات يعرفن

---

(١) تفسير الطبري : ج ١٨ ص ١٠٠ ـ ١٠٤ . أنظر ايضا اغاني ج ١٣ ص ١٣٤ . الفاكهي : أخبار مكة ص ٣ . ياقوت ج ٢ ص ١٧٥٣ .

بها ولذا كان يطلق عليهن أحياناً أصحاب الرايات[١] • ولا ريب انه لم يكن ينظر اليهن نظرة احترام ، والراجح ان أصل معظمهن من الجواري أو العبيد • وينسب ولد البغي عادة الى أمه • ولكنه قد ينسب الى من تختاره امه ممن اتصل بها ، ولعل اشهر ولد بغي هو زياد الوالي المشهور الذي كان يسمى باسم امه سمية ، ثم استلحقه معاوية بنسبه فصار يسمى زياد بن ابي سفيان •

(١) المحبر : ص ٣٤٠ • تفسير الطبري ج ١٨ ص ٥٥ ـ ٥٧ •

الفصل الحادي عشر

التنظيمات السياسية عند البدو

القبيـــلة :

القبيلة هي الوحدة السياسية عند البدو ، وهي كما رأينا ، جماعة من الناس ينتمون أو يعتقدون أنهم ينتمون الى أصل واحد مشترك ، ويرحلون ويقيمون سوية ، وتربطهم رابطة العصبية وهي كما قال ابن خلدون :

« ولا يصدق دفاعهم وذيادهم الا اذا كانوا عصبية وأهل نسب واحد ، لانهم بذلك تشتد شوكتهم ويخشى جانبهم ، اذ نعرة كل أحد على نسبه وعصبيته أهم ، وما جعل الله في قلوب عباده من الشفقة والنعرة على ذوي أرحامهم وقربائهم موجودة في الطبائع البشرية وبها يكون التعاضد والتناصر وتعظم رهبة العدو لهم[1] » .

ويتضح من تعريف ابن خلدون هذا أن العصبية هي شعور التماسك بين من تربطهم رابطة الدم نقية ، فهي لا توجد الا حيث يوجد المجتمع المعزول ، وانها دافع غريزي في الانسان ، قائمة على أساس رابطة الدم ، فهي دائمية ثابتة ، طبيعية لا مكتسبة ، وفيها عنصر أخلاقي يجعلها قوة اجتماعية وسياسية ، ولها أهمية كبرى ، اذ انها قوة سياسية دفاعية تربط بين الناس وتكتلهم فتعمل بذلك على بقاء المجتمع وتحفظ كيانه . فالعصبية اذاً تشبه الشعور القومي في عصرنا الحاضر . ولكن رابطة الدم فيها أقوى وأوضح مما في القومية .

وتستوفي القبيلة كافة مقدمات الدولة سوى الارض المعينة الحدود . ذلك ان فيها شعباً يرى انه ينتسب الى أصل واحد ، ولها سيادة تامة ، كما

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ١٢٢ .

ان لها تقاليد وعرفاً تتبعه كالدستور ، ولا ينقصها الا أرض مثبتة الحدود ، اذ أن القبيلة قلما تثبت في مكان واحد آماداً طويلة ، بل تتجول من مكان الى آخر ، وان كانت في غالب الاحيان تكون لها منطقة خاصة تتجول في نطاقها وهي ما تدعى بالدار . أو قد تنشىء لنفسها حمى أي منطقة ثابتة من الارض لا يجوز لغيرها أن يخترقها أو يستعملها(١) .

الفردية والتماسك :

والبدوي يعتز بفرديته وشخصيته ، ويرى نفسه مساوياً لغيره من الافراد في الاصل والحقوق والواجبات ، وينفعل اذا حاول أحد مس هذه الفردية أو جرح شعوره بالمساواة . الا أن فرديته منسجمة مع الجماعة فهو متماسك مع جماعته ينصر اخوانه ظالمين أو مظلومين ويلبي دعوتهم اذا طلبوا النجدة أو اذا دهم القبيلة خطر يهددهم بل انه يرضى عن طيب نفس أن يتحمل بعض مسؤولية أعمال غيره فيساهم في دفع الدية عنهم ويشارك في الحروب التي قد تنشب نتيجة سوء تصرف أحد أفراد قبيلته أو نتيجة الاعتداء عليهم . والواقع أن الباقين ينظرون اليه كجزء لا ينفصل عن القبيلة ، فقد يحملونه جريرة غيره ويقتلونه مقابل قتيل لهم قتله أحد أفراد قبيلته(٢) .

ففردية البدو اذن ليست مظهرا للتفكك السياسي بل هي في نفس الوقت يرافقها الشعور بالجماعة الذي يزداد قوة وقت الخطر فيحمل البدوي أن يتناسى هذه الفردية تجاه المجموع ، وبدون هذا التعاطف لا تستطيع القبيلة أن تعيش وتدوم .

على انه رغم ان أساس التماسك في القبيلة هو العصبية أو الشعور برابطة الدم ، الا أن هذا لا يجعلها ثابتة جامدة ، كلا بل هي قابلة للتوسع

---

(١) أنظر لوكجارد : الضرائب الاسلامية في الازمنة الاولى ص ٢٠ — ٣٧ .

(٢) أنظر في طبيعة البدوي : أحمد أمين : فجر الاسلام ص ٣٧ فما بعد . بشر فارس : مباحث عربية ص ٧٥ فما بعد . لامنس : مهد الاسلام القسم الثالث (بالفرنسية) .

أو الانقسام . اذ أن حجم القبيلة يتوقف على المراعي ، وان عددها اذا ازداد لدرجة لا تتحمله مراعي مواشيها ، فانها تنشطر الى أجزاء صغيرة . وبجانب هذا فان القبيلة يمكن أن تقبل في عضويتها بعض الغرباء ليكونوا أحلافا فيها . ويحملون واجبات وحقوقا مشتركة . ولكنهم يحل لهم مغادرة القبيلة متى شاءوا فدرجة عصبيتهم أضعف وحقوقهم أقل .

العلاقات السياسية :

والعلاقات السياسية البدوية ذات صبغة أخلاقية ، فهي تتمثل بالشعور التعاوني الذي يعبر عن نفسه بواجب العصبية والاخوة وتحمل الفرد ، وأن يرحم الضعيف ويزور المريض ويطعم الفقير ويرعى الارملة ويشيع الموتى ويبذل في أيام القر والضنك لاطعام الضعيف . وواجباته تكون في الدرجة الاولى نحو أقربائه ثم نحو العشيرة التي يجب عليه أن يلبي نداءها في الحق والباطل . والعشيرة بدورها تقوم ببعض الواجبات عن الافراد كأن تفك العاني وتعين على دفع دين المدين ، أو تدفع الدية أو تأخذ الثأر . وهذه الصبغة الاخلاقية لا تقتصر على العلاقات الداخلية ، بل تشمل حتى العلاقات الخارجية ، اذ رغم عدم وجود قوانين دولية أو قوة عليا ملزمة تطيعها العشائر ، فانه كانت هناك تقاليد خلقية متينة من الوفاء ورعاية العهود والاتفاقات . وكثيرا ما تكون مصطبغة بصبغات دينية ، لذا تكون قوية .

غير انه لا ريب وجد بعض من لا يخلصون في واجباتهم نحو أفراد العشيرة بل يتبعون مصالحهم الذاتية ويقومون بأعمال قد تجر للقبيلة عدة مشاكل كاقتراف جرائم القتل أو حماية المجرمين أو انتهاك الحرمات . فالحرية الفردية التي يتمتع بها البدوي اذا لا يحدها قانون الزامي ، والمسؤولية الاجتماعية لم تكن واحدة بل هي أقوى تجاه العائلة منها تجاه بقية أفراد العشيرة .

ان زمالة الدم هي مبعث كافة الالتزامات السياسية والحرية في القبيلة . فعلاقة الفرد بالقبيلة كعلاقته بعائلته . وليس هناك فرق بين الشيء العام والخاص . بل ان الافراد ، نظريا على الاقل ، لهم جميعا نفس

الحقوق والواجبات ، ويقومون بواجباتهم نتيجة شعورهم بالمسؤولية نحو روح الاخوة والجوار ، لا نتيجة الزام سياسي أو قانوني ، اذ لم يكونوا ليحتملوا وجود طبقة مصطنعة فوقهم تحكمهم فلم تكن هناك محاكم ادارية • ولا ادارة مركزية للحكومة• ولا ضرائب أو واردات أو موظفون خاصون للجباية • اذ أنهم يشتركون جميعا في ادارة وظائف المجتمع[١] •

المجلس :

لكل قبيلة عادة مجلس هو ندوة لهم[٢] • ويستطيع كل فرد من أفراد القبيلة حضوره والتحدث فيه متى كان مجتمعا • ولا توجد أوقات معينة لاجتماعه ، والغالب أن يجتمع يوميا في المساء عند شيخ القبيلة ، وقد يجتمع في النهار ، أو قد يرسل مناد ينادي الناس للاجتماع •

يتحدث الناس في المجلس في مختلف الشؤون الخاصة ، ويبحثون الامور والمسائل التي تخص القبيلة ويناقشون الامور السياسية والخارجية فيه ، ولكل فرد فيه الحق في ابداء رأيه والدفاع عنه • ولكن الغالب أن يسود ذلقو اللسان أقوياء التفكير والمنطق والحجة في المناقشات ، وذلك بحكم مواهبهم لا بحكم القانون • ومن مصادر الفخر أن يكون الانسان من المتحدثين في المجالس • كما ورد ذلك في أشعارهم :

ولـكن ستبكيني خطوب ومجلس وشعث اهينوا في المجالس جوع
حمـال الوية شهـاد اندية قـوال محكمـة جـواب افاق
حمـال الويـة هبـاط اودية شهـاد انديـة للجيش جـرار

---

(١) أنظر في ذلك المقال القيم الذي كتبه ولهاوزن عن المجتمع البدوي في الجزء السادس من تاريخ العالم للمؤرخين (بالانكليزية) •

(٢) اعتمدنا في بحث المجلس والرئيس وواجباته على البحث المفصل الذي كتبه لامنس في القسم الثالث من كتابه (مهد الاسلام) والذي وفى فيه ذكر الاشارات في الكتب العربية عن هـذه الامور • ولنالينو بحث قيم في النظام السياسي البدوي •

اذا سيد منا خلا قام سيد قؤول لما قال الكرام فعول
لكم نائل غمر وأحلام سادة والسنة يوم الخطاب مسالق

وفي هذا المجلس ينشد الشعراء أشعارهم • ويظهر الخطباء مواهبهم • ويسمع الناس الآراء الطريفة والاحاديث الطيبة ، فهو اذاً مدرسة أدبية تربي الافراد على قوة البيان واللغة وتكشف المواهب الادبية والسياسية • وتتخذ قراراته بعد المناقشات ، بالاغلبية • والغالب ان المعارضة تذعن لهذه القرارات •

الرئيس :

تتجلى وحدة القبيلة بوجود شخصية عليا يطلق عليها أسماء مختلفة كالأمير والرب والرئيس والشيخ • فأما الرب فكان يستعمل قبل الاسلام للمالك أو الحاكم • ولكن منذ هجرة النبي وسيادة الاسلام بدأ هذا التعبير يتحدد في وصف الله تعالى • اما تعبير الامير فكان عادة يستعمل للجيوش فيقال أمير السرايا وأمراء الشام ، ثم استعمل لقب أمير المؤمنين فيما بعد باعتبار ان المؤمنين كانوا محاربين •

واستعمل لقب الرئيس في الغالب مرادفاً للقائد ، فهو بمثابة الراس للقبيلة فيقال (رئيس ورئيس فارس • ورئيس ربيعة) •

اما الشيخ فكان المقصود فيه عادة الكبير السن سواء ساد أم لم يسد •

واكثر الالقاب اطلاقاً هو السيد • ولما كان السيد عادة كبير السن وقائد القبيلة فكان أحيانا يوصف بالشيخ أو الرئيس أو الامير أيضا •

صفات الرئيس :

وكان المطلوب ممن يرأس أن يتصف ببعض الصفات الخلقية التي تعد حيوية للمجتمع البدوي • وقد عددها الجاحظ فقال « كان أهل

الجاهلية لا يسودون الا من تكاملت فيه ست خصال : السخاء والنجدة والصبر والحلم والتواضع والبيان » • وقد أجاب قيس بن عاصم لما سئل كيف سودك قومك ؟ فقال « ببذل الندى وكف الاذى ونصرة المولى وتعجيل القرى •

فأصبحت في أمر العشيرة كلها كذي الحلم يرضى مايقول ويعرف
وذلك اني لا اعادي سراحهم ولا عن اخي حراتهم اتكف
واني لأعطي سائلي ولربما اكلف ما لا استطيع فاكلف

واني لأعفو عن سفيههم واحلم عن جاهلهم وأسعى في حوائجهم وأعطي سائلهم[(١)] » •

وقد رويت أقوال كثيرة تمتدح سخاء الرؤساء وبذلهم وخاصة في أوقات الشدة • وذلك لا ريب أمر هام في المحيط البدوي الفقير والمعرض لعاديات الزمن ونكبات الطبيعة •

اما البيان فضروري للافصاح عن الرأي والاقناع والادارة في مجتمع ليس فيه سلطة الزامية •

واما الحلم فيتطلب الذكاء والتسامح والنصح والنشاط ، وهي ضرورية لشعب يشعر بفرديته المتطرفة وينقاد لعواطفه العنيفة وليس للرئيس عليه سلطة قانونية أو عقاب •

وتتم الرئاسة لا بالوراثة بل بانتخاب حر بين الافراد • واذا حدث وانتخب رجل بعد أبيه فان ذلك يكون عادة لما يتصف به الرئيس الجديد من مميزات تؤهله للمنصب ، لا لانه ابن للرئيس القديم • والواقع ان العرب لم تكن تفضل أن يخلف الابن أباه لما يجره ذلك من تقرير مبدأ الوراثة في الرئاسة وما قد يؤدي اليه من تقييد حرية البدوي • وليس في تاريخ العرب قبل الاسلام أكثر من أربع أسر تابع فيها أربعة أحفاد بالتعاقب على الرئاسة[(٢)] •

---

(١) الآلوسي : بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب ج ٢ ص ١٨٧ •

(٢) مقدمة ابن خلدون : (فصل في ان نهاية الحسب في العقب الواحد أربعة آباء) ص ١٣٠ ــ ١٣١ • أنظر كذلك الاغاني : ج ١٧ ص ١٠٦ •

على انه لابد للرئيس المنتخب من عصبية له في داخل العشيرة ، وقرابة تشد ازره وتسنده وتعينه على تنفيذ مطالبه • ومثل هذا السند يعتمد على القوة العددية وعلى الحسب ، وعلى الشرف الذي لا يتوقف على فعال الخير فقط ، بل على نقاوة الدم أيضا • وعلى هذا فلا تتم الرئاسة الا للصليبة أما الموالي والخلعاء فلا مجال لهم للحصول عليها[١] •

واجباته :

كانت على الرئيس وجائب غير قليلة ، فعليه أن يعين الضعفاء ويواسي المكوبين ويفتح في بيته مضيفا للضيوف والوافدين ومندوبي العشائر الاخرى • ولكنه لم يحتكر هذه الاعمال التي قد تستنزف ثروته ، فقد يقوم أي فرد في العشيرة بهذا العمل •

وعليه أن يدير المناقشات في المجلس • ويتولى المفاوضات الدبلوماسية مع القبائل الاخرى أو يبدي رأيه ، ولكن ليست له سلطة قانونية لمنع أحد من الكلام أو اقرار رأي دون آخر أو أن يفرض رأيه الا بقدر ما له من حجة في الاقناع •

وعليه أن يفض المنازعات ويحكم في الخلافات اذا لجأ اليه المتخاصمون ، ولكنه لا يحتكر وظيفة القضاء ، فقد يلجأ المتنازعون الى غيره من الحكام والعارفة الذين يشتهرون بدقة الحكم والتمييز والعدالة سواء في العشيرة أو خارجها •

وهو يقود العشيرة في أوقات الحرب • ولكنه لا يحتكر هذا • فقد يظهر قائد مبرز أو فارس شجاع يقوم بالقيادة •

وهو يقسم الغنائم بين المحاربين وله فيها حقوق أجملها البيت التالي :—

لك المرباع منها والصفايا   وحكمك والنشيطة والفضول

---

(١) مقدمة ابن خلدون : (فصل في أن الرياسة لا تزال في نصابها المخصوص من أهل العصبية) (فصل في أن الرياسة على أهل العصبية لا تكون في غير نسبهم) ص ١٢٥ — ١٣٠ •

فالمرباع هو ربع الغنيمة • والصفايا هي الاشياء التي يصطفيها الرئيس لنفسه من خير ما يغنم ، والحكم هو أن يبارز الفارس فارساً قبل التقاء الجيشين فيقتله ويأخذ سلبه فالحكم في ذلك للرئيس ان شاء رد السلب في جملة المغنم وان شاء اعطاه للفارس والنشيطة ما أصاب الجيش في طريقه قبل أن يصل الى هدفه • والفضول ما يفضل من الغنيمة فلا ينقسم • وقد أشارت المصادر الى بعض ذوي المرباع كعدى بن حاتم[١] ورواحه بن منقذ الذي • كان سيداً يسير بالمرباع في قومه ، وحفيد عبد مناف بن الحارث وعبد بن عبد مناف وقد سار كل منهم بالمرباع •

وهو يقوم بكل هذه الوظائف والواجبات معتمدا على قوة الاقناع وقوة شخصيته ونفوذه ، اذ لم تكن له سلطة الزامية يجبر بها أفراد القبيلة على تنفيذ قراراته ، فلم تكن لـه شرطة لتنفيذ أوامره أو سجون يسجن بها من يعصيه • انه يفاوض أفراد القبيلة ويمارس ضغطا معنويا • وهو الاقـدم بين أقرانه Primus inter pares لـه سلطات واسعة ولـكن ليست له قوة حاكمة • وهذا ولا ريب لا يكفي لتسيير الشؤون الداخلية أو الخارجية للمجتمع • فعندما تعلن القبيلة لحرب مثلا لايستطيع أن يعلن التجنيد الاجباري أو يفرض الانضباط أو يطلب طاعة مطلقة من الافراد • وكلما يستطيع عمله هو الهزء والسخرية لمعارضيه ، غير ان صعوباته تكون عادة في تمشية المشاكل الداخلية أما عند حدوث خطر خارجي فيندر أن يمتنع الافراد أو يعصوا رئيسهم •

وقد جرت في الجزيرة محاولات لانشاء نوع من الملكية ، فيما عدا ما قام به المناذرة والغساسنة وأهل اليمن • فيروي الطبري ان هوذه بن علي الحنفي لبس التاج[٣] ، ويروي الاصبهاني ان عباس بن أنس الرعلي

---

(١) الطبري ج٦ ص٥ ، ابن حزم : الانساب ص١٦١ •

(٢) الطبري ج ٢ ص ١٣٣ •

كانت بنو سليم أرادوا عقد التاج على رأسه[١] ، وفي يوم برزه كان « مالك بن خالد بن صخر بن الشريد وهو ذو التاج كان بنو سليم بن منصور توجوه ثم ملكوه عليهم نغزى بني كنانه وأغار على بني فراس بن مالك[٢] » كما ان عبدالله بن ابي كان « قومه قد نظموا له الخرز ليتوجوه ثم يملكوه عليهم »[٣] . ولا ريب ان هذا التتويج يعني ان لذوي التاج سلطات أوسع مما للشيوخ ، غير ان المعلومات القليلة لا تكفي لتحديد مدى الصلاحيات أو لتوضيح ماهية مناصبهم .

العلاقات الخارجية :

لقد كانت القبيلة تعد نفسها مستقلة استقلالا تاما . وفي حالة حرب دائمية مع غيرها . يباح لها أو لافرادها أن تأخذ كل ما تحصل عليه من الغير . فالغزو أمر طبيعي وقانوني عندهم . ودوافعه متعددة . منها الحاجة : فان اجداب الجزيرة العربية وأخطار الطبيعة قد تأتي على ما تملكه القبيلة فتضطر الى الغزو لتنهب من القبائل الاخرى أموالها ومواشيها . وقد تكون دوافع الغزو حب السيطرة والسيادة ، ومن هذا القبيل معظم الحروب التي شنها المناذرة والغساسنة وكندة . أو قد يكون الغزو نتيجة عامل شخصي كأن يكون رئيس القبيلة حاقداً على قبيلة أخرى لسبب من الاسباب .

وقد حفظت لنا كتب التاريخ والادب أسماء عدد غير قليل من هذه الحروب أو أيام العرب[٤] كما يدعونها ، ولا ريب ان ما حفظ أقل بكثير من الحروب التي كانت تنشب سنويا وغفل عن ذكرها الرواة .

وعند دراسة أيام العرب التي يذكرها الرواة تجد ان أغلب هذه

---

(١) الاغاني ج١٧ ص٥٥ .

(٢) ياقوت ج ١ ص ٥٦٤ .

(٣) ابن هشام ج ٢ ص ٢١٦ .

(٤) انظر في أيام العرب : نقائض جرير والفرزدق . ابن عبد ربه : العقد الفريد (الجزء الثاني) . ابن الاثير : الكامل في التاريخ (الجزء الاول) .

الحروب كانت تنشب بين فروع القبائل الكبيرة ، وقليل جدا منها قامت بين القبائل الكبيرة ، أو بين القبائل اليمانية والمضرية • فان الخصومة بين اليمن ومضر حدثت بعد الاسلام لا قبله •

ثم ان أغلب هذه الحروب وقتية أو غزوات قلما تدوم مدة طويلة ، وهي لا تؤدي الى ابادة أحد الطرفين أو طرده من أراضيه ولا تولد نتائج ثابتة معينة كأن تبقى قبيلة بكاملها خاضعة ومستعبدة لقبيلة أخرى ، فآثارها المادية من قتل وتدمير تافهة اذا قورنت بالحروب الحديثة ، ولكنها ولا ريب أدت الى حدوث حالة من القلق في الجزيرة • كما أن النهب والاسر الذي يصحبها يؤدي الى عدم الاستقرار في الجزيرة • وكان لها أثر كبير في ظهور تقاليد وعرف يشبه القانون الدولي اليوم ويتعلق بمعاملة الاسرى وفكاكهم وكيفية الحروب • ومثل هذه التقاليد قائمة على مبادىء أخلاقية هي مبادىء الشرف والمروءة • وكانت من أهم المصادر التي كونت قوانين السلم ولحرب في الاسلام •

وقد حملت أخطار الحرب وتهديدات الغزو المستمر في الجزيرة بعض القبائل وخاصة الصغيرة والضعيفة منها الى أن تحالف القبائل القوية وخاصة المجاورة لها لتتقي شرها ، أو لتضمن المعونة والمساعدة اذا دهمها خطر مهدد • ويكون الحلف اما موقتا وهو الاغلب ، أو دائما • وكثيرا ما تسبقه مفاوضات وتمهيدات دبلوماسية وبعض المراسيم كالقسم ولعق الدم وغير ذلك لتوكيده[١] • أو قد يرافقه زواج الرؤساء •

وقد يكون غرض مثل هذه المخالفات التوسع ، أو قد يكون تثبيت مركز شخصية بارزة • ويكون للمتحالفين عادة حقوق وواجبات متبادلة •

ولا ريب انه كان للحلف بين القبائل أثر كبير في نشر الامن والسلام في بعض ربوع الجزيرة العربية ، كما كان عاملا مهما في تكوين دول أو شبه دول بينها ، هـذا الى ان كثيرا من القبائل الكبيرة تكونت بواسطة التحالف في الاصل •

---

(١) أنظر في الامثلة على ذلك جمعة : ص ١٤٧ فما بعد •

الفصل الثاني عشر

المفاهيم القانونية عند البدو

لم يكن للبدو قانون منظم مكتوب ، بل كانت لهم تقاليد بسيطة واضحة يتمسكون بها أشد التمسك ومفعولها يقتصر على العشيرة ولا يتعداه الى العشائر الاخرى ، وهي تقاليد على بساطتها صلبة جامدة الفوها ويصعب تغييرها ، اذ ان العربي بطبيعته محافظ على سنن آبائه لا يميل لتغييرها ، وقد لقي الرسول مقاومات شديدة عندما كان يريد تغيير سننهم ، وتجد صدق ذلك في القرآن حيث يذكر في آيات كثيرة بمعرض الذم والسخرية « انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم لمقتدون » (الزخرف ٢٣) .

ولما لم تكن هناك سلطة تنفيذية تقتص للفرد أو تنزل العقاب بالجاني ، فقد كان يترك للمجنى عليه ان يقتص لنفسه ، وقد تعاونه العشيرة في ذلك ، الا ان الجرم كان يعتبر دائما حقا خاصا وليس هناك حق عام ، فاذا اعفى المجنى عليه لم يكن على الجاني أي عقاب .

والفكرة الاساسية في القانون الجنائي هو القصاص أو الانتقام ، فليس هناك اثر للعقاب الذي يستهدف الاصلاح وما الى ذلك ، فاذا جرح شخص آخر كان للمجنى عليه أن يجرح الجاني أو يقطع منه عضوا جريا على مبدأ العين بالعين والسن بالسن ، أو قد يطلب تعويضا عن الجرح يتناسب مع الجرح أو القطع وأثره . ذلك ان أساس العقاب هو التعويض عن الخسارة التي الحقت بالمجنى عليه . وقد اتبع هذا المبدأ بالجنايات والجراحات في الاسلام .

اما في حالة القتل ، فانه اذا قتل شخص آخر من عشيرته فان القبيلة تخلعه وتقصيه عنها ، فيغادرها ويصبح خليعا أو طريدا[1] ، فانه يضطر

---

(١) الاغاني : ج ١٣ ص ٢ العقد الفريد : ج ٢ ص ٧٢ . وقد =

الى ان يصبح صعلوكا[1] سارقا قاطع طريق ، أو قد يلجأ الى الاماكن المقدسة ليعيش في أمن حرمها ، أو الى قبيلة يحالف رجالا فيها ، والواقع ان عددا غير قليل من الحلفاء كانوا من هؤلاء الخلعاء .

واذا قتل رجل من غير قبيلته ، فان قبيلة المقتول ترى من واجبها أن تثأر له وتقتص من القاتل دون تمييز بين القتل العمد أو غير العمد ، ولكن قبيلة القاتل عادة لا تسلمه بل تحميه ، الامر الذي قد يسبب توتر العلاقات بل واشعال الحرب بين القبيلتين ، ولكن قد ينتهي الامر بالسلم فيدفع مبلغا من المال دية لعشيرة المقتول .

وتختلف الدية باختلاف مكانة القاتل أو المقتول ، وحدها الأقصى ألف بعير وهي التي تدعى دية الملوك . ولما لم يكن هناك تدقيق واضح في مقدار الدية ، فانه قد يحدث خلاف ، اذ قد تغالي عشيرة المقتول بمركزه وقيمته وتأبى الا أخذ مبالغ كبيرة ، بل قد تصر على أن تثأر للمقتول بقتل القاتل أو من يعدله مكانة ، الامر الذي لا يمكن حله . فعندما قتل جساس كليباً أرسل التغلبيون رجالا منهم الى بني شيبان فأتوا مرة بن شيبان وهو في نادي قومه ، فقالوا له انكم أتيتم عظيما بقتلكم كليباً وقطعتم الرحم وانتهكتم الحرمة ، وانا نعرض عليك خلالا أربعاً لكم فيها مخرج ولنا فيها مقنع اما أن تحيي لنا كليباً أو تدفع الينا قاتله جساساً فنقتله به أو هماماً فانه كفء له أو تمكننا من نفسك فان فيك وفاءاً لدمه ، فقال لهم اما احيائي كليباً فلست قادرا عليه ، واما دفعي جساساً اليكم فانه غلام طعن طعنة على عجل وركب فرسه فلا أدري أي بلاد قصد ، واما همام فانه أبو عشرة

= يخلع الفرد لسوء سلوكه . أنظر البخاري : التاريخ الكبير ج ١ قسم ٢ ص ٨٧ ، ابن قتيبة : المعاني الكبير ج ١ ص ٢٠٨ ، الاغاني : ج ٨ ص ٥٢ — ٥٣ ج ١٩ ص ٧٥ ، الجاحظ : الحيوان ج ١ ص ٧٦ ، البكري : ص ٥٣١ .

(١) الاغاني : ج ١٣ ص ٢ وانظر أيضا أحمد أمين : الصعلكة والفتوة عند العرب .

وأخو عشرة وعم عشرة كلهم فرسان فلن يسلموه بجريرة غيره ، واما أنا فما هو الا أن تجول الخيل جولة فأكون أول قتيل فما اتعجل الموت ، ولكن لكم عندي خصلتان اما احداهما فهؤلاء أبنائي الباقون فخذوا أيهم شئتم فاقتلوه بصاحبكم ، واما الاخرى فاني أدفع اليكم ألف ناقة سود الحدق حمر الوبر ، فغضب القوم وقالوا قد أسأت ببذل هؤلاء وتسومنا اللبن من دم كليب[١] » .

وكثيرا ما يلجأ في مثل هذه الحالات من الخلاف الى الحكم أو العارف[٢] ممن عرفوا بالاتزان واصالة الرأي والتميز ، وقد يلجأون الى الكهان[٣] وليس من الضروري أن يكونوا شيوخ عشائر ، أو ذوي مراكز سامية ولكنهم يصدرون قراراتهم بعد دراسة الوضع ، ولكن رأيهم استشاري ، فليست لهم سلطات أو قوة تلزم الفريقين بطاعته وتنفيذه اذا لم يريدا من تلقاء نفسهما الرضوخ . فهؤلاء الحكام اذاً ليسوا قضاة بالمعنى المفهوم الآن .

وقد عدل الاسلام من هذه النظم فقنن الدية وجعلها ثابتة معينة يستوي في مقدارها الجميع لا فرق بين فرد وآخر ، كما جعل تنفيذها بيد السلطة العليا أي بيد الدولة ، فلا يجوز للفرد أن يقتص بنفسه ، وقد أبقى الاسلام المسؤولية المشتركة ، فأوجب أن تشترك القبيلة في دفع دية القتل غير العمد[٤] ، وبذلك منع الثأر وما يجره من مشاكل وويلات .

---

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ١ ص ٢١٨ . ويروى ابن هشام عن رجل من بني الديل انه « كان بنو الاسود بن رزن يؤدون في الجاهلية ديتين ديتين وتؤدى دية دية لفضلهم فينا » ابن هشام : سيرة النبي ج ٤ ص ٤ .

(٢) أنظر ص ١٠١ .

(٣) ابن هشام : سيرة النبي ج ٢ ص ١٤٨ .

(٤) أنظر كتابي : التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ص ٣٥ .

أما في حالة السرقة فان على من سرق منه شيء أن يفتش عن المسروق ، والعادة ان البدوي لا يرى في السرقة ما يناقض المروءة ، لذا قلما يظهر ما سرقه ، ولكن الرجل المسروق يستطيع أن يعلن اللعنة على السارق ، اذ أن البدوي يخشى اللعان ويخاف شرها والغالب انه يعيد الشيء المسروق •

أما الوراثة فان العادة ان الرجال وحدها ترث ، أما البنات فلا يرثن[1] ، ويقسم الارث بين البنين بالتساوي ، وللرجل حق الوصية والهبة • وقد قرر الاسلام انه « للرجال نصيب مما ترك الوالدان وللنساء نصيب » (النساء ٧) وان للذكر مثل حظ الانثيين » •

---

(١) تفسير الطبري : ج ٤ ص ١٥٣ ، ١٨٥ • ابن حجر : الاصابة في معرفة الصحابة ج ١ ص ٩٢ •

الفصل الثالث عشر

الدين الجاهلي (١)

المعبودات

الدين هو الاعتقاد بكائنات غيبية ذات قوى مؤثرة والقيام بطقوس وعبادات لها • وهو يتوقف على عقلية الناس وحالة الافراد • فكان له في القديم دور كبير • نظرا لان البشر كانوا آنذاك أشد محافظة ، كما ان فهمهم لمسببات الحوادث كان يختلف عن فهمنا ، فكانوا يرون ان وراء كل حركة أو ظاهرة قوة غيبية تسيرها • وهكذا كانوا يعتقدون ان للقوى الغيبية تأثيرا أوسع مما نعتقده له اليوم •

والدين يتطلب خبرة نفسية والقيام ببعض الاعمال للآلهة • فهو ليس بعمل فردي أو محاولة شخصية لاظهار الروحية الانسانية ، بل يشمل عملية حية متبادلة بين الانسان والقوى فوق الطبيعة • ومع ان للفرد في الدين أهمية كبيرة الا انه في الغالب كانت الاديان القديمة اجماعية تتعلق بالقبيلة كلها • فالاله للقبيلة كلها يحميها ويشمل برعايته كافة أفرادها •

علاقة الآلهة بالمجتمع :

وللانسان علاقة وثيقة بالآلهـة ، وهو يتمسك بهذه العلاقة ويتأثر سلوكه بها باعتباره عضوا في المجتمع ، فلا فرق بين نظام الحياة والدين ،

---

(١) استندنا في دراسة هذا الموضوع من الابحاث التالية :

(أ) روبرتسـن سمث : محاضرات في أديان الساميين (بالانكليزية) وسنرمز اليه سمث •

(ب) مقالة نولدكه عن الدين الجاهلي في دائرة معارف الدين والاخلاق (بالانكليزية) وسنرمز اليها نولدكه •

(ج) محمد عبدالمعيد خان : الاساطير العربية قبل الاسلام • وسنرمز اليها الاساطير العربية •

والاعمال الاجتماعية العامة لها علاقة بالآلهة والبشر على السواء ؛ فالاله يحمي القبيلة أو المجتمع ويدافع عنه ، وقد يضطر أحيانا أن يحارب الالهة الاخرى اذا اشتبكت القبيلة مع القبائل الاخرى • ولهذا لم يكن يستطيع المرء تغيير ديانته الا اذا غير قبيلته أو خرج عنها ، وهو أمر ليس من السهل القيام به •

واذا اختلطت القبائل أو الشعوب ذات الآلهة المختلفة فان اختلاطها يؤدي الى اختلاط الآلهة • وهذا يتخذ أشكالا متعددة فقد يقتصر هذا التغيير على تغيير صفات الاله الاصلي ، أو ان تضاف اليه صفات أخرى ، أو قد يصبح له اسمان ، وقد تجعل آلهة القبائل الاخرى أولادا أو أخوة لآله القبيلة الاصلية ؛ ومن هذا نشأت فكرة تعدد الآلهة •

الاساطير :

وتنشأ عادة حول الآلهة قصص وأخبار تشرح طبيعتها وأعمالها • وقد يتناقل الخلف هذه القصص . وهي في الاصل ليست جزءاً من العبادات أو الدين ، والناس غير مجبرين على الاعتقاد بها ، فهي ثانوية بالنسبة للدين ، ولكنها ذات صلة وثيقة به اذ انها تفسر الاعمال والعادات الدينية كما انها تثير الخيال وتشوق للعبادة ، وهي تنمو عندما تضعف الطقوس الدينية • وقد تنشأ الاساطير نتيجة لفلسفة قديمة تفسر الكون ، أو قد تخلق لغرض سياسي يراد به جمع شمل الناس العباد ضمن وحدة واحدة ، أوقد تنشأ بمجرد الخيال والادب • ولا ريب انها ليست أساسية في الدين، ولكنها تضفي حياة جديدة وأهمية جديدة على الاشكال القديمة •

ولا ريب ان الاساطير تتضمن ما يميل الناس لتصديقه ، وهي كما ذكرنا ليست من جوهر الدين ولا تقتصر على الآلهة فقط ، بل قد تنسج حول الاشياء العادية ، وليس لها صفة رسمية بل قد تتغير •

العقلية البدائية :

ويلاحظ ان الانسان البدائي يخلط بين الواقع والتخيل ، فلا يميز

تمييزاً دقيقا بين ما يراه حقيقة وما يتصوره ، كما انه يميل دائما الى التعميم.
وقد بدأ الانسان حياته العقلية بمعرفة المادة والماديات ولاحظ مظاهر
الحياة ، ثم اتسعت فكرته في معرفة مظاهر الحياة على وجه التعميم ، فعرف
انه لا فرق بينه وبين الموجودات في عصره واعتقد ان للحيوان والجماد
حياة حقيقية ، ولما رقت مداركه ظن ان الجمادات تحل فيها الحياة أحيانا ،
أي ان لها شخصيتين ، احداهما جامدة والاخرى فيها حياة ، مثل حالنا في
الحلم حيث نكون في حالة النوم ساكنين ولكننا قد نرى أحلاما نبدو فيها
متحركين وما نحن بمتحركين .

ويسمى المبدأ الاول الذي تعتبر فيه الجمادات حية المذهب الحيوي
Animism . والمذهب الثاني الذي يعتقد ان الجمادات قد تحل فيها الحياة
المذهب الفتيشي fetishism . ونجد كلا المذهبين لهما آثارهما عند
العرب . فالمذهب الاول يتجلى فيما روى عن اعتقادهم بأن الدم والهواء
هما الحياة . وانهما مخلوقات حية كالطير ؛ وان اسافا ونائلة كانا بشرين
ثم مسخا . وان الضب كان انسانا ثم مسخ ، وان بوادي حضرموت قوم
يقال لهم الصعر تنقلب فرقة منهم ذئاباً ضارية أيام القحط ، هذا الى اعتقادهم
بأن جبل قبيس يزيل وجع الرأس ، وان للنخل حياة . ومن مظاهر المذهب
الثاني هو الاصنام التي هي جمادات يعتقدون ان الآلهة تحل فيها[1] .

مصادر دراسة الدين الجاهلي :

معلوماتنا عن الديانة العربية قبل الاسلام قليلة مشوهة ، لان الهدف
الاول للاسلام كان محاربتها وازالتها ، كما ان المسلمين المتدينين لم يروا
من الخير رواية أخبارها ، هذا الى انه لم تجر في الجزيرة العربية ، عدا
اليمن وبلاد الهلال الخصيب ، حفريات منظمة قد يظهر فيها بعض التماثيل
أو الكتابات التي تلقي عليها ضوءاً .

غير ان الاسلام الذي طمس أخبار الديانة الجاهلية لم يمحها تماما .

---

(١) راجع ما كتب عنهما في الاساطير العربية ص ٤١ - ٥٥ .

فقد بقي لها ذكر غير قليل • ففي القرآن اشارات الى بعض الاصنام والمعتقدات الجاهلية ذكرت في معرض الرد عليها وتفنيدها ، هذا الى ان الاسلام لم يمح كل آثارها ، اذ أقر بعضها بعد أن عدلها أو حور الغايات منها ، كالحج والحرم وما الى هذا ؛ يضاف الى ذلك ان الشعر العربي الجاهلي الباقي لنا يتردد فيه أحيانا ذكر للآلهة القديمة وما يتعلق بالديانة • كما أنه بقيت في كتب الادب والتاريخ والاخبار أخبار متناثرة عن الديانة العربية القديمة والاصنام • ولعل أقدمها وأوسعها هو كتاب الاصنام لابن الكلبي ، وما وراء المفسرون فيما يتعلق بالآيات التي تذكر الاصنام أو ما روى في معرض سيرة النبي وخاصة في سيرة ابن هشام أو اخبار مكة للازرقي أو في بعض المعاجم اللغوية والجغرافية • وجدير بالملاحظة ان هذه الكتب تصف في الغالب الاصنام والأوثان ولكنها قلما توضح طقوسها وعقائد الناس فيها أو مدى عمق عبادتها أو مدى انتشارها ؛ ثم ان بعض المسلمين الذين لم يتشبعوا بروح الاسلام حافظوا لا اراديا على بعض المظاهر الوثنية حتى بعد اسلامهم ، ومن الممكن بعد دراستها وتحليلها ومقارنتها بما عند الساميين ، أن تكمل لنا الصورة عن الديانة العربية قبل الاسلام •

وربما كان من آثار الديانة القديمة انتشار أسماء أعلام مسبوقة بعبد وهي تدل في بعض الاحيان على أسماء آلهة قديمة ، كاسم عبد مناف ، وعبدالشارق ، وعبد شمس ، وعبدالعزي ، وعبد مناة • غير ان المضاف اليه في هذه الاسماء المركبة ليس من الضروري أن يشير الى الآلهة ، فلا نزال في العراق نسمي عبدالزهرة وعبدالامير وعبدالحسين ، احتراما لهم لا لعبادتهم ؛ كما أن هذه الاسماء قد تكون مرادفات ، كما نقول عبدالقادر وعبدالرزاق وعبدالمجيد ، وكلها مرادفات لاسم الله تعالى • ثم ان هذه الاسماء مختصرة جدا ، وغير كافية لالقاء نور واضح على الآلهة القديمة أو طبيعتها •

ان المعلومات الموجودة في المصادر الآنفة الذكر تعطينا صورة تقريبية لديانة الجاهليين قبل الاسلام • ويبدو منها آثار لمعتقدات متنوعة كانت

موجودة جميعا ، كالمذهب الحيوي والطوطمي والفيتشي • غير انه من الصعب جدا اظهار مدى أهمية وآثار كل من هذه المعتقدات والدور الذي لعبته ، اذ أن أغلب المعلومات السالفة الذكر تتعلق بديانات أهل الحجاز أو عن الوثنية عند ظهور الاسلام ، كما اننا لا نعلم شيئا مفصلا عن تطورها التاريخي ، اذ كل ما يذكر عن أصولها وتاريخها هو مجرد أساطير مختصرة غامضة يصعب فهم أصولها • ومع ان الحفريات والمكتشفات الاثرية في اليمن وبلاد الهلال الخصيب قد كشفت عن وجود كثير من الآلهة ، أولقت ضوءاً على طقوسها ومراسيمها وأفكارها ، الا انها لا توضح العلاقة بينها وبين آلهة الجاهليين ، ولا التثبت مما اذا كانت الطقوس والعادات المتعلقة بهذه الآلهة هي واحدة • كما اننا لا نعرف بالدقة والتفصيل التوزيع الجغرافي للآلهة ، وأي القبائل كانت تعبد اي اله ، وأي الآلهة تشترك فيها القبائل وعدد القبائل التي تشترك في عبادة هذه الآلهة العامة ، وطقوسها ، والعلاقات القائمة بينها •

لذلك فان دراستنا عن ديانة العرب قبل الاسلام لا تزال غير كاملة ، وكل محاولة في هذا الشأن ، ما هي الا محاولة أولية ناقصة ، رغم انها ضرورية لفهم الديانة الاسلامية التي كان هدفها الاول محاربة تلك الديانة •

الاديان الخارجية :

وجدير بالملاحظة ان الجزيرة العربية لم تكن منعزلة تماما بل تعرضت الى كثير من المؤثرات الخارجية • فقد جاءتها البعثات التبشيرية المسيحية من العراق وسوريا والحبشة ، وانشأت لها في قطر مطرنة كما انشأت لها عدة كنائس في اليمن وكانت عند ظهور الاسلام منتشرة في البحرين واليمامة واليمن وعند الغساسنة والمناذرة وطي وبكر وتغلب ، وكانت فرقا متعددة ولكن أغلبها من النساطرة واليعاقبة • وقد تطرقنا الى انتشارها في اليمن وعند المناذرة والغساسنة •

أما اليهودية فلا نعلم بوضوح زمن دخولها الجزيرة أو تطورها[١] ، ولكن يبدو انها جاءت بموجات متعاقبة ، واستوطن اليهود في الواحات الخصبة من الحجاز ، كفدك وتيماء ووادي القرى وخيبر والمدينة ، كما انتشروا في اليمن واليمامة والبحرين وربما في عمان • والديانة اليهودية قومية غير تبشيرية ، جامدة شديدة الطقوس لذلك لم تنتشر كثيرا بين العرب •

وهناك اشارات الى أديان فارسية دخلت الجزيرة ، ففي البحرين كان بنو دارم التميميون يدينون بالاسبذية ، واسمها مشتق من الاسب أي الفرس أو الحصان[٢] • ويدل اسمها على انها فارسية ، وان كنا لا نعلم تفاصيل هذا الدين أو من أين اخذت ، اذ لم يعرف عن العرب انهم عبدوا الحصان •

ولليمن ومكة أحوال دينية خاصة ، فأما اليمن فقد كشفت عنها الحفريات وأوضحت كثيرا من أخبارها ومعالمها • واما مكة فان الكتب والقرآن أوردت عنها معلومات واسعة كما ان لها علاقة وثقى بالاسلام • لذا سنفرد لها بحثا خاصا •

ديانة مكة :

ان في القرآن الكريم عن الدين الجاهلي صورة تختلف تماما عما تقدمه كتب التاريخ والادب ؛ والمعلومات التي فيه قلما يقدم الشراح والمفسرون عنها معلومات اضافية مكملة ، كما ان القرآن لا يتردد فيه ، بل وأحيانا لا يشير الى ما يتردد في كتب التاريخ والادب • وجدير

---

(١) راجع عن اليهودية في جزيرة العرب : مارجوليوث « العلاقات بين الاسرائيليين والعرب قبل الاسلام » (بالانكليزية) • وولفنسون « تاريخ اليهود في بلاد العرب » •

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ص ٩٨ • ابن سلام : الاموال ص ٢٠ - ٢١ • ياقوت ج ١ ص ٢٣٧ ، ويذكر السكري في المحبر ص ١٣١ أسماء زنادقة قريش • كما يقول صاعد ان الزندقة كانت في قريش (طبقات الامم ص ٤٤) •

بالملاحظة ان المؤرخين القدماء والمحدثين لم يحاولوا دراسة دين الجاهلية كما وصفه القرآن ، اللهم الا ما قام به حديثا محمد عزة دروزة في كتابه عصر الرسول .

وسنحاول هنا ايراد الصورة التي تتجلى في القرآن عن عبادة الجاهليين من أهل مكة ثم نذكر ما تورده المصادر التاريخية والادبية .

الله

في القرآن آيات كثيرة تذكر بصراحة ان المشركين كانوا يعبدون الله « قل لمن الارض ومن فيها ان كنتم تعلمون . سيقولون لله قل أفلا تذكرون . قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم . سيقولون الله قل أفلا تتقون . قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون . سيقولون الله قل فأنى تسحرون » (المؤمنون ٨٤ - ٨٩) « ولئن سألتهم من خلق السماوات والارض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون » (الانعام ٦١) « ولئن سألتهم من نزل من السماء ماءاً فأحيا به الارض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون » (العنكبوت ، ٦٣) « لئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون » (لقمان ٢٥ والزمر ٣٨) « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون » (الزخرف ٨٧) .

« هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا انهم احيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن انجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين » (يونس ٢٢) « واقسموا بالله جهد ايمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن اهدى من احدى الامم » (فاطر ٤٢) « وما بكم من نعمة فمن الله ثم اذا مسكم الضر فاليه تجأرون . ثم اذا كشف الضر عنكم اذا فريق منكم بربهم يشركون » (النحل ٥٣ - ٥٤) « أم من خلق السماوات والارض وانزل لكم من السماء ماءاً فانبتنا به حدائق ذات

بهجة ما كان لكم ان تنبتوا شجرها أءله مع الله بل هم قوم يعدلون • أم من جعل الارض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً أءله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون • أم من يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الارض أءله مع الله قليلا ما تذكرون • أم من يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمه أءله مع الله تعالى الله عما يشركون أم من يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والارض أءله مع الله قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » (النمل ٦٠ – ٤) •

الشركاء :

غير انهم « وجعلوا لله اندادا ليضلوا عن سبيله قل تمتعوا فان مصيركم الى النار » (ابراهيم ٣٠) •

« قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الارض في يومين وتجعلون له انداداً ذلك رب العالمين » (فصلت ٩) « وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار اذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له انداداً •• » (سبأ ٣٣) « ومن الناس من يتخذ من دون الله انداداً يحبونهم كحب الله » (البقرة ١٦٥) •

« وجعلوا لله شركاء قل سموهم » (الرعد) « وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون » (يوسف ١٠٦) « أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم » (الرعد ١٦) « ذلكم بانه اذا دعي الله وحده كفرتم وان يشرك به تؤمنون فالحكم لله العلي الحكيم » (غافر ١٢) •

بنات الله :

وهؤلاء الشركاء هم ، أو معظمهم بنات الله « وجعلوا له من عباده جزءاً ان الانسان لكفور مبين • أم اتخذ مما يخلق بنات واصفاكم بالبنين • واذا بشر أحدكم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسوداً وهو كظيم • أو من يُنشَّؤا في الحلية وهو في الخصام غير مبين • وجعلوا الملائكة

الذين هم عباد الرحمن أناثاً اشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون » (الزخرف ١٥ - ١٩) . « فاستفتهم الربك البنات ولهم البنون . أم خلقنا الملائكة أناثا وهم شاهدون . ألا انهم من افكهم ليقولون ولد الله وانهم لكاذبون . اصطفى البنات على البنين » (الصافات ١٤٩ - ١٥٣) « ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون . واذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ايمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون » (النحل ٥٧ - ٥٩) « ذلك مما اوحى اليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله الهاً آخر فتلقى في جهنم ملوما مدحورا . افاصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة أناثاً انكم لتقولون قولا عظيما » (الاسراء ٣٩ - ٤٠) « وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون » (انعام ١٠٠) « وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون . لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون . ومن يقل منهم اني اله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين » (الانبياء ٢٦ - ٢٩) .

« وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئا اداً . تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا . ان دعوا للرحمن ولدا . وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا ، ان كل من في السموات والارض الا آتي الرحمن عبدا » (مريم ٨٨ - ٩٣) .

وهذه الآلهة التي عبدوها ليست في سويته تعالى بل هي من دون الله أي أقل منه مركزاً ورتبة ، وهم شفعاء لعابديهم عند الله « ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون بما لا يعلم في السموات ولا في الارض سبحانه وتعالى عما يشركون » (يونس ٨٨) « أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أو لو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون » (الزمر) « ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء

ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ان الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون . ان الله لا يهدي من هو كاذب كفار » (الزمر ٣) . « واذا مس الانسان ضر دعا ربه منيباً اليه اذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو اليه من قبل وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلا انك من أصحاب النار » (الزمر ٨) .

الجبت والطاغوت :

وفي القرآن أيضا ذكر للجبت والطاغوت « لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم . والله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » (البقرة ٢٥٦ - ٧) « ألم تر الى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت » (النساء ٥١) « ألم تر الى الذين يزعمون انهم آمنوا بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به » (النساء ٦٠) « الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت » (النساء ٧٦) « قل هو انبؤكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكاناً واضل سبيلا » (المائدة ٦٠) « ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت » (النحل ٣٦) « والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا الى الله لهم البشرى » (الزمر ١٧) .

ويلاحظ أن الجبت ذكر مرة واحدة مع الطاغوت الذي ورد ذكره في ثمان آيات سبع منها مدنية ، وقد ورد بصيغة المفرد المذكر مرة ، والمؤنث الجمع مرتين . وهو ولي الذين كفروا ، يضلهم ، ويتجنبه من يعبد الله ، ويؤمن به الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ، ويريدون أن يتحاكموا اليه ، وهم يعبدونه ويقاتلون في سبيله .

وقد اورد المفسرون في معنى الطاغوت روايات متعددة ، منها انه البيوت المقدسة ، أو كعب بن الاشرف ، أو صنما قريش أو صنمها الذي يحتكمون اليه[١] . ولا ريب ان تفسيرهم الطاغوت بالبيوت المقدسة أو كعب بن الاشرف لاينطبق على منطوق الآية، والراجح انه احد آلهة قريش ولما كان هبل هو الذي كانوا يستقسمون عنده ويحتكمون اليه ، فالراجح انه هو المقصود بالطاغوت . أما الرد على ذلك بعدم ذكر اسم هبل صراحة في القرآن فهو غير كاف لان القرآن لم يرد فيه ذكر لأي صنم أو اله كان في مكة أو ما يجاورها مما ذكره المؤرخون كهبل وأساف ونائلة ونهيك ومطعم الطير .

الجـــن :

لقد ذكر القرآن الكريم ان العرب عبدوا الجن « قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم به مؤمنون » (سبأ ٤١) « وجعلوا لله شركاء الجـن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علـم » (الانعام ١٠٠) « وجعلوا بينه وبين الجِنَّة نسباً ولقد علمت الجِنَّة انهم لمحضرون » (الصافات ١٥٨) .

وقد أشارت الكتب الى بعض القبائل التي كانت تعبد الجن ، فيقول ابن الكلبي ان بني مليح الخزاعيين كانوا يعبدون الجن[٢] ، ويقول الطبري ان بني مالك بن اقيش كانوا من الجن[٣] وان آل عنس هم قبيلة من الجن[٤] ويقول الازرقي ان بني سهم سموا الغياطلة لانهم قتلوا الجن[٥] ، كما يروى ان عمار بن ياسر قاتل الجن[٦] .

---

(١) أنظر عن الجبت والطاغوت تفسير الطبري ج ٣ ص ١٣ ج ٥ ص ٨٣ ، ٩٦ ـ ٩٧ .

(٢) ابن الكلبي : الاصنام ص ٣٤ (وسنرمز اليه دائما الاصنام) .

(٤) الطبري : ج ٢ ص ٢٣٣ .

(٤) ياقوت : ج ٣ ص ٦٧٢ .

(٥) الازرقي : ج ٢ ص ١٢ .

(٦) ابن سعد ج ٣ قسم ١ ص ١٧٩ .

يتبين مما ذكرته كتب التاريخ والادب ان العرب تصوروا الجن كائنات غيبية ومخلوقات غريبة تملأ الارض وتصوروها تشبه البهائم ، ذات شعور طويلة ، وأحيانا تشبه بعض الحيوانات كالنعام أو الحية ، ولها قوة غريبة على الظهور والاختفاء بل وعلى تغير أشكالها وظهورها أحيانا بأشكال انسانية . واذا اعتدى عليها أحد فأنها تنتقم بمسه فيصبح به جنة اي مجنوناً ، وقد يصاب بالامراض .

والجن في الغالب لا تعيش في المجتمعات الانسانية ، بل تعيش في البراري والقفار ، ولها مناطق خاصة بها كوادي عبقر . ولكن هذه المناطق ليست حرماً مقدسة ؛ وكان الناس يقدمون لها أحيانا الهدايا ، ومن الجدير بالملاحظة ان كلمة الجن هي اسم جنس لا اسم علم[1] .

أصنام مكة :

تذكر كتب التاريخ والادب وجود الاصنام في مكة ومن الجدير بالذكر أن القرآن لم يرد فيه ذكر الاصنام التي في داخل مكة ، كما ان الكتب لم تذكر لنا عن فهمهم وتصورهم لله تعالى أو الملائكة ؛ أما الاصنام التي ذكرت في مكة فأهمها :ـ

هبـــل :

وهو « أعظم أصنام قريش[2] » . وكان على بئر في جوف الكعبة تجمع فيه الهدايا[3] . وكان شعار قريش يوم أحد (اعل هبل[4]) .

---

(١) انظر عن الجن ما كتبه المسعودي في مروج الذهب ج ٢ ص ١٥٥ ـ ١٦٠ . البكري : ص ٤٠٥ ، ٤١١ ، ٤٧٦ ، ٩١٧ ، ٩٣١ . وما كتبه سمث ص ١١٩ فما بعد ، و٥٣٨ فما بعد .

(٢) ابن هشام : سيرة الرسول ج ١ ص ٨٦ (وسنرمز اليها سيرة هشام) . الطبري : ج ٢ ص ١٢٧ ، ١٧٣ (عن ابن اسحق) .

(٣) الطبري : ج ٢ ص ٢١١ . الازرقي : ج ١ ص ٢٤ ، ٦٧ ج ٢ ص ٣٧ .

(٤) أنظر عن هبل ما كتبه نولدكه ، وما جاء في الاساطير العربية ص ١١٤ ـ ١١٧ .

لا نعلم بالضبط معنى كلمة هبل أو اشتقاته[٥] وربما كان مشتقا من بل وهو اله معروف في بلاد الهلال الخصيب سنتحدث عنه فيما بعد ومما يجلب النظر ان هبل وضع في الكعبة ، مع أن الكعبة بيت الله .

يروي ابن الكلبي ان عمرو بن لحي الخزاعي جاء بهبل من هيت من العراق ونصبه على بئر الاخسف في بطن الكعبة ، وكان من عقيق أحمر على صورة انسان مكسور اليد ، فجعلت يده من ذهب[١] . وكانت حجاج قريش تطوف حوله وتحلق رؤوسها وتلبي عنده (لبيك اللهم لبيك . اننا لقاح حرمتنا على أسنة الرماح يحسدنا الناس على النجاح[٢]) . ويروي ابن سعد عن ابن الكلبي ان خزيمة بن مدركة هو الذي وضع هبل موضعه فكان يقال له صنم خزيمة[٣] .

وكان عند هبل سبعة أقداح ، كل قدح منها فيه كتاب : قدح فيه العقل اذا اختلفوا في العقل من يحمله منهم ضربوا بالقداح السبعة ، وقدح فيه نعم للامر اذا أرادوه يضرب به ، فاذا خرج قدح نعم عملوا به . وقدح فيه لا ، فاذا أرادوا أمراً ضربوا به في القداح ، فاذا خرج ذلك القدح لم يفعلوا ذلك الامر . وقدح فيه منكم ، وقدح فيه ملصق وقدح فيه من غيركم . وقدح فيه الحياة ، اذا أرادوا أن يحفروا للماء ضربوا بالقداح وفيها ذلك القدح فحيثما خرج عملوا به . وكانوا اذا أرادوا أن يختنوا علاماً أو ينكحوا منكحاً أو يدفنوا ميتاً أو شكوا في نسب أحد منهم ذهبوا به الى هبل وبمائة درهم وجزور فاعطوها صاحب القداح الذي يضربها ، ثم قربوا

---

(٥) الاصنام ص ٨ . الازرقي : ج ١ ص ٢٧ ، ٥٤ ، ٦٩ . ويقول المسعودي وابن اسحق انه جيء به من البلقاء (مروج الذهب ج٢ ص٢٣٨) .

(١) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٨٢ .

(٢) المحبر : ص ٣١٥ . وكلما سنورده من صيغ التلبية مستمد مما أورده هذا الكتاب ص في ٣١١ ـ ٣١٥ . وقد أورد اليعقوبي صيغة أخرى لتلبيات العرب (التاريخ ج ٢ ص ٢١٢) .

(٣) ابن سعد : الطبقات ج ١ قسم ١ ص ٣٩ (وسنرمز اليه الطبقات) .

صاحبهم الذي يريدون به ما يريدون ، ثم قالوا يا الهنا هذا فلان قد أردنا به كذا وكذا فاخرج الحق فيه ، ثم يقولون لصاحب القداح اضرب ، فيضرب ، فان خرج عليه منكم كان وسيطاً ، وان خرج عليه من غيركم ، كان حليفاً ، وان خرج عليه ملصق كان على منزلته منهم لا نسب له ولا حلف ، وان خرج من شيء سوى هذا مما يعملون به فقد عملوا به ، وان خرج لا أخروه عامهم ذلك حتى يأتوا به مرة أخرى فينتهون في امورهم الى ذلك مما خرج فيه القداح[١] . ويروي الازرقي ان قربانه مائة بعير[٢] يعطونها لغاضرة بن حبشية بن سلول الخزاعي[٣] .

ويقول السكري ان هبل كان لبني بكر ومالك وملكان وسائر بني كنانة وكانت قريش تعبد صاحب بني كنانة وبنو كنانة يعبدون صاحب قريش[٤] .

اساف ونائلة :

أما أساف ونائلة ففي الرواية العربية أنهما في الاصل رجل وامرأة فسقا فمسخا حجرين فاخرجا من الكعبة ، فنصب أحدهما على الصفا والآخر على المروة ، وانما نصبا هناك ليعتبر بهما الناس ويزدجروا عن مثل ما ارتكبا لما يرون من الحال التي صارا اليها ؛ فلم يزل الامر يدرس ويتقادم حتى صارا يمسحان ، يتمسح بهما من وقف على الصفا والمروة ، ثم صارا وثنين يعبدان ، فلما كان عمرو بن لحى أمر الناس بعبادتهما والتمسح بهما ، وقال للناس ان من كان قبلكم كان يعبدهما ؛ فكانا كذلك حتى كان قصي ابن كلاب فصارت اليه الحجابة وأمر مكة ، فحولهما من الصفا والمروة ، فجعل أحدهما بلصق الكعبة وجعل الآخر في موضع زمزم ، ويقال جعلهما

---

(١) الازرقي : ج ١ ص ٢٧ ، ٦٧ ، أنظر أيضا سيرة ابن هشام : ج ١ ص ١٦٤ - ٥ . الطبري : ج ٢ ص ١٧٣ .

(٢) الازرقي : ج ١ ص ٦٩ .

(٣) الازرقي : ج ١ ص ١٢٥ .

(٤) المحبر : ٣١٨ .

جميعا في موضع ترمزم[٥] .

وكان أهل الجاهلية يمرون بأساف ونائلة ، ويتمسحون بهما ، وكان الطائف اذا طاف بالبيت بدأ بأساف فيتسلمه ، فاذا فرغ من طوافه ختم بنائلة فاستلمها ، فكانا كذلك حتى كان يوم الفتح ، فكسرها رسول الله (ص) مع ماكسر من الاصنام[١] . وكان يطرح بينهما ما يهدى للكعبة وينحر عندهما ويحلقون رؤوسهم . ولم تكن تدنو منهما امرأة طامث[٢] ، وكانت قريش تذبح عندهما الذبائح[٣] .

ويروي الشعبي والسكري ان أساف ونائلة كانا على الصفا والمروة[٤] . ونحن نرجح رواية الازرقي لانه أوسع اطلاعا على أحوال مكة وشؤونها . وكانت أساف ونائلة ، على ما يروي السكري ، لقريش والاحابيش .

أما ابن الكلبي فيروي عن ابن عباس ان عبادها كانوا خزاعة وقريشاً ومن حج البيت بعد من العرب[٥] . وكان نسكهم لأساف (لبيك اللهم لبيك لا شريك لك ، الا شريك هو لك تملكه وما ملك) .

نهيك ومطعم الطير :

ويروي الازرقي عن ابن اسحاق ان عمرو بن لحى نصب على الصفا صنما يقال له نهيك مجاود الريح ، ونصب على المروة صنما يقال له مطعم الطير[٦] .

---

(٥) الاصنام : ص ٢٩ . الازرقي : ج ٢ ص ٣٤ . سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٨٦ .

(١) الازرقي : ج ١ ص ١١٢ . ويرى الازرقي « ان في دار العباس هذه حجران عظيمان يقال لهما اساف ونائلة كانا يعبدان في الجاهلية في ركن الدار » ج ٢ ص ١٨٨ .

(٢) الازرقي : ج ١ ص ٤٤ ، ٦٩ ، ٧٠ ج ٢ ص ١٨ .

(٣) الطبري : ج ٢ ص ١٧٤ .

(٤) رواية الشعبي في تفسير الطبري : ج ٢ ص ١٧ . ورواية السكري في المحبر : ص ٣١١ .

(٥) الاصنام : ص ٩ .

(٩) الازرقي : ج ١ ص ٧٣ ، الفاسي : ص ٦ .

أصنام منى :

ويروي الازرقي عن ابن اسحاق ، ان عمرو بن لحي نصب بمنى سبعة أصنام : نصب صنما على القرين الذي بين مسجد منى والجمرة الاولى على بعض الطريق ، ونصب على الجمرة الاولى صنما ، وعلى المدعا صنما ، وعلى الجمرة الوسطى صنما ، ونصب على شفير الوادي صنما ، وفوق الجمرة الوسطى صنما ، وفوق الجمرة العظمى صنما ، وقسم عليهن حصى الجمار احدى وعشرين حصاة يرمى كل وثن منها بثلاث حصوات • ويقال للوثن الذي يرمى أنت أكبر من فلان ، الصنم الذي يرمى قبله[١] • غير أننا لا نعلم أسماء هذه الاصنام • كما ان القرآن لم يذكر اطلاقا أي صنم من الاصنام في مكة •

منـــاف :

ومعناه العلو ، وقد تسمى به عدد غير قليل من الناس ، منهم عبد مناف أحد أجداد النبي ، ويقول الطبري انه كان أعظم أصنام مكة[٢] ، كما يروي ابن حجر عن عمر بن شبة ان بني سلمة كانت تعبد منافا[٣] • غير أننا لا نعلم شيئاً عن مكانه أو أمره شيئا •

قـــزح :

لم تذكر الكتب العربية ان قزحا كان الاهاً أو صنما ؟ بل تذكر انه موقع على المزدلفة ، وكانت الحلة والحمس تجتمع عنده في الحج ، وفي الاسلام يقف عنده الامام ، وعنده توقد النيران في الحج[٤] •

ويسمي العرب قوس قزح بالنسبة له ، ويرى كوك انه هو الاله كوز الادومي[٥] ، فكأن قزح كان له المطر ، وان الطيف الذي يظهر بعد الامطار

---

(١) الازرقي : ج ٢ ص ١٤٢ •

(٢) الطبري : ج ٢ ص ١٨١ •

(٣) الاصابة : ج ١ ص ٢٤٥ •

(٤) الازرقي : ج ١ ص ٣٢ ، ١٢٣ ج ٢ ص ١٥٠ — ١٥١ ، ١٥٤ • البكري : ص ٣٩٢ — ٣ • ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ١١٨ ج ٤ ص ٨٥ • ام ج ٢ ص ١٨٠ •

(٥) أنظر الاساطير العربية قبل الاسلام ص ١٣٢ — ١٣٣ •

هو قوسه ، وان الناس في الحج كانت تتجمع عنده ، فاذا صح ذلك فمعناه اما أن تكون عبادته قد نسيت عند ظهور الاسلام أو ان المسلمين اطمسوا ذكره نظرا لان موضعه أصبح من طقوس الحج الاسلامية .

لقد ورد في القرآن ذكر لعدد من الآلهة الجاهلية كان مقرها خارج مكة ، وأوردت عنها كتب التاريخ والادب والجغرافية معلومات غير قليلة . وأهم هذه الآلهة هي اللات والعزى ومناة والشعرى ؛ وقد ذكرت في سورة النجم ؛ وبعل وقد ورد في سورة الصافات ، وود وسواع ويغوث ويعوق ونسرا . وقد وردت في سورة نوح .

العـــزى :

وهي من الآلهة التي عبدها أهل مكة وتسموا بها ، وكان يعبدها اللخميون أيضا ، وقدم المنذر بن ماء السماء أربعمائة من أسرى الغساسنة ضحايا لها . ويقول بروكوبيوس ان هذه الضحايا قدمت لأفروديتي ، مما يحمل على الاعتقاد بأن العزى كانت تقابل أفروديتي أو نجمة الصباح . واما الطبري فيقول ان الزهرة عند العرب هي بالفارسية اناهيدا[١] التي تقابل عشتروت[٢] ، وهنا قد يدل على ان العزي هي عشتروت أو نجمة الصباح (الزهرة)[٣] واسم العزى مشتق من العزة ، أي القوة والرفعة . ولم يرد في الكتب العربية أي دليل يشير الى نوع اختصاص العزى وعملها والهة أي شيء كانت .

لقـد كان العزي في بطن نخلة الشامية التي تقـع على بعد حوالي سبعين ميلا من مكة على طريق العراق » . ويروي ابن الكلبي ان الذي اتخذها ظالم بن اسعد ، أما ابن اسحاق فيقول ، فيما يروي الازرقي ، ان

---

(١) تفسير الطبري : ج١ ص ٣٦٣ .

(٢) أنظر في ذلك ما كتبه نولدكه ، والاساطير العربية : ص ١١٩ - ١٢٥ وما كتبه بوهل عن (العزى) في دائرة المعارف الاسلامية .

(٣) لقد كانت الزهرة تدعى عند أهل اليمن يلمقة والمق (بكري : ص ١٣٨٩ عن الهمداني) .

عمرو بن لحي هو الذي جاء بها ؛ ويروي محمد بن حبيب السكري انه عبدتها غطفان وقريش وغني وباهلة ، بينما يروي الطبري عن ابن زيد أنَّ ثقيفاً عبدتها • وفي رواية للازرقي ان نصراً وجشم وسعد بن بكر وهم اعجاز هوازن كانوا يعبدونها • ويروي الازرقي عن ابن اسحاق ان العزى كانت لخزاعة وأن قريشاً وكنانة كانت تعظم العزى • ويروي ابن الكلبي انها احدث من اللات ومناة وانها كانت تسمى بها وكانت أعظم الاصنام عند قريش وان قريشاً حمت لها شعباً من حراض يقال له سقام يضاهون به حرم الكعبة ، وانه كانت قريش تخصها بالاعظام ، ولم يكن قريش بمكة ومن أقام بها من العرب يعظمون شيئا من الاصنام اعظامهم العزى ثم اللات ثم مناة ؛ فأما العزى فكانت قريش تخصها دون غيرها في الزيارة والهدايا لقرب مكانها منها • ويروي الازرقي عن ابن اسحاق انهم كانوا اذا فرغوا من حجهم وطوافهم بالكعبة ، لم يحلوا حتى يأتوا العزى فيطوفون بها ويحلون عندها ويعكفون عندها يوما ، ويقول ابن الكلبي ان قريشا كانوا يزورونها ويهدون لها ويتقربون عندها بالذبح وانه كان لها منحر يذبحون فيه هداياها ، ويقال له الغبغب فكانوا يقسمون لحوم هداياهم فيمن حضرها ، وكان عندها[١] وكانت تلبيتها (لبيك اللهم لبيك لبيك وسعديك ما احبنا اليك) •

يروي الازرقي عن ابن اسحاق وابن الكلبي ان سدنتها بنو شيبان ابن مرة السلميون وان آخر سدنتها منهم دبية بن حرسي السلمي ، وكان قبله على ما يروي الازرقي أفلح بن النضر السلمي ، ولكن السكري وابن الكلبي يرويان أيضا ان سدنتها بنو صرمة ابن مرة • وقد هدمها خالد بن الوليد وقتل سادنها[٢] •

---

(١) الاصنام : ص ١٨ ــ ٢٧ • الازرقي : ج ١ ص ٧٤ ، ٧٨ ، ٢٣١ • وسيرة ابن هشام : ج ١ ص ٨٧ ، ٨٩ •

(٢) الطبري : ج ٣ ص ١٢٨ •

اللات :

لقد كانت اللات من الآلهة البابلية ، وهي تمثل فصل الصيف ، كما كانت عند النبطيين بشكل صخرة بيضاء مربعة وهي تمثل ربة البيت كما كانت تعبد في تدمر وتسمى بها وهب اللات ابن أذينة •

وهي في العربية مؤنثة كلمة الله ويقول ابن الكلبي انها أحدث من مناة • وكانت صخرة مربعة في الطائف ، وكان لها على ما يروي السكري بيت يسترونه وواد يحرمونه •

وكانت قريش وجميع العرب تعظمها الا أن ثقيفاً كانت تخص اللات كما كانت قريش تخص العزي ، وكانت تلبية من نسك للات (لبيك اللهم لبيك لبيك كفى بيتنا بنية ، ليس بمهجور ولا بلية ، لكنه من تربة زكية ، أربابه من صالحي البرية) وقد أرسل الرسول خالد بن الوليد لهدمها[١] •

منـــاة :

لقد كانت مامناتو من الآلهة البابلية وكانت مناتو عند النبطيين الهة القدر والموت •

أما في العربية فقد يكون اشتقاقها من القوة أو القطع أو من المنية أي الموت ، وقد اقسمت بها العرب • ويروي الازرقي عن ابن اسحاق « ان عمرو بن لحي نصب مناة على ساحل البحر مما يلي قديداً وكـانت للأزد وغسان ؛ يحجونها ويعظمونها ، فاذا طافوا بالبيت وافاضوا من عرفات وفرغوا من منى لم يحلقوا الا عند مناة • وكانوا يهلون لها ، ومن أهل لها لم يطف بين الصفا والمروة لمكان الصنمين اللذين عليهما نهيك مجاود الريح ومطعم الطير ، فكان هذا الحي من الانصار يهلون بمناة وكانوا اذا أهلوا بحج أو عمرة لم يظل أحد منهم سقف بيت حتى يفرغ من حجته أو عمرته » •

---

(١) أنظر عن اللات : الاصنام ص ١٦ ـ ١٧ • الازرقي : ج ١ ص ٧٥ • سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٤٨ ، ٩١ ، وكذلك مقالة بوهل عن اللات في دائرة المعارف الاسلامية ، ونولدكه ، والاساطير العربية ص ١١٧ ـ ١١٩ •

ويذكر ابن الكلبي ان مناة كانت منصوبة على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد بين مكة والمدينة ، يعظمونها ويذبحون لها ، ولكن الأوس والخزرج كانت أشد اعظاماً لها ، فكانوا اذا حجوا الى مكة يتمون طقوس الحج كلها ، الا حلق الشعر ، حيث يحلقون عنده ، ويرون ان حجهم لا يتم الا بذلك . وكانت تلبية من نسك لها (لبيك اللهم لبيك لبيك ، لولا ان بكراً دونك يبرك الناس ويهجرونك ما زال حج ثمج يأتونك ، انا على عدوانهم من دونك) .

يروي ابن الكلبي ان مناة كانت أقدم الآلهة وقد تسمى بها رجال من مختلف القبائل ، وكانت بعض قبائل تميم تسمى بها (سعد مناة وزيد مناة) ولكن الغريب ان هذه التسمية لم تنتشر بين الاوس والخزرج ولا بين قريش .

ولقد كان لمناة بيت وكان سدنته الغطاريف من الأزد وقد بعث الرسول لهدمه سعيد بن عبيد الأشهلي ، وفي رواية أخرى علي بن أبي طالب[١] .

لقد ذكرت هذه الآلهة الثلاثة في القرآن « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى . ألكم الذكر وله الانثى . تلك اذاً قسمة ضيزى » (النجم ١٩ ـ ٢٣) ان هذه الآيات لا تنص بوضوح على انهن كن بنات الله ؛ ولكن سياق الاسلوب القرآني المكي يحملنا على القول بأن الآية الثانية ذات صلة بالآيات الاولى ، وان أهل مكة كانوا يعدونها بنات الله . ولقد بينا انهم كانوا يعتقدون أن الملائكة بنات الله وشفعاؤهم عنده . ولكن لا تشير الاخبار المتوفرة لدينا الى اعتقاد العرب بأن هذه الالاهات الثلاث

---

(١) بالاضافة الى نولدكه ، ومقالة بوهل عنها في دائرة المعارف الاسلامية والاساطير العربية ص ١٢٥ ـ ١٢٩ ، أنظر أيضا الاصنام : ص ١٣ ـ ١٦ . سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٩٠ ـ ٩١ . الازرقي : ج ١ ص ٧٨ . تفسير الطبري : ج ٢ ص ٢٩ ـ ٣١ ، في ٢٧ ص ٣٥ . المحبر : ص ٣١٦ . ياقوت ج ٤ ص ٦٥٢ .

كن ملائكة ، كما لا يوجد في القرآن ولا في كتب التاريخ والادب واللغة ما يشير الى اختصاص هذه الآلهة أو الآلهة الاخرى أو العلاقات بينها ، ومن الصعب الادعاء ان المسلمين تعمدوا طمس أخبارها لانها تناقض الاسلام ، فقد وردتنا بعض الاخبار عنها في الكتب ، وقد روي من الشعر الجاهلي ما لا يطابق روح الاسلام ، فلماذا لا يذكر عن هذه الآلهة شيئاً ولو بمعرض السخرية والرد ؟ وجدير بنا أن نؤكد ان هذه الآلهة لم تذكر في القرآن الا مرة واحدة عرضية كما ذكرت أصنام أخرى بصورة عرضية ، وانها لم تكن الآلهة الوحيدة في مكة أو في الجزيرة بل ذكرت أيضا آلهة أخرى فيها .

الشعرى :

فاما الشعرى فهي التي تسمى العبور[١] ، ويذكر مصعب الزبيري ان وجره بن غالب الخزاعي هو أول من عبد الشعرى ، وكان وجره يقول ان الشعري تقطع السماء عرضاً فلا أرى في السماء شيئاً ، شمساً ولا قمراً ولا نجماً ، يقطع السماء عرضا . ووجره هو أبو كبشة الذي كانت قريش تسب رسول الله (ص) اليه ، والعرب تظن أن أحداً لا يعمل شيئاً الا بعرق ينزعه شبهه ، فلما خالف رسول الله (ص) دين قريش قالت قريش نزعه أبو كبشة ، لأن أبا كبشة خالف الناس في عبادة الشعرى . وكانوا يتسبون رسول الله (ص) اليه وكان أبو كبشة سيداً في خزاعة[٢] . ويذكر محمد بن حبيب السكري ان الحارث بن غبشان كان يعبد الشعرى ، كما يذكر صاعد الاندلسي ان عبد قيس كانت تعبد الشعرى[٣] .

الشمس :

فأما الشمس فقد ذكر القرآن ان أهل سبأ كانوا يعبدونها . ووجدتها

---

(١) تفسير الطبري : ج ٢٧ ص ٤٥ .

(٢) نسب قريش : ص ٢٦١ .

(٣) المحبر : ص ١٢٩ . طبقات الامم ص ٤٣ .

وقومها يسجدون للشمس من دون الله » (النحل ٢٤) • والواقع ان عبادة الشمس قديمة ، انتشرت عند معظم الامم القديمة ، وكان الاله شماس وشمس من أكبر الآلهة البابلية واليمانية ، كما يذكر سترابو ان أهل بطرا كانوا يعبدون الشمس • وقد انتشرت تسمية عبد شمس عند العرب ، وكانت عبادته في بني تميم ، وكان له بيت ، وكانت تعبده عشائر ضبة وتميم وعدي وعكل وثورا ، وكان سدنته من بني أوس بن مخاشن التميميين ، وكانت تلبية من نسك له « لبيك اللهم لبيك لبيك ، ما نهارنا نجره ، ادلاجه وحره وقره ، لا نتقي شيئاً ولا نضره ، حجاً لرب مستقيم بره » وقد هدمه هند بن أبي هالة وصفوان بن أسيد بن الحلاحل بن أوس بن مخاشن[١] •

ولعل مما يتصل بالشمس الشارق[٢] ، الذي تسمى به العرب وعبده بعضهم وان لم تكن لدينا معلومات عن عبادته •

بعـــل :

أما بعل الذي ذكره القرآن باعتباره الاهاً كان يعبده قوم الياس « أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين » (الصافات ١٢٥[٣]) فهو من أشهر الآلهة القديمة ، فقد كان اله الارض عند البابليين ، ثم أصبح اله الخصب عند الاسرائيليين ، واله المياه الباطنية عند اليمانيين ، وتستعمل كتب الفقه الاسلامية عند تصنيف الاراضي الزراعية « ما سقي بالبعل » أي الارض التي تسقى بالآبار[١] ، فكأن هذا التعبير من آثار ما قبل الاسلام ، أي ما سقاه الاله بعل •

---

(١) المحبر : ص ٣١٦ •

(٢) الزبيدي : تاج العروس مادة شرق •

(٣) وقد وردت كلمة بعل بمعنى زوج في موضعين بالقرآن (النساء ١٢٨ ، هود ٧٢) •

لقد ذكرت ان القرآن ذكر « وداً وسواعاً ، ويغوث ويعوق ونسراً باعتبارها من آلهة قوم نوح » .

ود :

أما ود فكان من أكبر الآلهة المعينية ، وقد ورد ذكره في النقوش الثمودية ، فأما عند ظهور الاسلام فكان موضعه بدومة الجندل ، وكان تمثال رجل كأعظم ما يكون من الرجال ، قد ذبر عليه حلتان ، متزر بحلة ، مرتد بأخرى ، عليه سيف قد تقلده وقد تنكب قوساً ، وبين يديه حربة فيها لواء ووفضة (أي جعبة) فيها نبل[٢] ؛ وهذا الوصف يوحي بأنه كان اله الحرب ، ولكن لا تشير الكتب العربية الى اختصاصه ، كما ان تلبيته لا توحي بشيء فقد كانت تلبية من نسك اليه « لبيك اللهم لبيك بيك معذرة » . وكان يقدم اليه اللبن ، ولا تشير المصادر الى أية علاقة بينه وبين ودان التي هي قرية في الحجاز .

كانت سدنة الاله ود من بني عامر الاجدار ، وقد بعث اليه الرسول خالد بن الوليد لهدمه ، ولكن بنو عبد ود وعامر الاجدار قاوموه فاشتبك معهم وانتصر عليهم ثم هدمه .

سـواع .

فأما سواع ، فتسميته غامضة ، وكان برهاط ، قرب ينبع ، وكانت تعبده بنو كنانة وهذيل ومزينة وعمرو بن قيس بن عيلان ؛ ولكن هذيل اختصت به أكثر ، فكانوا يقدمون اليه الذبائح ، وكانت تلبية من نسك اليه « لبيك اللهم لبيك لبيك ، ابنا اليك ، ان سواع طلبنا اليك » .

---

(١) ابن سلام : الاموال ص ٤٧٦ ، ٤٧٨ . انظر عن بعل ما كتبه نولدكه ، وما كتبه الاستاذ طه باقر في كتابه مقدمة في حضارة وادي الرافدين ص ٢٤٦ .

(٢) الاصنام : ص ١٠ . سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٨٣ . المحبر : ص ٣١٢ ، ٣١٦ ، وكذلك نولدكه ، وكتاب الاساطير العربية ص ١٢٩ - ١٣٢ .

لقد كانت سدنة سواع من بني لحيان ، وكان سادنه عند ظهور الاسلام غاوي بن ظالم . وقد هدمه عمرو بن العاص[١] .

يغـوث :

أما يغوث فان اسمه مشتق من الغوث أو النجدة ، وكان عند ظهور الاسلام في اليمن تعبده مذحج وأهل جرش ، وكان سادنه عند ظهور الاسلام العوامل بن جهيل الهمداني . وكانت التلبية اليه « لبيك اللهم لبيك لبيك احبنا بما لديك ، فنحن عبادك ، قد صرنا اليك »[٢] .

يعـوق :

أما يعوق فاسمه يدل على الاعاقة والمنع ، ولعل المقصود منع الشر ، فهو الحارس من الشرور ، وكان في قرية خيوان التي تبعد ستين ميلا شمال صنعاء ، ولم يسم به أحد ، والتلبية اليه « لبيك اللهم لبيك لبيك بغض الينا الشر ، وحب الينا الخير ، ولا تبطرنا فناشر ، ولا تفدحنا بعثار »[٣] .

نسـر :

ونسر اله قديم ، فقد وجد في نقوش ممفيس ، وقد عبده الكلدانيون وتسمى به أشهر ملوكهم نبوخذنصر ، كما عبده الآراميون في سوريا ، وكان اله الحضر الاكبر .

---

(١) الاصنام : ص ٩ ـ ١٠ . سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٨٣ . الازرقي : ج ١ ص ٧٨ ، وأنظر عن سدنته : المحبر : ص ٣١٦ . ابن حجر : الاصابة في تمييز الصحابة ج ١ ص ٤٨٢ .

(٢) الاصنام : ص ١٠ ، ٥٧ . سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٨٣ ، المحبر : ص ٣١٦ وعن سدنته ج ٣ ص ٤١ .

(٣) الاصنام : ص ١٠ ، ٥٧ . سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٨٣ . المحبر : ص ٣١٦ ياقوت ج ٤ ص ١١٢٢ .

أما عند الاسلام فكان في غمدان ، تعبده حمير وتعظمه وتدين له وتلبى له . ولكن لم يتسم أحد به ولم يذكر في الشعر[١] .

يتبين مما تقدم ان الآلهة التي ذكرت في القرآن باعتبارها آلهة قوم نوح ، كان معظمها عند ظهور الاسلام يعبد في اليمن ، والواقع أن المصادر الادبية لم تقدم عنها معلومات وافية ؛ كما أن القرآن لم يشر الى عبادات أو معبودات أهل اليمن ، ولم يذكر كثيراً من الاصنام التي يرد ذكرها في الكتب وهي غير قليلة ، بعضها اجرام سماوية ، فيذكر صاعد الاندلسي ان تميماً عبدت الدبران ، وعبدت لخم وجذام المشتري ، وعبدت طي سهيل ، وعبدت أسد عطارد .

وهناك معبودات بأسماء الاماكن كذي شري وذي خلصة .

ذو شرى :

فأما ذو شرى فيبدو أن اسمه مشتق من جبل السراة ، وقد عبده الانباط وسموا كثيراً من أولادهم به كعبد ذو شرى ، وكان عندهم صخرة مربعة ارتفاعها أربعة أقدام وطولها قدمان ، ويسفح عليها أو أمامها دم الضحايا ، ويقول ابيفانوس انه كان يقام لها عيد في ٢٥ كانون الاول أي يوم الانقلاب الشتوي ، فاذا صح هذا فمعناه ، انه كانت لها علاقة بالشمس وكان عند ظهور الاسلام يعبده بنو الحارث بن يشكر الازديون على ما يقول ابن الكلبي[٢] .

الخلصــة :

أما ذو الخلصة فكان صخرة بيضاء عليها كهيئة التاج ولها بيت ، وكانت بتبالة بين مكة واليمن ، وكانت خثعم وبجيلة وأزد السراة ومن

---

(١) أنظر في ذلك نولدكه وكذلك ياقوت ج١ ص ٧١٤ ج٤ ص٧٨٠ .
(٢) الاصنام : ص ٣٨ وانظر ايضا نولدكه .

قاربهم من بطون العرب من هوازن يعظمونها ويهدون اليها ويلبسونها القلائد ويهدون اليها الشعير والحنطة ويصبون عليها اللبن ويذبحون لها كما كانوا يستقسمون عندها بالازلام ، وقد استقسم عندها امرؤ القيس • وكانت سدنتها بنو امامة من باهلة بن اعصر ، وقد هدمها جرير البجلي بعد أن اشتبك مع سدنتها وعبادها بمعركة عنيفة ، وانشيء مكانها مسجد[١] •

الفلـــس :

وهناك آلهة بأسماء أعضاء الجسم أو بشكل انسان مثل ذي الفلس الذي كان نتوءاً بارزاً في جبل اجا يشبه تمثال انسان ، وكانت طي تعبده وتهدي اليه وتذبح عنده العتائر ، ولا يأتيه خائف الا أمن عنده ، بل حتى الحيوانات اذا لجأت اليه تركت • وكان سدنته بني بولان • وقد هدمه علي بن أبي طالب بعد أن وجد عنده سيفين اهداهما اليه الحارث بن أبي شمر الغساني •

آلهة اخرى :

وقد ذكر ابن الكلبي عدة آلهة أخرى منها ذو الكفين وكان لبني منهب بن دوس ، ورضا وكان بيتاً لبني ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة ، وسعد وكان صخرة طويلة بساحل جدة توقف عليه الابل وتهراق عليه الدماء وكان لمالك وملكان ابني كنانة • والا قيصر وهو لقضاعة ولخم وجذام وعاملة وغطفان وكانوا يحجون له ويحلقون رؤوسهم عنده ،

---

(١) الاصنام : ص ٣٥ • سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٩١ • الازرقي : ج ١ ص ٧٣ وقد الحق ناشر الكتاب ملحقا طويلا عنها في نهاية الجزء الاول ، وانظر أيضا الاساطير العربية ص ١٠٤ • ياقوت ج ٢ ص ٤٦٢ البكري ص ٥٠٨ •

ويخلطون شعرهم بالدقيق . ونهم وكان لمزينة وبه كانت تسمى هذه القبيلة عبد نهم وكانت تذبح عنده العتائر ، وله سادن من بني عداء المزنيين اسمه خزاعي .

وعائم وهو لأزد السراة وقد ذكره زيد الخيل .

وسعير لعنزة .

وعميانس وكان لخولان ، وفيه نزلت آية « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والانعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل الى الله وما كان لله فهو يصل الى شركائهم ساء ما يحكمون » (الانعام ١٣٦) .

وقد ذكر محمد بن حبيب السكري[١] آلهة أخرى منها جهار وكان لهوازن ومحارب بعكاظ في سفح جبل اطحل وكان سدنتها آل عوف النصريين .

والسعيدة وكانت بأحد تعبدها الأزد وسعد هذيم وقضاعة الا بني وبرة وكان سدنتها بني العجلان[٢] .

وذو اللبا بالمشقر ، في البحرين ، وتعبده عبد القيس وسدنته بنو عامر .

والمحرق بسلمان لبكر بن وائل ، وله أولاد موزعون على قبائلها ففي عنزة بلج بن المحرق ، وفي عميرة وغفيلة عمرو بن المحرق ، وسدنته آل الاسود العجليون .

وذريح بالنجير ، في جنوب اليمن ، لكندة .

ومرحب بحضرموت .

والمنطبق ، وهو للسلف وعك والاشعريين . (وهو من نحاس يكلمون من جوفه كلاماً لم يسمع بمثله فلما كسرت الاصنام وجدوا فيه سيفاً فاصطفاه رسول الله (ص) وسماه مزدما)[٣] .

---

(١) المحبر : ص ٣١١ - ٣١٩ . معجم البلدان ج ٥ ص ١٦٧ .

(٢) ياقوت : ج ٣ ص ٩٣ .

(٣) ياقوت : ج ٤ ص ٦٦٥ .

ويذكر البكري عن ابن اسحق صنما اسمه ضمار كان لبني سليم يعبدونه وقد ورد في شعر عباس بن مرداس[١] .

كما ذكر ياقوت اوال صنم كان لبكر بن وائل[٢] ، وذو الرجل وهو في الحجاز[٣] ، وحلال اسم صنم لبني فزاره[٤] ، وعبعب وهو صنم كان لقضاعة ومن يقاربهم[٥] .

وأغلب ما يستعمل في الكتب العربية لوصف ما ذكرناه صيغة الضمير ، فيقولون (اتخذوا) أو (وكان لهم) دون أن يذكروا ماهيتها ، غير ان بعض مؤلفات المتدينين تصفها بأنها أصنام أو أوثان ، أما القرآن فصفها بأنها آلهتهم آلهة هو خشية مؤلفيها من أن يلتبس هذا التعبير بالاله الحقيقي وهو الله تعالى .

الاصنام :

يعرف ابن الكلبي الصنم بأنه (اذا كان معمولا من الخشب أو الذهب أو فضة صورة انسان فهو صنم ، واذا كان من حجارة فهو وثن[٦]) . ويقول ابن الاثير ان الفرق بين الصنم والوثن هو ان الوثن كل ما له جثة معمولة من جواهر الارض أو من الخشب والحجارة كصورة الآدمي تعمل وتنصب فتعبد والصنم الصورة بلا جثة ، ومنهم من لم يفرق بينهما وأطلقها على المعنيين قال وقد يطلق الوثن على غير الصورة ، ويقول شمران ان الاوثان عند العرب كل تمثال من خشب أو حجارة أو فضة أو نحاس أو نحوها وكانت العرب تنصبها وتعبدها[٧] ، وقد لاحظنا ان هذه

---

(١) البكري : معجم ما استعجم ص ٨٨١ .
(٢) ياقوت ج ١ ص ٣٨٥ .
(٣) ياقوت ج ٢ ص ٧٥٥ .
(٤) ياقوت ج ٢ ص ٣٠٢ .
(٥) ياقوت ج ٣ ص ٦٠٦ .
(٦) الاصنام : ص ٥٣ .
(٧) ابن منظور : لسان العرب ج ١٤ ص ٤٣٣ ج ١٥ ص ٢٤١ .

الآلهة بعضها بشكل انسان كهل ، وان بعضها كان مجرد صخرة مربعة أو مستطيلة وان بعضها من الحجارة وبعضها من العقيق .

والراجح ان هذه الاصنام لم تكن هي الآلهة بل كانت سكناً لهم ولارواحهم فهي تمثل استقرار القوى الروحية في الاشياء المادية ، وهي ليست من الضروري أن تكون بصورة الآلهة ، ولكنها عندما ينحط التفكير تحاط ذاتها بالتعظيم كأنها الآلهة .

وقد ورد ذكر الاصنام في القرآن « فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم » (الاعراف الآية ١٣٨) « رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبني أن نعبد الاصنام » (سورة ابراهيم ٣٥) .

« واذ قال ابراهيم لأبيه آزر اتتخذ أصناماً آلهة » (انعام ٧٤) « قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين » (الشعر ٢٧١) « وتالله لاكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين » (الانبياء ٥٧) وكل هذه الآيات تتعلق بالاقوام القديمة اذ لم ترد في القرآن آية تصف العرب عند ظهور الاسلام بانهم يعبدون الاصنام أو بأن لهم أصناماً .

الاوثـــان :

أما الاوثان فقد ذكرت في ثلاث آيات ، « وابراهيم اذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون . انما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون افكا ان الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له واليه ترجعون » (العنكبوت ١٦ ، ١٧) . وقال ابراهيم « انما اتخذتم من دون الله أوثاناً مَوَدَّةَ بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار ومالكم من ناصرين » (العنكبوت ٢٤) « ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه وأُحِلَّت لكم الانعام الا ما يتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الاوثان واجتنبوا قول الزور » (الحج ٣٠) .

ولا ريب ان الآيتين الاولتين تتعلقان بقوم ابراهيم ، أما آية الحج فتنطبق على عرب الجاهلية وحجهم ، وتتطلب تنقيته وهو كما سنرى ، يتم في منطقة فيها عدد كبير من الآلهة والاصنام والانصاب وغيرها .

وليس في هذه الآية ما يشير الى أي نوع منها ، أما الآيتان الاولتان فيجدر أن نلاحظ ان قوم ابراهيم وصفوا في القرآن بأنهم عباد الاصنام ، فكأن الاوثان والاصنام في القرآن مترادفة .

ويروي الازرقي انه « أول ما كانت عبادة الحجارة في بني اسماعيل انه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم الا احتمل معه من حجارة الحرم تعظيماً للحرم وصبابة بمكة وبالكعبة ، حيثما حلوا وضعوه فطافوا به كالطواف بالكعبة حتى سلخ ذلك بهم الى أن كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة وأعجبهم من حجارة الحرم خاصة ، حتى خلفت الخلوف ونسوا ما كانوا عليه واستبدلوا بدين ابراهيم واسماعيل غيره فعبدوا الاوثان وصاروا الى ما كانت عليه الامم من الظلالات ، وفيهم على ذلك بقايا من عهد ابراهيم يتمسكون بها من تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة والوقوف على عرفة والمزدلفة وهدى البدن والاهلال بالحج والعمرة مع ادخالهم فيهم ما ليس منه[1] » .

الانصـــاب :

أما الانصاب فقد ذكرت في القرآن في ثلاثة مواضع « حرمت عليكم الميتــة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله بــه ، والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنَّطيحةُ وما أكل السبع الا ما ذكيتم وما ذبح على النصب » (المائدة ٣) « يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان » (المائدة ٩٠) « يوم يخرجون من الاجداث سراعاً كأنهم الى نصب يوفضون » (المعارج ٤٣) وتتعلق كافة هذه الآيات بالعرب عند ظهور الاسلام .

(١) الازرقي : ج ٢ ص ص ، ٦٢ أنظر أيضا الاصنام : ص ٦ ، سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٨٢ .

يقول ابن الكلبي انه كانت للعرب حجارة غير منصوبة ، يطوفون بها ويعترون عندها ، يسمونها الانصاب ، ويسمون الطواف بها الدوار[١] ، ويروي الطبري عن ابن جريج ان النصب ليست بأصنام ، الصنم يصور وينقش ، وهذه حجارة تنصب ، ثلاثمائة وستون حجر ، منهم من يقول ثلاثمائة منها بخزاعة ، فكانوا اذا ذبحوا نضحوا الدم على ما أقبل من البيت وشرحوا اللحم وجعلوه على الحجارة ، فقال المسلمون يا رسول الله كان أهـل الجاهلية يعظمون البيت بالدم ، فنحن أحق أن نعظمه فكان النبي (ص) لم يكـره ذلك فأنزل الله لن ينـال الله لحومها ولا دماؤهـا (الحج ٤٣) • ويروي عن قتادة ان النصب حجارة كان أهل الجاهلية يعبدونها ويذبحون لها فنهى الله عن ذلك ، ويروي عن مجاهدانهم كانوا يذبحون عليها ، وعن ابن عباس والضحاك بن مزاحم انها حجارة كانوا يهلون لها ويذبحون عليها[٢] •

وقـد ورد ذكر النصب في الشعر الجاهلي فقـال عمرو بن جابر الحارثي :

حلفت غطيف لا تهنه سربهـا وحلفت بالانصاب أن يرعدوا

وقال المثقب العبدي :

يطيف بنصبهن حجن صغار فقد كادت حواجبهم تشيب

وقال الفزاري :

أسوق بدلى محقبـاً انصابي هل لي من قومي من أرباب

وقال المتلمس :

اطرتني حـذر الهجـاء ولا واللات والانصاب لا تـئل

وقال عامر بن واثلة :

فانك لا تدرين ان رب غارة كورد القطـا ريعانها متتابع

---

(١) الاصنام : ص ٤٢ •

(٢) تفسير الطبري : ج ٦ ص ٤٨ ـ ٤٩ ، وأنظر أيضا لسـان العرب : ج ٢ ص ٢٥٦ •

نصبت لها وجهي ووردا كأنه   لها نصب قد خرجته النقائع

وقال زهير :

حلفت بأنصاب الاقيصر جاهداً   وما سحقت فيه المقاديم والقمل

وقال رشيد بن رميض :

حلفت بمائرات حول عوض   وانصاب تركن لدى السعير

وقال طرفة :

فأقسمت عند النصب اني لهالك   بمتلفة ليست بغبط ولا خفض

وقال أيضاً :

اني وجدك ما هجوتك والا   نصاب يسفح بينهن دم[١]

يتضح مما ذكر أعلاه ان الانصاب هي أحجار ، وليس من الضروري أن تكون مصقولة أو بشكل تماثيل تشبه الآلهة ، ولكنها ذات علاقة وثيقة بالآلهة ومنها يتقبل الاله الهدايا المقدمة له[٢] ، كما قد تقام حول الحرم ، والواقع ان الانصاب التي كانت حول حرم مكة ظلت في زمن الاسلام ، فأمر الرسول ثم أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان بتجديدها[٣] .

ولكن الغالب أن تقام النصب حول الأصنام ، وقد يطوف الناس حولها ، وكثيراً ما تقدم عليها الهدايا ، أو تذبح عليها الضحايا للآلهة ، ويسيل دم الضحايا عادة في كهف أو حفرة خاصة تدعى الغبغب[٤] ولعل الناس كانت تعتقد ان الغبغب مكان مقدس له علاقة بالآلهة ، وان الدم الذي

---

(١) الاصنام : ص ٤٢ ـ ٤٤ ، وانظر أيضا الحوفي : الحياة العربية من الشعر الجاهلي ص ٣٠٣ فما بعد . أما عن الانصاب المكتشفة في الجزيرة فانظر جمعة : ص ١٥٧ فما بعد .

(٢) سمت : ص ٢٠٧ .

(٣) الازرقي : ج ٢ ص ١٠٣ ـ ١٠٤ .

(٤) الاصنام : ص ٢٠ . أنظر أيضا لسان العرب ج : ٢ ص ١٢٨ .

يسيل فيه أو يسفك على النصب يمسه الآله ، وان اللحم الذي يضحى على النصب يكون للآله منه نصيب ، وبذلك تصبح بين مقدم الضحية علاقة دموية تستلزم من الاله أن يحمي المهدي وقد نفى القرآن الكريم ذلك عن الله تعالى في ضحايا المسلمين « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرناها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين » (الحج ٣٧) وكثيراً ما كان العرب يقسمون عندها .

والانصاب كثيرة في الجزيرة ، وهي لا تبقى ثابتة بل تتغير وتتبدل ، ويروى انه كان في الكعبة يوم الفتح ٣٦٠ صنماً ولا ريب ان الكعبة لا تسع كل هذا العدد من الاصنام ، كما لم يذكر العرب اسم أي صنم بالكعبة أو قربها غير هبل وأساف ونائلة والراجح أن المقصود بذلك الانصاب وانها لم تكن في داخل الكعبة بل حولها وفي مكة نفسها .

ليس في المصادر العربية ما يوضح العلاقة بين الاصنام والانصاب والاله ذاته .

الاشجار المقدسة :

لقد كانت بعض الاشجار مقدسة ومنها ذات أنواط ، وكانت لكفار قريش ومن سواهم من العرب ، وهي شجرة عظيمة خضراء يأتونها كل سنة فيعلقون عليها أسلحتهم ويذبحون عندها ويعكفون عندها يوماً ، وكان من حج منهم وضع زاده عندها ويدخل بغير زاد تعظيماً لها[١] .

وكان في بيت العزي ثلاث شجرات كانت تعلق عليها الهدايا ، كما كان أهل نجران قبل دخول المسيحية بلادهم يعبدون نخلة طويلة بين أظهرهم لها عيد في كل سنة واذا كان ذلك العيد علقوا عليها كل ثوب حسن وجدوه وحلى النساء ثم خرجوا اليها فعلقوا عندها يوماً[٢] .

---

(١) الازرقي : ج ١ ص ٧٧ – ٧٨ · ياقوت ص ٣٩٣ الطبري : التفسير ج ٩ ص ٢٩ ·

(٢) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٣٢ · وأنظر أيضا الاساطير العربية ص ٥١ – ٥٢ ·

ويلاحظ أن الاشجار المقدسة لم تعبد الا في الاماكن المنعزلة . أما في الحرم أو الارض الخصبة فقد منع قطع شجرها . ولم يرو أنها عبدت ، والواقع ان الرسول خرق هذا التقليد فقطع نخل بني النضير فأثار كلام الناس حتى نزلت الآية التي تحل لهم ذلك « ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فباذن الله وليخزي الفاسقين » (الحشر ٥) .

وقد قطع عمر بن الخطاب الشجرة التي عاهد تحتها المسلمون الرسول على القتال في الحديبية والتي أشار اليها القرآن بقوله « لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة » (الفتح ١٨) وكان سبب قيامه بهذا العمل هو خشيته من تقديس الناس لها .

ويلاحظ أن الاشجار تنبت عند الينابيع والاماكن الخصبة حيث توجد الآلهة وهي تعتمد في حياتها على نفس سر الحياة الذي ينبعث من الينابيع فالشجرة ليست مقدسة لذاتها ، ولكن بسبب أنها المنتوج الطبيعي في الاماكن التي تعبد الاله الذي يرسل مجاريه التي تحيي الارض بعد موتها وليس هناك نوع خاص يقدس من الاشجار .

الحـــرم :

لما كان الاله مقدساً فقدسيته تسري عادة على الامكنة والاشياء التي حوله ، وتعتبر تلك الاماكن حرماً والغالب أن يكون الحرم عاماً لكل القبائل وأحيانا يكون مقصوراً على القبيلة أو الاسرة التي ترعى الحرم .

وللحرم عادة حدود طبيعية واضحة تحددها ، كالوديان والتلول أو الجبال وهي في الغالب تشمل البلاد التي يسكنها عابدو الآلهة أو ما يسري عليه تأثير الاله كمدى امتداد المناطق الزراعية[١] ، ويروي البكري « ان الشرى ما كان حول الحرم وهي أشراء الحرم »[٢] .

---

(١) راجع عن الحرم سمث : ص ١١٥ فما بعد . أما عن حرم مكة فراجع الازرقي : ج ٢ ص ٩٦ فما بعد .

(٢) البكري : ص ٧٨٦ .

وللحرم مصالح عامة ، ففيها مجلس عام وخزينة ومحل اجتماع عام ، والواقع ان بعض الفقهاء في الاسلام حرموا كراء بيوت مكة . فكأنهم كانوا يعتبرون كل مكة ملكية عامة . ولكن نظرتهم لم تطبق فقد ظلت فيها ملكية خاصة ، والواقع انه منذ العصر الجاهلي كانت فيها ملكيات خاصة بل حتى دار الندوة كانت ملكية خاصة[١] .

وفي الحرم يعطى الاشخاص أو الاشياء الموجودة فيه نوعاً من الحماية القانونية وهي حماية محدودة في المكان ، ولكنها دائمية وهي في الغالب مطلقة وغير مقيدة ، وتكون هذه الحماية مصطبغة بصبغة دينية اذ أن الفرد يكون تحت حماية الاله . فمن دخل الحرم كان آمنا[٢] ، ومن أحدث حدثاً في بلد غيره ثم لجأ اليه فهو آمن اذا دخله .

وتسري هـذه الحماية على النبات والشجر فلا يجوز قطع شجره وكذلك على الحيوان فلا يجوز الصيد فيه .

وتمتد هذه الحماية الى حرية الكلام ، ولعل أوضح مثل على ذلك حالة الدعوة الاسلامية حيث قام الرسول يسفه آلهتهم ويعيبها ولكن لم تجر محاكمة رسمية له ولم يصدر قرار بمنعه أو بمعاقبته . غير ان هذه الحماية تقتصر على الامتناع عن القتل والاعتداء البدني فكان من سنتهم ان الرجل يحدث الحدث بقتل الرجل أو يلطمه أو يضربه فيربط لحا من لحا الحرم قلادة في رقبته ويقول أنا صرورة ، فيقال دعوا الصرورة بجهله وان رمي بحضرة في رجله فلا يعرض له أحد . فقال النبي (ص) لا صرورة في الاسلام وان من أحدث حدثاً أخذ بحدثه[٣] .

لقد ذكرت أن الحرم نشأ حول المياه عادة ، ويبدو انه كان حول كل

---

(١) أنظر ص ١٠٨ .

(٢) أنظر تفسير الطبري : ج ٤ ص ١٠ .

(٣) الازرقي : ج ١ ص ١٢٥ . أنظر أيضا لسان العرب : ج ٦ ص ١٢٣ .

بئر حيثما كان حرم صغير ، وقد أقر الاسلام حريم البئر بخمسين ذراعا[١] • ولا ريب أن هذه سنة جاهلية أقرها الاسلام وكان الدافع لحدوثها على الارجح منع حدوث اشتباكات ومنازعات حول الآبار •

وبما ان أغلب المناطق المقدسة تكون حول الآبار ، لذا تنشأ حولها حياة مستقرة مدنية ، وتكون لها نظم تختلف عن نظم أهل الوبر •

لقد ورد في الاخبار ذكر لعدد من الحرم كحرم الفلس[٢] وجلسد في حضرموت[٣] والعزى في وج[٤] ولكن أشهر حرم هو حرم مكة الذي لدينا عنه تفصيلات أوفى والذي مستمد منه ما ذكرناه من معلومات عن الحرم •

وقد أوجد الاسلام للمدينة حرما[٥] • كما أقر حرم مكة ، وحرم وج[٦] • ولكن آثارها زالت ما عدا حرم مكة •

البيوت المقدسة :

لما بنى الناس البيوت في الحرم أقاموا بيوتاً للآلهة ، فالبيوت المقدسة اذاً هي أحدث من الحرم ، وهي تختلف عن النصب من حيث انها ثابتة ، لا يمكن أن تتحرك ، وكثيراً ما تكون فيها الانصاب والاصنام ، وهي ليست من الضروري أن تكون مسقفة أو مسورة ، اذ قد يكتفى بتحديدها • وتحاط البيوت عادة باحترام كبير ، كما نستدل عليه من تسمية بعض الناس باسم عبدالدار وعبدالبيت •

---

(١) أبو يوسف : كتاب الخراج ص ١٠٠ ـ ١٠٣ ، وهو يذكر حديثا عن الرسول بأن حريم البئر أربعون ذراعا ، وحريم الناضح ستون ذراعا ، وحريم العين خمسمائة ذراع • انظر أيضا ابن حنبل : المسند ج٢ ص٤٦٤ •

(٢) ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ٩١٢ •

(٣) ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ١٠٠ •

(٤) الاصنام : ص ١٩ •

(٥) سيرة ابن هشام : ج ٢ ص ١٢٢ ، وأما عماد ورد عنها في كتب الحديث فانظر : فنسك المعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوي مادة حرم •

(٦) سنن أبي داود : كتاب المناسك ٩٣ • محمد حميد الله : الوثائق السياسية في عصر النبي ص ١٢٣ •

وقد ذكرت الاخبار عدداً من البيوت المقدسة ، كبيت العزى ، وبيت اللات ، وكعبة سنداد ، وبيت رئام ، والسعيدة ، وذي الكعبات الذي كانت تحجه ربيعة في الجاهلية[١] ، وبساء وهو « بيت بنته غطفان وسمته مضاهاة للكعبة هو من قولهم لا افعل ذلك ما ابس عبد ربه وهو طوفانه حولها ليحبها »[٢] .

غير ان أشهر بيت وردتنا عنه معلومات وافية هو الكعبة وهي بيت الله ، وقد ورد ذكره في القرآن باسم الكعبة « يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ، ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة » (المائدة ٩٥) « جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد ذلك لتعلموا ان الله يعلم ما في السموات وما في الارض وان الله بكل شيء عليم » (المائدة ٩٧) كما سميت بالبيت العتيق « ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق » (الحج ٢٩) « لكم فيها منافع الى أجل مسمى ثم محلها الى البيت العتيق » (الحج ٣٣) . كما سميت البيت الحرام « ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا » (المائدة ٢) « جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس » (المائدة ٩٧) . ولكنها ذكرت في عدد من الآيات باسم البيت « واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا » (البقرة ١٢٥) « واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل » (البقرة ١٢٧) « فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما » (البقرة ١٥٨) « ان أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً » (آل عمران ٩٦) « وما كانت صلاتهم عند البيت الا مكاءاً وتصدية » (الانفال ٣٥) « واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئا » (الحج ٢٦) « فليعبدوا رب

---

(١) أنظر الاصنام : ص ٩٩ ، سيرة ابن هشام ج ١ ص ٨٧ — ٩٤ ، البكري : ص ٦٩ ، ٦٢٠ . ياقوت : ج ٣ ص ٩٣ .

(٢) ياقوت : ج ١ ص ٦٠٩ ، ٦٢٢ .

هذا البيت » (قريش ٣) « ربنا اني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم » (ابراهيم ٣٧) .

ويتضح من الآية الاخيرة ان الكعبة هي بيت الله ، كما يتضح من الآية ١٢٧ من سورة البقرة ان بناءه يرجع الى زمن ابراهيم الخليل ، ولذلك صار البيت العتيق .

ليست لدينا معلومات وافية عن تاريخ الكعبة وتطوراتها قبل الاسلام ، وأول المعلومات الواسعة عنها تأتي في السنة الخامسة قبل البعثة النبوية وقد فصل أخبارها الازرقي وهي مجملة في احدى الروايات التي أوردها فقال :

(جلس رجال من قريش في المسجد الحرام فيهم حويطب بن عبد العزى ومخرمة بن نوفل فتذاكروا بنيان قريش الكعبة وما هاجهم على ذلك وذكروا كيف كان بناؤها قبل ذلك فقالوا : كانت الكعبة برضم باس ليس بمدر[١] ، وكان بابها بالارض ولم يكن لها سقف وانما تدلى الكسوة على الجدر من خارج وتربط من أعلى الجدر من بطنها . وكان في بطن الكعبة عن يمين من دخلها جب يكون فيه ما يهدى الى الكعبة من مال وحلية كهيئة الخزانة[٢] . وكان يكون على ذلك الجب حية .. فلم تزل كذلك حتى بنت قريش الكعبة . وكان قرنا الكبش الذي ذبحه ابراهيم خليل الرحمن معلقين في بطنها بالجدر تلقاء من دخلها ، يخلقان ويطيبان اذا طيب البيت ، فكان فيها معاليق من حلية كانت تهدى الى الكعبة ، فكانت على ذلك من أمرها . ثم ان امرأة ذهبت تجمر الكعبة فطارت من مجمرتها شرارة فاحترقت كسوتها[٣] وكانت الكسوة عليها ركاماً بعضها فوق بعض . فلما احترقت الكعبة توهنت جدرانها من كل جانب وتصدعت . وكانت الخرف الاربعة عليهم مظلة والسيول متواترة ، ولمكة سيول عوارم ، فجاء سيل عظيم على تلك الحال فدخل الكعبة وصدع جدرانها وأخافهم ففزعت

---

(١) أنظر أيضا الازرقي : ج ١ ص ٩٩ ، الطبري : ج ٢ ص ١٩٨ (عن ابن اسحق) .

(٢) أنظر كذلك الازرقي : ج ١ ص ٢٥ ، ١٠٠ ، ١٢٨ .

(٣) أنظر أيضا الازرقي : ج ١ ص ٢٨ .

من ذلك قريش نزعا شديدا ، وهابوا هدمها وخشوا أن مسوها أن ينزل عليهم العذاب • قال فبيناهم على ذلك يتناظرون ويتشاورون اذا اقبلت سفينة للروم، حتى اذا كانت بالشعيبة وهي يومئذ ساحل مكة قبل جدة ، انكسرت فسمعت بها قريش ، فركبوا اليها ، فاشتروا خشبها ، وأذنوا لأهلها أن يدخلوا مكة فيبيعون ما معهم من متاعهم على أن لا يعشروهم • قال وكانوا يعشرون من دخلها من تجار الروم كما كانت الروم تعشر من دخل منهم بلادها • فكان في السفينة رومي نجار بناء يسمى باقوم •

فلما قدموا بالخشب مكة قالوا : لو بنينا بيت ربنا ، فاجمعوا لذلك وتعاونوا عليه وترافدوا في النفقة وربعوا قبائل قريش ارباعا ، ثم اقترعوا عند هبل في بطن الكعبة على جوانبها ، فطار قدح بني عبد مناف وبني زهرة على الوجه الذي فيه بالباب وهو الشرقي • وقدح بني عبد الدار وبني أسد ابن عبد العزي وبنى عدي بن كعب على الشق الذي يلي الحجر وهو الشق الشامي • وطار قدح بنى سهم وبنى جمح وبنى عامر بن لؤي على ظهر الكعبة وهو الشق الغربي • وطار قدح بنى تيم وبنى مخزوم وقبائل من قريش ضموا معهم على الشق اليماني الذي يلي الصفا وأجياد ؟ فنقلوا الحجارة ، ورسول الله يومئذ غلام لم ينزل عليه الوحي •• فلما اجتمع لهم ما يريدون من الحجر[1] والخشب وما يحتاجون اليه عـدوا على هدمها •• فهابت قريش هدمه وقالوا من يبدأ فيهدمه ؟ فقال الوليد بن المغيرة أنا ابدؤهم في هدمه •• فهدمت قريش معه حتى بلغوا الأساس •• فلما جمعوا ما أخرجوا من النفقة قلت النفقة عن أن تبلغ لهم عمارة البيت كله ، فتشاوروا في ذلك ، فأجمع رأيهم على أن يقصروا عن القواعـد ويحجروا ما يقدرون عليه من بناء البيت ويتربوا بقيته في الحجر عليه جدار مدار يطوف الناس من ورائه ففعلوا ذلك ، وبنوا في بطن الكعبة

---

(١) لقد جاؤا بالحجارة من حراء وثبير والمقطع والخندمة وجبل حلحلة ومقلع الكعبة (الازرقي ج ١ ص ١٤٥ ـ ٦) أي من معظم الجبال المحيطة بالكعبة •

أساسا يبنون عليه من شق الحجر . وتركوا من ورائه من فناء البيت في الحجر ستة أذرع وشبرا ، فبنوا على ذلك ، فلما وضعوا أيديهم في بنائها قالوا : ارفعوا بابها من الارض واكبسوها حتى لا تدخلها السيول ولا يرقا الا بسلم ولا يدخلها الا من أردتم ، ان كرهتم أحدا دفعتموه ففعلوا ذلك . وبنوه بساف من حجارة وساف من خشب بين الحجارة حتى انتهوا الى موضع الركن فاختلفوا في وضعه وكثر الكلام فيه .. فبنوا حتى رفعوا أربعة أذرع وشبرا ، ثم كبسوها ووضعوا بابها مرتفعا على هذا الذرع ، ورفعوها بمدماك خشب ومدماك حجر حتى بلغوا السقف ، فقال لهم باقوم أتحبون أن تجعلوا سقفها مكبسا أو مسطحا ؟ فقالوا بل بيت ربنا مسطحا ، فبنوه مسطحا وجعلوا فيه ست دعايم في صفين في كل صف ثلاث دعايم من الشق الشامي الذي يلي الحجر الى الشق اليماني ، وجعلوا ارتفاعها من خارجها من الارض الى أعلاها ثمانية عشر ذراعا ، وكانت قبل ذلك تسعة أذرع ، فزادت قريش في ارتفاعها في السماء تسعة أذرع أخر وبنوها من أعلاها الى أسفلها بمدماك من حجارة ومدماك من خشب ، وكان الخشب خمسة عشر مدماكاً والحجارة ستة عشر مدماكاً ، وجعلوا ميزابها يسكب في الحجر ، وجعلوا درجة من خشب في بطنها في الركن الشامي يصعد منها الى ظهرها ، وزرقوا سقفها وجدرانها من بطنها ودعايمها ، وجعلوا في دعايمها صور الانبياء وصور الشجر وصور الملائكة ؛ فكان فيها صورة ابراهيم خليل الرحمن شيخ يستقسم بالازلام ، وصورة عيسى بن مريم وأمه ، وصورة الملائكة عليهم السلام أجمعين [١] . فلما كان يوم فتح مكة دخل رسول الله (ص) البيت فأرسل الفضل بن العباس بن عبدالمطلب فجاء بماء زمزم ، ثم أمر بثوب فبل بالماء ، وأمر بطمس تلك الصور فطمست .

---

(١) لقد ورد ذكر الصور في الكعبة في بعض كتب الحديث : أنظر مثلا البخاري : كتاب الحج الباب ٥٤ ، كتاب الانبياء : الباب ٦٠ ، كتاب المغازي : الباب ٤٨ . أنظر أيضا ابن حنبل ج ١ ص ٢٧٧ ، ٣٣٤ ، ٣٦٥ ج ٣ ص ٣٣٥ ، ٣٨٣ . أنظر أيضا المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٧٨ .

قال ووضع كفيه على صورة عيسى بن مريم وأمه عليهما السلام وقال : امحوا جميع الصور الا ما تحت يدي ، فرفع يديه عن عيسى بن مريم وأمه[١] ، ونظر الى صورة ابراهيم فقال قاتلهم الله جعلوه يستقسم بالازلام : ما لابراهيم وللازلام وجعلوا لها باباً واحدا فكان يغلق ويفتح ، وكانوا قد أخرجوا ما كان في البيت من حلية ومال وقرني الكبش وجعلوه عند أبي طلحة عبدالله بن عبد العزي بن عثمان بن عبد الدار بن قصي ، وأخرجوا هبل وكان على الجب الذي فيه نصبه عمرو بن لحي هناك ، ونصب عند المقام حتى فرغوا من بناء البيت فردوا ذلك المال في الجب ، وعلقوا فيه الحلية وقرني الكبش ، وردوا الجب في مكانه فيما يلي الشق الشامي ، ونصبوا هبل على الجب كما كان قبل ذلك وجعلوا له سلما يصعد عليه الى بطنها وكسوها حين فرغوا من بنائها حبرات يمانية[٢] ، وقد ظلت الصور في الكعبة حتى احترقت الكعبة في زمن ابن الزبير[٣] حين احترق قرنا الكبش أيضا[٤] .

وعندما بنت قريش الكعبة وضعت فيه الحجر الاسود ، وهو حجر ناري متوسط الحجم وكان على جبل أبي قبيس في الاصل ، فكان يضيء لأهل مكة في ليالي الظلم كما يضيء القمر ، فلما كان قبل الاسلام بأربع سنين ، وقد كان الحيض والجنب يصعدون اليه يمسحونه ، فاسود ، فأنزلته

---

(١) يروي الازرقي أقوالا عن عطاء وعمرو بن دينار وداود بن عبدالرحمن والزهري وابن اسحق ان في الكعبة صورا ، وان الرسول لم يمح صورة عيسى (الازرقي ج ١ ص ١٠٦ ـ ١٠٧) ولكنه يروي في مكان آخر انه ازالها كلها (ج ١ ص ١٤٥) .

(٢) الازرقي : ج ١ ص ٩٩ ـ ١٠٦ . وقد تردد في كتب الحديث ان قريشا قصروا في بناء الكعبة عن قواعد ابراهيم وان الرسول قال عند دخوله الكعبة في حجة الوداع أن لولا قريشا حديث عهدهم لنقض بناء الكعبة وأعادها الى قواعد ابراهيم . أنظر مثلا البخاري : كتاب العلم الباب ٤٨ . كتاب الحج الباب ٤٢ . كتاب التمني الباب ٩ . أنظر أيضا ابن حنبل ج٦ ص٥٧ .

(٣) الازرقي : ج ١ ص ١٠٨ .

(٤) الفاسي : شفاء الغرام ص ١٩ .

قريش من أبي قبيس[٥] ، وقد وضع في الجانب الشمالي .

وفي داخل الكعبة بئر يسمى الاخسف عمقه ثلاثة أذرع ، ينسب حفره الى ابراهيم الخليل وابنه اسماعيل . وكان خزانة للبيت يلقى فيها الحلي والمتاع الذي يهدى للكعبة ، وقد نصب عند هذا البئر هبل الصنم الذي كانت قريش تعبده وتستقسم عنده بالازلام[١] ويقع بالقرب من الكعبة بئر زمزم[٢] .

وكانت الكعبة تكسى ، ويروي ابن حجر ان العباس بن عبدالمطلب ضاع وهو صغير « نذرت امه ان وجدته أن تكسو البيت الحرير فوجدته فكست البيت الحرير فهي أول من كساه ذلك وكان اليه في الجاهلية السقاية والعمارة »[٣] .

لقد كانت الكعبة غير منتظمة الاضلاع ، فقد كان الاساس الذي وضعه ابراهيم له « جعل طوله في السماء تسعة أذرع ، وعرضه في الارض اثنين وثلاثين ذراعا من الركن الاسود الى الركن الشامي الذي عند الحجر من وجهه ، وجعل عرض ما بين الركن الشامي الى الركن الغربي الذي فيه الحجر اثنين وعشرين ذراعا ، وجعل طول ظهرها من الركن الغربي الى الركن اليماني أحد وثلاثين ذراعا ، وجعل عرض شقها اليماني من الركن الاسود الى الركن اليماني عشرين ذراعا »[٤] ، أي أنها كانت شبه منحرف غير منتظم ، ولما بنتها قريش قبيل البعثة جعلت حجمها أصغر ، نقصرت من كل ضلع حوالي سبعة أذرع ، ولكن ابن الزبير عندما أعاد بناءها أرجعها الى حجمها الاصلي[٥] .

---

(٥) ابن سعد : ج ١ ص ١٢ ، وكذلك ص ١٦ .

(١) الازرقي : ج ١ ص ٢٧ ، ٤٤ ، ٦٧ ، ١٦١ ـ ٣ .

(٢) الازرقي : ج ٢ ص ٣٠ فما بعد . والذي كشفه عبدالمطلب (الطبري ج١ ص١٧٩) .

(٣) الاصابة : ج ٣ ص ٣٦٣ .

(٤) الازرقي : ج١ ص ٢٧ .

(٥) الازرقي : ج ١ ص ١٣٤ . وأنظر في وصف الكعبة الحديث كتاب الرحلة الحجازية للبيب البتنوني .

ويبدو أنها كانت تحيطها ساحة مكشوفة غير مسورة . ليس عليها جدران محاطة ، انما كانت الدور محدقة به من كل جانب غير ان بين الدور أبوابا يدخل منها الناس من كل نواحيه[١] » . ولما انتشر الاسلام وازداد عدد معتنقيه ، ضاق المسجد الحرام بالمصلين ، فوسع بضع مرات في زمن عمر وعثمان وابن الزبير والوليد والمنصور والمهدي[٢] ، حتى أصبح بعد كل هذه التوسيعات بشكل شبه منحرف طول اضلاعه على التوالي ٤٠٤ ، ٣٠٤ ، ٢٧٨ ، ٢٧٨ ذراعا[٣] ، أي ان حجمها قبل ذلك كان أصغر من هذا بكثير .

لم تكن الكعبة تفتح يوميا ، بل كانوا في الجاهلية يفتحونها يوم الاثنين والخميس وكان حجابه يجلسون عند بابه فيرتقي الرجل اذ كانوا لا يريدون دخوله فيدفع ويطرح وربما عطب . وكانوا لا يدخلون الكعبة بحذاء ، يعظمون ذلك ويضعون نعالهم تحت الدرجة[٤] .

وروى محمد بن يحي عن الواقدي عن أشياخه قالوا : لما فرغت قريش من بناء الكعبة كان أول من خلع الخف والنعل فلم يدخل بهما الوليد بن المغيرة اعظاما لها فجرى ذلك سنة .

وروى محمد بن يحي بن عبدالعزيز بن عمران عن عبدالله بن أبي سليمان عن أبيه : ان فاختة ابنة زهير بن الحارث بن أسد بن عبد العزي وهي أم حكيم بن حزام دخلت الكعبة وهي حامل فأدركها المخاض فيها فولدت حكيما في الكعبة ، فحلت في نطع وأخذ ما تحت مثبرها فغسل عند حوض زمزم وأخذت ثيابها التي ولدت فيها فجعلت لقا ، أي هدية الكعبة[٥] .

---

(١) الازرقي : في ٢ ص ٥٤ .
(٢) الازرقي : ج ٢ ص ٥٤ فما بعد .
(٣) الازرقي : ج ٢ ص ٦٥ .
(٤) ابن اسعد : ج١ قسم١ ص٩٨ .
(٥) الازرقي : ج ١ ص ١١١ أما عن اللقا فانظر لسان العرب ج ٢ ص ١٢٢ . وتروي بعض المصادر انه كان حول الكعبة عند فتح مكة ٣٦٠ صنما (أزرقي ج ١ ص ٧٠ ، الفاسي ص ٦) .

الفصل الرابع عشر

الدين الجاهلي (٢)

الطقوس والعبادات ورجال الدين

تعريف الحج :

لما كانت الآلهة تستقر في أماكن هي بيوتها التي تقيم فيها دائميا أو موقتا فمن الواجب على عابديها أن يزوروها في تلك البيوت • وقد تكون هذه الزيارات غير منظمة في مواعيدها وأشكالها • أو تكون منظمة حسب مراسيم وطقوس معينة وفي أوقات محددة وتسمى الحج •

ويبدو أن هناك عددا من الآلهة كان يحج اليها • فالازد (كانوا يحجون في مكة ويقفون مع الناس المواقف كلها ولكنهم لا يحلقون رؤوسهم فاذا انتهوا من ذلك أتوا مناة فحلقوا رؤوسهم عنده وأقاموا عنده لا يرون لحجهم تماما الا بذلك)[١] • وكانت قريش تزور «العزى» وتهدي لها وتتقرب عندها بالذبائح[٢] • كما كانت قضاعة ولخم وجذام وأهل الشام يحجون الى الاقيصر ويحلقون رؤوسهم عنده[٣] • وكانت «مذحج» تحج الى يغوث[٤] ، كما كانت طي تعبد الفلس وتهدي اليه[٥]. وقد ذكر محمد بن حبيب السكري نص تلبيات العرب لاساف والعزى واللات وجهار وسواع وشمس ومحرق واللبا ومرحب وذريح وذي الكفين

---

(١) الاصنام : ص ١٤ • تفسير الطبري ج ٢ ص ٢٩ •

(٢) الاصنام : ص١٨ ، ٢٧ •

(٣) الاصنام : ص٤٨ • معجم البلدان ج١ ص٣٤٠ •

(٤) الاصنام : ص٥٧ •

(٥) الاصنام : ص٥٩ •

وهبل[1] مما قد يحمل على الاعتقاد بأنه كان يحج اليها كلها .

الا أنه لا تتوفر المعلومات الا عن الحج الى مكة نظراً لصلته الوثيقة بالاسلام ولذكر القرآن لبعض مناسكه في معرض الاقرار أو التعديل أو الابطال ، ونظرا لان الحج في الاسلام كانت مناسكه تشبه الحج الجاهلي في كثير من النواحي .

موعده :

لقد كان الحج الى مكة يتم في أشهر معينة وقد أشار القرآن الى ذلك بقوله تعالى « الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج » (البقرة ١٩٧) .

ويروي الطبري عن ابن عباس والنخعي والشعبي والسدي ونجيح وابن عمر في تفسير هذه الآية ان الاشهر المعلومات التي أشار اليها القرآن هي شوال وذو القعدة وعشر ذي الحجة[2] وهي من الاشهر الحرم الاربعة التي تشمل ايضاً رجب . غير أن الحج يستلزم تثبيته في وقت معين معلوم يعرفه الناس مقدما ليشتركوا فيه ، وكان ذلك الموعد في الايام العشرة الاولى من ذي الحجة ، أما الاشهر الاخرى الباقية فلا نعلم بالضبط ما اذا كانت تتم فيها العمرة فقط أم تجري فيها عبادات لم تصلنا عن انبائها معلومات وافيـة .

وللحج في الاصل علاقة بالمواسم والحيـاة الاقتصادية ، ويمكن أن تلمح ذلك من الآية الكريمة " واذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق . ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم

(١) المحبر : ص٣١٠ - ٣١٤ .

(٢) تفسير الطبري : ج٢ ص١٥٠ - ١٥٣ وقد أشـار القرآن الى الاشهر الحرم في آيات اخرى (سورة البقرة ١٩٤ ، ٢١٧ المائدة ٢ ، ٩٧ التوبة ٥) . انظر عن الاشهر الحرم أيضا سيرة ابن هشام ج١ ص٤٥ . لسان العرب ج٦ ص٢٧٢ ج١٥ ص١٠ . مروج الذهب : ج٢ ص٢٠٥ . البخاري : كتاب الحج الباب ٣٣ ، ٣٤ كتاب العمرة الباب ٩ كتاب مناقب الانصار الباب ٣٦ . ابن حنبل ج٢ ص٩٥ .

الله عليه في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الانعام فكلوا منها واطعموا البائس الفقير • ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق ».
(الحج ٢٨ ، ٢٩) • ونرجح انه كان ثابتا معينا في أحد مواسم السنة ، أي انه يتبع السنة الشمسية ، ولما كانت العرب تتبع النظام القمري فقد وجد النسيء للتوفيق بين السنة الشمسية والقمرية وذلك باضافة شهر كل ثلاث سنوات[١] •

ولا نعرف بالضبط في أي فصل من السنة كان يحدث ذو الحجة ، ولكننا يمكن أن نستنتج موعد حدوث الاشهر العربية من تسمياتها : فالربيعان يدل اسمهما على حدوثهما في الربيع بين شباط ونيسان ، ورمضان الحار في شدة الصيف أي في آب ، وعلى هذا ترتب الاشهر :ـ

ربيع الاول : شباط ـ آذار
ربيع الثاني : آذار ـ نيسان
جمادى الاولى : نيسان ـ أيار
جمادى الثانية : أيار ـ حزيران
رجب : حزيران ـ تموز
شعبان : تموز ـ آب
رمضان : آب ـ ايلول
شوال : ايلول ـ تشرين الاول
ذو القعدة : تشرين الاول ـ تشرين الثاني
ذو الحجة : شرين الثاني ـ كانون الاول
المحرم : كانون‌الاول ـ كانون الثاني
صفر : كانون الثاني ـ شباط[٢]

فاذا صح هذا الترتيب كان الحج الاكبر يقع في الخريف ، وهو فصل معتدل المناخ نسبياً ، والحياة الاقتصادية نشطة نظراً لحاجة الناس للتزود من الحاجات الشتوية • كما ان الحج الاصغر يحدث في حزيران وهو بداية فصل الصيف • ويتم الحج الحقيقي في أيام التشريق •

الحلة والحمس والطلس :

لم تكن طقوس الحج الى مكة واحدة لكافة القبائل ، بل كانوا

---

(١) أنظر ص١١١ ـ ١١٣ •
(٢) انظر راتجن : رحلة الحج الى مكة ص٦٠ (بالالمانية) •

يختلفون . ويصنفهم المؤرخون الى صنفين عامين هم الحلة والحمس ، ويضيف السكري صنفاً ثالثاً فرعياً هم الطلس[١] .

أما الحمس فيما يروي ابن سعد عن الواقدي ، والازرقي عن ابن اسحق عن الكلبي عن ابن عباس ، فهم قريش وكنانة وخزاعة ومن ولدته قريش من سائر العرب . ويضيف ابن اسحق في روايته الأوس والخزرج وجشم وربيعة وجذام وذكوان وثقيف وعمرو اللات وغطفان وعدوان وعلاف (قضاعة) . أما السكري فيذكر ان قبائل الحمس هي قريش كلها وخزاعة لنزولها مكة ومجاورتها قريشاً وكل من نزل مكة من قبائل العرب ، فمن ولدت قريش كلاب وكعب وعامر وكلب وبنو ربيعة ابن عامر بن صعصعة والحارث بن عبد مناة بن كنانة ومدلج بن مرة بن عبد مناة بن كنانة بنزولهم حول مكة وعامر بن مناة بن كنانة ومالك وملكان ابن كنانة وثقيف وعدوان ويربوع بن حنظلة ومازن بن مالك بن عمرو ابن غيم وعلاف (من قضاعة) وجناب بن هبل .

أما الحلة فالمفروض انهم بقية القبائل الا أن السكري يميزهم عن صنف ثالث هم الطلس فيذكر ان الحلة هم تميم ما عدا يربوع ومازن وضبة وحميس وظاعنة والغوث بن مرة وقيس عيلان بأسرها ما عدا ثقيف وعدوان وعامر بن صعصعة وربيعة بن نزار كلها وقضاعة كلها ما خلا علاف وجناب والانصار وخثعم وبجيلة وبكر بن عبد مناة بن كنانة وهذيل بن مدركة وأسد وطي وبارق .

أما الطلس فهم سائر أهل اليمن وأهل حضرموت وعك وتجيب وأياد .

---

(١) راجع عن الحلة والحمس الازرقي : ج١ ص١١٣ فما بعد . المحبر ص١٧٨ - ١٧٩ تفسير الطبري ج٢ ص١٧٠ . سيرة ابن هشام ج١ ص٢١٦ . ابن سعد ج١ قسم١ ص٤١ . لسان العرب ج٨ ص٣٥٨ . البخاري : كتاب الحج : الباب ٩١ ، كتاب التفسير : الباب ٣٥ . مسلم كتاب الحج : ص١٥١ - ١٥٣ . ابن حنبل ج٤ ص٨٠ . ياقوت ج٤ ص٦٢٠ - ٦٢١ . البكري ص٢٤٥ .

الحمس :

يروي الازرقي عن ابن اسحق عن الكلبي عن ابن عباس بأن " الحمس لم يكونوا يمخضون اللبن ولا يأكلون الزبد ولا يلبسون الوبر ولا الشعر ولا يستظلون به ما داموا حرماً ولا يغزلون الوبر ولا الشعر ولا ينسجونه وانما يستظلون بالادم ولا يأكلون شيئاً من نبات الحرم وكانوا يعظمون الاشهر الحرم ولا يخفرون فيها الذمة ولا يظلمون فيها ويطوفون في البيت وعليهم ثيابهم • وكانوا اذا أحرم الرجل منهم في الجاهلية وأول الاسلام فان كان من أهل المدر - يعني أهل البيت والقرى - نقب نقباً في ظهر بيته فمنه يدخل ومنه يخرج ولا يدخل من بابه • وكانت الحمس تقول لا تعظموا شيئاً من الحل ولا تجاوزا الحرم في الحج فلا يهاب الناس حرمكم ويرون ما تعظمون من الحل كالحرم • تقصروا عن مناسك الحج والموقف من عرفة وهو من الحل ، فلم يكونوا يقفون به ولا يفيضون منه ، وجعلوا موقفهم في طرف الحرم من نمرة بين المازمين يقفون به عشية عرفة ويظلون به يوم عرفة من الاراك من عرفة ويفيضون منه الى المزدلفة فاذا عممت الشمس رؤوس الجبال دفعوا • وكانوا يقولون نحن أهل الحرم لا نخرج من الحرم ونحن الحمس ، فتحمست قريش ومن ولدت [1] • وكانت الحمس من دينهم اذا أحرموا أن لا يدخلوا بيتاً من البيوت ولا يستظلوا تحت سقف بيت ، ينقب أحدهم نقباً في ظهر بيته فمنه يخرج ولا يدخل من بابه ولا يجوز تحت اسكفة باب ولا عارضة ، فاذا أرادوا بعض أطعمتهم ومتاعهم تسوروا من ظهر بيوتهم وأدبارها حتى يظهروا على السطوح ثم ينزلون من حجرتهم ثم يمسرون تحت عتبة الباب [2] » فانزل عز وجل " وليس البر أن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى واتوا البيوت من أبوابها » (البقرة ١٨٩) •

---

(١) الازرقي : ج٢ ص١٥٨ •

(٢) الازرقي : ج١ ص١١٦ - ١١٧ • أنظر أيضا تفسير الطبري : ج٢ ص١٦٨ - ١٧٠ ، الواحدي : أسباب النزول ص٣٦ •

الحلة :

أما الحلة فكانوا في قول السكري يحرمون الصيد في النسك ولا يحرمونه في غير الحرم ويتواصلون في النسك ويمنح الغنى ماله أو أكثره في نسكه فيملأ فقراؤهم السمنة ويجتزون من الاصواف والاوبار والاشعار ما يكتفون به ولا يلبسون في نسكهم الجديد ولا يدخلون من باب دار ولا من باب بيت ولا يأويهم ظل ما داموا محرمين وكانوا يدهنون ويأكلون اللحم وأخصب ما يكونون أيام نسكهم ، فاذا دخلوا مكة بعد فراغهم تصدقوا بكل حذاء وكل ثوب لهم ، ثم اشتركوا في ثياب الحمس تنزيهاً للكعبة أن يطوفوا حولها الا في ثياب جدد ولا يجعلون بينهم وبين الكعبة حذاء ، يباشرونها بأقدامهم ، فان لم يجدوا ثياباً طافوا عراة . وكان لكل رجل من الحلة حرص من الحمس يأخذ ثيابه ، فمن لم يجد ثوباً طاف عريانا وانما كانت الحلة تستكري الثياب للطواف في رجوعهم الى البيت ، لأنهم كانوا اذا خرجوا حجاجا لم يستحل أن يشتروا شيئاً ولا يبيعوه حتى يأتوا منازلهم ، الا اللحم . وكان رسول الله (ص) حرص عياض بن حمار المجاشعي اذا قدم مكة طاف في ثياب رسول الله (ص)[1] .

يتبين مما تقدم ان الحلة لم تكن تتقيد بما تتقيد به الحمس ، ولعل هذا هو السبب الذي أغفل فيه كافة المؤرخين والرواة الذين لم يذكروا صنف الطلس صفاتهم ودمجوهم بأهل الحلة . ويلاحظ من هذه الاوصاف أيضاً أن الحمس لم يكونوا يقومون بأعمال البدو والرعاة من اقط الاقط وسل السمن والزبد أو غزل الشعر والوبر مما يختص به البدو. ولا ريب ان أهل مكة وهم جوهر الحمس وأساسه لم يكونوا رعاة . على أن الخلافين الرئيسين بين الحلة والحمس هما اولاً الوقوف في عرفة عند بداية الحج ، وهو ما لم تكن تفعله الحمس ، لأن عرفة تقع خارج حرم مكة . والثاني هو لباس الاحرام .

وفي لباس الاحرام تختلف الروايات اختلافاً كبيرا، فيروي ابن عباس

---

(١) المحبر : ص١٨٠ – ١٨١ .

انه كانت الحلة تطوف بالبيت أول ما يطوف الرجل والمرأة في أول حجة يحجها عراة وكانت بنو عامر بن صعصعة وعك ممن يفعل ذلك فكانوا اذا طافت المرأة منهم عريانة تضع احدى يديها على قبلها والاخرى على دبرها ثم تقول :

اليوم يبدو بعضه أو كله   وما بدا منه فلا احله

فكانت قبائل من العرب من بني عامر وغيرهم يطوفون في البيت عراة، الرجال بالنهار والنساء بالليل ، فاذا بلغ أحدهم باب المسجد قال للحمسى من يعير مصوناً ؟ من يعير معوزاً ؟ فان أعاره احمسي ثوبه طاف به والا القى ثيابه بباب المسجد ثم دخل للطواف فطاف بالبيت سبعاً ، فكانوا يقولون لا تطوفوا في الثياب التي فارقنا فيها الذنوب ، ثم يرجع الى ثيابه فيجدها لم تحرك . وكان بعض نسائهم تتخذ سيوراً متعلقة في حقوتها وتستتر بها حقوتها ، الا أن يتكرم منهم متكرم فيطوف في ثيابه ، فان طاف فيها لم يحل له أن يلبسها أبداً ولا ينتفع بها ويطرحها لقا ، واللقا هي الثياب التي يطوفون فيها ويرمون بها باب المسجد فلا يمسها أحد من خلق الله حتى تبليها الشمس والامطار والرياح ووطء الاقدام وفيه يقول ورقة بن نوفل الاسدي :

كفى حزنا كري عليه كأنه   لقى بين ايدي الطائفين حريم [١]

أما مجاهد فيروي انه كان مما سنوا به انه اذا حج الصرورة من غير الحمس ، رجلا كان أو مرأة ، لا يطوف بالبيت الا عريانا ، الصرورة أول ما يطوف في ثوب احمسي ، اما عارية أو اجارة يقف أحدهم بباب المسجد فيقول من يعير مصونا ؟ من يعير ثوبا ؟ فان اعاره احمسي ثوبا أو اكراه طاف به ، وان لم يعيره القى ثيابه بباب المسجد من خارج ثم دخل الطواف وهو عريان يبدأ باساف فيستلمه ثم يستلم الركن الاسود ثم يأخذ

(١) الازرقي : ج١ ص١١٧ - ١١٨ . أما عن الطواف عراة فراجع تفسير الطبري : ج٢ ص١٧٠ ج٨ ص١١٤ ، ١٢٠ ابن سعد ج١ قسم١ ص٤١ لسان العرب ج١٥ ص٩ البخاري : كتاب الحج : الباب ٩١ ياقوت ج٤ ص٦٢١ .

عن يمينه ويطوف ويجعل الكعبة عن يمينه فاذا ختم طوافه سبعا استلم الركن ثم استلم نائلة فيختم بها طوافه ، ثم يخرج فيجد ثيابه كما تركها لم تمس فيأخذها فيلبسها ولا يعود الى الطواف بعد ذلك عريانا . ولم يكن يطوف بالبيت عريانا الا الصرورة من غير الحمس . فأما الحمس فكانت تطوف في ثيابها فان تكرم متكرم من رجل أو امرأة من غير الحمس ولم يجد ثياب احمسي يطوف فيها ومعه فضل ثياب يلبسها غير ثيابه التي عليه فطاف في ثيابه ثم جعلها لقا يطرحها بين اساف ونائلة فلا يمسها أحد ولا ينتفع بها أحد حتى تبلى من وطء الاقدام والشمس والرياح والمطر[١] وقد انزل القرآن في تحريم ذلك آية « يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين . قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة » (الاعراف ٣١ - ٣٢) .

الطلس :

اما الطلس فيقول السكري انهم بين الحلة والحمس يصنعون في احرامهم ما يصنع الحلة . ويصنعون في ثيابهم ودخولهم البيت ما يصنع الحمس . وكانوا لا يتعرون حول الكعبة ولا يستعيرون ثيابا ويدخلون البيوت من أبوابها وكانوا لا يئدون بناتهم وكانوا يقفون مع الحلة ويصنعون ما يصنعون[٢] . ومن هذا يتبين ان الطلس هم كالحلة سوى انهم لا يتقيدون بالالبسة أو في الدخول بالبيوت .

مراسيم الحج :

لدينا معلومات مفصلة نسبياً عن الحج في مكة ، وقد اجمل الازرقي وصفه في كتابه (اخبار مكة) فقال : (فاذا كان الحج من الشهر الذي يسمونه ذا الحجة خرج الناس الى مواسمهم ، فيصبحون بعكاظ يوم هلال ذي القعدة فيصبحون به عشرين ليلة تقوم فيها اسواقهم بعكاظ . والناس

---

(١) الازرقي : ج١ ص١١٤ وراجع عن الصرورة لسان العرب ج٦ ص١٢٣ .

(٢) المحبر : ص١٨١ .

على مداعيهم وراياتهم منحازين من المنازل ، تضبط كل قبيلة اشرافها وقادتها ، ويدخل بعضهم في بعض للبيع والشراء ، ويجتمعون في بطن السوق • فاذا مضت العشرون انصرفوا الى ذي المجنة فأقاموا بها عشرا اسواقهم قائمة ، فاذا رأوا هلال ذي الحجة انصرفوا الى ذي المجاز فأقاموا به ثماني ليال اسواقهم قائمة ، ثم يخرجون يوم التروية من ذي المجاز الى عرفة فيتروون ذلك اليوم من الماء بذي المجاز وانما سمي يوم التروية[١] ، لترويهم من الماء بذي المجاز ، ينادي بعضهم بعضا ترووا من الماء ، لانه لا ماء بعرفة ولا بالمزدلفة يومئذ • وكان يوم التروية آخر اسواقهم • وانما يحضر هذه المواسم بعكاظ ومجنة وذي المجاز التجار - من كان يريد التجارة • ومن لم يكن له تجارة ولا بيع يخرج في أهله متى أراد • ومن كان من أهل مكة ممن لا يريد التجارة خرج من مكة يوم التروية • فتنزل الحمس أطراف الحرم من نمرة يوم عرفة وتنزل الحلة عرفة • فاذا جاءوا عرفة أقاموا بها يوم عرفة ، فتقف الحلة على الموقف من عرفة[٢] عشية عرفة ، وتقف الحمس على أنصاب الحرم من نمرة ، فاذا دفع الناس من عرفة وأفاضوا أفاضت الحمس من انصاب الحرم وأفاضت الحلة من عرفة حتى يلتقوا بمزدلفة جميعاً • وكانوا يدفعون من عرفة اذا طفلت الشمس للغروب وكانت على رؤوس الجبال كأنها عمائم الرجال في وجوههم • فاذا كان هذا الوقت دفعت الحلة من عرفة ودفعت معها الحمس من أنصاب الحرم حتى يأتوا جميعاً مزدلفة فيبيتون بها حتى اذا كانت في الغلس وقفت الحلة والحمس على قزح ، فلا يزاولون عليه حتى اذا طلعت الشمس وصارت على رؤوس الجبال كأنها عمائم الرجال في وجوههم دفعوا من مزدلفة[٣] ، وكانوا يقولون أشرق ثبير كيما نغير[٤] ، أي أشرق

---

(١) عندما قرن الرسول بين العمرة والحج ، أتم العمرة ثم أهل للحج يوم التروية (البخاري كتاب الحج الباب ٢٧ ، ٣٤ ، ٣٧ ، ٨٢) •

(٢) يلاحظ أن عرفة ليست من الحرم •

(٣) كان يجيزهم صوفه انظر ص٩٤ - ٩٥ •

(٤) يقول الشافعي في الاسلام (قدم الله المزدلفة قبل ان تطلع

بالشمس حتى ندفع من المزدلفة ، فانزل الله في الحمس « ثم افيضوا من حيث أفاض الناس » (البقرة ١٩٩) - يعني من عرفة[1] - والناس الذين كانوا يدفعون منها أهل اليمن وربيعة وتميم)[2] .

ان هذا النص يقف عند هذا الحد . على انه يمكن اكمال وصف الحج الجاهلي من دراسة مناسك الحج الاسلامي ، فالمعروف ان ابراهيم الخليل هو الذي سن مناسك الحج[3] ويقول ابن الكلبي في المشركين (وفيهم على ذلك بقايا من عهد ابراهيم واسماعيل يتمسكون بها من تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة والوقوف على عرفة ومزدلفة واهداء البدن والاهلال بالحج والعمرة مع ادخالهم فيه ما ليس منه[4]) وهذا يدل على ان طقوس الحج الاسلامي تشبه ما سبقتها مع تنقيتها من الشوائب وجعلها لله تعالى .

وقد أشار القرآن الكريم الى الحج الاسلامي في سورة البقرة فقال تعالى « ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم فاذا افضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروا كما هداكم وان كنتم من قبله لمن الضالين ثم افيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله ان الله غفور رحيم . فاذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو اشد ذكرا ... واذكروا الله في أيام معدودات فمن تعجل في يومين فلا اثم عليه ومن تأخر فلا اثم عليه لمن اتقى » (البقرة ١٩٨ - ٢٠٣) .

ويروي الطبري في تفسير الآية الاولى أنهم لم يكونوا يتبابعون فأباح تعالى ذلك في الاسلام كما انه نقل عن قتادة انه « كان هذا الحي من

الشمس وآخر عرفة الى أن تغيب الشمس) (الام ج٢ ص١٨٠ أنظر أيضا ياقوت ج١ ص٩١٧) .

(١) أنظر أيضا الازرقي : ج٢ ص٢٢٦ البخاري : كتاب الحج : الباب ١٠٠ الترمذي كتاب الحج : الباب ٦٠ . ابن حنبل ج١ ص٣٩ ، ٤٢ ، ٥٠ ، ٥٢ .

(٢) الازرقي : ج١ ص١٢١ - ١٢٣ .

(٣) الازرقي : ج١ ص٢٨ فما بعد .

(٤) الاصنام : ص٦ .

العرب لا يرجعون على كسير ولا ضالة ليلة النفر وكانوا يسمونها ليلة الصدر ولا يطلبون تجارة ولا بيعاً فأحل الله عز وجل ذلك كله[١] •

والمشعر الحرام هو ما بين جبلي المزدلفة[٢] أي وادي محسر • وكانت تسمى جمع[٣] ، وفيه قزح الذي كان يتجمع فيه الناس ، وكانت عليه اسطوانة من حجارة مدورة يبلغ محيطها اربعاً وعشرين ذراعاً وعلوها اثنى عشر ذراعاً ، وهي على أكمة عالية[٤] ، وكانت توقد عليه النيران منذ زمن قصي حتى العصر العباسي ليلة جمع[٥] •

أما الافاضة فقد بينا من قبل ان الحمس كانت لا تقف في عرفة قبل الاسلام[٦] ، وقد أمرهم تعالى أن يقفوا في عرفة ، وهذا يشير الى أن الناس كانت تتجمع وتفيض حسب القبائل ، أي تقف كل قبيلة على حدة وتفيض متكتلة ، اذ أن ذلك أكثر ملائمة لروح التنظيم الاجتماعي الجاهلي القائم على الاسس القبلية ، ومما يؤيد هذا ان الانصار لم تكن تسعى بين الصفا والمروة[٧] •

يتضح من هذه الآية انه بعد الافاضة الى المشعر الحرام تقضي المناسك أي تذبح الذبائح[٨] • وهي تذبح في منى قرب المشعر الحرام[٩] •

---

(١) تفسير الطبري : ج ٢ ص ١٦٥ •

(٢) معجم البلدان : ج ٤ ص ٥٤٠ •

(٣) الازرقي : ج ١ ص ٥٨ معجم البلدان ج ٢ ص ١١٨ البكري : معجم ما استعجم ص ٤٩٢ ـ ٣ •

(٤) أنظر الازرقي : ج ١ ص ٣٢ ، ١٢٣ ج ٢ ص ١٥١ ، ١٥٤ معجم البلدان : ج ٤ ص ٥٢ ، ٨٥ •

(٥) ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٤١ قسم ٢ ص ٦٩ وانظر أيضا الازرقي : ج ٢ ص ١٥١ معجم البلدان ج ٤ ص ٨٥ •

(٦) أنظر ص ٢١١ •

(٧) أنظر ص ١٧٧ ـ ١٧٨ •

(٨) أنظر عن معنى النسك : تفسير الطبري ج ٢ ص ١٣٧ لسان العرب ج ٢٢ ص ٣٨٩ •

(٩) لقد روى عن الرسول انه قال كل منى منحر : أنظر كتاب =

لقد أمر تعالى المسلمين بعد أن يقضوا المناسك أن يذكروا الله كذكرهم آباءهم ، ويذكر الطبري في سبب نزولها ان أهل الجاهلية كانوا اذا قضوا مناسكهم وقفوا عند الجمرة وذكروا أيامهم في الجاهلية وفعال آبائهم[1] وفي سورة البقرة آية أخرى توحي بأنه كان يجري على أثر الحج جدال « الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهم الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج » (البقرة ١٩٧) ويذكر الازرقي في مكة شعباً يسمى صفى السباب[2] • وكل هذا يلقي ضوءاً على ما كان يتم في أواخر الحج من جدل ونقاش وتفاخر •

ان الايام المعدودات التي أشارت اليها الآية الكريمة السابقة هي أيام التشريق وهي تسمية غير واضح أصلها فيقول ابن منظور (••• كانت الشمس تسمى الشارق ••• وشرقت أشرقت اللحم شبرقته طولاً وشررته في الشمس ليجف لأن لحوم الاضاحي كانت تشرق فيها بمنى ••• وتشريق اللحم تقطيعه وتقديده وبسطه ومنه سميت أيام التشريف • وأيام التشريق ثلاثة أيام بعد يوم النحر ، لأن لحم الاضاحي يشرق فيه للشمس أي يشرر ، وقيل سميت بذلك لانهم كانوا يقولون في الجاهلية أشرق ثبير كيما نغير ، الاغارة الدفع ، أي ندفع للفر • حكاه يعقوب • وقال ابن الاعرابي سميت بذلك لأن الهدي والضحايا لا تنحر حتى تشرق الشمس أي تطلع وقيل بل سميت بذلك لانها كلها أيام تشريق لصلاة يوم النحر قال وهذا أعجب القولين لي • وكان أبو حنيفة يذهب بالتشريق الى التكبير ولم يذهب اليه غيره ••• وكانوا لا يفيضون حتى تطلع الشمس فخالفهم رسول الله ••• وفي حديث مسروق انطلق بنا الى مشرقكم يعني المصلى وسأل أعرابي اين منزل المشرق يعني الذي يصلى فيه والمشرق العيد سمي بذلك لان الصلاة فيه بعد الشرقة أي الشمس وقيل المشرق مصلى العيد

= الحج في : البخاري الباب ١١٦ مسلم الباب ١٤٩ أنظر أيضا ابن حنبل ج ١ ص ٧٦ ، ٨١ ، ٩٨ ، ١٥٦ ج ٣ ص ٣٢٠ ج ٤ ص ٨٢ •

(١) تفسير الطبري : ج ٢ ص ١٧٢ _ ١٧٤ •

(٢) الازرقي : ج ٢ ص ٢٢١ •

بمكة وقيل مصلى العيد ولم يقيد بمكة[١] ...) .

يتبين من هذا الشرح المجمل مدى عدم وضوح أصل تسمية التشريق ، وان كان جذرها اللغوي يحمل على الاعتقاد بصلتها بشروق الشمس ، كما توضح ذلك بعض التفاسير التي أوردها ابن منظور ، وقد ورد في بعض الاحاديث النبوية ان أيام التشريق تدعى أيام بعال ، مما قد يدل انها كانت في الجاهلية متصلة ببعل .

لقد ورد في القرآن الكريم « ان الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما » (البقرة ١٥٨) ويروي الطبري ان سبب نزولها هو ان الانصار لم تكن تطوف بهما[٢] . والواقع أن صيغة الآية توحي بأن الطواف لم يكن فرضاً .

ان الآية الكريمة التي ذكرناها من قبل عن طقوس الحج لا تذكر زيارة الكعبة وقد حمل ذلك بعض الباحثين ومنهم ولهاوزن الى القول بأن زيارة الكعبة لم تكن قبل الاسلام ضمن طقوس الحج[٣] . وهو رأي غير مضبوط لأن القرآن أشار الى حج البيت في آيتين « فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما » (بالصفا والمروة) (البقرة ١٥٨) « ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا » (آل عمران ٩٧) ويتجلى من الآية الاولى ان حج البيت يختلف عن العمرة كما ان الآيتين تبينان ان الحج للبيت[٤] . وقد رأينا فيما سبق القيود التي كانت تفرضها

---

(١) لسان العرب : ج ١٢ ص ٤٠ - ٤٣ أنظر ايضا مروج الذهب ج ٢ ص ١٦٠ أما عن ذكر أيام التشريق في الاحاديث النبوية فانظر عن مواضعها في فنسنك الفهرس المفصل لالفاظ الحديث النبوي مادة شرق .

(٢) تفسير الطبري : ج ٢ ص٢٩ . ويذكر الطبري فيها روايات أن المسلمين أرادوا ترك السعي بين الصفا والمروة لما كان عليهما في الجاهلية من أصنام فامرهم تعالى بالطواف لانها من شعائر الله .

(٣) أنظر رأيه في المقال الذي كتبه باريت في دائرة المعارف الاسلامية عن العمرة .

(٤) أنظر ص ٢١٦ .

قريش على ألبسة الطائفين بالبيت • غير اننا لا نعلم متى كانت تتم زيارة البيت • وان كان وصف الازرقي للحج الجاهلي يوحي بأن زيارة البيت كانت تتم بعد أيام التشريق •

العمـــرة :

يروي ابن الكلبي أن العرب قد ظل فيهم من دين ابراهيم بقايا منها العمرة[1] ، الامر الذي يدل على قدمها • وقد وردت العمرة في القرآن في سورة البقرة « واتموا الحج والعمرة لله فان احصرتم فما استيسر من الهدي ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدي محله فمن كان منكم مريضاً أو به أذى في رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك فاذا آمنتم فمن تمتع بالعمرة الى الحج فما استيسر من الهدي فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة اذا رجعتم تلك عشرة كاملة ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام واتقوا الله واعلموا ان الله شديد العقاب » (البقرة ١٩٦) كما ورد في القرآن أيضاً « ان الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيراً فان الله شاكر عليم » (البقرة ١٥٨) •

ان هاتين الآيتين تذكران العمرة باعتبارها مؤسسة متميزة عن الحج ومختلفة عنه • كما ان الآية الاخيرة توضح ان السعي بين الصفا والمروة لم يكن جزءاً من الحج والعمرة قبل أن يأمر به الاسلام • غير انهما لا توضحان طريقة العمرة أو موعدها •

وتلقي كتب الحديث ضوءاً كبيراً على العمرة كما كانت في عهد الرسول كما تشير الى التغيرات التي أدخلها على العمرة • ومن هذه الاشارات يمكن أن نستنبط ما كانت عليه العمرة الجاهلية • والواقع أن الرسول اعتمر ثلاث مرات وقرن الحج بالعمـرة في حجـة الوداع[2]

---

(١) الاصنام : ص ٤ •

(١) روى البعض ان الرسول اعتمر ثلاثا ، ويروي آخر انه اعتمر =

وأشار على المعتمرين من أصحابه أن يحلوا بعد الطواف اذا لم يكن معهم هدي[(١)] ، الامر الذي يحمل على الاعتقاد بأن العمرة لم يكن من شروطها الاساسية الهدي والاضاحي •

لقد طاف الرسول في العمرة بالبيت سبع مرات ثم طاف بين الصفا والمروة سبع مرات ثم أحل وبذلك انتهت العمرة • فالعمرة اذاً كانت الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة • وجدير بنا أن نشير الى أن السعي بين الصفا والمروة لم يكن عاماً في القبائل فلم تكن الانصار تقوم به ، وقد أدخله القرآن كجزء من الحج والعمرة في آية البقرة (١٥٨) التي ذكرناها آنفاً ، ولابد من ملاحظة ان الآية التي تذكر الصفا والمروة وتشير الى انه « لا جناح عليه أن يطوف بهما » أي لا مانع وهو تعبير قد يوحي بالاباحة لا بالالزام • والواقع ان البخاري يشير الى أن بعض الناس فهموا ذلك وسألوا عائشة عنه فأجابت بأن هذه الاباحة تقتضي الالزام[(٢)] • وان تساؤلهم قد يحملنا على الاعتقاد بأن السعي والطواف بين الصفا والمروة لم يكن في الجاهلية ملزماً أو جزءاً من العمرة ، وان العمرة كانت متصلة بزيارة الكعبة فحسب •

لقد وصفت كتب الحديث كيفية طواف النبي فيقولون انه رمل ثلاثاً (أي خب أو هرول) ومشى أربعاً[(٣)] كما يروون انه قبل الحجر الاسود[(٤)]

= أربع مرات ، ويروي فريق ثالث انه اعتمر مرتين • ويروى كذلك انه اعتمر في رجب ، وينفي آخرون انه اعتمر في رجب • أنظر الى هذه الاحاديث ومواضعها من كتب الصحاح الستة : مفتاح كنوز السنة مادة عمرة •

(١) ابن حنبل : ج ١ ص ٢٣٦ ، ٢٥٣ ، ٣٤١ ج ٢ ص ٤ ، ١٢ ، ٤١ ، ٦٥ ، ١٥١ج ٣ ، ٧١ ، ٧٥ •

(٢) تفسير الطبري : ج ٢ ص ٢٩ • ويقول مالك : « من أفاض فقد قضى الله حجه » (موطا ج ١ ص ٢٢٦) •

(٣) البخاري : كتاب الحج : الباب ٥٥ • كتاب المغازي : الباب ٤٣ ابن حنبل : ج ٢ ص ٤٠ ، ٥٩ ، ٧١ ، ١٠٠ ، ١١٤ ، ١٢٣ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ج ٥ ص ٤٥٥ ـ ٤٥٦ •

(٤) البخاري : كتاب الحج : الباب ٥٠ ، ٥٧ ، ٦٠ • ابن حنبل : ج ١ ص ١٦ ، ٢١ ، ٣٤ ، ٣٩ ، ٤٦ ، ٥٠ ، ٥٣ ، ٥٤ •

وانه استلم الركن اليماني [١] . ويذكر البخاري أحاديث تشير الى أن الرمل كان مظاهرة أمام كفار قريش لاظهار قوة المسلمين البدنية بعد أن شاع ان الحمى قد أنهكتهم [٢] ، الامر الذي يدل على ان الرمل لم يكن أساسياً قبل ذلك .

لقد قام الرسول بعمراته في ذي القعدة وشوال وفي ذي الحجة ، ويروي البخاري انه « قدم النبي وأصحابه صبيحة رابعة (من ذي الحجة) مهلين بالحج فأمرهم أن يجعلوها عمرة فتعاظم ذلك عندهم » فقالوا يا رسول الله أي المحل قال حل كله [٣] ، ويروى ابن عباس انه ما اعمر رسول الله عائشة ليلة الحصبة الا قطعا لأمر أهل الشرك ، كما يروي انهم (أي المشركين) (كانوا يرون العمرة في أشهر الحج من افجر الفجور في الارض ويجعلون المحرم صفراً ويقولون اذا دبر الدبر وعفا الأثر ودخل صفر فقد حلت العمرة لمن اعتمر [٤]) .

واضح من هذه النصوص ان جعل النبي العمرة في ذي الحجة كان ضد التقاليد الجاهلية التي كانت تجعلها بعد شهر المحرم أي في صفر .

لم يكن يباح للحائض القيام بالعمرة ولكن كان يباح لها الحج [٥] .

الهدايا أو الهدي :

ذكر القرآن أن المشركين كانوا يقدمون بعض مدخولاتهم للآلهة

---

(١) يروى أن النبي لم يستلم الركنين الغربيين من الكعبة انظر ابن حنبل : ج ١ ص ٣٧ ، ٤٥ ، ٧٠ ، ٢١٧ ، ٢٤٦ ، ٣٧٢ ، ج ٢ ص ٣ ، ١٧ ، ٨٩ ، ١١٠ ، ج ٤ ص ٩٧ ، ٩٨ . ويروى انه استلم الركن بالمحجن (البخاري : كتاب الحج : الباب ٥٨) ابن حنبل : ج ١ ص ٢١٤ ، ٢٣٧ ، ٢٤٨ ج ٥ ص ٤٥٤ .

(٢) البخاري : كتاب المغازي : الباب ٤٣ . سيرة ابن هشام . ج ٣ ص ٤٢٥ .

(٣) البخاري : كتاب الحج : الباب ٣٤ .

(٤) ابن حنبل : ج ١ ص ٢٥٢ ، ٢٦٢ .

(٥) موطا : ج ١ ص ٢٤٩ ، ٢٦٦ ، ٢٨٦ . البخاري : كتاب الحج : الباب ٣١ ، ٣٤ ، ٧٧ ، ٨١ . وانظر مقال باريت عن العمرة في دائرة المعارف الاسلامية .

« وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والانعام نصيباً فقالوا هـذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل الى الله وما كان لله فهو يصل الى شركائهم ساء ما يحكمون » (الانعام ١٣٦) ويتبين من هذه الآية انه كانت هناك حصة معينة ثابتة يجب على العباد دفعها سواء كانوا زراعاً أو أصحاب مواشي • وكانت هذه الاموال المخصصة للآلهة توزع بين الاله الاكبر والآلهة الصغرى • فهم فيه شركاء ، ومع ان القرآن لا يشير الى كيفية توزيع هذه الاموال أو ما يخصص لكل من الاله الاكبر وللآلهة الصغرى ، الا أن الراجح ان حصـة الاله الاكبر هي أكبر من حصة الآلهة الصغرى •

وتشير هذه الآية الى سوء التصرف بهذه الاموال المخصصة فان حصة الاله الاكبر كانت تعود بدورها فتصرف للآلهة الصغرى وهم شركاؤها ، وبذلك لا يقدم للاله الاكبر شيء • ولكن واضح من هذه الآية ان هذه الأموال هي اجبارية أو شبه اجبارية ، وانها تصرف للآلهة ، اذ ان كلمة الشركاء في هذه الآية يقصد بها الآلهة الصغرى التي كانوا يدينون بها • ويزعم ابن الكلبي ان هـذه الآية نزلت في حـق الصنم عميانس الذي كـان لخولان[1] • غير ان نص الآية لا يدل على هذا التخصص مطلقاً ، ثم انه لم يثبت لدينا ان خولان كانت تدين بعبادة الله وتشرك به ؛ فالراجح ان تعليله غير صحيح •

لقد فرض قصي ضريبة الرفادة على أهل مكة لتصرف على الآلهة كما كانت تقدم للآلهة أيضاً هدايا • والراجح ان القرآن في هذه الآية يشير الى هذه الضريبة والهدايا التي كانت تقدم لله ولمن اشركوهم به ولكنها تصرف عملياً على بقية الآلهة • والواقع اننا لا نسمع باهتمام مشركي قريش والعرب بعبادته تعالى بل كانوا يكفرون به وينكرون ما انعم عليهم ويهتمون بالآلهة الاخرى فبما انه تعالى كان الاله الاكبر باعتقاد المشركين من أهل مكة وبما انهم كانوا يكفرون به فالراجح أن هذه الآية كانت

---

(١) الاصنام : ص ٤٣ ــ ٤٤ •

تنطبق على اعمالهم وهي تتفق مع المقصود بكلمة الكفر بمعناها القرآني .

أنواع الهدايا :

لقد كانت الهدايا التي تقدم للآلهة منوعة ، وهي تتوقف على وسيلة التبادل الاقتصادي ، ففي المجتمع الذي يقوم التبادل فيه على النقود تكون الهدايا من النقود أو المعادن الثمينة ؛ وفي المجتمع الزراعي تكون الهدايا من المحاصيل النباتية ، وفي المجتمع الرعوي تكون الهدايا من المواشي .

ففي مكة كان في الكعبة بئر ترمى فيه الهدايا[١] ، مما يدل على انها كانت تقدم من النقود أو الالبسة أو المعادن الثمينة ، كما ان الضريبة التي فرضها قصي على الرفادة كان بعضها يجبى بالنقود[٢] وهذا طبيعي في ذلك المجتمع التجاري الذي أساس ثروته النقود . اما هدايا الالبسة فتتجلى فيما كان يرميه أهل الحلة كما تحدثنا[٣] .

وهناك مناطق تقدم لآلهتها هدايا من المحاصيل النباتية وقد ذكرنا من قبل آية سورة الانعام التي يقول فيها تعالى « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والانعام نصيبا فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا » (الانعام ١٣٦) وهو ذكر صريح الى ان بعض التقدمات تكون من المحاصيل النباتية . وقد ذكرنا أيضا ان ذا الخلصة كانوا يهدون اليه الشعير والحنطة[٤] ، وهي من المحاصيل الوافرة في وادي بيشة حيث يقع بقربه هذا الصنم .

ويروى انه كان لبني حنيفة صنم من تمر فأصابهم مجاعة فأكلوه فقال الشاعر يعيرهم في ذلك :ـ

أكلت حنيفة ربها　　　يوم التمحل والمجاعة

ولا ريب انه لا يعقل صنع صنم من تمر نظرا لان التمر لا يمكن

---

(١) أنظر ص ٢٠٧ .
(٢) أنظر ص ١١٦ ـ ١١٧ .
(٣) أنظر ص ٢١٤ ـ ٢١٦ .
(٤) أنظر ص ١٩١ .

أن يدوم طويلا • والارجح ان التمـر المأكول هو الهدايا التي قدمت للآلهة • ومن المعقول أن تقدم بنو حنيفة التمر نظرا لتوفر النخيل في بلادهـم •

ولما كانت أغلب بلاد الجزيرة صحارى ومراعي تقـوم الحياة الاقتصادية فيها على الرعي والمواشي وخاصة من الابل والغنم ، فلابد أن تكون أغلب هذه الهدايا الحيوانات وخاصة الحيوانات الداجنة •

لقد ذكر القرآن أنواعاً من الهدايا الجاهلية في معرض الانكار لها « ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون » (المائدة ١٠٣) •

البحـيرة :

وقد اختلف الرواة في شرح مفاهيم هذه الامور : فأما عن البحيرة فان قتادة والسدي والضحاك وابن عباس يقولون بأن البحيرة هي الناقة اذا انتجت خمسة ابطن نحروا الخامس ان كان ذكراً ، أما اذا كان انثى فانهم يشقون اذنها ويستحيونها فلا يشربون لبنها ولا يجزون وبرها ولا يركبون ظهورها ، فاذا ولدت ولداً ميتاً أو ماتت ، تشترك في أكل اللحم النساء والرجال ، أما الولد الخامس فلا يأكل لحمه الا الرجال • ويقول ابن المسيب ان البحيرة من الابل هي التي يمنع درها للطواغيت ، أما ابن الاحوص فيقول ان البحيرة هي التي ولدت خمسة أبطن ثم تركت •

السـائبة :

أما السائبة فيعرفهـا الزهري وقتادة وابن عبـاس وابن الاحوص والسدي والضحاك بأنها ما يسيبه الرجل من الانعام فلا يعرض لها أحد حيثما حلت • أما مجاهد فيقول ان السائبة هي ما ولدت من ولد بينهـا وبينه ستة أولاد كان على هيئتها فاذا ولدت في السابع ولدا ذكرا أو انثى أو ذكرين ذبحوهم فأكله رجالهم دون نسائهم •

الحـــامي :

أما الحامي فهـو في رواية قتادة وابن عباس والسدي الفحل من الابل الذي يلقح عشرة فينتج له عشرة أولاد أو اذا ركب أولاد أولاده على ما يروي الشعبي والضحاك ، وهو بذلك يترك فلا يركب ظهره ولا يجز وبره •

الوصـــيلة :

أما الوصيلة فالخلاف على تعريفها واسع فيقول الزهري انها التي تأتي بولدين متتابعين انثى فتذبح للطواغيت أو تجدع ، وفي رواية أخرى انها اذا اتأمت بطناً بذكر وانثى قيل وصلت الانثى أخاها بدفعها عنه الذبح ، ويروي الشعبي انها اذا ولدت أربعة أبطن ثم ولدت الخامس ذكرا أو انثى وصلت أخاها •

ويقول الضحاك وقتادة ان الوصيلة هي الشاة اذا ولدت سبعة ابطن ذبحوا السابع اذا كان جدياً ، وان كان عناقاً (انثى) فاستحيوه ، وان كان جدياً وعنـاقاً استحيوها كليهما ، وقالوا ان الجدي وصلته اختـه فحرمته علينا • ويزيد قتادة ان الجدي السابع يأكله الرجال دون النساء وانه اذا كان السابع ميتاً اشترك في أكله النساء والرجال • أما السدي فيقول ان الوصيلة من الغنم هي الشاة اذا ولدت ثلاثة ابطن أو خمسة فكان آخر الوصيلة من الغنم هي الشاة اذا ولدت ثلاثة ابطن أو خمسة فكان آخر ذلك جديا ذبحوه وأهدوه لبيت الآلهة وان كانت عناقا استحيوها وان كانت جديا وعناقا استحيوا الجدي من أجل العناق فانها وصيلة وصلت أخاها[١] •

رأي ابن اسحاق :

ولابن اسحاق في هذه الاشياء تعريفات تختلف عما ذكرنا فهو يقول « ان السائبة الناقة اذا تابعت بين عشر اناث ليس بينهن ذكر سيبت فلم يركب ظهرها ولم يجز وبرها ولم يشرب لبنها الا ضيف • أما البحيرة

---

(١) تفسير الطبري : ج ٧ ص ٥٧ ـ ٦٠ • انظر ايضا المحبر : ص ٣٣٠ ـ ٣٣٢ ، المستبصر لابن المحاور ج ٢ ص ٢١٢ •

فهي بنت السائبة فما تنجت السائبة بعد البطن العاشر من انثى شقت اذنها ثم خلي سبيلها مع امها ، فلم يركب ظهرها ، ولم يجز وبرها ، ولم يشرب لبنها الا ضيف . أما الوصيلة فهي الشاة اذا أتأمت عشر اناث متتابعات في خمسة ابطن ليس بينهن ذكر جعلت وصيلة ، قالوا قد وصلت ، فكأن ما ولدت بعد ذلك للذكور منهم دون اناثهم الا أن يموت منها شيء فيشتركون في أكله ذكورهم واناثهم . أما الحامي فهو الفحل اذا انتج له عشر اناث متتابعات ليس بينهن ذكر حمي ظهره فلم يركب ظهره ولم يجز وبره وخلي في ابله يضرب فيها ولا ينتفع منه بغير ذلك » . غير ان ابن هشام لا يرى رأي ابن اسحق ويقول معلقاً : « وهذا كله عند العرب على غير هذا الا الحامي فانه عندهم على ما قال ابن اسحق[1] » .

وقد أشار القرآن الى الهدايا الجاهلية في عدة آيات منها الآية (١٠٣) من سورة المائدة التي ذكرناها قبلا وكذلك قوله تعالى « وقالوا ما في بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وان يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم انه حكيم عليم » (الانعام ١٣٩) « قل أرأيتم ما انزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالا قل الله أذن لكم أم على الله تفترون » (يونس ٥٩) « ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين قل الذكرين حرم أم الانثيين أم ما اشتملت عليه أرحام الانثيين نبئوني بعلم ان كنتم صادقين . ومن الابل اثنين ومن البقر اثنين قل الذكرين حرم أم الانثيين أم ما اشتملت عليه أرحام الانثيين أم كنتم شهداء اذ وصاكم الله بهذا فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم ان الله لا يهدي القوم الظالمين » (الانعام ١٤٣ - ١٤٤) .

الاضاحي :

لقد ذكرنا في بحث التنظيمات الاجتماعية ان العرب قبل ظهور الاسلام كانوا يعتقدون ان الاشتراك في الطعام يولد أو يقوي العلاقات بين

---

(١) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٥١ .

الكائنات ، ويخلق أو يثبت الالتزامات الاجتماعية المتبادلة . فالاشتراك في أكل الخبز والملح كان يؤدي الى خلق نوع من الحلف المعنوي ، وهي فكرة لا يزال يدين بها الكثير من الناس حيث يستهجنون خيانة من يأكل الزاد عندك ولا يؤيدك . ومن الوصمات الشنيعة عند كثير من الناس حتى اليوم أن يتهم شخص بأنه خان الملح والعيش (الخبز أو الاكل) . ويروي الاصفهاني ان زيد الخيل أبى أن يقتل لصاً لان هذا اللص شرب من قربة أبيه قبل السرقة[1] .

فاذا كان الطعام المشترك يولد بين الناس مثل هذا الحلف والتعاون المتبادل بينهم فاحرى به أن يخلق مثل ذلك بين الناس والاههم ، أي اذا اشتركوا في طعام واحد يصبحوا متحالفين ، وعلى كل فريق منهم أن يعين الآخر ويساعده في الشدائد والملمات .

ولقد ذكرنا أنه كانت للدم أهمية كبرى في العلاقات الاجتماعية ، فالدم المشترك يستلزم التعاون والنصرة المشتركة . وليس من الضروري أن تكون علاقة الدم طبيعية بالوراثة ، بل يمكن خلقها بأن يلعق الفرد من دم الآخر أو يشتركان بلعق دم من اناء واحد ، كما حدث ذلك في حلف لعقة الدم الذي حدث في مكة عندما تأزم الوضع بين هاشم وبني عبدالدار . فاذا اشترك الاله مع القبيلة في الاكل أو في شرب الدم فانه يتكون بينهما علاقة دم تلزم كل فريق أن يدافع عن الآخر وينصره ويؤيده .

ولنلاحظ أن العشيرة كلها كانت تشترك في الاصل أو في العبادة ، فاذا اشتركت في الاكل كان ذلك توثيقاً للعلاقة بينهم وتقوية لتكتلهم ولتماسكهم . واذا قدمت الضحية للاله فانها تعقد الصلة بينه وبين مقدم الضحية .

ويمكن تقديم الضحية في مكان بعيد عن الاله ونصبه ، على أن يقدم على ما له صلة بالاله ، فقد روى ابن الكلبي انه ... (كان الرجل اذا

---

(١) الاغاني : ج ١٦ ص ٥١ .

سافر فنزل منزلا أخذ أربعة أحجار فنظر الى أحسنها فاتخذه رباً ، وجعل ثلاث أثافي لقدره ، واذا ارتحل تركه فاذا نزل منزلا آخر فعل مثل ذلك . فكانوا ينحرون ويذبحون عند كلها ويتقربون اليها ، وهم على ذلك عارفون بفضل الكعبة عليها يحجونها ويعتمرون اليها) .

الا ان خير مكان لتقديم الاضاحي هو حيثما تكون ، أو ينتظر أن تكون ، الآلهة وهو عادة عند الصنم أو النصب ، وقد أشار القرآن الكريم الى ما كان يذبح على النصب وحرم على المسلمين أكله (أنظر سورة المائدة الآية ٣) كما ذكر ابن الكلبي ان سعد صنم بني مالك وملكان الكنانيين كانت تهراق عليه الدماء[١] ، وروى في مكان آخر بعض الابيات التي تشير الى الذبائح التي تذبح على النصب[٢] وكثيرا ما يكون عند المذبح كهف أو حفرة يسيل فيها دم الضحية ويسمى الغبغب[٣] ولعلهم كانوا يفهمون من ذلك ان الدم الذي يسيل في الغبغب كان يذهب للاله فتنعقد الصلة بينه وبين مقدم الضحية .

والضحايا عادة من ذوات الروح . ولاشك ان أروع الضحايا وأشدها وقعاً هي التي تكون من البشر فقد قدم ابراهيم الخليل ابنه ضحية قرباناً لله تعالى ، كما قدم عبدالمطلب ابنه عبدالله ضحية ، وقدم المنذر بن ماء السماء اربعمائة ضحايا للعزى .

ولكن يجوز ابدال الضحايا البشرية بضحايا من الحيوان فان الله تعالى فدى ابن ابراهيم « بذبح عظيم » (الصافات ١٠٧) كما ان عبدالمطلب فدى ابنه بمائة من الابل[٤] . فمن الطبيعي أن تكون أغلب الضحايا من الحيوانات الداجنة وهي تكون عادة من الاغنام أو البقر أو الجمال تبعا لتوفرها .

---

(١) الاصنام : ص ٣٣ .
(٢) الاصنام : ص ٣٦ .
(٣) الاصنام : ص ٢٠ ـ ٢١ .
(٤) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ١٦٧ .

تقدم الاضاحي عـادة في مواسم العبادات كالحج وتسمى ضحـايا الاغنام (العتائر[١]) وكانت تقدم عادة في رجب وتسمى الرجبية[٢] . ومع ان شهر رجب من الاشهر المقدسة وكان يقع في أواخر الربيع الا ان المصادر التي بين أيدينا لا تتحدث عن سبب قدسيته أو ذبح العتائر فيه .

الهـــدي :

أما اضاحي الحج الى مكة فكانت تدعى الهدي وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم « واتموا الحج والعمرة لله فان احصرتم فما استيسر من الهدي ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدي محله فمن كان منكم مريضا أو به أذى في رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك فاذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة الى الحج فما استيسر من الهدى فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة اذا رجعتم تلك عشرة كاملة ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام واتقوا الله واعلموا ان الله شديد العقاب » (البقرة ١٩٦) « يا ايها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم » (المائدة ٢) « يا ايها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة أو كفارة طعام مسكين ... جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد » (المائدة ٩٥ ـ ٩٧) « هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفاً أن يبلغ محله » (الفتح ٢٥) .

ومع ان الهدي يمكن أن يكون من الغنم والبقر ، الا ان الغالب أن يكون من البـدن أي الابل[٣] . وقد ورد ذكر البدن في القـرآن

---

(١) الاصنام : ص ٣٤ .

(٢) ابن حنبل : ٢ ص ١٨٣ ، ج ٥ ص ٧٦ لسـان العـرب ج ٦ ص ٢١٠ . أنظر أيضا سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٢٠٨ .

(٣) أنظر لسان العرب : ج ٢٢ ص ٢٣٤ اما عن هدايا الشاة =

الكريم « والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فاذا وجبت جنوبها فكلوا منها واطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون • لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم » (الحج ٣٦ ، ٣٧) •

الاشعار والتقليد :

والبدن التي تهدى تشعر وتقلد ، فاما الاشعار فهو ان(يشق جلدها ويطعنها في اسنمتها في أحد الجانبين بمبضع أو نحوه حتى يظهر منها الدم ويعرف انها هدى[١] • وقد وردت عدة أحاديث ان الرسول أشعر البدن في السنام الأيمن[٢] • واما التقليد فهو (أن يجعل في عنقها عروة مزادة أو خلق نعل فيعلم انها هدى ، وكانوا أيضا يقلدون بلحاء شجر الحرم يعتصمون بذلك من أعدائهم • وكان المشركون يفعلون ذلك فأمر المسلمون بألا يحلوا هـذه الاشياء التي يتقرب بهـا المشركون الى الله ثم نسخ ذلك[١]) وقد رويت عدة أحاديث عن تقليد بدن رسول الله التي أهداها للبيت وروى عن عائشة انها قالت (فتلت قلائد بدن رسول الله ثم قلدها وأشعرها ثم وجهها الى البيت[٤] • ومن المحتمل ان جلال البدن كانت تهـدي للكعبة ؛ والواقع ان عبدالله بن عمـر كان يجلل بدنه القباطي

= والبقرة في زمن الرسول فانظر عن مواضعها في كتب الصحاح : فنسنك : الفهرس المفصل لالفاظ الحديث النبوي : مادة شاة ، بقر •

(١) ابن حنبل : ج ١ ص ٢١٦ ، ٢٥٤ ، ٢٨٠ ، ٣٣٩ ، ٣٣٤ ، ٣٤٧ ، ٣٧٢ انظر ايضا عن الاحاديث النبوية التي ورد فيها الاشعار : فنسنك : الفهرس المفصل لالفاظ الحديث النبوي مادة اشعر •

(٣) لسان العرب : ج ٤ ص ٣٦٩ • وكان أهل مكة يقلدون بأشجار جبل المقطع الازرقي ص ١٥٥ طبع وستنفلد •

(٤) الموطأ : ج ١ ص ٢٤٩ ابن حنبل ج ٦ ص ٣٥ ، ٨٧ ، ٨٢ • وأنظر أيضا عن التقليد : الموطأ ج ١ ص ٢٥١ ، ٢٧١ أما الاحاديث فقد ذكرت مواضعها من كتب الصحاح الستة : فنسنك : مفتاح كنوز السنة مادة اضاحي •

والانماط والحلل ثم يبعث بها الى الكعبة فيكسوها أياها ، فلما كسيت الكعبة صار يتصدق بها[١] . ومن المحتمل ان الناس أو بعضهم ، كانوا يفعلون ذلك قبل الاسلام أيضا ويظهر انه لم يكن يباح ركوب الهدى من البدن فأمر النبي بركوبها حتى تصل الى المنحر .

كان تقليد البدن وأشعارها يتم عند الاهلال أي عند بداية القيام بالسفر لاجل الحج ، وقد قلد الرسول بدنه وأهل بها من الجعرانة . وكانوا يسيرون بها الى الحج ، وبعد انجاز طقوسه ينحرونها في منى ، وتنحر فيما يظهر قائمة . والاغلب ان المضحي يقوم بذلك بنفسه . ولا ينبغي للحاج أن يحل الا بعد النحر[١] .

والبدنة الواحدة قد تجزي عن عدة الاشخاص . ففي حجة الوداع نحر الرسول مائة بدنة عن الصحابة وعددهم سبعمائة ، اي ان كل بدنة اجزت عن سبعة ، وفي بعض الروايات انها اجزت عن عشرة[٣] .

حلق الشعر :

ومن أهم مظاهر انجاز الحج والاحلال منه هو قص الشعر الذي يتم بعد النحر مباشرة ولا يجوز أن يتم قبله والا فسد الحج[٤] . ولا يقتصر ذلك على الحج الى مكة بل يمتد الى بقية الآلهة ، فكان الاوس

---

(١) الموطأ : ج ١ ص ٢٧١ .

(٢) أنظر عن الاحاديث المتعلقة بها : فنسنك : الفهرس المفصل لالفاظ الحديث النبوي مادة بدن .

(٣) عن الاحاديث الكثيرة المروية في هذا الموضوع راجع : فنسنك مفتاح كنوز السنة مادة اضاحي . حج . والفهرس المفصل مادة حج . بدن . شعائر . حل . حرم . أما عن الاضاحي عند الامم السامية عامة فاوسع بحث هو الذي كتبه روبرتسن سمث في كتابه محاضرات عن دين الساميين .

(٤) راجع عما ورد في الحلق من أحاديث : فنسنك : مفتاح كنوز السنة ، والفهرس المفصل مادة حلق .

يعظمون مناة وكانوا (يحجون فيقفون مع الناس المواقف كلها ولا يحلقون رؤوسهم فاذا نفروا أتوه فحلقوا رؤوسهم عنده وأقاموا لا يرون لحجهم تماماً الا بذلك[١]) • وكانت قضاعة ولخم وجذام يحجون للاقيصر ويحلقون رؤوسهم عنده ، فكان كلما حلق رجل منهم رأسه القى مع كل شعرة قرة من دقيق[٢] •

ويبدو ان للشعر أهمية دينية خاصة عند كافة الساميين لان قصه كان يتم بمراسيم دينية[٣] ، فالطفل عندما يقص شعره تقدم للآلهة بعض الهدايا وتحاط بمراسيم دينية • ولعل سبب ذلك هو ان نمو الشعر دليل على نمو الطفل بنعمة الآلهة التي حرسته ، وان حلق شعر الطفل دليل على نضجه ونموه وتحمله ، أو قرب تحمله ، المسؤولية الدينية ، ومن هنا كان يحاط ببعض الطقوس الدينية ، وتقدم الهدايا للألهة التي أنمته ورعته • ويطلق اسم العقيقة على الهدايا والتقدمات المقدسة عند حلق شعر الطفل[٤] •

رجال الدين :

تتطلب طقوس العبادات اناساً يتدربون عليها ويتفهمون أهدافها وفلسفاتها وشعائرها ويوجهون الناس اليها ويرشدونهم • وقد ذكرت في مكة أعمال دينية كالاجازة والافاضة والحجابة وقد تحدثنا عنها عند البحث عن مكة لانها لم تذكر في مكان آخر من الجزيرة كما ذكر السدنة أيضا • ومع ان وظائف كل هؤلاء متصلة بالدين الا انها لا تستلزم من القائم بها أن يكون عالماً بشؤون الدين أو متبحراً فيه • ومن الغريب اننا في أخبار مكة أو أخبار الدعوة الاسلامية فيها لا نسمع ذكراً لرجال الدين مطلقاً • وليس هناك دليل على ان مقاومي النبي كانوا من رجال الدين •

---

(١) الاصنام : ص ١٦٠ •
(٢) الاصنام : ص ١٤ •
(٣) أنظر سمث : ص ٣٢٣ فما بعد •
(٤) عن الاحاديث النبوية عن العقيقة راجع فنسنك : مفتاح كنوز السنة مادة عقيقة •

والسادن كما يعرفه ابن منظور « هو خادم الكعبة وبيت الاصنام ويروى عن ابي عبيد ان سدانة الكعبة خدمتها وتولي أمرها وفتح بابها واغلاقه والسادن هو الخادم ، ويروى عن ابن بري ان الفرق بين السادن والحاجب ا نالحاجب يحجب واذنه لغيره والسادن يحجب واذنه لنفسه اي ان السادن فوق الحاجب[١] .

وقد ذكر سدنة عدد من الآلهة الجاهلية ، فكان سدنة اللات من بني معتب الثقفين ومنهم مسعود سادن اللات الذي قاد ثقيفاً في حرب الفجار ، وبنو شيبان (من سليم) سدنة العزى ، وبنو لحيان سدنة سواع ، وبنو امامة سدنة الخلصة ، وبنو عامر الاجدار سدنة ود ، وخزاعة بن عبد نهم المزني سادن نهم ، والعوام بن جهيل سادن يغوث[٢] ، والسعيدة وكان سدنتها بنو عجلان[٣] . اما سدانة الكعبة فكانت لبني عبدالدار .

وكثيرا ما يكون السدنة من عشائر غير التي تسكن في الحرم ، فاذا كانت كذلك فتكون أقدم العشائر الاخرى في الغالب . والغالب ان السدانة تكون وراثية ومحصورة بأسرة معينة ، على انها قد تنتزع منها بالقوة أو التهديد كما فعل قصي عندما انتزع سدانة الكعبة وسيادة مكة من خزاعة .

---

(١) لسان العرب : ج ١٧ ص ٦٩ .

(٢) لقد ذكرت سدنة الآلهة السالفة الذكر في كتاب الاصنام ص ٢٢ ، ١٠ ، ٣٥ ، ٥٥ ، ٣٩ على التوالي . كما ورد ذكر سدنة اللات في سيرة ابن هشام ج ١ ص ٨٧ ، وذكر ابن حجر في كتابه : الاصابة في تمييز الصحابة سادن نهم (ج ١ ص ٤٢٩) وسادن يغوث (ج ٣ ص ٤١) .

(٣) ياقوت ج ٣ ص ٩٣ .

ويروي ابن هشام ان عمرو بن قيس اخي بني غنم بن مالك بن النجار وكان صاحب آلهتهم في الجاهلية (السيرة ج ٢ ص ١٥٠) غير اننا لا نعلم بالضبط المقصود بصاحب الآلهة .

الكهان والعرافون :

أما الكهان فهم اشخاص وقعوا تحت تأثير الآلهة وبمقدورهم التنبؤ بالحوادث أو القيام بالاعمال الخارقة ، وقد اتهم النبي بأنه كاهن فرد القرآن على ذلك بعدة آيات ، وقد يكون بعض الكهان من السدنة . ويروي السكري انه لا يكون كاهناً حتى يكون له شيطان تابع له ليوحي اليه[١] . وكانت العرب تستشيرهم وخاصة قبيل الحملات وتتنافر عندهم وتتحاكم اليهم[٢] . وتنسب الى الكهان حكم وتنبوآت مصاغة بجمل قصيرة مسجوعة . وكثيرا ما يكون الكهان من النساء ككاهنة حدس[٣] ، والغيطلة كاهنة بني سهم[٤] ، وكاهنة خثعم فاطمة بنت مر التي مرّ بها عبدالمطلب عندما أراد أن يتزوج ابنه عبدالله أبو الرسول[٥] .

---

(١) المحبر : ص ٣٩٠ .

(٢) راجع ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٥٢ ، الطبري : ج ٢ ص ١٧٥ ، ١٨٠ ، ٢٠٠ ، ٢٠٤ . راجع أيضا مروج الذهب : ج ١ ص ١٦٨ ، ١٧٥ فما بعد .

(٣) الطبري : ج ٣ ص ١١٠ ، ابن هشام ج ٣ ص ٤٣٨ .

(٤) ابن سعد ج ٤ قسم ١ ص ١٦ .

(٥) الطبري : ج ٢ ص ١٧٥ .

والسادن كما يعرفه ابن منظور : هو خادم الكعبة وبيت الأصنام [illegible]

[illegible] ... الذي يأذن لهم ، والعواد بن حبيل سادن بحوث[6] ، والسدنة وكان سادنها بنو [illegible][7] ، وأما سدانة الكعبة فكانت لبني عبد الدار .

وكثيرا ما يكون السدنة من عشائر غير التي تسكن في الحرم ، فإذا كانت كذلك تكون لهذه العشائر الأخرى في الغالب ، والغالب أن السدانة تكون وراثة ومحصورة في أسرة معينة ، على أنها قد تنتزع منها بالقوة أو التهديد كما فعل قصي عندما انتزع سدانة الكعبة ومفاتيحها من خزاعة .

---

(١) لسان العرب ، ج ١٧ ص ٦٦ .

(٢) لقد ذكرت سدنة الآلهة السالفة الذكر في كتاب الأصنام ص [illegible]

[illegible]

القسم الثالث

حياة الرسول

والدعوة الاسلامية في مكة

الفصل الخامس عشر

مصادر دراسة حياة الرسول

ان حياة الرسول واعماله وتطور نشأة الاسلام يمكن بحثها من ثلاثة مصادر رئيسية هي : القرآن ، وكتب الحديث والسنة ، وروايات المؤرخين ومؤلفاتهم •

القـــرآن :

أما القرآن فهو كتاب الله المنزل باللفظ والمعنى على الرسول، واختلاف القراءات فيه قليل نسبياً ومقتصـر على بعض الكلمـات ، فنصـه عموماً مضبوط يقر الجميع بصحته • ولو تجرأ شخص على التلاعب فيه أو تغييره لحل عليه غضب الناس والله جميعاً لان الله تعالى يقول « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » (الحجر ٩) •

لم ينزل القرآن مرة واحدة ، بل نزل منجماً في بحر عشرين سنه • وقد ذكر في آياته بعض الحوادث التي واجهها الرسول والاسلام ونصل في بعضها ، كما انه عرض الافكار الاسلامية وقدم البراهين والحجج والادلة عليهـا ، وكذلك رد على معارضي الاسـلام والكفار والمشركين ومـد آراءهم وحججهم وافكارهم المتباينة والمتنوعة والمختلفة باختلاف الاحوال والظروف والاشخاص • لذا فان القرآن يلقي ضوءا ساطعا على المشاكل التي واجهها الرسول والعقبات التي اعترضته والصعوبات التي واجهته كما يتبين من وجهات نظر المعارضين •

وقد عبر القرآن عن كثير من الازمات التي كـان يلاقيها الرسول والمسلمون واقترح الاجابات والحلول لها وهي أزمات منوعة متبدلة بعضها قوي طويل الأمد وبعضها مؤقت قصير الأجل • ويمكن القول عموما ان تكرر الموضوع الواحد في القرآن دليل على انه لاقى كثيرا من المقاومـة والنقـاش •

فالقرآن هو المصدر الاول لدراسة نشأة الاسلام وعقائده نظراً لاصالته ولما فيه من اشارات وأخبار عن عصر الرسول وما لاقته الدعوة •

غير ان الاستفادة من القرآن في دراسة تاريخ الرسول والدعوة الاسلامية ليست سهلة ، نظراً لانه لم يشمل بالذكر كافة الحوادث التي مر بها الاسلام ، أو كل الاعمال التي قام بها الرسول ، أو كافة من اتصل بهم واحتك فيهم من الاشخاص • والواقع انه لم يرد فيه الا اسم شخصين فقط أحدهما مشرك هو أبو لهب عم النبي والثاني مسلم هو زيد بن حارثة ربيب الرسول • ثم ان كثيرا من الاوضاع والمؤسسات والنظم الجاهلية التي أشار اليها القرآن زالت بعد مجيء الاسلام واندرست ولم يبق لها أثر مما أدى الى اختلاف الشراح والمفسرين في توضيحها حتى انه يصعب علينا اليوم الجزم في صحة واحد من هذه التفاسير أو تفضيله على غيره •

ولعل أكبر صعوبة تصادفنا عند محاولة الاستفادة من القرآن في الدراسة التاريخية لحياة الرسول والاسلام وخاصة في الدور المكي هي معرفة زمن نزول الآيات • ذلك ان العلماء المسلمين الذين بحثوا أسباب النزول اكتفوا بذكر سبب نزول آيات معينة محدودة تشير في الغالب الى احكام أو حوادث أو أشخاص معينين • كما ان الباحثين في الناسخ والمنسوخ درسوا في الغالب تعاقب نزول الآيات الناسخة والمنسوخة خاصة في الاحكام القضائية وهي آيات محدودة العدد نسبياً في القرآن ، أما بقية الآيات فلم يتطرقوا لها رغم أهميتها الكبرى في دراسة تطور الدعوة الاسلامية وما لاقته •

لقد بحث العلماء المسلمون أيضا في تعاقب نزول السور ورووا ترتيبها حسب نزولها وقد اختلفوا في ابحاثهم اختلافات كبيرة[١] ؛ ومع ذلك فان دراستهم غير كافية لان السورة الواحدة لم تنزل مرة واحدة بل كثيرا ما تكون في السورة الواحدة آيات مكية وأخرى مدنية ، أو تكون السورة

---

(١) أنظر رواية ابن عباس في ترتيب نزول السور في السيوطي : الاتقان في علوم القرآن ج١ ص١١ مقدمتان في تاريخ القرآن ص٨ ، ورواية علي بن أبي طالب في مقدمتان ص١٤ ، ورواية الواقدي في : ابن النديم • الفهرست : ص١٨ • أما ترتيب نولدكه وكرمة وكايتاني فانظرها في بيل : مقدمة للقرآن ص١١٠ ــ ١١٤ (بالانكليزية) •

الواحدة مكية خالصة ولكن آياتها نزلت في فترات متباعدة ثم جمعت في سورة واحدة[١] . فالاعتماد على هذه الروايات غير كاف .

وقد حاول بعض المستشرقين دراسة زمن النزول ؛ ولعل أبرزهم ثيودور نولده‌كه في كتابه تاريخ القرآن الذي اتخذ الاسلوب معياراً لمعرفة زمن نزول السور، واعتبر السور الاولى آياتها قصيرة مسجوعة ، أما السور المتأخرة فآياتها طويلة غير مسجوعة في الغالب . ولكن دراسته ناقصة شأن دراسة العلماء المسلمين من حيث ان آيات السورة الواحدة قد تكون نزلت في أوقات متباعدة .

وقد قام المستشرق الانكليزي ريتشارد بيل بدراسة أخرى حيث ترجم القرآن ودرس كل آية وحاول تحديد زمن نزولها من معانيها ومواضيعها واسلوبها . ولا شك ان بحثه طريف وبعض استنتاجاته عن زمن نزول الآيات يثير التفكير . ولكن احكامه ليست نهائية .

ربما كانت هذه الصعوبات من أهم الاسباب التي أدت بمؤرخي السيرة النبوية ألا يستفيدوا من دراسة القرآن الاستفادة الكافية رغم أهميته الكبرى وبذلك خسر الفكر خسارة كبرى . وقد حاول بعض المحدثين وخاصة من المستشرقين أمثال شبر نجر وموير وكايتاني وبوهل معالجة ذلك والاستفادة من القرآن في دراسة حياة الرسول . أما العرب فلا أعلم من حاول ذلك بصورة شاملة الا محمد عزة دروزة في كتابيه عصر الرسول وبيئته ، وسيرة الرسول .

لقد حاولت في بحثي عن الدعوة الاسلامية أن اجمع الآيات التي تدور حول الموضوع الواحد محاولا تعين زمن التأكيد على ذلك الموضوع مستعينا بما رواه المؤرخون عن خطوات الدعوة وما يقتضيه منطق الحوادث في استنتاج سير تطورها ، حيث يبدو ان الدعوة بدأت بالتأكيد على بثها بين قومه بلسان عربي والدعوة الى عباد الله الواحد الأحد والنظر في آياته

---

(١) أنظر في ذلك : السيوطي : الاتقان في علوم القرآن ج١ ص١٢ - ١٨ .

وأعماله ، ثم التأكيد على يوم القيامة والبعث والحساب وقصص الانبياء للعبرة والتوضيح ، ثم عيب آلهة الشرك وعبادها ثم المقاطعة ثم التثبيت . وقد اجلت دراسة الآيات المتعلقة بالطقوس والمواضيع الاخرى الى الجزء الثاني. ومع اعترافي بأن هذه المحاولة أولية الا اني أرجو أن يكون دليلاً منيراً لدراسة الدعوة من الآيات القرآنية .

الاحاديث والسنة :

أما سنة الرسول فهي كل ما قاله الرسول أو عمله أو أقره أو رآه فلم ينكره . ويختلف الحديث عن القرآن من حيث كون القرآن منزلاً من الله لفظاً ومعنى وان الحديث مصدره الرسول . والسنة لم تدون في زمن الرسول ، وهناك روايات بأن الرسول وعمر بن الخطاب نهيا عن محاولة تسجيل سنة الرسول وأحاديثه . وأقدم محاولة رويت لتسجيل أحاديث الرسول كانت في زمن عمر بن عبدالعزيز ، أي في نهاية القرن الاول الهجري(١) .

وأقدم الاحاديث المدونة الباقية هي موطأ مالك وقد وصلنا في عدة روايات أهمها رواية سحنون وفيها ١٧٢٠ حديثاً ورواية محمد بن الحسن الشيباني وفيها ١١٧٩ حديثاً ، غير ان أقوال الرسول وأحاديثه منها لا تزيد عن ٨٢٢ في رواية سحنون و٤٢٩ في رواية الشيباني والباقي أقوال للصحابة والتابعين وآراء لمالك نفسه .

وقد أورد كل من ابي حنيفة وابي يوسف ومحمد بن الحسن الشيباني والشافعي عدداً من الاحاديث فيما ألفوه وقد جمعت أحاديث كل منهم في

---

(١) انظر عن نشأة وتطور علم الحديث : أحمد أمين : فجر الاسلام، ضحى الاسلام ج٢ ، ولجولدزيهر بحث قيم نشره في كتابه « دراسات اسلامية » (بالالمانية) ثم ترجم حديثا الى الفرنسية ، وانظر ايضا « الباعث الحثيث في تدوين الحديث » ص١٤٧ – ٩ ، وعبدالسلام هارون : جمع النصوص ص٩ حيث يشيران الى تدوين الحديث زمن النبي .

مجاميع أو مساند وأكثرها مطبوع ولكن هذه الاحاديث هي قليلة نسبياً ولا تشمل كل أقوال الرسول وأعماله .

وجدير بالملاحظة ان هؤلاء المؤلفين هم فقهاء تناولت أبحاثهم المشاكل الفقهية بالدرجة الاولى ، كما ان كثيرا منهم لم تشمل أبحاثهم تفاصيل مختلف القضايا الفقهية . لذا يمكن القول بأن الاحاديث المروية عنهم تؤكد على ما يتصل بالفقه وانها أوردت لتخدم هذا العلم فهي ليست خالصة لأحاديث الرسول ولا يرد فيها كافة ما يعرف عن حياة الرسول .

ان مركز الرسول العظيم كقدوة للمسلمين في حياتهم كما قال تعالى « لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة » (الاحزاب ٢١) وتزايد اهمية السنة في التشريع دفعت الناس من غير الفقهاء الى الاهتمام بأحاديث الرسول ودراستها كما أدت الى اختلاق كثير من الاحاديث ونسبتها الى الرسول . وقد أدى كل هذا الى انفصال الحديث تدريجياً عن الفقه والى اهتمام العلماء ، وخاصة منذ القرن الثاني الهجري ، في تدقيق الاحاديث وغربلتها وتنقيتها من العناصر الغريبة والمختلقات والاكاذيب . ومع ان هؤلاء العلماء بذلوا جهداً عظيما رائعاً ، الا ان اهتمامهم كان منصباً بالدرجة الاولى على النقد الظاهري دون الباطني ، أي على الرواة ورجال السند دون نصوص الحديث . ومع ان هذه المحاولات أدت الى غربلة كثير من الاحاديث الا انها لم تؤد الى تنقيته التامة فظلت كثير من الاحاديث مثار نقاش حول مدى صحتها ودقتها .

ومن أهم نتائج توسع الاحاديث وانفصالها عن الفقه وغربلتها ، ان ظهرت مجموعات من كتب الحديث الصرفة وأهمها عند السنة ستة هي صحيح البخاري وصحيح مسلم وسنن الترمذي وسنن ابن ماجة وسنن ابي داود (يضاف اليها موطأ مالك) . ولصحيح البخاري وصحيح مسلم مكانة خاصة نظراً لشدة تدقيق صاحبهما وقلة الشوائب فيهما بالنسبة للباقية .

تبحث هذه الكتب عن سيرة الرسول وأعماله وما أقره من أحكام في

مختلف نواحي الحياة السياسية والمالية والادارية فضلا عن أحكام الدين والطقوس والعبادات • ومروياتهم عن حياة الرسول وأعمـاله السياسية والادارية ذات أهمية الا انها قليلة نسبياً ، رغم انها جوهر التاريخ ، ثم ان الاحاديث المتعلقة بحياة الرسول لا تختلف كثيراً عما أورده المؤرخون الاولون • ومن الملاحظ ان اصحاب كتب الصحاح لم يتحرروا تماماً من تأثير الفقهاء الذي يتجلى في زيادة اهتمامهم بالمشاكل الفقهية وترتيب كتبهم على نمطها •

ثم ان كتب الحديث تورد نص الحديث وسنده ولا تفسره أو تحلله، فهي مجموعـة نصوص فحسب ولابد من تحليلهـا وايجاد الصلة بينهـا وتفسيرها واستخدامها لاعطاء صورة للاوضـاع التاريخية • نظـراً لأن محاولات الاقدمين في دراسة هذه الاحاديث اقتصرت على شرح كل حديث دون محاولة تحليله أو ربطه مع غيره وبذلك كانت محاولاتهم مفككـة لا تكون وحدها تاريخاً متصلاً •

ويلاحظ أيضا ان هذه الاحاديث غير مرتبة ترتيباً زمنياً وقلما يشـار الى زمن نزولها ، مما يخلق صعوبة كبرى لدارس التاريخ الذي يقوم بحثه على أساس ترتيب الحوادث ترتيباً زمنياً •

ان هذه المصاعب من أهم العوامل التي جعلت كثيراً من دارسي حياة الرسول يتحاشون قراءتها ولا يستفيدون منها بمهارة أو كفاية ، رغم أهمية ما فيها من معلومات • وبذلك كانت محاولاتهم واضحة النقص •

المؤرخـون[1] :

أما المؤلفات التاريخية عن حياة الرسول ، وتسمى عادة كتب السيرة ، وهي مشتقة من السير في الحياة ، فقد بدأ الاهتمام بتدوينها بعد منتصف

---

(١) هذا البحث عن مؤلفي السيرة هو ملخص لمقال « ديللافيدا » =

القرن الأول الهجري أي بعد وفاة الرسول بخمسين سنة وأكثر ، وساهم في تدوينها العرب والموالي ، وكانت في البداية بسيطة تتناول بعض نواحي حياة الرسول واعماله ، وهي متأثرة بالفقه والادارة اذ تهتم بقوائم أسماء المسلمين الاوائل ، أو المشتركين بالغزوات الاولى ، كما تتطرق الى أحكام الرسول وقضاياه ؛ أما اسلوبها فبسيط واضح أقرب الى الاسلوب القصصي وتروي خلال سردها الحوادث بعض القصائد والاشعار ، وهي بصورة عامة مفككة غير مترابطة ولا تعير الاسناد أهمية كبرى •

ابان بن عثمان :

وأول من رويت عنه أخبار السيرة هو ابان بن الخليفة عثمان بن عفان ، وقد ولد حوالي سنة ٢٠هـ وعين في زمن عبدالملك بن مروان والياً على المدينة حيث ظل في هذا المنصب سبع سنوات كان يتولى خلالها امارة الحج كل سنة تقريبا ، وكانت له صلات طيبة بكبار الصحابة والتابعين ، وتوفي في خلافة الوليد على ما يروي البخاري أو في زمن يزيد الثاني على ما يروي ابن سعد • وقد رويت عنه بعض الاحاديث مما يدل على مكانته الطيبة عند المحدثين •

وكان يميل الى الدعابة والفكاهة وله تذوق للشعر • وقد روى عنه الطبري في تاريخه وتفسيره ، كما روى عنه مالك في الموطأ ، وابن سعد في الطبقات• ولكن ابن اسحق والواقدي لم يرويا عنه •

عروة بن الزبير :

ويتلو ابان في الترتيب الزمني عروة بن الزبير بن العوام الذي ولد حوالي سنة ٢٣هـ وتوفى سنة ٩٤ وقضي حياته في المدينة محباً للعلم ومهتماً

= عن السيرة في دائرة المعارف الاسلامية ، ولمقال يوسف هورفتز عن « مؤرخي السيرة الاولى » الذي نشره بالانكليزية في مجلة الثقافة الاسلامية سنة ١٩٢٦ ولخصه أحمد أمين في الجزء الثاني من « ضحى الاسلام » ، كما ترجمه حسين نصار الى العربية بعنوان « المغازي الاولى ومؤرخوها » ، ثم ضمنه في كتابه « نشأة الكتابة الفنية في الاسلام » بعد أن أضاف اليها بعض المعلومات •

به وكان له أصحاب يجلسون في حلقة بمسجد المدينة يتداولون الاخبار منهم عبدالملك بن مروان قبل تسنمه منصب الخلافة •

لم يندفع عروة في شؤون السياسة أو يساهم فيها مساهمة فعالة كما فعل أخواه عبدالله ومصعب ، لذا احتفظ بمكانته الطيبة عند الامويين وقد قضى في مصر سبع سنوات كما زار الشام في عهد عبدالملك والوليد • وكان من فقهاء المدينة السبعة المشهورين ، وله شهرة بمعرفة الحديث •

لقد دون عروة معلوماته عن تاريخ الرسـول بشكل أجوبة لأسئلة وجهها اليه عبدالملك وابن أبي هيندة كاتب الوليد • وهذه الأجوبة تتعلق بالهجرة الى الحبشة وهجرة الرسول الى المدينة وبغزوة بـدر وفتح مكة ووفاة خديجة وزواج الرسول باخت الاشعث بن قيس • وهو يحلي كتاباته بمقتطفات من الشعر ولا يهتم كثيراً بذكر رجال السند •

شرحبيل بن سعد ووهب بن منبه :

والاسم الثالث في تاريخ سيرة الرسول هو شرحبيل بن سعد مولى بني خطمة ، وقد ولد في أواخر عهد عمر أو أوائل عهد عثمان وتوفي سنة ١٢٣هـ بعد أن ناهز المائة • ويقول عنه سفيان بن عينة انه لم يكن أحد أعلم بمغازي البدريين منه ، ولكنه كان متهماً في أمانته لذا لم يرو عنه ابن اسحق والواقدي أما ابن سعد فقد روى عنه حديثاً واحداً •

والاسم الرابع هو وهب بن منبه الذي اشتهر بكتاباته عن الشعوب والامم القديمة ولكنه كتب أيضاً في سيرة الرسول ، وقد حفظت من كتاباته قطع تتعلق باجتماع دار الندوة والهجرة وغزوة بني خيثمة •

ابن حزم وعاصم :

ويتلو هؤلاء حسب الترتيب الزمني عبدالله بن أبي بكر بن عمر بن حزم وكان جده والياً للرسول على نجران وأبوه قاضياً في المدينة ثم والياً عليها زمن سليمان بن عبدالله وعمـر بن عبدالعزيز • أما عبدالله بن أبي بكر فلم يتولى منصباً رسمياً بل اهتم بالحديث وبالمغازي وبشباب الرسول

والأعوام الاولى من حياته وبوفود القبائل الى الرسول ، كما روى أخباراً عن ردة القبائل العربية وعن أواخر أيام عثمان وقد روى أيضاً كتب الرسول الى بعض أهل اليمن والى عمرو بن حزم . لقد استمد ابن حزم كثيرا من معلوماته من خالته عمرة وهو لا يهتم بالسند وقلما يورده ولكنه يورد الشعر في مغازيه .

أما عاصم بن عمر بن قتادة الظفري الانصاري فهو لم يتول منصباً رسمياً ولكنه زار بلاط الامويين بضع مرات يستمد منهم بعض المعونة المالية . وقد حدث أهل دمشق عن المغازي في زمن عمر بن عبدالعزيز واهتم بتفاصيل أخبار شباب النبي والفترة المكية عامة . وهو أكثر اهتماماً بالأسانيد وذكراً لها من عبدالله بن حزم، ويروي في أخباره الاشعار ويبدي أحيانا آراه الخاصة .

الزهري وتلامذته :

ومن أبرز مؤرخي السيرة محمد بن مسلم الزهري الذي ولد حوالي سنة ٥٠هـ وهو قرشي من قبيلة زهرة ؛ كان جده قد جرح الرسول في غزوة احد أما ابوه فكان ممالئاً لابن الزبير ، ولكن صاحبنا كان ذا علاقة طيبة بالامويين فقد وفد على عبدالملك واستوطن دمشق فترة من الزمن واجرى عليه الامويون راتباً معيناً ثم ساءت علاقته معهم فعاد الى الحجاز .

لقد كتب الزهري عن مواضيع كثيرة فتناول أسنان الخلفاء أي أعمارهم ، كما تناول حياة الرسول كما يتجلى ذلك من اقتباس الطبري وابن سعد منه . وهو يميل الى جمع أسماء رواة الخبر الواحد وتوحيدهم ثم رواية الخبر فهو لا يدقق بالاسناد ويدخل الشعر فيما يروي .

لقد كان للزهري عدة تلاميذ بارزون كلهم من الموالي أبرزهم موسى ابن عقبة الذي ولد حوالي سنة ٥٠هـ وكان مولى للزبيريين فلم يتول أي منصب لدى الامويين ولم يصلنا من كتاباته الا قطع ، وقد شمل بحثه المغازي والهجرة وروى خاصة عن الزهري كما اقتبس منه كثيراً ابن سعد وخاصة في المجلدين الثالث والرابع من الطبقات ، ويظهر من هذه الاقتباسات ان كتابه

كان يحوي على قوائم المهاجرين الى الحبشة والمشتركين في بيعة العقبة والمقاتلين في بدر وقد اهتم بتاريخ الراشدين والامويين وأعار السند أهمية كما استشهد بالشعر قليلا واعتمد عليه الواقدي والطبري .

أما معمر بن راشد فهو مولى الحدان وقد ولد ونشأ في البصرة حوالي سنة ٩٦هـ ثم رحل الى اليمن واستقر فيها . وهو محدث ، وقد ذكر له ابن النديم كتاب المغازي الذي لم تصلنا منه الا فقرات رواها الواقدي وابن سعد والبلاذري والطبري واكثر رواياته عن الزهري . وقد روى كثيرا عن تاريخ أهل الكتاب والرسل الأولين . وروى عنه ابن سعد اخباراً عن عهد عثمان ومعاوية .

ابن اسحق :

يحتل ابن اسحق مكانة خاصة بين مؤرخي السيرة نظراً لأن معظم ما كتبه عنها وصلنا عن طريق ابن هشام والطبري ، وهي تمثل اوسع ما كتب حتى ذلك الوقت . وكان تاريخ السيرة عنده يمثل جزءاً من تاريخ العالم واستمرارا له ، كما انه اعتمد على أهل الكتاب ولم يقتصر على رجال السند بل اهتم بالشعر ايضا فكانت طريقته مزيجاً بين طريقة المحدثين ورواة أيام العرب .

لقد كان ابن اسحق مولى تحدر من يسار الذي كان من أسرى عين التمر الذين جاء بهم خالد بن الوليد من العراق الى المدينة . وقد ولد محمد حفيده سنة ٨٥هـ واهتم بالحديث فروى عن أبيه ثم اتصل بعدد من العلماء امثال عاصم بن عمر وعبدالله بن أبي بكر والزهري . ثم ذهب سنة ١١٥هـ الى الاسكندرية حيث سمع من يزيد بن أبي حبيب ثم زار المدينة وقابل سفيان بن عيينة . ولكن خاصمه هشام بن عروة ومالك أنس فرحل الى الكوفة والجزيرة والري وبغداد . ولم يتصل بالامويين كما انه لم يتأثر بالعباسيين . والواقع انه ذكر العباس بن عبدالمطلب ، وهو جد العباسيين ، بين أسرى بدر .

الف ابن اسحق كتابه في السيرة وهو يتكون من ثلاثة أقسام المبتدأ والمبعث والمغازي . لم يصلنا هذا الكتاب مباشرة بل وصلنا برواية ابن

هشام ، وفي هذه الرواية بعض التحوير للكتاب حيث ترك تاريخ أهل الكتاب من آدم الى ابراهيم ، كما انه لم يذكر من سلالة اسماعيل غير اجداد النبي المباشرين ، كما حذف ما لا علاقة له بالرسول وأنكر بعض مما رواه ابن اسحق من الشعر أو ما يؤذي الناس ذكره ، كما أضاف اليه كثيرا من الاضافات في الانساب واللغة وقد أشار الى اضافاته ومحذوفاته ، كما ان الطبري في التاريخ وفي التفسير حفظ كثيرا مما حذفه ابن هشام من الانباء ، وحفظ الازرقي كثيرا مما حذفه ابن هشام عن مكة •

يمكن تقسيم المبتدأ الى أربعة أقسام أولها يمتد من الخليقة الى المسيح، وقد عني فيه بروايات وهب بن منبه وابن عباس واخبار اليهود والنصارى ونصوص الكتاب المقدس والعرب البائدة التي ورد ذكرها في القرآن خاصة • والقسم الثاني من المبتدأ يشمل تاريخ اليمن وقصة اصحاب الاخدود وأصحاب الفيل • والقسم الثالث القبائل العربية والاصنام التي تعبدها • أما القسم الرابع فيبحث عن أجداد النبي والديانة المكية• والاسناد في المبتدأ نادر • والقسم الثاني من الكتاب هو حياة الرسول في مكة والهجرة • ويهتم ابن اسحق في هذا القسم برواية الاسناد وبذكر قوائم أسماء المسلمين الأولين والمهاجرين وأول المؤمنين من الانصار والمشتركين ببعتي العقبة والمؤاخاة وبوثيقة النبي في المدينة •

والقسم الثالث هو المغازي ويهتم فيه بذكر الاسناد ويعتمد على الزهري وعاصم بن عمر وعبدالله بن أبي بكر ويورد قوائم أسماء المشتركين في بدر والقتلى والاسرى فيها وفي أحد والخندق وخيبر ومؤتة والطائف والمهاجرين من الحبشة •

لابن اسحق عدة تلامذة أشهرهم البكائي الذي روى عنه ابن هشام، وسلمة بن الفضل الذي روى عنه الطبري[1] •

---

(١) أنظر عن سيرة ابن اسحق ورواتها المقدمة التي كتبها الفردجيوم لترجمة سيرة ابن هشام الى الانكليزية • وانظر عن رأي العلماء في ابن اسحق : ابن سيد الناس « عيون الاثر » •

الواقـدي :

الواقدي وابن اسحاق هما الوحيدان اللذان سلمت مؤلفاتهما من الضياع • والواقدي ، واسمه محمد بن عمر ، مولى للاسلميين • ولد في المدينة سنة ١٣٠هـ وسمع أشهر رجال الحديث في المدينة وكان عالماً بالآثار فصار مرشداً للرشيد في حجه وكان ذلك سبب اتصاله بالبرامكة وبالخليفة العباسي • وقد ولاه الرشيد والمأمون القضاء • وقد الف كثيرا من الكتب في الفقه والتاريخ الجاهلي لمكة والمدينة وطفولة النبي وحياته وأزواجه ووفاته وعن الاوس والخزرج وابي بكر والجمل وصفين والحسن والحسين وفتوح الشام والعراق وضرب الدنانير ومراعي قريش وعن الطبقات وتاريخ الفقهاء •

معظم اساتذة الواقدي من أهل المدينة كالزهري ومعمر وابي معشر وموسى بن عقبة • وقد اهتم بالغزوات وهو يتبع نمطاً خاصاً في ذلك، فيذكر سنة خروج الرسول ورجوعه ثم اخبار الغزوة ثم نائب الرسول في المدينة ثم يروي بعض الاشعار • وهو يحدد التواريخ ويبدي أحيانا آراءه الخاصة في الحوادث • ويظهر تحيزه للعباسيين من حذفه اسم جدهم العباس من قائمة اسرى بدر •

ابن سـعد :

ولد محمد بن سعد في البصرة سنة ١٦٨هـ وعاش مدة من الزمن في المدينة وكتب في السيرة والطبقات كتابين رواهما تلامذته من بعده حتى استقرت نهائياً على يد الحسن بن فهم (٢١١ - ٢٨٩هـ) •

لقد بحث ابن سعد في الجزء الاول من كتابه عن الرسول ، فبدأ باجداد النبي وطفولته والدعوة حتى الهجرة ، كما بحث في القسم الثاني من ذلك الجزء عن العهد المدني وعن أوامر النبي ووفود العرب •

وبحث في الجزء الثاني عن عادات الرسول واخلاقه وسفاراته وعن علامات النبوة • ولا ريب ان له عن التاريخ نظرة أوفي نظراً لاهتمامه

بالنواحي الادارية والاجتماعية والاقتصـادية ، دون الاقتصار على النواحي السياسية والحروب .

يعتمد ابن سعد في بحث أجداد الرسول على أهل الكتاب وعلى ابن الكلبي ، أما عن حياة الرسول فيعتمد على الواقدي بالدرجة الاولى ولكنه يضيف اليه معلومات عن ابن اسحاق وابي معشر وموسى بن عقبة . وهو يهتم برجال السند ويروي بعض الشعر .

مؤلفون آخرون ، رواية ابن النديم :

ذكر ابن النديم عدداً من المؤلفين عن الرسول وأورد اسماء كتبهم ولعل أهمهم علي بن محمد المدائني الذي الف عدداً من الكتب في امهات النبي وصفته وأخبار المنافقين وتسمية المنافقين ومن نزل القرآن فيـه منهم ومن غيرهم وفي الذين يؤذون النبي وتسـمية المستهزئين الذين جعلـوا القرآن عضين وفي رسائل النبي وكتب النبي الى الملوك واقطاع النبي وصلح النبي وآيات النبي وخطب النبي وعهود النبي والمغازي والسرايا والوفود ودعاء النبي وخبر الافك وأزواج النبي وعماله على الصدقات وما نهى عنه وأمواله وكتابه ومن كان يفد عليه بالصدقة والخاتم والرسل وخطبه[١] .

ويتبين من هذه القائمة مـدى اهتمام المدائني بالنواحي الاجتمـاعية والادارية غير انه من سوء الحظ لم تحفظ هذه الكتب ولم يشر اليهـا المؤلفون الذين تطرقوا الى هذه المواضيع ولم تدرس بعد أسباب ذلك .

وقد ذكر ابن النديم ايضاً اسماء عدد من المؤلفات عن حياة الرسول منها : (١) كتاب المغازي لنجيح المدني (٢) كتاب صفة النبي لابي البختري (٣) كتاب المغازي للوليد بن مسلم (٤) كتاب مغازي النبي وسراياه وذكر أزواجه لأحمد بن الحارث الخزاز (٥) كتاب المغازي لاسماعيل بن اسحق القاضي (٦) كتاب المغازي لعبدالملك بن عمرو بن حزم (٧) كتاب المغازي

---

(١) الفهرست : ص١٤٧ - ٨ .

لابراهيم الحربي (٨) كتاب المغازي لعبدالرزاق الصنعاني (٩) كتاب الوفود للهيثم بن عدي (١٠) كتاب مزاح النبي للزبير بن بكار (١١) كتاب المبدأ والمبعث والمغازي والوفاة والسقيفة والردة لأبان بن عثمان بن يحيى بن زكرى اللؤلؤي الاحمر البجلي[١] .

رواية ياقوت :

وقد ذكر ياقوت الحموي كتباً أخرى عن حياة الرسول هي (١) كتاب تفسير أسماء النبي وكتاب سيرة النبي لأحمد بن فارس اللغوي (٢) كتاب مغازي النبي وكتاب بنات النبي وأزواجه لاحمد بن عبدالله الرقي (٣) كتاب اخبار النبي ومغازيه وسراياه لاسماعيل بن مجمع الاخباري (٤) كتاب المغازي لعلي بن ابراهيم القمي[٢] .

رواية السخاوي :

ويروي السخاوي ان ممن الف في السيرة ابن حيان وابن فارس وابن حزم وأبو أحمد الدمياطي وعبدالغني النابلسي والقطب الحلبي وأبو عبدالله الذهبي وأبو الفتح ابن سيد الناس الذي الف عيون الأثر وكتب عليه البرهان الحلبي تعليقاً في مجلدين سماه نور النبراس وللعلاء علي بن محمد ابن ابراهيم البغدادي ايضاً وكذلك الظهير علي بن محمود الكازروني ثم البغدادي والمحب الطبري والقاضي عزالدين بن جماعة والشمس البرمادي وكذلك للعلاء علي بن عثمان التركماني الحنفي وأبي امامة بن النقاش والشمس بن ناصر الدين والمقريزي (وقد طبع الجزء الاول من كتابه

---

(١) لقد ذكرت هذه الكتب في الفهرست في الصفحات التالية بالتتابع : (١) ص١٣٦ (٢) ص١٤٧ (٣) ص١٥٩ ، ٣١٨ (٤) ص١٥٣ (٥) ص٢٨٢ (٦) ص٣١٦ (٧) ص٣٣٣ (٨) ص٣١٨ (٩) ص١٤٥ (١٠) ص١٦١ .

(٢) لقد ذكرت هذه الكتب في معجم الادباء في الصفحات التالية بالتتابع : (١) ج٤ ص٨٤ (٢) ج٤ ص١٣٥ (٣) ج٧ ص٤٥ (٤) ج١٢ ص٢١٥ .

الامتاع) وابن درباس الماراني وكتابه الفوائد المنيرة في جوامع السيرة والابشيطي . كما وابن المرحل والجماعيلي الحنبلي .

وقد ذكر السخاوي أيضاً أسماء عدد ممن نظموا السيرة أو ألفوا في دلائل النبوة والشمائل النبوية والاخلاق النبوية والهدى[1] .

رواية حاجي خليفة :

وقد روى حاجي خليفة أسماء عدد من الكتب المؤلفة في شرح سيرة ابن هشام منها الروض الآنف للسهيلي (المتوفي سنة ٥٨١) وكشف اللثام في شرح سيرة ابن هشام لبدر الدين محمود بن أحمد العيني الحنفي (المتوفي سنة ٨٥٥) كما نظمها كل من ابي نصر الخضراوي القصري (المتوفي سنة ٦٦٣) وعبدالعزيز الديريني (المتوفي سنة ٦٩٧) وابي اسحق الانصاري التلمساني وفتح الدين ابن الدمياطي (المتوفي سنة ٧٠٥) والكازروني (المتوفي سنة ٦٩٤) والشاهي الذي يقول عنه ان كتابه أوسع كتب السيرة ؛ كما ذكر من مؤلفي السيرة الحافظ مغلطاي ولخصها ابن قطلوبغا والحافظ عبدالمؤمن الدمياطي (المتوفي سنة ٧٠٥) والخلاطي وابن أبي طي (المتوفي سنة ٦٣٠) وابن جماعة الكناني (المتوفي سنة ٧٦٦)[2] .

ومنذ القرن الثالث بدأت تظهر المدونات التاريخية التي يشمل بحثها التاريخ العام وإن كانت تعطي بعض التفصيل ولعل أهم هذه المدونات الاولى لمحمد بن جرير الطبري الذي يحتل مكانة خاصة نظراً لانه أورد في كتابه مقتطفات من معظم المؤلفين القدماء الذين أوردنا أسماءهم في صدر هذا الفصل ، ووضعها بحسب ترتيبها الزمني مع بعضها بحيث يمكن مقارنتها . وقد اعتمد على الطبري معظم المؤلفين المتأخرين أمثال ابن الاثير وابن كثير وابن خلدون والذهبي .

---

(١) الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ص٨٧ - ٩٢ .
(٢) كشف الظنون : ج١ ص١٠١٢ - ١٠١٣ .

كتب البلدان :

وفي الكتب الجغرافية بعض المعلومات عن الاماكن التي لها علاقة بالسيرة وكثيراً ما تورد أخباراً هامة عن حياة الرسول وأعماله وأهم هذه الكتب هي كتاب مكة وأخبارها وجبالها وأوديتها للازرقي، ومكة وأخبارها في الجاهلية والاسلام للفاكهي ، وكلاهما مطبوعان ، وهناك كتب أشار اليها ابن النديم ولكنها مفقودة ألفها كل من أبي عبيدة والواقدي والمدائني وابن شبه وابن مخراق والبلخي وأبي اسحق العطار • كما ألف عن المدينة عدد من الكتاب منهم الزبير بن بكار وابن شبه والمدائني وابن زباله وعبيدالله ابن أبي سعيد الوراق[1] • ولكن لم يطبع إلا كتاب وفاء الوفا في أخبار دار المصطفى الذي أورد فيه مؤلفه السمهودي معلومات واسعة قيمة مستمدة من المؤلفين الاول عن المركز الثاني للرسول •

إن أغلب الكتب التاريخية التي أوردنا أسماءها مفقود أو غير مطبوع، وهي تعتمد على كتاب سيرة ابن هشام ، وتاريخ الطبري ، وطبقات ابن سعد التي شملت كتب المؤرخين الاول ؛ وهي ولا شك أقل تفصيلا من المؤلفات المتأخرة ، ولكن يمكن القول بأنها أدق نظراً لقدمها •

ابحاث المستشرقين :

وقد تناول المستشرقون الغربيون حياة الرسول فيما تناولوا من الابحاث عن التاريخ الاسلامي • ولا شك ان التعصب والتحامل كانا يطغيان على كتابات المستشرقين القدامى • نظراً لتأثرهم بروح التعصب الديني الذي كان مسيطراً ومتبلوراً منذ العصور الوسطى ، ونظراً لضعف معرفتهم باللغة العربية وقلة المصادر المتوفرة لديهم • غير انه لم يخل

---

(١) لقد ذكرت هذه الكتب في الفهرست في الصفحات التالية بالتتابع : ٨٠ ، ١٤٤ ، ١٦٣ ، ١٥١ ، ١٦٥ ، ١٩٩ ، ١٥٩ ، ١٦٣ ، ١٥١ ، ١٥٨ ، ١٦٨ •

الغـرب منـذ أوائل العصـور الحديثـة من مفكرين معتدلين ، امتدحوا الاسلام[1] .

ولكن منذ القرن التاسع عشر بدأ الاهتمام بدراسة المخطوطات العربية وطبعها ؛ وأخذ المستشرقون يدرسون تاريخ الشرق لذاته ، متبعين الطريقة العلمية التي كانت قد قطعت شوطاً كبيراً في التقدم في الغرب ، كما ان كثيراً منهم كانت لهم عن التاريخ نظرة جديدة ، فاهتموا بدراسة نواح من حياة الرسول لم يهتم لها المشارقة. ومع ان فريقاً منهم لم يتقن كل ذلك ؛ الا ان عدداً غير قليل كان يتميز بسعة الاطلاع وبعد النظر وعمق التفكير مما ساعدهم على انتاج مباحث تستثير التفكير والتقدير ، رغم انه لا يمكن القول بأن احكامهم نهائية . ولعل من أبرز هؤلاء الذين كتبوا عن حياة الرسول في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشـرين هم وليم موير ، وشبرنجر ، وجرمة وكايتاني الذي اتبع طريقة الحوليات فكان يورد كافة [illegible] من المستشرقين ، ثم يحللها ويستخلص منها ما يراه . وبذلك كان كتابه من أوسع الكتب وأشملها ، وإن لم تكن تفاصيل أبحاثه نهائية أو متفقاً عليهـا .

وقد ظهر بعد الحرب العالمية الاولى عدد من الابحاث عن الرسـول وحياته تتميز بالاعتدال وبحسن التقدير للنواحي الروحية بالاستفادة من القرآن؛ ومن أهمها ابحاث بوهل التي لخصها في مقاله عن الرسول والقرآن في دائرة المعارف الاسلامية ، وتور اندريه في كتابه (محمد : الرجل وايمانه) والذي يعتبر من أرزن ما كتبه المستشرقون ، وكذلك بيل الذي تناول في كتابه مقدمة للقرآن ، تطور كثير من الافكـار الاسلامية كمـا تتجلى من القرآن . أخيراً مونتجمري وات الذي لخص في كتابه (محمد في مكة) كثيراً من مباحث المستشـرقين مع اضافات قيمة . وقد استفدنا من هـذه الكتب الاخيرة فائدة كبرى .

(١) أنظر عنهم تور اندريه (محمد ص٢٤٣ ـ ٢٤٧) (بالانكليزية) .

الابحاث الحديثة :

أما في الشرق ، فقد بدأ الاهتمام بدراسة السيرة النبوية وأعمال الرسول كجزء من النهضة الفكرية الحديثة . ولعل أبرز هؤلاء الكتاب المحدثين هو محمد حسين هيكل الذي بدأ بترجمة كتب (محمد) لدر منجهيم باسلوب طلي جذاب ، ونشر هذه الترجمة بالتتابع في الملحق الادبي لجريدة السياسة ؛ فلما رأى اقبال الناس عليها تصرف كثيرا في الترجمة ، ثم طبعها بكتاب لاقى اقبالا هائلا لما في اسلوبه من سلاسة ، ولما في بعض ابحاثه من محاولة للتفكير . وقد أثار هذا النجاح الحماس في عدد من المؤلفين ، أمثال طه حسين والعقاد والغمراوي في الكتابة عن حياة الرسول .

كما ان الحركات الانتعاشية في العالم الاسلامي دفعت بعض الباحثين الى دراسة أعمال الرسول باعتبارها المثل الاعلى الذي نستمد منه القبس ، ومع تنوع مواضيعهم وطرافة عرضهم ، الا ان أغلب ابحاثهم هي من نوع الدفاع لا الوصف ، وهي قلما تشذ عما أورده القدامى[1] . والمهم انها لم تفد افادة كافية من دراسة القرآن الكريم ؛ ما عدا محمد عزة دروزة الذي اتخذ القرآن مصدرا أساسيا لدراسة عصر الرسول وحياته ، واستخدمه بمهارة كأساس تكمله الروايات ؛ فطلع بنتائج طريفة جديرة بالدراسة .

ان محاولتي هنا هي في دراسة القرآن كمصدر أساسي ، ثم عرض بعض ما أراه من آراء المستشرقين والمحدثين ، واستخلاص صورة لتطور حياة الرسول والعقائد الاسلامية في العهد المكي . أما العهد المدني فسنبحثه في الجزء الثاني .

---

(١) انظر من ذلك الفصل الذي كتبه محمد توفيق حسين في مجلة الابحاث ج٢ مجلد ١٢ سنة ١٩٥٩ .

الفصل السادس عشر

أجداد الرسول وحياته قبل البعثة

قصـــي :

ولد الرسول ونشأ في مكة ، متحدرا من أعرق عشائرها نسبا ، وأوسطها مكانا . ولقصي مكانة خاصة بين أجداد الرسول ، فهو الذي استطاع أن ينتزع ادارة مكة من خزاعة ويجعلها لقريش التي توحدت بعد أن كانت متفرقة في كنانة . وتروي المصادر العربية أنه نشأ وشب عند اخواله بني قضاعة[١] ، ثم جاء مكة وتزوج من حبى بنت حليل الخزاعي الذي كان سيد مكة ، وقد تمكن بذلك وبمساعدة قضاعة من انتزاع سيادة مكة من أيدي خزاعة[٢] (فولي قصي البيت وامر مكة وجمع قومه من منازلهم الى مكة وقريش اذ ذاك حلول وصرم وبيوتات متفرقون في قومهم من بني كنانة ، الا أنه قد أقر للعرب ما كانوا عليه وذلك انه كان يراه دينا في نفسه لا ينبغي تغييره فأقر آل صفوان وعدوان والنساة ومرة بن عوف على ما كانوا عليه حتى جاء الاسلام فهدم الله به ذلك كله فكان قصي أول بني كعب بن لؤي اصاب ملكا أطاع له به قومه فكانت اليه الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء فحاز شرف مكة كله ، وقطع مكة رباعا بين قومه فانزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة التي أصبحوا عليها ، ويزعم الناس ان قريشا هابوا قطع شجر الحرم في منازلهم فقطعها قصي بيده وأعوانه ؛ فسمته قريش مجمعا لما جمع من أمرها وتيمنت بأمره فما تنكح امرأة ولا يتزوج رجل من قريش ، وما يتشاورون في أمر نزل بهم ، ولا يعقدون لواء لحرب قوم من غيرهم الا في داره ، يعقده لهم بعض

---

(١) الطبري : ج ٢ ص ١٨١ ـ ١٨٢ . الازرقي : ج ١ ص ٥٧ ـ ٥٨ . ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٣٦ ـ ٧ .

(٢) الطبري : ج ٢ ص ١٨٢ . ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٣٢ . المسعودي مروج الذهب : ج ٢ ص ٥٨ . ويقول ابن قتيبة ان البيزنطيين ساعدوه (المعارف ص ٣١٣) ولعله يقصد بذلك الغساسنة .

ولده ، وما تدرع جارية اذا بلغت أن تدرع من قريش الا في داره ، يشق عليها فيها درعها ثم تدرعه ثم ينطلق بها الى أهلها . فكان أمره في قومه من قريش في حياته ومن بعد موته كالدين المتبع لا يعمل بغيره . واتخذ دار الندوة وجعل بابها الى مسجد الكعبة ففيها كانت قريش تقضي أمورها[١]) .

ويتبين من هـذا النص ان قصيا أهتم بالامور الادارية والاجتماعية فحاول اعادة تنظيمها بشكل أدى الى تركيز كافة السلطات بيده ، وكانت له من قوة الشخصية ما جعل الناس تذعن له ، أما الشؤون الدينية فقد تركها بيد من كان يتولاها قبله فلم يمس منها ، الا ما رواه الازرقي من انه نقل اسافاً ونائلة من الصـفا والمروة ووضعهما على بئر زمزم عـند الكعبة[٢] .

وقد أحدث قصي أيضا وقود النار بالمزدلفة ، وظلت تلك النار توقد تلك الليلة في الجاهلية وفي الاسلام[٣] .

لقد أورث قصي ابنه عبدالدار سلطاته فأعطاه دار الندوة كما اعطـاه الحجابة واللواء والسقاية والرفادة[٤] .

ثم أورث عبدالدار هذه الامور من بعده ابنه عبد مناف ثم صارت من هذا الى عامر بن عبد مناف بن عبدالدار .

---

(١) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ١٣٧ . الطبري : ج ٢ ص ١٨٤ (عن ابن اسحق) . ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٣٩ . أنظر أيضا مروج الذهب : ج ٢ ص ٥٨ .

(٢) الازرقي : ج ٢ ص ٧٠ .

(٣) الطبري : ج ٢ ص ١٨٨ . ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٤٠ . المحبر : ص ٢٣٦ ، ٣١٩ .

(٤) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ١٤١ . الطبري : ج ٢ ص ١٨٤ . ويدعي الازرقي ان قصياً قسم الوظائف بين ابنيه عبدالدار وعبد مناف (أخبار مكة : ج ١ ص ٦٢ ج ٢ ص ٨٧) . وكذلك أبو عبيده الذي يضيف ان هاشـما أراد اللـواء والحجـابة وان ذلك تم في حيـاة ابن جدعـان (المسعودي : التنبيه والاشراف : ص١٨٠) والشطر الاخير مختلط بحلف الفضول وحوادثه .

غير ان بني عبد مناف بن قصي نافسوا عامرا على ما كانت له من سلطات وأرادوا انتزاعها منه ، وقد ناصرهم على ذلك بنو أسد بن عبدالعزى وبنو زهرة وبنو تيم بن مرة وبنو الحرث بن فهر ؛ أما بنو عبدالدار فلم يستسلموا لمنافسيهم ، ووجدوا لهم مؤيدين في بني مخزوم وبني جمح وبني سهم وبني عدي . وهكذا انقسمت قريش الى كتلتين متخاصمتين ، وكونت عشائر كل كتلة حلفاً بينها . ويدعى حلف بني عبد مناف حلف المطيبين ، أما حلف بني عبدالدار فيدعى حلف لعقة الدم. ومن سوء الحظ ان المصادر لا تقدم معلومات أخرى عن دوافع المنافسة وعوامل التكتل أو كيفية حدوثه ، بل تكتفي بالقول بأن الخلاف سوي بطريقة سلمية بأن تبقى الحجابة واللواء والندوة بيد بني عبدالدار ، أما السقاية والرفادة فتصبح لبني عبد مناف[1] .

هاشـــم :

لقد كان هاشم بن عبد مناف زعيم المعارضة لعامر بن عبد مناف بن عبدالدار فأخذ بعد الصلح السقاية والرفادة . وتتضح من الاخبار قوة شخصيته ونفوذه فضلا عن حفره عدة آبار كبئر سخلة[2] وبئر بذر[3] فانه أول من أطعم الثريد للحجاج في مكة[4] . وهو أول من سن الرحلتين لقريش ، رحلة الشتاء والصيف[5] وهو الذي أخذ الايلاف (فأخذ لهم هاشم حبلا من ملوك الشام والروم وغسان وأخذ لهم عبد شمس حبلا من النجاشي الاكبر فاختلفوا بذلك السبب الى أرض الحبشة وأخذ لهم

---

(١) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ١٤٣ - ٤ . ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ص ٤٤ - ٤٥ المحبر : ص ١٦٦ . مروج الذهب : ج ٢ ص ٥٩ . ابن حزم : جمهرة النسب ص ١٤٩ .

(٢) الازرقي : ج ١ ص ٦٥ .

(٣) الازرقي : ج ١ ص ٦٤ ج ٢ ص ١٧٥ . البكري : معجم ما استعجم ص ٢٣٥ .

(٤) الطبري : ج ٢ ص ١٧٩ . الاشتقاق : ص ٩ .

(٥) الطبري : ج ٢ ص ١٨٠ . ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٤٣ .

نوفل حبلا من الاكاسرة فاختلفوا بذلك السبب الى العراق وأرض فارس وأخذ لهم المطلب حبلا[١]) ويتضح من هذه النصوص ان علاقة هاشم باخوته كانت طيبة ، وان تجارة مكة قد ازدهرت وامتدت الى مختلف الاطراف ولا ريب أن الظروف الدولية قد ساعدت على ذلك اذ كانت العلاقات متوترة بين الفرس والروم فاستغل ذلك سادة مكة وصمموا على الاستفادة من ذلك بالوقوف موقف الحياد وحسن المعاملة مع كافة الدول وكان للتوتر الدولي أثر في ازدهار الطريق الغربي • وقد مات هاشم بغزة[٢] •

عبدالمطلب :

تزوج هاشم من امرأة يثربية من بني النجار فولدت له شيبة الذي ولد وترعرع في المدينة عند امه ثم عاد الى مكة[٣] ، وكان أبوه قد توفي وولى من بعده السقاية والرفادة المطلب[٤] أخو هاشم ، وقد سمى شيبة عبدالمطلب بالنسبة لعمه • ولما توفى المطلب هذا ولي السقاية والرفادة عبدالمطلب وقد قام بحفر بئر زمزم عند الكعبة •

يروي ابن هشام ان قريشا نازعت عبدالمطلب على قيامه وحده بحفر بئر زمزم حتى اضطروا أن يلجأوا الى كاهنة بني سعد لفض النزاع[٥] ولا ريب انه لا يوجد مبرر قوي لمخاصمة قريش على حفره هذه البئر ، خاصة وان لكل عشيرة في مكة تقريبا بئر أو أكثر[٦] • ولكن هذا الخبر

---

(١) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٥٧ ، ١٤٧ • الطبري : ج ٢ ص ١٨٠ ـ ١٨١ • المحبر : ص ١٦٢ ـ ١٦٣ •

(٢) الطبري : ج ٢ ص ١٨١ •

(٣) الطبري : ج ٢ ص ١٧٦ ـ ١٧٧ •

(٤) يقول السكري : « فلما هلك حرب بن أمية ، وكان حرب رئيسا بعد المطلب تفرقت الرياسة والشرف في بني عبد مناف » المحبر : ص ١٦٥ •

(٥) الطبري : ج ٢ ص ١٧٨ ـ ١٧٩ • ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٤٩ • الازرقي : ج ٢ ص ٣٤ •

(٦) أنظر عن آبار مكة الازرقي : ج ٢ ص ١٧٢ ـ ١٨٣ •

يشير الى أن زعامته في بادىء الامر لم تكن خالية من المنافسات سواء من بعض العشائر أو زعماء قريش • ويروى أيضا ان نوفل بن عبد مناف نافس عبدالمطلب على السقاية في الصفا فاستنجد عبدالمطلب بأخواله من بني النجار[1] •

حملة الاحباش :

ولعل أبرز حادث في عهد عبدالمطلب هي غزو الأحباش لمكة وتشتت شمل الحملة ، وتروى المصادر العربية ان سبب الحملة هو ان أبرهة بنى كنيسة في اليمن سماها القليس (يبدو ان اسمه مشتق من **Ecclesia** أو الكنيسة) وأراد أن تحجه العرب ، ولكن أحد المكيين استاء من ذلك فجاء الى القليس وتغوط فيه ، فاغتاض أبرهة وجهز جيشا لاحتلال مكة وتدمير الكعبة فيها[2] • غير ان هذه القصة هزيلة : فان أبرهة اذا كان قد بنى كنيسة نصرانية في اليمن ليأتيها النصارى ، لا يستطيع اجبار المشركين على زيارة الكنيسة النصرانية ، واذا كان قد فعل ذلك فان نطاق أمره ينحصر في اليمن وهي البلاد التي يحكمها ولا يمتد الى غيرها من المناطق ، فمكة اذاً لا تغتاض من انشاء كنيسة نصرانية لان مركزها الديني لا علاقة للنصارى به ، كما انه ليس لأبرهة سلطة عليها فضلا عن أن هناك عدة بيوت مقدسة[3] لم يرد في التاريخ خبر استياء أهل مكة منها فلماذا تستاء من القليس •

والارجح ان سبب هذه الحملة هو ما رواه بروكوبيوس[4] من أن البيزنطيين في صراعهم مع الساسانيين استمدوا ملك الحبشة ليعينهم بقوة

---

(١) الطبري : ج ٢ ص ١٧٨ ـ ٩ • نسب قريش : ص ١٩٧ •

(٢) الطبري : ج ٢ ص ١١٠ • الازرقي : ج ١ ص ٨٢ • سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٤٣ •

(٣) أنظر ص ١٩٩ •

(٤) كتاب الحرب الفارسية I ٢٠ (نقلا عن مقال اسماعيل أدهم في مجلة الرسالة العدد ٣٤٩ ـ ١١ مارس سنة ١٩٤٠ •

عسكرية دون أن يذكر مصيرها • ولعل هذه الحملة التي أشار اليها بروكوبيوس أي ان ملك الحبشة أشار على أبرهة أن يقود الحملة فتقدم بها سالكا طريق القوافل البري الى سوريا لينضم الى الجيوش البيزنطية ويتقدم معها للهجوم على الساسانيين • وتشير الكتب العربية الى أن أهل مكة انسحبوا وان عبدالمطلب خرج يفاوض أبرهة لكي لا يمس بعض أباعر يمتلكها • وقد عجب أبرهة كيف ان كبير مكة وسيدها يفاوض على انقاذ ابله دون أن يتطرق الى مكة والكعبة ، باعتبار ان للبيت رباً يحميه ، كما تضع الرواية على لسان عبدالمطلب[1] • ولا ريب ان هذه الرواية هزيلة اذ أن زعيما كعبدالمطلب لا يعقل أن يفاوض هذا الغازي على انقاذ ابله ، بل لابد أن تكون المفاوضة على أمر أكبر وأهم من أموره الخاصة • والراجح انه كان يفاوض على أمور تؤيد مصالح أهل مكة وانه وقف موقفا مشرفا بحيث انه بعد أن فشلت الحملة زادت مكانة عبدالمطلب عند أهل مكة •

لقد كان يرافق هذه الحملة فيل[2] وربما فيلة • وكان لاستخدام الفيل أثر في نفوس العرب ، حتى لقد سموا سنة حدوثها عام الفيل ، ولا ريب ان كثيرا من الدول القديمة استخدمت الفيلة في القتال ، ولكن العرب لم يألفوا الفيلة ، لذا كان لاستخدامها وقع كبير في نفوس العرب •

لقد أشار القرآن الى هذه الحملة في سورة الفيل فقال تعالى « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل • ألم يجعل كيدهم في تضليل • وأرسل عليهم طيرا أبابيل • ترميهم بحجارة من سجيل • فجعلهم كعصف مأكول » •

ومن المحتمل ان الطير الابابيل وحجارة السجيل كنايات عن وباء

---

(١) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٥٠ ـ ٥١ الطبري : في ٢ ص ١١٢ (عن ابن اسحق) ١١٤ (عن الواقدي) ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٥٥ •

(٢) الطبري : ج ٢ ص ١١٣ •

جارف اكتسحهم كالجدري أو غيره • ويقول ابن اسحق انه حدث ان أول ما رؤيت الحصبة والجدري بأرض العرب ذلك العام[1] •

أما عن أهمية هذه الحملة فيروى ابن جريج انه (لما اهلك الله تعالى من اهلك من ابرهة الحبشي صاحب الفيل وسلط عليه الطير الابابيل عظمت جميع العرب قريشا وأهل مكة وقالوا أهل الله قاتل عنهم وكفاهم مؤنة عدوهم فازدادوا من تعظيم الحرم والمشاعر الحرام والشهر الحرام ووقروها ورأوا ان دينهم خير الاديان واحبها الى الله ثم اوجدوا الحمس)[2] •

عبدالله والرسول :

لقد كان لعبدالمطلب عدة أولاد من اصغرهم سنا عبدالله الذي تزوج من آمنة بنت وهب وهي من عشيرة زهرة القرشية • وقد توفي عبدالله وترك أرملته وطفلها الوحيد يتيماً • وهناك خلاف في تاريخ وفاته لخصه المسعودي بقوله (توفي على ما روى جعفر بن محمد الطبري بعد شهرين من مولده وقال بعضهم انه توفي قبل أن يولد وهذا غير صحيح لان الاجماع على انه توفي بعد مولده وقال آخرون بعد سنة من مولده)[3] ويؤيد ابن الكلبي والسكري ان عبدالله توفي وعمر النبي ثمانية وعشرون شهرا[4] •

لقد قدر لمحمد بن عبدالله أن يختاره الله للرسالة ويقوم بالدعوة لدين الوحدانية المطلقة ، واستطاع بعد نضال أكثر من عشرين سنة أن ينشره بين العرب في معظم أنحاء جزيرة العرب ثم امتد بعد وفاته فشمل بلاد

---

(١) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٥٥ •

(٢) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٥٩ الازرقي : ج ١ ص ٥٠ ويروي عن اسحق انه لا يدري هل كان انشاء الحمس قبل الفيل أم بعده (سيرة ابن هشام) ج ١ ص ٢١٦ •

(٣) مروج الذهب : ج ٢ ص ٢٨٠ •

(٤) رواية ابن الكلبي في : ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٦٢ • الطبري : ج ٢ ص ١٣٠ • المحبر : ص ٩ •

الشرق من أواسط آسيا الى جبال البرانيز وامتد أيضا الى الهند والصين والملايو وجزر الهند الشرقيةواواسط وغربيأفريقية ثمصار هذاالدين اساس حضارة وتفكير العالم المتمدن في العصور الوسطى ولا يزال حتى اليوم يلعب دورا هاما في التوجيه الحضاري والفكري والروحي والسياسي لمعتنقيه الذين يناهزون الاربعمائة مليون •

لا يشير القرآن الى سنة ولادة الرسول أو عمره عند البعثة أو الهجرة أو الوفاة ، والواقع ان المؤرخين المسلمين مختلفون في تعيين حياته ومن الثابت انه توفى سنة ٦٣٢ ميلادية ولو عرفنا عمره آنذاك لأمكن تقدير سنة ولادته • والواقع ان المؤرخين والرواة اختلفوا في ذلك ، فيروي الطبري ثلاث روايات متباينة احداها عن ابن عباس ، وحماد ، وابن المسيب ، وعروة بن الزبير يذكرون فيها ان الرسول توفى وعمره ثلاث وستون سنة ورواية ثانية عن ابن عباس أيضا وعن الحسن البصري بأن عمره خمس وستون سنة ، وعن عروة بن الزبير ان عمره عند وفاته ستون سنة[١] •

نشاته :

وقد أرضعته حليمة السعدية وهي من قبيلة سعد هذيم[٢] • ويرى البعض ان ارضاعه كان خارج مكة لان هـواء البادية أصح[٣] ولتيتعلم الفصاحة ولما كان مناخ مكة جاف صحي لا يختلف كثيرا عن مناخ الصحراء فلا يمكن اعتبار العامل الاول صحيحا ، وربما كان التعليل الثاني هـو الاصح ، اذ من المعروف ان مكة مركز تجاري اتصل أهلها بالبلاد الاخرى

---

(١) الطبري : ج ٣ ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧ أنظر ايضا مروج الذهب : ج ٢ ص ١٩٠ •

(٢) الطبري : ج ٢ ص ١٢٦ • سيرة ابن هشام : ج ١ ص ١٧٢ • اليعقوبي : ج ٢ ص ٦ ـ ٧ وقد أرضعته في الايام الاولى من ولادته ثويبة مولاة أبي لهب (ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٦٧ • ابن هشام : ج ٣ ص ٤٧ حيث يضيف انها ارضعت الحمزة وأبو سلمة بن عبد الاسد) •

(٣) الطبري : ج ٢ ص ١٢٧ •

وجاءها كثير من الاجانب فدخلت في لغة سكانها كثير من الكلمات الاعجمية والواقع ان القرآن قد نزل على لغة سعد هذيم واعجاز هوازن[١] • وروى عن ابن سعد عن الرسول انه قال أنا من قريش ولساني لسان بني سعد ابن بكر[٢] •

وعندما كان في حوالي السابعة من عمره توفيت امه بالابواء في طريق عودتها من المدينة[٣] وبذلك أصبح يتيم الأبوين • وقد أشار القرآن الى ذلك « ألم يجدك يتيماً فآوى ، ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فأغنى » (الضحى ٦ ـ ٨) ولا ريب ان اليتم كان له تأثير عظيم في نفسه • وفي القرآن آيات كثيرة تحض على حسن معاملة اليتيم وتتوعد من يظلمه ويأكل ماله بأشد العقوبات •

وقد توفي جده عبدالمطلب وهو عليه السلام في السابعة أو الثامنة من عمره[٤] فكفله عمه أبو طالب رغم انه لم يكن غنياً[٥] وقد ظل أبو طالب يرعاه حتى مات وكان أكبر من يحميه ويذب عنه ، كما كانت قريش تفاوضه عندما يشتد الخلاف بينهم وبين الرسول ، فكانت لهذه العلاقة أهمية كبرى في تاريخ الرسول والدعوة الاسلامية في أدوارها الاولى • والواقع ان الاضطهاد اشتد عليه بعد موت أبي طالب كما سنرى فيما بعد •

---

(١) تفسير الطبري : ج ١ ص ٢٣ • أما عن الكلمات الاعجمية في القرآن فانظر تفسير الطبري : ج ١ ص ٦ ـ ٩ السيوطي : كتاب الاتقان في علوم القرآن ج ١ ص ١٣٦ ـ ١٤٢ •

(٢) ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٧١ •

(٣) الطبري : ج ٢ ص ١٣١ • اليعقوبي : ج ٢ ص ٧ • ويروي المسعودي ان عمره سبع سنوات (مروج الذهب : ج ٢ ص ٢٨) ويروي السكري ان عمره ثمان سنوات (المحبر : ص٩) •

(٤) الطبري : ج ٢ ص ١٣١ ، ١٩٤ • ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٧٥ • اليعقوبي : ج ٢ ص ١٠ • مروج الذهب : ج ٢ ص ٢٨١ •

(٥) الطبري : ج ٢ ص ٢١٣ • سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٢٦٤ • ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٨٢ ، ١٠١ •

ولما بلغ الثانية عشرة رافق عمه أبا طالب الى الشام[١] . وقد رأينا ان للشام علاقات تجارية وثيقة مع الحجاز ، وقد وصل حتى بصرى التي كانت من أهم مراكز التجارة الحجازية في الشام ، ثم عاد الى مكة . ولا ريب ان صغر سنه وقصر مدة بقائه لم تتح له دراسة أحوال سوريا .

الفجار وحلف الفضول :

ولما بلغ الرسول حوالي الخامسة عشرة اشترك في حرب الفجار التي نشبت بين قريش ومن معها من كنانة وبين عامر بن صعصعة لان أحد رجال القبيلة الاخيرة أجار لطيمة للنعمان فغضب من ذلك أحد الكنانيين . واعتدى على اللطيمة في الشهر الحرام مما أدى الى نشوب الحرب بينهما . وناصرت قريش كنانة[٢] . ولعل الدافع لذلك هو خشية قريش وحليفتها كنانة أن تخرج من يدها التجارة .

وعلى أثر الفجار حدث حلف الفضول ، وكان سببه الظاهري ان العاص بن وائل السهمي مطل ثمن بضاعة ابتاعها من رجل يماني ، فسعى بعض القرشيين لتكوين هذا الحلف ، لنصرة المظلوم : وقد عقد الاجتماع العام له في دار عبدالله بن جدعان واشترك فيه بنو هاشم وبنو المطلب وبنو زهرة وبنو تيم بن مرة وبنو الحارث بن فهر ، وكونوا الحلف لينصفوا المظلوم من الظالم ، وقد حضره الرسول وروي انه قال (لقد شهدت في دار عبدالله بن جدعان حلفا ما احب ان لي به حمر النعم ولو أدعى به في الاسلام لأجبت)[٣] ويلاحظ ان قبائل حلف الفضول هم نفس قبائل

---

(١) يروي الطبري (ج ٢ ص ١٩٥) ، واليعقوبي (ج ٢ ص ١٠) ، والمسعودي (ج ٢ ص ٢٩٣) ان عمره كان تسع سنوات وهو قليل جدا .

(٢) اليعقوبي : ج ٢ ص ١١ . أما الطبري (ج ٢ ص ٢٠١) ، وابن سعد (ج ١ قسم ١ ص ٨١) والمسعودي (مروج الذهب ج ٢ ص ٢٧٥) فيروون ان عمره كان عشرين سنة . فاذا صح ذلك فلابد ان عمله لم يقتصر على جمع النبل الذي هو من عمل صغار السن .

(٣) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ١٤٥ (وهو يضيف ابن أسد بن عبد العزى لهم) . المحبر : ص ١٦٧ نسب قريش : ص ٢٩١ . مروج الذهب : ج ٢ ص ٢٧٦ .

المطيبين ما عدا بني أمية .

زواجه بخديجة :

ولما بلغ الخامسة والعشرين عمل في تجارة لخديجة وهي سيدة من بني أسد بن عبد العزى كانت قد تزوجت ابي هالة التميمي فولدت له هنداً ثم تزوجت عتيق بن عائذ المخزومي فولدت له ابنة اسمها هند أيضا[1] .

وكانت امرأة تاجرة ذات شرف ومال تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم اياه بشيء تجعله لهم . وفرضت على الرسول (ص) أن يخرج في مال لها الى الشام تاجرا مع غلام يدعى ميسرة فذهب وعاد بربح كبير[2] . ويلاحظ ان هذه هي السفرة الثانية الى الشام ، ولم يرد في الأخبار اطلاقا ذكر لسفرة قام بها الرسول الى أي مكان آخر ، رغم سعة اطلاعه على احوال ولهجات القبائل العربية ، كما انه لم يرد ذكر لغير هاتين السفرتين : ومع انه لا يجوز المبالغة في أثر هذه المرحلة نظرا لقصر مدتها ولانشغاله في التجارة ، الا انه لابد وانها تركت في نفسه أثرا قويا . ويلاحظ ان موقف الرسول بعد البعثة تجاه المسيحية كان معتدلا كما انه بعد قضائه على مقاومة مكة توجه نحو الشمال كما فعل من بعده الخليفة أبو بكر كما سنتحدث الجزء الثاني .

لقد تأثرت خديجة بما سمعته عن أمانته وعمله فطلبته وتزوجها[3] وقد ولدت له ، ما عدا ابراهيم ، كافة أولاده وهم كلثوم ورقية وزينت وفاطمة والقاسم وعبدالله الذي يروي ابن سعد واليعقوبي انه هو الطيب والطاهر[4] . ويروى انه عندما تزوجها النبي كان عمرها اربعين سنة .

---

(١) المحبر : ص ٧٩ . الطبري : ص ١٧٥ .

(٢) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ص ٢٠٣ – ٢٠٤ . الطبري ج ٢ ص ١٩٧ .

(٣) يزعم بعض الرواة انهم سقوا أباها خمرا فوافق على الزواج وهو سكران (ابن سعد ج ١ قسم ١ ص ٨٥) . المحبر : ص ٧٩ وهي رواية هزيلة ينكرها الواقدي ويقول ان أباها مات في حرب الفجار (الطبري ج ٢ ص ١٩٧) .

(٤) ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ٨٥ ، ج ٣ ص ٢ . اليعقوبي : ٢ ص ١٤ . المحبر : ص ٧٩ . ابن حزم : جمهرة النسب ص ١٤ .

ومع ان سن اليأس في البلاد الحارة ، ومنها مكة ، منخفض ، وانه ليس من المستحيل على سيدة في الاربعين من عمرها أن تنجب ستة أولاد ؟ ولكن الارجح ان عمرها كان أقل من الاربعين ، كيما يمكن أن تنجب هؤلاء الاولاد بصورة اعتيادية وان كانت هي على أي حال أكبر من الرسول . ومن المألوف في الشرق ان المرء اذا تزوج بسيدة أكبر منه سنا فان الناس تقول عنها انها عجوز أو بقدر امه ، مع انها قد لا تزيد عنه أكثر من سنة أو سنوات قليلة .

لقد كان لخديجة تأثير كبير في حياة الرسول ، فان ثروتها وغناها أمنا له حاجاته المادية ، فلم يعد الحصول عليها ليشغل وقته كما أمنت له الطمأنينة والرعاية التي كان يحس بحاجته لها بسبب يتمه .

ولعل هذا يفسر سبب عدم تزوجه بزوجة اخرى طوال حياتها ، بينما بعد أن توفيت أخذ يقبل على الزواج من عدة نساء كانت كل منهن تتميز بميزة خاصة كما سنتحدث في الجزء الثاني .

كان لخديجة أيضا تأثير كبير في تشجيعه وتثبيته عندما جاء الوحي أول مرة وظلت تشجعه وتعاونه طيلة حياتها ، والواقع ان حياتها تعطي مثلاً لمكانة المرأة العربية وهي تقدم أروع نموذج لما يجب أن تكون عليه الزوجة الفاضلة .

بناء الكعبة :

ولما بلغ الرسول الخامسة والثلاثين أرادت قريش بناء الكعبة ولما أرادوا وضع الحجر الاسود بمكانه منها اختلفوا فيمن يضعه وقد حكموا الرسول في ذلك فحكم بأن يوضع بثوب يشارك في رفعه رجال من كافة القبائل الى أن اوصلوه مكانه من الكعبة فرفعه الرسول ووضعه مكانه[١] ، وقد كان لحكم الرسول المتزن أثر كبير في نفوس الناس فزادوا من تقديرهم لمواهبه وعدالته .

---

(١) أنظر ص ٢٠١ - ٢٠٥ .

وتروي المصادر انه كان يقوم بالتجارة في دار السائب بن أبي السائب الذي كان شريكه في التجارة •

ان ما ذكرناه من الحوادث هي فقط التي تتردد في كتب السيرة والتاريخ الاولى ويتضح منها مدى قلة معلوماتنا عن نشأته وأعماله وأصدقائه وعلاقاته الاجتماعية والسياسية ونشاطه الفكري واتصالاته والمشاكل التي واجهته أو اشغلت فكره مما هو ضروري لمعرفة مقدمات الدعوة التي كان لها الأثر الاكبر في اعادة توجيه الملايين من البشر المنتشرين في بلاد واسعة منذ أن انتصرت الى ما شاء الله •

الفصل السابع عشر

الوحي [1]

يتفق الرواة المسلمون على ان الرسول (ص) كان يتحنث في غار حراء • ويبقى أمدا ، ولا شك ان الاعتزال للتعبد أمر معروف منذ القديم عند الشعوب والامم ، ولـه أهمية كبرى اذ يعطي الانسان مجال الاغراق في التأمل والتفكير بمعزل عن الشواغل الدنيوية •

وهناك روايتان عن الدوافع التي دفعت الرسول الى التحنث : أولهما رواية ابن شهاب الزهري عن عروة بن الزبير عن عائشة انها قالت : كان أول ما بدىء به رسول الله من الوحي الرؤيا الصادقة فكان لا يرى رؤيـا الا جاءت مثل فلق الصبح ، قالت فمكث على ذلك ما شاء الله وحبب اليـه الخلوة فكم يكن شيء أحب اليه منها • وكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع الى أهله ثم يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها حتى فجأه الحق وهو في غار حراء [2] •

أما الرواية الثانية فهي رواية ابن اسحق عن وهب بن كيسان عن عبدالله بن الزبير عن عبيدالله بن عمير بن قتادة الليثي حيث يقول : « كان رسول الله (ص) يجاور في حراء من كل سنة شهرا وكان ذلك مما تحنث به قريش في الجاهلية ، والتحنث التبرر ، وقال أبو طالب : وراق ليرقى في حراء ونازل • فكان رسول الله (ص) يجاور ذلك الشهر من كل سنة يطعم

---

(١) لقد استفدنا في بحث الوحي وطبيعته من الفصل السادس الذي كتبه توراندريه في كتابه « محمد » ، وما كتبه وات في كتابه « محمد في مكة » ص ٣٩ فما بعد • ومقال بيل عن دعوة الرسول ، في مجلة العالم الاسلامي العدد ٢٤ سنة ١٩٣٤ (بالانكليزية) •

(٢) البخاري : الكتاب كيف بدىء الوحي الباب الاول • كتاب تفسير القرآن (سورة ٩٦) ، كتاب التعبير عن الرؤيا الباب ١ ، ابن حنبل : ج ٦ ص ٢٣٢ ــ ٢٣٣ ، ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ١٢٩ ، الطبري : ج ٢ ص ٢٠٨ •

من جاءه من المساكين فاذا قضى رسول الله (ص) جواره من شهره ذلك كان أول ما يبدأ به اذا انصرف من جواره الكعبة قبل أن يدخل بيته فيطوف بها سبعا أو ما شاء الله من ذلك ثم يرجع الى بيته حتى اذا كان الشهر الذي أراد من كرامته من السنة التي بعثه فيها وذلك في شهر رمضان خرج رسول الله (ص) الى حراء كما كان يخرج لجواره معه أهله حتى اذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالته ورحم العباد بها جاءه جبريل بأمر الله »[١] .

وبين الروايتين اختلافات ظاهرة : فرواية الزهري تبين ان دافع التحنث هو ذاتي شخصي ، بعد فترة من الرؤيا ؛ وانه كان يتحنث الليالي ذوات العدد والتي لا نعلم عنها شيئاً . أما رواية ابن اسحق فتبين ان التعبد هو عادة قرشية قديمة ، وانها تجري في شهر رمضان وانه لم يقم وحده ، بل يرافقه أهله في ذلك . ويمكن أن يحدس المرء بأنه كان يتحنث عدة سنوات .

لا يذكر القرآن سن الرسول في بدء مجيء الوحي ، بل يذكر « قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا ادراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون » (يونس ١٦) ولا شك ان كلمة العمر غير واضحة الحدود ؛ وقد اختلف المؤرخون في سن الرسول عند مجيء الوحي ، فقال ابن المسيب ان عمره ثلاث واربعون سنة ، وقال انس بن مالك وعروة بن الزبير وابن عباس ان عمره عند بدء مجيء الوحي كان اربعين سنة[٢] . وجدير بالملاحظة ان العرب تعتبر سن الاربعين هو سن اكتمال النضج وقد أشار القرآ الى ذلك « حتى اذا بلغ اشده وبلغ اربعين سنة قال رب أوزعني أن اشكر نعمتك التي انعمت عليّ وعلى والدي » (الاحقاف ١٥) .

---

(١) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٢٥٤ . الطبري : ج ٢ ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧ .

(٢) الطبري : ج ٢ ص ٢٠١ ـ ٢٠٥ ، ٢٠٩ . انظر أيضا ابن الاثير : ج ٢ ص ١٦ . ابن خلدون : ج ٣ ص ٦ . ابن كثير : البداية والنهاية ج ٣ ص ١ ـ ٢ . الذهبي : تاريخ الاسلام : ج ١ ص ٦٩ .

وينص القرآن على انه نزل في رمضان « شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » البقرة ١٨٥ . وهناك آية اخرى تنص على نزول آيات في غزوة بدر التي حدثت في رمضان « ان كنتم آمنتم الله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان » (الانفال ٤١) غير ان سياق الآية لا يستلزم بدء نزول القرآن في اليوم الذي يشبه يوم بدر ، فقد تعني الاشارة الى آيات نزلت يوم وقعة بدر .

يشير القرآن الى يوم نزوله ، فيصفها بانها ليلة القدر والليلة المباركة « انا انزلناه في ليلة القدر . وما أدراك ما ليلة القدر . ليلة القدر خير من الف شهر . تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل أمر . سلام هي حتى مطلع الفجر » (القدر ١ ـ ٥) « حم والكتاب المبين انا انزلناه في ليلة مباركة انا كنا منذرين فيها يفرق كل أمر حكيم امرا من عندنا انا كنا مرسلين » (الدخان ١ـ٥) . ومن الواضح ان هذه الآيات لا تعين بالضبط تاريخ تلك الليلة . كما لا تذكر فيما اذا كان القرآن نزل في هذه الليلة الى السماء الدنيا أم كان بدء نزوله على الرسول ، والواقع ان الرواة اختلفوا في تعيين هذه الليلة فمنهم من قال انها ١٧ أو ١٨ أو ٢٤[١] ، ومنهم من قال انها ربيع الاول[٢] ، ومنهم من قال انها ٢٧ رجب[٣] .

أشار القرآن الى كيفية نزول الوحي بآيات « والنجم اذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى . ان هو الا وحي يوحى . علمه شديد القوى . ذو مرة فاستوى . وهو بالافق الاعلى . ثم دنى فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى الى عبده ما أوحى . ما كذب الفؤاد ما رأى » (النجم ١ ـ ١١) « انه لقول رسول كريم . ذي قوة عند ذي العرش مكين . مطاع ثم أمين . وما صاحبكم بمجنون . ولقدرآه بالافق المبين .

---

(١) أنظر في هذه الروايات الطبري : ج ٢ ص ٢٠١ . ابن الاثير ج ٢ ص ١٦ . ابن كثير ج ٣ ص ٦ .

(٢) أنظر : اليعقوبي ج ٢ ص ١٥ . ابن كثير ج ٣ ص ٦ (عن ابن عباس وجابر بن عبدالله) . زيني دحلان ج ١ ص ٩٢ .

(٣) زيني دحلان : ج ١ ص ٩٢ .

وما هو على الغيب بضنين • وما بقول شيطان رجيم » (التكوير ١٩ – ٢٥) • والراجح ان الآيتين تشيران الى رؤية الرسول للملك •

وتروى عدة روايات عن بدء نزول الوحي :-

(١) فيروي ابن سعد عن هشام بن عروة عن عروة ان رسول الله (ص) قال : يا خديجة اني أرى ضوءاً وأسمع صوتاً لقد خشيت أن اكون كاهناً فقالت : ان الله لا يفعل بك ذلك يا ابن عبدالله انك تصدق الحديث وتؤدي الأمانة وتصل الرحم •

(٢) ويروى عن ابن عباس ما يشبه الرواية الاولى ثم يضيف الى ان خديجة ••• أتت ورقه بن نوفل فذكرت له ذلك فقال ان يك صادقاً فهذا الناموس مثل ناموس موسى فان يبعث وأنا حي فسأعزره وانصره وأؤمن به•

(٣) ويروى عن ابن عباس أيضا انه قال (فبينما رسول الله (ص) على ذلك التعبد وهو باجياد اذ رأى ملكا واضعاً احدى رجليه على الاخرى في أفق السماء يصيح يا محمد انا جبريل يا محمد انا جبريل فذعر رسول الله (ص) من ذلك وجعل يراه كلما رفع رأسه الى السماء فرجع سريعا الى خديجة فأخبرها خبره وقال يا خديجة والله ما ابغضت بغضي هذه الاصنام شيئا قط ولا الكهان واني لأخشى أن أكون كاهناً • قلت كلا يا ابن عم لا تقل ذلك فان الله لا يفعل ذلك بك أبدا ، انك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتؤدي الامانة وان خلقك لكريم • ثم انطلقت الى ورقة بن نوفل وهي أول مرة أتته فأخبرته ما اخبرها به رسول الله ، فقال ورقة والله ان ابن عمك لصادق ، وان هذه البدء نبوة ، وانه ليأتيه الناموس الاكبر فمريه ألا يجعل في نفسه الا خيرا[١] •

(٥) ويروي الطبري روايتين متشابهتين عن يحيى بن كثير عن أبي

---

(١) ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ١٢٩ – ١٣٠ • وانظر عن الناموس ابن هشام ج ٣ ص ٣١٩ •

سلمة انه سأل جابر بن عبدالله عن أول ما نزل من القرآن فقال جابر (لا احدثك الا ما حدثنا النبي (ص) قال جاورت في حراء فلما قضيت جواري هبطت فاستبطنت الوادي فنوديت فنظرت عن يميني وعن شمالي وخلفي وقدامي فلم أر شيئا فنظرت فوق رأسي فاذا هو جالس عن عرش بين السماء والارض فخشيت منه .. فلقيت خديجة فقلت دثروني وصبوا علي ماء وانزل علي يا ايها المدثر قم فانذر)[١] .

(٥) ويروي الطبري أيضا عن الزهري انه قال (فتر الوحي عن رسول الله (ص) فترة فحزن حزنا شديدا جعل يغدو الى رؤوس شاهق الجبال ليتردى منها فكلما أوحى بذروة جبل تبدى له جبريل فيقول انك نبي الله فيسكن لذلك جأشه وترجع اليه نفسه فكان النبي (ص) يحدث عن ذلك . قال فبينما أنا أمشي يوما اذ رأيت الملك الذي كان يأتيني بحراء على كرسي بين السماء والارض فجئثت منه رعباً فرجعت الى خديجة فقلت زملوني فزملناه أي دثرناه فانزل الله عز وجل يا ايها المدثر قم فانذر وربك فكبر وثيابك فطهر قال الزهري فكان أول شيء انزل عليه اقرأ باسم ربك الذي خلق حتى بلغ ما لم يعلم)[٢] .

(٦) ويروي ابن اسحق بعد أن ذكر التحنث (حتى اذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيهابرسالته ورحم العباد بها جاءه جبريل بامر الله فقال رسول الله (ص) فجاءني وانا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال اقرأ فقلت ما اقرأ فغتني حتى ظننت انه الموت ، ثم ارسلني فقال اقرأ ، فقلت ماذا اقرأ ، وما أقول ذلك الا افتداءاً منه أن يعود الي بمثل ما صنع بي قال اقرأ باسم ربك الذي خلق الى قوله علم الانسان ما لم يعلم قال فقرأته قال ثم انتهى ثم انصرف عني وهببت من نومي وكأنما كتب في قلبي كتاباً . قال ولم يكن من خلق الله أحد ابغض الي من شاعر أو مجنون ، كنت لا أطيق أن انظر

---

(١) الطبري : ج ٢ ص ٢٠٨ - ٢٠٩ .

(٢) الطبري : ج ٢ ص ٢٠٩ . البخاري : كتاب التفسير (الآية ٩٦) .

اليهما . قال قلت ان الابعد يعني نفسه لشاعر أو مجنون لا تحدث بها عني قريش أبدا لأعمدن الى حالق من الجبل فلأطرحن نفسي منه فلأقتلنها فلأستريحن ؛ قال فخرجت أريد ذلك حتى اذا كنت في وسط من الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول يا محمد انت رسول الله وأنا جبريل قال فرفعت رأسي الى السماء فاذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في افق السماء يقول يا محمد انت رسول وأنا جبريل ، قال فوقفت أنظر اليه وشغلني ذلك عما أردت فما أتقدم وما أتأخر ، وجعلت اصرف وجهي عنه في آفاق السماء فلا أنظر في ناحية منها الا رأيته كذلك ؛ فما زلت واقفاً ما اتقدم امامي ولا ارجع ورائي حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي حتى بلغوا مكة ورجعوا اليها وأنا واقف في مكاني ثم انصرف عني وانصرفت راجعاً الى اهلي حتى اتيت خديجة فجلست الى فخذها مضيفاً فقالت يا أبا القاسم اين كنت فوالله لقد بعثت رسلي في طلبك حتى بلغو مكة ورجعوا الي ، قال قلت لها ان الابعد لشاعر أو مجنون ، فقال اعيذك بالله من ذلك يا أبا القاسم ما كان لله ليصنع ذلك بك مع ما أعلم منك من صدق حديثك وعظم أمانتك وحسن خلقك وصلة رحمك وما ذاك يا ابن عم لعلك رأيت شيئا قال لها نعم ، ثم حدثتها بالذي رأيت ؛ فقالت ابشر يا ابن عم وأثبت فوالذي نفس خديجة بيده اني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة . ثم قامت فجمعت عليها ثيابها ثم انطلقت الى ورقة ابن نوفل)[1] .

(٧) ويروي الزهري عن عروة عن عائشة انها قالت كان أول ما ابتدىء به رسول الله من الوحي الرؤيا الصادقة كانت تجيء مثل فلق الصبح ثم حبب اليه الخلاء فكان بغار بحراء يتحنث فيه الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع الى أهله ثم يرجع الى اهله فيتزود لمثلها حتى فاجأه الحق فأتاه فقال يا محمد انت رسول الله . قال رسول الله (ص) فجثوت لركبتي وانا قائم ثم زحفت ترجف بوادري ثم دخلت على خديجة فقلت زملوني زملوني

---

(١) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٢٥٤ . الطبري : ج ٢ ص ٢٠٧ .

حتى ذهب عني الروع ، ثم أتاني فقال يا محمد أنت رسول الله قال فلقد هممت أن اطرح نفسي من حالق جبل فتبدى لي حين هممت بذلك فقال : يا محمد أنا جبريل وأنت رسول الله ، ثم قال اقرأ ، قلت ما اقرأ ، قال فأخذني فغتني ثلاث مرات حتى بلغ مني الجهد ثم قال اقرأ باسم ربك الذي خلق ؛ فقرأت ؛ فأتيت خديجة فقلت لقد اشفقت على نفسي فأخبرتها خبري .. (ثم كلام يشبه ما جاء في آخر النص السابق)[1] .

(٨) ويروي البخاري هذا الحديث برواية مخالفة في بعضها حيث يقول : حتى جاءه الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فقال اقرأ قال ما أنا بقارىء ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ فقلت ما أنا بقارىء ، فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الأكرم ، فرجع بها رسول الله (ص) يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد (رض) فقال زملوني زملوني ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر لقد خشيت على نفسي فقالت خديجة كلا والله ما يخزيك الله أبداً انك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق ، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل[2] ...

ان في هذه الروايات بعض الاختلاف ؛ فرواية ابن اسحق (٦) تنفرد في ان جبريل جاء الرسول وهو نائم ، وهي تناقض ما جاء في القرآن فلا يصح قبولها . ورواية عروة وابن عباس (١ ، ٢) تذكر انه كان يرى رؤيا وأصواتاً غير واضحة ولعلها تمثل الدور الاول حيث بدأ تعالى يمهد ذهن الرسول للوحي ، أما روايتا ابن عباس وابن جابر (٣ ، ٤) فتبينان ان الرسول رأى الملك فارتاع له ودهش وعاد الى داره مضطرباً ثم نزل عليه

---

(١) الطبري : ج ٢ ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦ .

(٢) البخاري : كتاب كيف بدىء الوحي الباب ١ ، كتاب تعبير الرؤيا الباب ١ ، كتاب التفسير (سورة ٩٦) . ابن حنبل : ج ٦ ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣ .

الوحي بسورة المدثر . ولكن هاتين الروايتين لا تبينان طول الفترة التي مضت بين رؤية الملك ونزول سورة المدثر . أما رواية ابن اسحق والبخاري عن عروة (٦ ، ٨) فتذكران ان سورة اقرأ نزلت عليه ثم رأى الملك الذي أخبره بأنه نبي . أما رواية عروة في الطبري (٧) فتبين ان الملك أخبر الرسول بأنه نبي ثم انزل عليه سورة اقرأ . ومن المرجح ان سورة اقرأ هي التي نزلت أولا ، فاضطرب لها ولم يتثبت من مرامي نزولها ، فشجعته خديجة ، وثبته ورقة بن نوفل ، ثم أخبره الملك بأنه بني وأنزل عليه يا أيها المدثر قم فأنذر وثيابك فطهر والرجز فاهجر ، أي ان الوحي طلب منه أن يقوم بالدعوة الى رسالته . على ان رؤية الملك سبقت نزول آية اقرأ ، كما يتضح ذلك من سورة النجم .

لقد وردت كلمة الوحي في عدة آيات من القرآن الكريم : « وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الانس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون » (الانعام ١١٢) « ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وانه لفسق وان الشياطين ليوحون الى اوليائهم ليجادلوكم وان أطعتموهم انكم لمشركون » (الانعام ١٢١) « فخرج على قومه من المحراب فأوحى اليهم أن سبحوا بكرة وعشيا » (مريم ١٠) « وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي باذنه ما يشاء انه علي حكيم » (الشورى ٥١) « ان هو الا وحي يوحى .. فأوحى الى عبده ما أوحى » (النجم ٤ ، ١٠) « وإذ اوحيت الى الحواريين ان آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون » (المائدة ١٤٤) « اذ يوحي ربك الى الملائكة اني معكم فَثَبِّتُوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب » (الانفال ١٢) « وأوحى ربك الى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر وما يعرشون » (النحل ٦٨) « وإذ أوحينا الى امك يوحى » (طه ٣٨) « وأوحينا الى أم موسى أن ارضعيه فاذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني » (القصص ٧) « فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها » (السجدة

١٢) « اذا زلزلت الارض زلزالها • واخرجت الارض اثقالها • وقال الانسان ما لها • يومئذ تحدث أخبارها • بأن ربك أوحى لها » (الزلزال ١ - ٥) •

ويتبين من هذه الآيات ان الشياطين والكفار قد توحي ؟ وان الله تعالى يوحي أيضا الى السماء ، والى الارض ، والى الملائكة ، والى النحل ، والى البشر ، كالوحي الى أم موسى ، والى الحواريين ، والى الانبياء •

ومجيء الوحي يفترض وجود اله حي قادر يريد ارسال الوحي ، ويفترض من جهة أخرى وجود انسان قادر على استلام الوحي ، والوحي هو الوسيلة الوحيدة لكلام الله للبشر « وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل اليه رسولا » (الشورى ٥١) ؛ وهكذا أوحى الله تعالى الى نوح والنبيين من بعده (النساء ١٦٣ ، المؤمنون ٢٧ ، هود ٣٦) والى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط (النساء ١٦٣) والى موسى (الاعراف ١١٧ ، ١٦٠ يونس ٨٧ طه ١٣ ، ٧٧ الشعراء ٥٢ ، ٦٣) ؛ وأوحى الى الرسول العربي والذين من قبله (انظر النساء ١٦٣ ، الشورى ٣ ، الزمر ٦٥) • وقد أوحى الله تعالى الى الرسول القرآن (يوسف ٣ ، ١٠٩ الشورى ٧ الانعام ١٧ انظر أيضا الكهف ٢٧ العنكبوت ٤٥) ؛ والرسول لا يتبع الا ما يوحي من ربه (انظر الاعراف ٢٠٣ وكذلك الانعام ٥٠ يونس ١٥ ، ١٠٩ الاحزاب ٢ الأحقاف ٩ النجم ٤ الانبياء ٤٥) الا انه تعالى لا يأتي بالوحي بنفسه ، فهو لا يرى عند مجيء الوحي ، وبذلك كان الرسول يعلم عن طريق الوحي بعض علم الله تعالى •

ان الوسط الذي يأتي بالوحي ذكر في القرآن بأسماء منها الروح الأمين « انه لتنزيل رب العالمين • نزل به الروح الأمين • على قلبك لتكون من المنذرين • بلسان عربي مبين » (الشعراء ١٩٣ - ١٩٥) ومنها الروح

القدس[١] « قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا » (النحل ١٠٢) ، ومنها الروح[٢] « يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق » (غافر ١٥) « وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا » (الشورى ٥٢) ، ومنها جبريل « قل من كان عدواً لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله » (البقرة ٩٧)[٣] .

وعند مجيء الوحي تتأثر طبيعة الرسول ، ويحدث له بعض الانفعال كما روى ذلك عدد من الرواة فقد روى ابن سعد (عن عفان بن مسلم عن حماد بن سلمة عن قتادة وحميد عن الحسن عن حطان بن عبدالله الرقاشي عن عبادة الصامت : ان النبي (ص) كان اذا نزل عليه الوحي كرب له وتربد وجهه) .

وعن عبيدالله بن موسى العبسي عن اسرائيل عن جابر عن عكرمة انه قال : كان اذا اوحي الى رسول الله (ص) وقذ لذلك ساعة كهيئة السكران .

وعن محمد بن عمر الأسلمي عن أبي بكر بن عبدالله بن أبي سبرة عن صالح بن محمد أبي سلمة بن عبدالرحمن عن أبي اروى الدوسي انه قال : رأيت الوحي ينزل على النبي وانه على راحلته فترغوا وتفتل يديها حتى أظن ان ذراعها ينفصم فربما بركت وربما قامت موتدة يديها حتى يسري عنه من ثقل الوحي وانه ليتحدر منه مثل الجمار .

---

(١) لقد ذكر الروح القدس في ثلاث آيات أخرى حيث ارسله الله ليؤيد عيسى (البقرة ٨٧ ، ٢٥٣ . المائدة ١١٠) .

(٢) لقد وردت الروح في آيات أخرى فان عيسى كلمة الله القاها الى مريم وروح منه (النساء ١٧١) . وانه بروح منه يؤيد الذين آمنوا (المجادلة ٢٢) . وان الروح من أمر الله (الاسراء ٨٥) وان الروح والملائكة تنزل على من يشاء (النحل ٢ . المعارج ٤) .

(٣) ويروي الطبري عن الشعبي انه « قرن اسرائيل بنبوة الله (ص) ثلاث سنين يسمعه حسه ولا يرى شخصه ثم كان بعد ذلك جبريل » . غير ان الواقدي ينكر ان اسرائيل جاء بوحي (الطبري ج ٢ ص ٢٥١) .

وعن حجين بن المثنى عن عبدالعزيز بن عبدالله بن ابي سلمة عن عمه انه بلغه أن رسول الله (ص) كان يقول : كان الوحي يأتيني على نحوين : يأتيني به جبريل فيلقيه عليَّ كما يلقي الرجل على الرجل فذلك يتفلت مني ويأتيني في شيء مثل صوت الجرس حتى يخالط قلبي فذلك الذي لا يتفلت مني .

وعن معن بن عيسى عن مالك بن انس عن هشام بن عروة عن ابيه عن عائشة انها قالت ان الحارث بن هشام قال يا رسول الله كيف يأتيك الوحي فقال رسول الله (ص) أحيانا يأتيني في مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليَّ فيفصم عني وقد وعيت ما قال ، وأحياناً يتمثل لي الملك فيكلمني فأعي ما يقول . قالت عائشة ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وان جبينه ليتفصد عرقاً .

وعن عبيدة بن حميد التيمي - عن ابن موسى بن ابي عائشة عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس انه قال : كان النبي (ص) اذا نزل عليه الوحي يعالج من ذلك شدة قال كان يتلقاه ويحرك شفتيه كي لا ينساه فانزل الله عليه لا تحرك به لسانك لتعجل به[١] .

وقد أشار القرآن الى ما ينتاب الرسول من انفعال فقال « لا تحرك به لسانك لتعجل به . إنَّ علينا جمعه وقرآنه . فاذا قرأناه فاتبع قرآنه » (القيامة ١٦ - ١٩) « فتعالى الله الملك الحق ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضي اليك وحيه وقل ربي زدني علما » (طه ١١٤) .

ان هذا التأثر والانفعال هو مظهر من مظاهر الاغراق في المشاعر ؛ والواقع ان كثيرا من الشعراء والمفكرين يصيبهم مثل هذا الانفعال عند الاغراق في التفكير ومجيء الهام الشعر ، فكيف بالوحي اذا جاء ؟

ويتبين من الروايات التي أوردناها عن ابن سعد من ان الرسول كان

---

(١) ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ١٣١ . البخاري كتاب بدء الخلق الباب ٧ .

عند مجيء الوحي يسمع مثل صلصلة الجرس أو كان يلقي عليه القول، ان الوحي هو سمعي لا بصري ، ويؤيد هذا الآيتان اللتان أوردناهما ، بل ان التنزيل يسمى القرآن من القراءة ، كما وردت كلمة الاقراء « اقرأ باسم ربك الاكرم » (العلق ١) « سنقرؤ فلا تنسى الا ما شاء الله » (الاعلى ٦) ·

لقد تحدى القرآن المنكرين لوحي القرآن ، بأن يأتوا بمثله « وان كنتم في ريب مما نزلناه على عبدنا فأتوا بسورة من مثله » (البقرة ٢٣) « أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين » (يونس ٣٨) « أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين » (هود ١٣) « ام يقولون تقوله بل لا يؤمنون · فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين » (الطور ٣٣ - ٣٤) « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » (الاسراء ٨٨) ·

لقد ادرك المشركون ان القرآن كلام غير عادي ، ولكن عزوه الى الشياطين أو الجن ؛ واتهموا الرسول بالجنون (انظر الاعراف ١٨٤ ، المؤمنون ٧٠ سبأ ٨ ، ٤٦ الحجر ٦ الطور ٢٩ القلم ٢ ، ٥١ التكوير ٢٢)·

واتهموه أيضا بأنه كاهن (انظر الحاقة ٤٢ ، الطور ٢٩) كما اتهموه بأنه شاعر « بل قالوا اضغاث احلام بل افتراه بل هو شاعر » (الانبياء ٥) « ويقولون أئنّا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون » (الصافات ٣٦) « أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون » (الطور ٣٠ أنظر أيضا الشعراء ٢٢٤) وقد رد على هذه التهمة « وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون » (يس ٦٩) · وقد رد القرآن أيضا على التهم السابقة بقوة وشدة وأكد على انها آتية من مصدر علوي هو الله تعالى ، وان فيها حكمة وانقاذا للعالم ·

على ان الملاحظ ان هؤلاء المشركين لم يتهموا الرسول بالتفلسف ، فكأنهم وهم كفار ، رأو ان روح الوحي أقرب الى الشعر والكهانة منها الى الفلسفة ، فأتهموه بذلك · والواقع ان مصدر الشعر هو الالهام **Intuition**

أما مصدر الفلسفة فهو العقل •

والواقع ان الباحثين في نظرية المعرفة أدركوا منذ الازمنة القديمة وجود طريقين للمعرفة المطلقة ، احدهما طريق المنطق والعقل ويتجلى في أوج مظاهره عند الرياضيين ، وأكثر من يتبع هذه الطريقة هم العلماء والمناطقة والفلاسفة ، وأشد من يدافع عنها العقليون **Rationalists** والماديون **Materialists** الذين بلغ التطرف ببعضهم حداً كبيراً فتصوروها الطريقة الوحيدة للمعرفة الصحيحة ، فأنكروا غيرها من وسائل المعرفة •

غير ان هذا التطرف لا ينبغي ان يحملنا على انكار الاهمية الكبرى للطريقة الثانية من المعرفة ، وهي طريقة الالهام التي لا تأتي عن طريق التفكير المادي والتجارب ؛ ولكنها تقودنا الى المعرفة أيضا • فبطريقة الالهام يبدع الشاعر شعره ، والفنان صوره ، والموسيقار ألحانه ؛ وبالالهام يدرك هؤلاء من الصور والعلاقات بين الامور ما لا يدركه الطبيعيون مهما بلغ ذكاؤهم • ولعل كثيرا من الناس مرت به لحظة أو لحظات من التجلي ، يحس بها في فكرة أو رأي خاطف يمر به كلمح البرق ، ويتجلى فيه حل مشكلة اعضلت عليه ، أو جواب مسألة اغلقت عليه ، او فكرة رائعة انكشفت له ، ولم يكن ليراها رغم طول ما فكر فيها • هذه هي الطريقة الثانية للمعرفة : هي وسيلة الالهام بالبصيرة **Intuition** وهي التي بحثها كثير من المفكرين القدماء وكانت من أهم مواضيع الفلسفة الاسلامية ، وساهم المسلمون بقسط وافر في ايضاحها وتبيان أهميتها في كشف أسرار الكون ، وفي علاقتها مع طريق المنطق والفلسفة[1] ، وهي التي بحثها المحدثون ،

---

(١) ان ايراد أسماء كافة الكتب والباحثين المسلمين في هذا الموضوع قد يطول جدا ، نكتفي منه بذكر بحث الغزالي في « احياء علوم الدين » و « المنقذ من الضلال والموصل الى ذي العزة والجلال » و « حي بن يقظان » لابن الطفيل و « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من اتصال » لابن رشد •

وخاصة برجسون ومؤيدوه • والوحي ولا شك أسمى أنواع الالهام لا يقتصر على مجرد منطق العقول الناقص ، بل يخاطب بصائر القلوب ، وبه يعلم الله تعالى الأسرار الكونية ، ويعطي نظرة شاملة لتفسيرها وتوضيحها مما لم تصل اليه العلوم الطبيعية •

الفصل الثامن عشر

مبادىء الاسلام الاولى[1]

الاسلام :

ان الدين الذي دعا الرسول الناس الى اعتناقه يسمى الاسلام « ان الدين عند الله الاسلام » (آل عمران ١٩) ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه » (آل عمران ٨٥) « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا » (المائدة ٣) « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام » (الانعام ١٢) « أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه » (الزمن ٢٢ أنظر أيضا الصف ٧ الحجرات ١٧ التوبة ٧٤) .

ويدعى معتنقو هذا الدين مسلمين « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضاً ارباباً من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بِأنّها مسلمون » (آل عمران ٦٤) « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم مسلمون » (آل عمران ١٠٢) « قل انما يوحى الي انما الهكم اله واحد فهل أنتم مسلمون » (الانبياء ١٠٨) « وما أنت بهادي العمي عن ضلالاتهم ان تُسمع الا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون » (النمل ٨١ أنظر أيضا الروم ٥٣) « ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين » (النحل ٨٩) .

---

(١) لن يتسع النطاق هنا لايراد كافة الابحاث عن الاسلام في اللغة العربية ، لكثرتها ، أما في اللغة الانكليزية فاعمق بحث هو كتاب محمد اقبال « اعادة تكوين الفكر الديني الاسلامي » وكتـاب أمير علي « روح الاسلام » ، وقـد بحث بيل في كتابه « مقدمة القرآن » وسيل في مقدمته لترجمة القرآن ، كثيرا من المؤسسـات الاسلامية التي وردت في الآيات القرآنية .

وان ابراهيم وبنيه ويعقوب ويوسف واسماعيل واسحق والحواريين ومن آمن بموسى ونوح وأهل الكتاب كل هؤلاء ذكر القرآن الكريم بأنهم مسلمون • واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم • ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا انك انت التواب الرحيم ••• ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وانه في الآخرة لمن الصالحين • اذ قال له ربه اسلم قال اسلمت لرب العالمين • ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يا بني ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وانتم مسلمون • أم كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت اذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحق الاهاً واحداً ونحن له مسلمون » (البقرة ١٢٧ ـ ١٣٣) • « رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الاحاديث فاطر السموات والارض انت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلما والحقني بالصالحين » (يوسف ١٠١) « فلما احس عيسى منهم الكفر قال من انصاري الى الله قال الحواريون نحن انصار الله آمنا بالله واشهد بانا مسلمون » (آل عمران ٥٢) « وإذ أوحيت الى الحواريين ان آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد باننا مسلمون » (المائدة ١١١) « وما تنقم منا [السحرة لفرعون] الا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا افرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين » (الاعراف ١٢٦) « وقال موسى يا قوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين » (يونس ٨٤) « وجاوزنا ببني اسرائيل البحر فاتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا حتى اذا ادركه الغرق قال آمنت انه لا اله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل وانا من المسلمين » (يونس ٩٠) « واتل عليهم نبأ نوح اذ قال لقومه ••• فان توليتم فما اسألكم من أجر ان أجري الا على الله وامرت ان أكون من المسلمين » (يونس ٧١ ـ ٧٢) • قالت (بلقيس) يا ايها الملأ اني القي إلي كتاب كريم • انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم • ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين » (النمل ٢٩ ـ ٣١) « قال [سليمان] يا أيها

الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين » (النمل ٣٨) « فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو واوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين » (النمل ٤٢) « الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون • واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين » (القصص٥٣)•

على ان كلمة الاسلام قد تحددت باتباع الدين الذي دعا اليه الرسول وبهذا التحديد يستعمل هذا التعبير حتى اليوم • ولا ريب ان كلمة اسلم واسلام ومسلمون وردت في الآيات المكية غير اننا لا نستطيع أن نحدد بالضبط في أي سنة من البعثة نزلت •

وكلمة الاسلام جذرها الثلاثي سلم بمعنى سلم أو خلص أو لم يصب بأذى أو كسر ومنها كلمة أسلم (وهو الفعل الذي مصدره الاسلام) ومعناها استسلم « بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه » (البقرة ١١٢ أنظر أيضا النساء ١٢٥) « فان حاجوك فقل اسلمت وجهي لله ومن اتبعني » (آل عمران ٢٠) « وامرت أن اسلم لرب العالمين » (غافر ٦٦ أنظر أيضا الانعام ٧١) • ولا ريب ان المقصود منها خضوع المرء لله تعالى وانقياده لأوامره وطاعته لأحكامه والاستسلام له وان لا حول ولا قوة الا بالله • غير ان هذا لا يعني الانقياد الأعمى، كلا بل هو استسلام عن تعقل وتفكير « وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن اسلم فاولئك تحروا رشدا » (الجن ١٤) « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها • قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » (الشمس ٧ ـ ١٠) • والحق ان الاسلام ينادي دائماً باستعمال العقل والتبصر والنظر والتفكير والتدبير • وكلها تعابير تردد ورودها في القرآن وخاصة في الدور المكي • ولا ريب ان الاسلام يتطلب الايمان المنبعث من القلب والعقيدة حتى ان كلمة المؤمنين كثيراً ما كانت مرادفة لكلمة المسلمين •

الوحدانية :

وأساس الاسلام هو الدعوة الى عبادة اله واحد مطلق هو الله تعالى •

لقد كانت عبادة الله معروفة قبل الاسلام • فقد رأينا ان الآيات القرآنية توضح ان المشركين العرب كانوا يعبدون الله ويرون انه خالق كل شيء وانه يرزقهم من السماء والارض ويملك السمع والابصار ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويدبر الأمر وانه رب السماوات السبع ورب العرش العظيم • ولكنهم كانوا يشركون به آلهة أخرى يعتقدون بأنها بنات الله وشفعاؤهم عنده ، وهم يكفرون ببعض نعمه فهو اذاً اعتقاد غير منزه وبعيد عن الوحدانية[1] •

أما الاسلام فقد جاء بفكرة التوحيد المطلق ، وانكر الشرك وهاجم الآلهة التي يدينون بها من دون الله •

monotheistic

ولاشك ان فكرة التوحيد قديمة وهي موجودة عند بعض الامم القديمة • ولعل أشهر من نادى بها من الاقدمين هو اخناتون الذي دعا الى عبادة اله واحد هو آتون وبذل جهداً لنشر دياته ولكنه لقي مقاومة شديدة وأخيرا مات من دون أن يستطيع تثبيت أقدام دعوته •

ثم بنو اسرائيل دعاهم النبي موسى الى التوحيد واستطاع أن يجعلهم يدينون به • غير ان بني اسرائيل كانوا يشعرون بان الله ربهم وهو يفضلهم على العالمين ويحميهم وينصرهم وينتقم لهم من اعدائهم ، فكأن الله ربهم فقط من دون العالمين ، وهي نظرة ضيقة لا تساعد على نشر التوحيد بين الناس • والواقع ان اليهودية ظلت محصورة بالدرجة الاولى بين بني اسرائيل ولم يعتنقها من غيرهم الا القليل • ولعل ذلك راجع الى هذه النظرة الضيقة والتعصب والغرور الذي يضع بني اسرائيل فوق العالمين مما يجعل غيرهم من الشعوب اذا دانوا باليهودية يصبحون أقل من اليهود مرتبة ؛ هذا فضلا عن القيود الشديدة التي كانت تفرضها الديانة اليهودية على اتباعها من صيام وصلوات واحترام السبت وما الى ذلك •

---

(١) انظر ص١٧٠ ـ ١٧٣ •

على ان اليهود قد مهدوا الافكار في الجزيرة العربية الى فكرة الاله الواحد والبعث والحساب والملائكة وغير ذلك[١] .

كما ان النصارى كانت تدين بها ولكن كثيرا من الفرق المسيحية لم تنزه الله فاعتبرت المسيح هو الله أو ابن الله أو انه انسان في الارض واله في السماء أي انه ذو طبيعتين .

والواقع ان القرآن الكريم أكد في عدد من الآيات ان الدعوة الاسلامية هي تصديق لما جاء في الكتب المقدسة وطلب من المشركين أن يسألوا أهل الذكر في ذلك « ان هذا لفي الصحف الاولى صحف ابراهيم وموسى » (الاعلى ١٨ - ١٩) « انه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين . وانه لفي زبر الاولين . أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني اسرائيل » (الشعراء ١٩٢ - ١٩٧) « واذ صرفنا اليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا انصتوا فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين . قالوا يا قومنا انا سمعنا كتابا انزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي الى الحق والى طريق مستقيم » (الاحقاف ٢٩ - ٣٠) « ومن قبله كتاب موسى اماماً ورحمة وهذا الكتاب مصدق لسانا عربيا لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين » (الاحقاف ١٢) « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم اليه . الله يجتبي اليه من يشاء ويهدي اليه من ينيب » (الشورى ١٣) « قل آمنوا به أو لا تؤمنوا ان الذين أوتوا العلم من قبله اذا يتلى عليهم يخرون للاذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا ان كان وعد ربنا لمفعولا » (الاسراء ١٠٧ - ١٠٩) « قل أرأيتم ان كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني اسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم ان الله لا يهدي القوم الظالمين » (الاحقاف ١٠) « ويقول

---

(١) سيرة ابن هشام : ج١ ص٢٣١ . ابن سعد : ج١ قسم١ ص١٠٦ .

الذين كفروا لست مرسلا قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب » والذين آتيناهم الكتاب يعلمون انه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين » (البقرة ١٤٧) فان كنت في شك مما أنزلنا اليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين » (يونس ٩٤) .

الحنيفيـة :

وفي القرآن آيات متعددة تشير الى الدين الحنيف الذي هو ملـة ابراهيم التي جاء الاسلام لتجديدها « وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين » (البقرة ١٣٥) « قل انني هداني ربي الى صراط مستقيم • ديناً قيما ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين » (الانعام ١٦١) « ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين • ان أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين » (آل عمران ٦٧ - ٦٨) « ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين » (النحل ١٢٣) « ان ابراهيم كان امة قانتا لله حنيفا ولم يَكُ من المشركين » (النحل ١٢٠) « ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملـة ابراهيم حنيفا » (النساء ١٢٥) « قل يا أيها الناس ان كنتم على شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم وامرت أن أكون من المؤمنين • وان أقم وجهك للدين حنيفا ولا تكونن من المشركين » (يونس ١٠٤ - ١٠٥) « فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور • حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق » (الحج ٣٠ - ٣١) « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرتَ الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله • ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (الروم ٣٠) « اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفا »

(الانعام ٧٩) « وما امروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة » (البينة ٥) •

يتبين من هذه الآيات أن الحنيفية هي الدين الصحيح ، وانها ديانة ابراهيم الخليل وانها تتميز عن الديانات الموحدة الاخرى كاليهودية والنصرانية ، وهي تمثل الدين الاصلي الحقيقي النقي المقابل للوثنية أو لديانات أهل الكتاب المشوهة •

وقد وردت الحنيفية أيضا في عدد من الاحاديث النبوية فقد روى ابن حنبل عن يحيى بن سعيد عن هشام عن قتادة عن مطرف عن عياض بن حمار : ان النبي (ص) خطب ذات يوم فقال في خطبته ان ربي عز وجل أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني في يومي هذا : كل مال نحلته عبادي حلال واني خلقت عبادي حنفاء كلهم وانهم أتتهم الشياطين فأضلتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما احللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي •

وروي أيضا عن اسحق بن عيسى عن يحيى بن سليمان عن عبدالله ابن عثمان بن خثيم عن سعيد بن أبي راشد عن التنوخي انه جاء رسول الله •• (قال ممن أنت ، فقلت أنا أحد تنوخ ، قال هل لك في الاسلام الحنيفية ملة أبيك ابراهيم ••) • وروى أيضا عن سليمان بن أبي داود عن عبدالرحمن عن أبيه (قال لي عروة ان عائشة قالت قال رسول الله (ص) يومئذ لتعلم يهود ان في ديننا فسحة اني ارسلت بحنيفية سمحة) ؛ وعن أبي المغيرة عن معاذ بن رفاعة عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي امامة •• (فقال النبي (ص) انـي لم ابعث باليهودية ولا بالنصـرانية ولكني بعثت بالحنيفية السـمحة) • وعن يزيد عن محمد بن اسـحق عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس (قيل لرسول الله (ص) أي الاديان أحب الى الله قال الحنيفية السمحة) •

---

(١) هذه الاحاديث مواضعها من المسند بالتتابع ج ٤ ص ١٦٢ ، ج ٣ ص ٤٤٢ ، ج ٦ ص ١١٦ ـ ٢٣٣ ، ج ٥ ص ٢٦٦ ، ج ١ ص ٢٣٦ •

وقد ورد ذكر الحنيف في بعض الابيات الجاهلية والاسلامية الاولى فقال ذو الرمة يصف الحرباء :

يظل بها الحرباء للشمس ماثلاً   على الجذل الا انه لا يكبر
اذا حول الظل العشي رأيته   حنيفا وفي قرن الضحى يتنصر

ويقول ابن بري في شرح ذلك انه اذا حول الظل العشي وذلك عند ميل الشمس الى جهة المغرب صار الحرباء متوجها للقبلة فهو حنيف ، فاذا كان في أول النهار فهو متوجه للشرق لان الشمس تكون في جهة المشرق فيصير متنصراً لان النصارى تتوجه في صلاتها جهة المشرق[١] .

وقال صخر الغي :

كأن تواليه بالملا   نصارى يساقون لاقوا حنيفا

ويقول السكري في شرح هذا البيت يسوق فيها صوت كصوت النصارى يقول يسوقون في عيد لهم لاقوا حنيفا فاحتفلوا له في هذا العيد ، والحنيف من غير دينهم فاحتفلوا له وكذلك من لقى من على غير دينه فاخلط . يقول لا يكاد يبرح مثل هؤلاء النصارى الذين عزفوا[٢] .

وقال أيمن بن خريم :

وصهباء جرجانية لم يطف بها   حنيف ولم تنفر لها ساعة قدر[٣]

وقال جرير :

وحالفتهم للوم يا آل درهم   خلاف النصارى دين من يتحنف[٤]

وقد جمع ابن منظور آراء كثير من اللغويين في تحديد معنى الحنيف فقال : (الحنيف المائل من خير الى شر ومن شر الى خير ...) تحنف مال الحنيف المسلم الذي يتحنف عن الاديان أي يميل الى الحق ، وقيل هو الذي يستقبل قبلة البيت الحرام على ملة ابراهيم (ص) وقيل هو

---

(١) لسان العرب : ج ١٣ ص ٢٠٦ .
(٢) ديوان الهذليين : ج ٢ ص ٧١ - ٧٢ .
(٣) الاغاني : ج ١٦ ص ٤٤ . معجم البلدان : ج ٢ ص ٥١ .
(٤) نقائض جرير والفرزدق ص ٥٩٥ .

المخلص وقيل هو من أسلم من أمر الله فلم يتلو في شيء . وقال أبو عبيدة في قوله عز وجل « بل ملة ابراهيم حنيفا » قال من كان على دين ابراهيم فهو حنيف عند العرب ، وكان عبدة الاوثان في الجاهلية يقولون نحن حنفاء على دين ابراهيم ، فلما جاء الاسلام سموا المسلم حنيفا ، وقال الاخفش الحنيف المسلم ، وكان في الجاهلية يقال لمن اختتن وحج البيت حنيفاً لان العرب لم تتمسك بشيء من دين ابراهيم غير الختان وحج البيت ، فكل من اختتن وحج قيل له حنيفاً فلما جاء الاسلام تمادت الحنيفية فالحنيف المسلم . وقال الزجاج ومعنى الحنيفية في اللغة الميل ، والمعنى ان ابراهيم حنيف الى دين الله ودين الاسلام ... الفراء الحنيف من سنته الاختتان . وروى الازهري عن الضحاك في قوله عز وجل حنفاء لله غير مشركين به قال حجاجاً ، وكذلك قال السدي ... وقد قيل ان الحنف الاستقامة .. أبو منصور الحنيفية في الاسلام الميل اليه ... الجوهري الحنيف المسلم وقد سمي المستقيم بذلك ، وتحنف الرجل أي عمل عمل الحنيفية ويقال له اختتن ويقال اعتزل الاصنام وتعبد .

قال جران العود :

لما رأين الصبح بادرن ضوءه   رسيم قطا البطحاء أو هن أقطف
وأدركن اعجازاً من الليل بعدما   أقام الصلاة العابد المتحنف

وقال أبو ذؤيب :

أقامت به كمقام الحنيف   شهري جمادي وشهري صفر

وقال الزجاج : الحنيف في الجاهلية من (كان يحج البيت ويغتسل من الجنابة ويختتن فلما جاء الاسلام كان الحنيف المسلم وقيل له حنيفاً لعدوله عن الشرك)[١] ويتضح من كلام ابن بري ان الحنيف كان يتوجه الى القبلة في صلاته . ومن كلام صخر الغي وجرير انه يختلف عن النصارى . ومما رواه ابن منظور ان الحنيف هو المنحرف أو المائل وانه يدين بدين ابراهيم ويستقبل القبلة ويختتن ويحج البيت ويعتزل الاصنام

---

(١) لسان العرب : ج ١٠ ص ٤٠٢ ـ ٤٠٤ .

ويغتسل من الجنابة .

لقد روت الاخبار أسماء عدد من هؤلاء الحنفاء فيقول ابن اسحق : (واجتمعت قريش يوماً في عيد لهم عند صنم من أصنامهم كانوا يعظمونه وينحرون له ويعكفون عنده ويديرون به ، وكان ذلك عيداً لهم في كل سنة يوماً ، فخلص منهم أربعة نفر نجيا ثم قال بعضهم لبعض تصادقوا وليكتم بعض على بعض ، قالوا أجل وهم ورقة بن نوفل بن أسد بن عبدالعزى بن قصي .. وعبدالله بن جحش بن أسد بن خزيمة ، وكانت أمه اميمة بنت عبدالمطلب ، وعثمان بن أسد بن عبدالعزى بن قصي ، وزيد بن عمرو بن نفيل بن عدي بن كعب بن لؤي . فقد قال بعضهم لبعض تعلموا والله ما قومكم على شيء . لقد اخطأوا دين أبيهم ابراهيم ما حجر نطيف به ولا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ، يا قوم التمسوا لأنفسكم فانكم والله ما أنتم على شيء فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية دين ابراهيم . فأما ورقة بن نوفل فاستحكم في النصرانية واتبع الكتب من أهلها حتى علم علماً من أهل الكتاب . وأما عبدالله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم ثم هاجر مع المسلمين الى الحبشة ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان مسلمة ، فلما قدمها تنصر وفارق الاسلام حتى هلك هناك نصرانيا . وأما عثمان بن الحويرث فقدم على قيصر ملك الروم فتنصر وحسنت منزلته عنده ، وأما يزيد بن عمرو بن نفيل فوقف ولم يدخل في يهودية ولا نصرانية ، وفارق دين قومه فاعتزل الاوثان والميتة والدم والذبائح التي تذبح على الاوثان ونهى عن قتل الموؤدة وقال اعبد رب ابراهيم وبادى قومه بعيب ما هم فيه[1] . ويذكر ابن قتيبة في الفصل الذي عنوانه (قصة من كان على دين قبل مبعث النبي (ص) هؤلاء ويضيف اليهم أمية بن أبي الصلت وكان أمية قد قرأ الكتب ورغب عن عبادة الاوثان وكان يخبر بأن نبياً يبعث قد اظلّ زمانه ، فلما سمع بخروج النبي (ص)

---

(١) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٢٤٢ _ ٢٤٤ . المحبر : ص ١٧١ _ ١٧٢ . وأنظر عن زيد بن عمرو بن نفيل وعلاقته بالرسول الاشتقاق : ص ٨٤ . ابن سعد : ج ٣ قسم ١ ص ٢٧٦ .

كفر حسداً له ولما نشد رسول الله (ص) شعره آمن لسانه وكفر قلبه وقس بن ساعدة الايادي ، وهو حكيم العرب ، وذكر رسول الله (ص) انه رآه يخطب بعكاظ على جمل أحمر واقتص أبو بكر قصته وأنشد شعره . وأبو قيس صرمة بن أبي أنس وهو من بني النجار ، وكان ترهب ولبس المسوح وفارق الاوثان وهم بالنصرانية ثم أمسك عنها ودخل بيتا له فاتخذه مسجدا لا يدخله طامث ولا جنب وقال اعبد رب ابراهيم ، فلما قدم رسول الله (ص) المدينة أسلم وحسن اسلامه ، وهو القائل في رسول الله ... وخالد بن سنان بن غيث هو من بني عبس بن بغيض وروي ان رسول الله (ص) قال ذلك نبي أضاعه قومه .. وأتت ابنته رسول الله (ص) فسمعته يقرأ قل هو الله أحد فقالت كان أبي يقول ذا)[١] .

يتبين من هذه النصوص التي تردد في الكتب العربية ان هؤلاء الحنفاء كانوا في الحجاز وانهم مهدوا الافكار لدعوة الرسول . ويظهر ان عددهم كان ملحوظا وربما كان هناك آخرون لم يردنا عنهم شيء ولم يقتصروا على الحجاز وحده بل كانوا في اليمامة أيضا على الاقل حيث تقيم قبيلة « حنيفة » وحيث ادعى مسيلمة انه عبدالرحمن وأدعى النبوة ودعا الى عبادة الرحمن[٢] .

---

(١) المعارف : ص ٢٧ - ٢٩ . سيرة ابن هشام : ج ٢ ص ١٣٠ - ١٣٣ .

(٢) يقول ابن سعد : انه « بعثت قريش النضر بن الحرث بن علقمة وعقبة بن أبي معيط وغيرهما الى يهود يثرب وقالوا لهم سلوهم عن محمد ، فقدموا المدينة فقالوا أتيناكم لأمر حدث فينا غلام ... يقول قولا عظيما يزعم انه رسول الرحمن ولا نعرف رحمانا الا رحمان اليمامة » ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ١٠٨ . انظر أيضا تفسير الطبري ج ١٠ ص ٧٠ ، انظر عن دعوة مسيلمة للرحمن الطبري : ج ٣ ص ٢٤٥ - ٢٤٦ . البلاذري : فتوح البلدان ص ١١٣ . ويروي الطبري في تفسيره ج ١ ص ٤٤ « عن عطاء يقول كان الرحمن فلما اختزل الرحمن من اسمه كان الرحيم . والذي أراد ان شاء الله عطاء بقوله هذا ان الرحمن كان من اسماء الله التي لا يتسمى بها أحد من خلقه فلما تسمى به الكذاب مسيلمة وهو اختزاله اياه يعني اقتطاعه من اسمائه لنفسه أخبر الله جل ثناؤه ان اسمه الرحمن الرحيم » .

لا تعطينا المصادر معلومات وافية دقيقة واضحة عن دين وعادات هؤلاء الحنفاء . وكلما يمكن استنتاجه من هذه المعلومات القليلة ان عقائدهم هي احتجاج على تعدد الآلهة والشرك وعبادة الاصنام . والطقوس الوثنية وانها تميل الى العزلة والتوحيد وان معتنقيها كانوا يقدرون الاديان السماوية ، ولكنهم لم يكونوا يهودا أو نصارى . وان هذه الديانة هي أقرب الى الاسلام ، وهي تؤكد على صلتها بدين ابراهيم أكثر من تأكيدها على عبادة الله ، وليس هناك اشارة الى اعتقادهم بالبعث ، ويظهر انهم كانوا يميلون الى العزلة والتحنث[1] .

والحق اننا لا نعلم كيف كان العرب في الجاهلية يتصورون دين ابراهيم اللهم الا ما رواه ابن هشام وابن الكلبي من ان العرب بعد أن دانوا بالشرك بقي فيهم (على ذلك بقايا من عهد ابراهيم يتمسكون بها من تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة والوقوف على عرفة والمزدلفة وهدي البدن والاهلال بالحج والعمرة مع ادخالهم فيه ما ليس منه)[2] .

الصابئة :

وهناك فرقة أخرى هي الصابئة ، ورد ذكرها في القرآن عرضاً في ثلاث آيات (ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) (البقرة ٦٢) « ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (المائدة ٦٩) « ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين

---

(١) لقد بحث بعض المستشرقين في الحنيفية : ومنهم بوهل في مقال في دائرة المعارف الاسلامية ، وبيل في مجلة العالم الاسلامي العدد ٢٠ سنة ١٩٣٠ ، وفارس وكلدن في مجلة الجمعية الشرقية الفلسطينية العدد ١٩ سنة ١٩٣٩ وكذلك وات في الملحق الثاني من كتابه « محمد في مكة » .

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٨٢ . ابن الكلبي الاصنام ص ٦ .

والنصارى والمجوس والذين اشركوا ان الله يفصل بينهم يوم القيامة ان الله على كل شيء شهيد » (الحج ١٧) •

ويتبين من هذه الآيات ان الصابئة فرقة دينية مستقلة عن غيرها وانها ممن آمن بالله واليوم الآخر • وانها تتميز عن اليهود والنصارى • ومن الواضح انهم لا علاقة لهم بصابئة حران لان هؤلاء كانوا من عباد الآلهة سين ثم انتحلوا اسم الصابئة في زمن المأمون تخلصاً مما أراد أن يفرضه عليهم من عقوبة[١] • أما صابئة العراق فهم المندائيون أو المغتسلة وعبادتهم مزيج من بقايا العبادة البابلية القديمة والمسيحية مع احترام خاص ليوحنا المعمدان[٢] • ولا يوجد دليل على كونهم كانوا في الحجاز •

وكلمة صبأ في اللغة العربية تعني مال ، وقد وردت في القرآن بهذا المعنى « والا تصرف عني كيدهن اصب اليهن واكن من الجاهلين » (يوسف ٣٣) ، وكانت العرب تطلق كلمة صابئي على من يفارق دين آبائه واجداده ويدخل ديناً جديداً • وقد دعا المشركون الرسول والمسلمين في البداية صابئة ، فيروي ابن هشام ان عمر بن الخطاب لما اسلم نادى جميل ابن معمر بأعلى صوته « يا معشر قريش وهم في انديتهم حول باب الكعبة الا أن عمر بن الخطاب قد صبا قال ويقول عمر من خلفه كذب ولكن قد اسلمت وشهدت ان لا اله الا الله وان محمداً عبده ورسوله »[٣] • ويروي ابن سعد ان الرسول عندما كان يدعو الناس الى الاسلام كان يسير (أبو لهب وراءه يقول لا تطيعوه فانه صابيء كذاب)[٤] ولما أراد أبو لهب أن

---

(١) ابن النديم : الفهرست ص ٤٤٥ • ويقول المسعودي ان الصابئة هم الحنفية (التنبيه والاشراف ص ٧٩ ، ١٣٧) •

(٢) خير بحث عن صابئة العراق هو كتاب المسز دراور « المندائيون في العراق » (بالانكليزية) وأنظر ايضا كتاب عبدالرزاق الحسني عن الصابئة •

(٣) سيرة ابن هشام : ج ١ قسم ١ ص ٣٧ • الاشتقاق : ص ٧٩ ـ ٨١ •

(٤) ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ١٤٥ •

يحمي الرسول بعد وفاة أبي طالب قال ابن الغيطلة (يا معشر قريش صبا أبو عتبة)[١] (وروى البخاري في التاريخ وأبو زرعة الدمشقي والبغوي وابن أبي عاصم من طريق الوليد بن عبدالرحمن الجرشي عن الحارث ابن الحارث الغامدي قال : قلت لابي ونحن بمنى ما هذه الجماعة ؟ قال هؤلاء اجتمعوا على صابيء لهم • قال فتشرفت فاذا برسول الله (ص) يدعو الناس الى توحيد الله وهم يردون عليه[٢] ، ويروي ابن سعد عن اسحق بن يوسف الازرق عن القاسم بن عثمان البصري عن انس بن مالك : خرج عمر متقلداً السيف فلقيه رجل من بني زهره قال أين تعمد يا عمر أريد أن أقتل محمداً قال وكيف تأمن من بني هاشم وبني زهره وقد قتلت محمداً قال فقال عمر ما أراك الا قد صبوت وتركت دينك الذي انت عليه قال أفلا أدلك على العجب يا عمر ان ختنك واختك قد صبوا وتركا دينك الذي انت عليه)[٣] •

ومما تقدم نستنتج ان العرب كانت ترى ان الصابئة من الموحدين ، وانهم وصفوا المسلمين الاول بهذا الوصف لانهم لم يدركوا الفرق بين الصابئة وبين الاسلام في أدواره الاولى ومن قبل أن تتوضح معالمه • على اننا لا نعلم تفاصيل هذه النحلة التي كانت تعبد الله وتختلف عن اليهود والنصارى كما يتجلى ذلك من آيات القرآن الكريم • ولم تذكر الكتب اسم أي شخص صابيء •

يتضح من كل ما تقدم ان فكرة اله أكبر كانت موجودة عند القرشيين كما ان فكرة التوحيد كانت موجودة منذ القديم ، وانها كانت عند ظهور الاسلام موجودة عند اليهود والنصارى والاحناف والصابئة • ولا شك ان عقيدة اليهودية والمسيحية في الله تختلف عن عقيدة الاسلام • فاليهودية ترى ان العزير ابن الله كما ترى ان نعمه وبركاته تقتصر على بني اسرائيل

---

(١) ابن سعد : ج ١ قسم ١ ص ١٤١ •
(٢) ابن حجر : الاصابة ج ١ ص ٢٧٥ •
(٣) ابن سعد : ج ٣ ص ١٩١ •

الذين هم في رأيهم شعب الله المختار • أما المسيحية فقد كانت فرقاً متعددة بعضها يرى ان المسيح هو الله وبعضها يرى انه ابن الله وبعضها يراه ذا طبيعتين لاهوتية وناسوتية • وقد ناقش القرآن هذه المزاعم ورد عليها في الآيات التي نزلت في المدينة وأنكر عليهم عدم التنزيه •

أما العرب فقد كانوا يشركون به آلهة أخرى هم بنات الله في زعمهم•

التوحيد في الاسلام :

أما العقيدة الاسلامية فأساسها ان لا اله الا الله وحده لا شريك له لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، وانه تعالى رب العالمين ورب كل شيء ورب السماوات والارض والمشرق والمغرب ، وهو خالق كل شيء وهو على كل شيء قدير ، وهو الذي يحيي ويميت ويعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور ، وسلطاته واسعة مطلقة يخضع له الكل وينبغي أن يستسلموا له • ولا شك ان الفكرة العامة في الاسلام عن الله تعالى هي العظمة والعدل والخير فهو العادل الذي يحاسب الانسان بالقسطاس المستقيم ومن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ، ولكنه في نفس الوقت رحيم بعباده • ولا ريب ان تكرر كلمة الرحمن الرحيم من شأنها أن تذكر المسلم دائما برحمة الله وتجعله لا يقنط من روحه وعدله كما يجب أن يكون شكورا ولا يكفر بنعمه •

والله تعالى موجود في كل مكان فلا ينحصر في مكان دون آخر ويدركه الانسان عن طريق الفطرة والبصيرة بالدرجة الاولى ، كما يمكن أن يدركه عن طريق التفكير في آثاره وأعماله والحق ان الاسلام يتطلب التأمل والتفكير والتبصر والتدبر والنظر • وقد تردد الامر بذلك في القرآن في مواضع كثيرة جدا • فالاسلام لا يفرض العقيدة بالله فرضا تلقينيا دوكماتيكيا ولا يتطلب من البشر الانقياد الاعمى •

ان هذا التفكير مطلوب من كل شخص ويمكن أن يمارسه أي انسان كان وحيثما كان • فليس في الاسلام طبقة من الكهنوت تكون واسطة

بين الله والناس • ولكن يجدر التأكيد بأن ادراك الله واثبات وجوده لا يتم بالطريقة الرياضية أو المختبرية ، اذ ان الخبرة الدينية قائمة بالدرجة الاولى على البصيرة والشعور الذاتي الباطني •

الملائكـــة :

ومن المعتقدات الاساسية في الاسلام الملائكة « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة » (البقرة ١٧٧ أنظر أيضا البقرة ٢٨٥) « ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم لآخر فقد ضل ضلالا بعيدا » (النساء ١٣٦)•

لقد ورد ذكر الملائكة في القرآن بصيغة المفرد في اربع عشرة آية وبصيغة التثنية مرتين وبصيغة الجمع في اربع وستين آية • وقد ذكرت أسماء بعضهم فورد اسم جبريل في ثلاث آيات (البقرة ٩٧ و٩٨ التحريم ٤) وميكال مرة واحدة (البقرة ٩٨) وذكر مالك مرة واحدة (الزخرف ٧٠) وملك الموت مرة واحدة (السجدة ١١) أما الآيات الباقية فقد ذكرت فيها الملائكة كاسم جنس •

لقد كان المشركون يعتقدون بالملائكة ويرون انها اناث وانها بنات الله[1]• وقد انكر الاسلام كون الملائكة بنات الله وانكر عبادتهم لأنها تناقض مبدأ الوحدانية الاساسي ولكنهم عباد مكرمون وقد خلقوا من قبل أن يخلق آدم ثم انه تعالى علم آدم الاسماء كلها ثم عرضها عليهم (البقرة ٣٠ - ٣١) وقد أمرهم أن يسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى واستكبر ، كما سنتحدث عنه فيما بعد • والملائكة عباد الرحمن (النساء ١٧٢) يشهدون بأن لا اله الا هو (آل عمران ١٨) وهم يخافونه (الرعد ١٣) ويسجدون له بتواضع ولا يستكبرون (النحل ٤٩) وهم اولو اجنحة مثنى وثلاث ورباع (فاطر ١) ويوم القيامة يأتي الله والملك صفا صفا (الفجر ٢٢)

---

(١) انظر ص ١٧٣ - ١٧٥ •

وهم يحفون به (الزمر ٧٥) ويحمل عرش الله منهم ثمانية (الحاقة ١٧) وهم يستغفرون لمن في الارض (الشورى ٥) ويصلون على النبي (الاحزاب ٥٦) •

ويصطفي تعالى من الملائكة رسلا الى البشر (الشورى ٥١ الزخرف ٨٠) وهم ينزلون بالروح (النحل ٢) وقد كلمت الملائكة زكريا ومريم (آل عمران ٣٩ مريم ٤٢ و ٤٥) • وقد امدّ الله تعالى المسلمين في بدر بثلاثة آلاف (آل عمران ١٢٤) وفي الخندق بخمسة آلاف (آل عمران ١٢٥) وهو يمد المسلمين بألف من الملائكة مسومين (الانفال ١٩) •

والملائكة تلعن الكفار (البقرة ١٦١ آل عمران ٨٧) وتبسط أيديها عليهم في غمرات الموت (الانعام ٩٣) • وهم يوم القيامة يضربون وجوه الكفار وأدبارهم (الانفال ٥٠ ، محمد ٢٧) •

ابليس :

ومن الملائكة في الأصل ابليس وقد وردت قصته في سبع سور ، كما ورد ذكره في سورتين اخريين • وفي سورة الاعراف والحجر تفصيل لقصته « ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس لم يكن من الساجدين • قال ما منعك ألا تسجد اذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين • قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج انك من الصاغرين • قال انظرني الى يوم يبعثون • قال انك من المنظرين • قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم • ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم ومن أيمانهم وعن شمايلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين • قال اخرج منها مذءوماً مدحورا لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين » (الاعراف ١١ ـ ١٨) • وفي آية أخرى يصف القرآن ابليس بأنه كان من الجن (الكهف ٥٠) •

وهناك آيتان تشيران صراحة الى أن بعض المشركين كانوا يعبدون

ابليس « ولقد صدق عليهم ابليس ظنه فاتبعوه الا فريقا من المؤمنين » (سبأ ٢٠) « واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهو لكم عدو بئس للظالمين بدلا » (الكهف ٥٠) • وهنا آية أخرى تشير الى أن لابليس جنوداً « فكبكبوا فيها هم والغاوون • وجنود ابليس اجمعون » (الشعراء ٩٤ -٩٥) •

ولا ريب أن ابليس اسم علم مفرد كان ملكا ولكن كبرياءه الذي دفعه الى عدم السجود لآدم مما سبب طرده من الجنة وسمح له تعالى بأن يغوي آدم ويخرجه من الجنة ثم يغوي بني آدم •

الشـــيطان :

لقد ذكر القرآن أيضا ان الذي أغوى آدم فأخرجه من الجنة هـو الشيطان (البقرة ٣٦ ، الاعراف ٢٧ ، طه ١٢٠) مما قـد يستنتج منه ان ابليس هو الشيطان • وقد ترددت كلمة الشيطان بصيغة المفرد في سبعين آية مكية ومدنية وبصيغة الجمع بثماني عشرة آية مكية وكلها بأل التعريف الا في ثلاث آيات (الحجر ١٧ ، التكوير ٢٥ ، الزخرف ٣٦) •

والشيطان كفور لربه (الاسراء ٢٧) وعصي للرحمن (مريم ٤٤) وهو الذي أزل آدم فأخرجه من الجنة (البخرة ٣٦ ، الاعراف ٢٧ ، طه ١٢٠) وسبب الخصومة البشرية الاولى بين هابيل وقابيل (الاعراف ٢٠) واثر في الامم الضالة (النحل ٦٣ ، القصص ١٥) •

والشيطان للانسان عدو مبين (الاعراف ٢٢ ، يوسف ٥ ، الاسـراء ٥٣ ، القصص ١٥ ، فاطر ٦ ، الزخرف ٦٢) خذول له (الفرقان ٢٩) يعد الناس الغرور (النساء ١٢٠ ، الاسراء ٦٤) ويريد أن يضلهم ضلالا بعيدا (النساء ٣٠) وهو يعد الناس الفقر ويأمرهم بالفحشاء (البقرة ٢٦٨ ، النور ٢١) ويستزلهم ببعض ما كسبوا (آل عمران ١٥٥) ومن أعماله الخمر والميسر والأنصاب والأزلام وبهـا يحـاول أن يوقع بين الناس العداوة

والبغضاء (المائدة ٩٠ و ٩١) وهو اسوأ قرين (النساء ٣٨) •

والشياطين أولياء الذين لا يؤمنون (النساء ٧٦ ، الاعراف ٢٧) وهم الذين يوحون الى أوليائهم ليجادلوا المسلمين (الانعام ١٢١) وينبغي أن يقاتل أولياؤه (النساء ٧٦) الذين هم في خسران مبين (النساء ١١٩) وقد أرسل تعالى الشياطين على الكافرين تؤزهم (مريم ٨٣) وقد زين تعالى السماء بمصابيح وجعلها رجوماً للشياطين (الملك ٥) •

والشيطان يقر بالله تعالى ويخافه (ابراهيم ٢٥٧) ولكنه يسخر من الناس ويحاول أن يضلهم (يوسف ٤٢ ، الحج ٥٢) وهو خصم للمسلمين (المجادلة ٩) •

ولا تقتصر محاولات الشيطان على البشر بل تمتد حتى الى الانبياء « وما ارسلنا قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى القى الشيطان في امنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم » (الحج ٥١) وهو يحاول أن ينسى الرسول « واذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فاعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره واما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين » (الانعام ٦٨) •

والشياطين تنزل على كل أفاك أثيم (الشعراء ٢٢) واما الوحي والقرآن فهو من الله وما هو بقول شيطان رجيم ؛ وللجن شياطين تغويهم •

ومما تقدم يظهر جلياً ان الشيطان هو الذي يلعب الدور الاول في افساد الناس وغوايتهم واخلالهم وانه مصدر الشرور في العالم وان كان في قرارة نفسه يخاف الله واذا كانت هناك آية « بل عبدوا الشيطان أكثرهم لا يعلمون » فتفسيرها انهم اخطأوا وعبدوا الشيطان من دون ان يعلموا فانهم يعبدون الشيطان يدلك على هذا ان القرآن لم يذكر في غير هذه الآية ان الشيطان من معبوداتهم كما لم يرد عن العرب انهم عبدوا الاهاً هو الشيطان أو انهم عبدوا اله الشر •

ان استعمال كلمة الشياطين بصيغة الجمع تدل على أنهم جنس وان

كانت الآيات لا تبين اسماءها ولا عن علاقة الشيطان وهو ابليس ببقية الشياطين .

الجن :

لقد ورد ذكر الجن في القرآن في ثلاثين آية مكية وهي مخلوقة من نار (الحجر ٢٧ ، الرحمن ١٥) ومنهم ابليس الذي هو ملك ايضا (الكهف ٥٠) وان أصلهم الناري وكون ابليس منهم يظهر علاقتهم بالملائكة . غير انهم يختلفون عن الملائكة في امور منها ان منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وانهم كانوا طرائق قددا (الجن ١١) فمنهم المسلمون الذين تحروا رشداً والقاسطون الذين هم لجهنم حطبا (الجن ١٤ و ١٥) وكان سفهاؤهم يقولون على الله شططاً (الجن ٤) وقد ظنوا ان لن يبعث الله أحداً (الجن ٧) ولكن نفراً منهم سمع القرآن منه (الاحقاف ٢٩ ، الجن ١) مما يدل على معرفتهم باللغة العربية ، فآمنوا به ولن يشركوا بربهم أحداً (الجن ٢) ولكن فريقاً منهم لم يؤمن وسيحاسبهم الله يوم القيامة ويدخل كثيرا منهم في جهنم ليعذبه فيها على سوء عمله (الاعراف ٣٨ و ١٣٧٩ ، الرحمن ٣٩ ، السجدة ١٣) .

من هذا يتبين انهم وان اتفقوا مع الملائكة في مادة خلقهم وهي النار وفي بعض الخصائص والاحوال الا أن أحوالهم أشد شبهاً بأحوال الانس. ويقترن ذكرهم بالانس في عشر آيات ، فهم ليسوا جميعا بمهتدين وان الرسل تأتيهم (الانعام ١٣٠) وقد استمع بعضهم للنبي وصاروا مسلمين ، وكانت جيوش سليمان منهم ومن الانس (النحل ١٧) وقد أتاه أحدهم بعرش بلقيس ويبدو انهم لا يرون بالعين الانسانية اذ لم يشر القرآن الى ان الانس ترى الجن ولم يذكر انهم سخروا لغير سليمان . ولا يعتبر الايمان بهم جزءاً أساسيا من العقيدة الاسلامية .

ولعلهم اذا مسوا انسانا صار شاذاً أي به جنة (الاعراف ١٨٤ ، المؤمنون ٢٥ و ٧٠ ، سبأ ٨ و٤٦) وقد اتهم المشركون الرسول بأن به جنة وهو اتهام باطل .

البعث والقيامة :

ومن المبادىء الاساسية في الاسلام فكرة البعث والقيامة فان الله تعالى خالق كل شيء والقادر على كل شيء سوف يعيد الخلق كما انشأه أول مرة وينشر الناس من القبور ويبعثهم الى الحياة • وقد سمي هذا اليوم في القرآن بعدة أسماء منها يوم الآخرة (وقد وردت في مائة وعشر آيات) ويوم الآخر (في ستة وعشرين آية كلها تقريبا مدنية) ويوم القيامة (في سبعين آية) والحشر (في ثلاثين آية) ويوم البعث (في ثلاث آيات عدا مشتقات هذه الكلمة) ويوم الدين (في سبع آيات) ويوم الفصل) في ست آيات (ويوم الحساب (في اربع آيات) ويوم الجمع ويوم التلاقي ويوم الحسرة ويوم الآزفة والصاخة والقارعة والتغابن (وقد ذكرت كل منها في آية) •

ويأتي يوم القيامة بغتة (الانعام ٣١ و٤٤ و٤٧ ، الاعراف ٩٥ و١٨٧ ، يوسف ١٠٧ ، الانبياء ٤٠ ، الحج ٥٥ ، الشعراء ٢٠٢ ، الزمر ٥٥ ، الزخرف ٦٦ ، محمد ١٨)• وهو يأتي بصيحة (يسن ٢٩ و٤٩ و٥٣ ص١٥ ق ٤٢) أو بصيحتين « ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الارض الا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون واشرقت الارض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون » (الزمر ٦٨ – ٦٩) وتتم هذه الصيحة بأن ينفخ في الصور (الانعام ٧٣ ، الكهف ٩٩ ، طه ١٠٢ ، المؤمنون ١٠١ ، النحل ٨٧ ، يسن ٥١ ، الزمر ٦٨ ق ٢٠ ، الحاقة ١٣ سبأ ١٨) •

وعندما تقوم القيامة ترج الارض رجا (الواقعة ٥) أما الجبال فتسير سيرا (الطور ١٠ ، التكوير ٣ ، الكهف ٤٧) وتبس بسا (الواقعة ٥) تنسف (المرسلات ١٠) وتدك دكة واحدة (الحاقة ١٤) وتصبح كالعهن (المعارج٩ ، القارعة ٥) وتصير سرابا (النبأ ٢٠) أما البحار فتفجر (الانفطار ٣) وتسجد (التكوير ٦) • وأما السماء فتنفطر (الانفطار ١) وتكشط (التكوير ١١)

وتفرج (المرسلات ٩) وتنشق (الحاقة ١٦ ، الانشقاق ١ ، الفرقان ٢٥) وتأتي بدخان مبين (الدخان ١٠) وتمور موراً (الطور ٩) وتطوى كطي السجل للكتب (الانبياء ١٠٤) • أما النجوم فتطمس (المرسلات ٨) وتكدر (التكوير ٢) وتبعثر القبور (الانفطار ٤ ، العاديات ٩) ويخرج الناس من الاجداث سراعا (يسن ٥١ ، القمر ٧ ، المعارج ٤٣) •

ويأتي تعالى والملك صفا صفا (النبأ ٣٨ ، الفجر ٢٢) ويحمل عرشه تعالى يومئذ ثمانية (الحاقة ١٧) •

ويخرج الله لكل انسان «يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » (الاسراء ١٤) ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها (الكهف ١٩ ، انظر أيضا سبأ ٣) • فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاكم اقرأوا كتابيه اني ظننت اني ملاق حسابيه • وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه ولم أدر ما حسابيه (الحاقة ١٩ - ٢٠ و٢٥ - ٢٦ ، أنظر أيضا الاسراء ٧١ ، الانشقاق ٧ - ١١) •

جهنم :

ان الذين تزيد شرورهم على حسناتهم ينالون في الآخرة جزاءهم وهم يذهبون الى النار (وقد ذكرت في ١٣٠ آية) أو جهنم (وقد ذكرت في ٧٩ آية) أو سقر (وقد ذكرت في ٣ آيات) • وجهنم لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم (الحجر ٤٤) عليها تسعة عشر من الملائكة (أنظر المدثر ٣٠ - ٣١) وهم غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون (التحريم ٦) وجهنم وقودها الناس والحجارة (البقرة ٢٤ ، التحريم ٦) والذين يدخلونها يقاسون من سموم وحميم • وظل من يحموم • لا بارد ولا كريم (الواقعة ٤٧ - ٤٤) ولهم من فوقهم ظلل من

النار ومن تحتهم ظلل (الزمر ١٦) • وهم يؤخذون النواصي والاقدام (الرحمن ٤١) واذ الاغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون • في الحميم ثم في النار يسجرون (غافر ٧١ - ٧٢ أنظر أيضا ابراهيم ٤٩ ، الانسان ٤) وهذه السلسلة ذرعها سبعون ذراعاً (الحاقة ٣٢) • فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب فوق رؤسهم الحميم • يصهر به ما في بطونهم والجلود • ولهم مقامع من حديد • كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم اعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق (الحج ١٩ - ٢٢) وكلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها (النساء ٥٦) • وهم لا يذوقون فيها برداً ولا شرابا • الا حميما وغساقا (النبأ ٢٤ - ٢٥) ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب عظيم (ابراهيم ١٦ - ١٧) ولهم شراب من حميم وعذاب أليم (الانعام ٧٠ ، يونس ٤ أنظر أيض ص٥٧ الدخان ٤٦ ، الواقعة ٤٢ و٥٤ ، محمد ١٥) • ان الضالين المكذبين في جهنم لآكلون من شجرة الزقوم • فمالئون منها البطون • فشاربون عليه من الحميم • فشاربون شرب الهيم (الواقعة ٥٢ - ٥٥) وان شجرة الزقوم • طعام الأثيم • كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم (الدخان ٤٣ - ٤٦) • أما شجرة الزقوم فانها شجرة تخرج في أصل الجحيم • طلعها كأنه رؤوس الشياطين فانهم لآكلون منها فمالئون منها البطون • ثم ان لهم عليها لشوبا من حميم (الصافات ٦٥-٦٨)• فالذين يذهبون الى جهنم ليس لهم طعام الا من ضريع • لا يسمن ولا يغني من جوع (الغاشية ٦ - ٧) •

الجنـــة :

أما من ثقلت موازينهم وأوتوا كتابهم بيمينهم لان أعمال الخير عندهم تفوق أعمال الشر فانهم يذهبون الى الجنة (وقد وردت بصيغة المفرد في ٦٩ آية وبصيغة الجمع في ٦٩ آية أيضا منها ١١ مضافة الى عدن ووردت باسم النعيم ٦ مرات و٨ مرات جنات النعيم و٣ مرات جنة النعيم ومرتين باسم الفردوس ومرة باسم الكوثر) •

ان الجنة تجري من تحتها الانهار (وقد ذكر ذلك في ٣٧ آية) وفيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمرة لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم (محمد ١٥) وفي الجنة للذين اتقوا ربهم غـرف من فوقهـا غرف مبنية تجري من تحتها الانهار (الزمر ٢٠ ، أنظر أيضا العنكبوت ٥٨ ، سبأ ٣٧ ، الفرقان) وفيها أيضا فاكهة كثيرة (ص ٥١ ، الزخرف ٧٣ ، أنظر أيضا المرسلات ٤٢ ، يس ٥٧ ، الدخان ٥٥ ، الطور ٢٢ ، الرحمن ٥٢ ، عبس ٣١ ، الواقعة ٢٠) وفيها نخل ورمان (الرحمن ٦٨) • وفيها لحم مما يشتهون (الطور ٢٢) ولحم طير (الواقعة ٢١) •

وفيها أيضـا سـرر مصفوفة (الطور ٢٠) وموضـونة (الواقعة ١٥) ومرفوعة (الغاشية ١٣) يجلس الناس عليها متقابلين (الحجر ٤٧ ، الصافات ٤٤) • كما ان فيها أرائك يتكئون عليها (الكهف ٣١ ، يس ٥٦ ، الانسان ١٣ ، المطففين ، ٢٣ ، الفجر ٣) • وفيهـا نمارق مصـفوفة وزرابي مبثوثة (الغاشية ١٥) ويتكئون أيضا على رفرف خضر وعبقري حسان (الرحم ٧٦) وعلى فرش بطائنها من استبرق (الرحمن ٥٤) • وأهل الجنة يلبسون ثيابا خضرا من سندس واستبرق (الكهف ٣١ ، أنظر أيضا الدخان ٥٣ ، الانسان ٢١) • وهم يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤ ولباسهم فيها حرير (فاطر ٣٣ ، الحج ٢٣) • وهم يشربون بكأس (النبأ ٣٤ ، الطور ٢٣) من معين (الصافات ٤٥ ، الواقعة ١٨) مزاجها كافورا (الانسان ٥) وزنجبيلا (الانسان ١٧) •

ويطـاف عليهم بصحاف من ذهب (الزخرف ٧١) وآنية من فضـة (الانسان ١٥) وبأكواب من قوارير (الانسان ١٥) وأباريق (الواقعة ١٨ ، أنظر أيضا عن الاكواب الزخرف ٧١ ، الغاشية ١٤ ، الواقعة ١٨) •

ويطوف عليهم ولدان مخلدون (الواقعة ١٧ ، الانسان ١٩) وغلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون (الطور ٢٤) •

وفي الجنة قاصرات الطرف عين (الصافات ٤٨) وأتراب (ص ٥٢) لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان (الرحمن ٥٦) وحور عين (الدخان ٥٤) كأمثال اللؤلؤ المكنون (الواقعة ٢٢) •

ويدخل المتقون الجنة مع زوجاتهم (الزخرف ٧٠ ، أنظر أيضا يس ٥٦) ويتزوجون بحور عين (الدخان ٥٤ ، الطور ٢٠) (ولابد أن الزواج بالحور العين يخص العزاب) •

ان الذين يدخلون الجنة لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين (الحجر ٤٨) وهم لا يذوقون فيها الموت الا الموتة الاولى (الدخان ٥٦) وهم فيها خالدون ، كما ان اهل النار يبقون فيها خالدين (وقد ذكر خلود أهل الجنة وأهل النار في تسعة وستين آية) • « ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عظيم » (الحج ٥٥) •

وفي الجنة وجهنم يوجد حجاب واعراف عليه رجال ونادى « أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقـاً قالوا نعم فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظـالمين • الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة كافرون • وبينهما حجاب وعلى الاعراف رجال يعرفون كلاً بسيماهم ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون • واذا صرفت أنظارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين • ونادى أصحاب الاعـراف رجالا يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون (الاعراف ٤٤ ـ ٤٨) • ولا ريب ان ظاهر معنى الآية يدل على أن أصحاب الاعراف هم الذين عند الحجاب الذي يحجز بين الجنة وجهنم وليسوا من تتعادل حسناتهم وسيئاتهم كما يرى بعض المفسرين فان أهل التعادل لم يشر عنهم القرآن بشيء واضح •

اهمية فكرة البعث :

ولا ريب ان لفكرة البعث أهمية كبرى في النظام الاخلاقي والاجتماعي

للاسلام ، وذلك لان البعث يتبعه يوم الحساب الذي يتقرر فيه مصير الانسان حيث يحصل على السعادة والراحة الأبدية ويخلد في الجنة أو يذهب الى حيث العذاب الأبدي • وحصوله على أحدى هاتين النتيجتين يتوقف على أعماله في الدنيا • ففي يوم الحساب يؤتى كل امرىء كتابه بيمينه ولا يذر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها فأما من ثقلت موازينه بعمل الخير والصلاح في الدنيا ينال الجنة ، وأما من فاقت أعماله الشريرة الخير فانه يذهب الى جهنم • ولما كان المسلمون يدخلون الجنة فان هذا سيكون دافعا لهم على عمل الخير في الدنيا وتجنب عمل الشر •

وفكرة الآخرة فوق ذلك تعطي الناس أملاً في الحياة ، اذ أن حياة الآخرة طويلة جدا والحياة الدنيا قصيرة وهي دار لهو فلا يكون قصر العمر مصدرا لليأس •

ثم ان في الحياة الدنيا كثيرا من المصاعب والآلام والاحزان ولولا أمل الآخرة لاستولى اليأس على النفوس • ففكرة الآخرة اذاً تبعث على الامل وتحيي التفاؤل وتحمل الناس على عمل الخير والصلاح وتجنب عمل الشر •

المقاييس الاخلاقية :

ومن الميزات الرئيسية للاسلام تأكيده على الاخلاق واعتباره اياها المقياس الأوحد للتفاضل بين الناس « يا أيها الناس انما خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير » (الحجرات ١٣) • والتقوى هنا هي الاخلاق • وأمام هذا المقياس يستوي الناس بصرف النظر عن أصلهم وجنسهم وسنهم ولونهم ، ومثل هذا الفارق الاخلاقي لا يقوم على أساس الوراثة ولا هي وقف على فرد دون آخر كلا بل هي مكتسبة بمقدور كل انسان أن يعملها وهي واقعية وليست خيالية ، كما أنها أساس المجتمع وأساس نوال الجنة والسعادة الأبدية • ومن هنا جاءت مسؤولية الانسان •

والمسؤولية الاخلاقية في الاسلام فردية فالانسان يجزى بما كسبت يده فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره (الزلزلة ٧ - ٨)ولا تزر وازرة وزر اخرى (الانعام ١٦٦٤ ، الاسراء ١٥ ، فاطر ١٨ ، الزمر ٧ ، النجم ٣٨) ويوم القيامة لا يسأل والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا بل يكون كل انسان مسؤولا عن أعماله. والاسلام في هذه النقطة تختلف مثله اختلافاً أساسيا عن البداوة التي تؤكد على المسؤولية الاجماعية والتي تأخذ الفرد بجريرة غيره وخاصة في الثأر والدية ، كما تختلف مثله عن كثير من المجتمعات التي ترى مقياس التفاضل بالنسب والوراثة ، أو بالثروة والمركز والنفوذ المادي .

على ان الاخلاق الاسلامية ذات رسالة اجتماعية . فالاسلام جاء بكثير من المبادىء التي من شأنها تنظيم العلاقات بين الناس كالصدق في القول والمعاملة والعطف والبر والاحسان ومساعدة الفقراء والمساكين واعطاء الصدقات للمحتاجين والتعاون والتآزر والبر بالوالدين وغير ذلك منالصفات الاخلاقية الحميدة التي من شأنها أن تؤدي الى تنظيم المجتمع وسعادته واستقراره « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا ولا تقتلوا أولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون . ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده . وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً الا وسعها واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون » (الانعام ١٥١ - ١٥٢ ، أنظر أيضا الاسراء ٢٣ - ٣٧) . ولا شك ان هذه الآيات التي اجملت المبادىء الاجتماعية الاسلامية هي بعض الآيات الكثيرة التي تدعو الى ذلك .

والاخلاق الاسلامية لا تقتصر على مجرد الاعمال الخارجية بل تؤكد على الاعمال الباطنية وتعير النيات اهتماماً كبيرا « يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم » (الشعراء ٨٩) « ومن يعظم شعائر الله فانها من

تقوى القلوب » (الحج ٣٢) وقد جاء في الحديث « انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرىء ما نوى » . ولا ريب ان الله بكل شيء عليم وهو يعلم ما تخفي الصدور ويعلم ما توسوس به نفس الانسان وهو أقرب من حبل الوريد (انظر ق٦) وهو لا تخفى عليه خافية ويحاسب الناس يوم القيامة على أعمالهم ومقاصدهم ويجزي كل نفس بما كسبت ، ويوم القيامة يؤتى كل امرىء كتابه بيمينه ولا يذر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها . كل هذا يجعل من يدين بالاسلام عليه أن يخلص نيته ويطهر قلبه ويصفي سريرته ويهجر النفاق والفساد .

الفصل التاسع عشر

الأدلة القرآنية على تطور الدعوة

آيات الله :

ان القرآن هو الوثيقة الكبرى التي نعرف منها تطورات الدعوة الاسلامية . ومع اننا لا نستطيع أن نعين بضبط ودقة ترتيب نزول كافة الآيات ، كما ان كتب السيرة والحديث لاتقدم معلومات مغنية عن هذا الدور المبكر ، الا اننا يمكن أن نقول بصورة تخمينية غير جازمة ان الآيات الاولى كانت تؤكد على عظمة الله وقدرته وآثار خلقه وأعماله . وتدعو الناس الى أن « ينظرون ويبصرون ويعقلون ويتفكرون » في آثاره في الكون . كما انه بين وفصل آياته في الكون ليريهم عظمته واعماله . ومن هذه الآيات انه « هو الذي انزل من السماء ماءاً لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون » (النحل ـ ١٠ ١٢) « والله انزل من السماء ماءاً فأحيا به الارض بعد موتها ان في ذلك لآية لقوم يسمعون . وان لكم في الانعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصا سائغا للشاربين . ومن ثمرات النخيل والاعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا ان في ذلك لآية لقوم يعقلون . وأوحى ربك الى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون . ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً يخرج من بطونها شراب مختلف الوانه فيه شفاء للناس ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون » (النحل ٦٥ ـ ٦٩) . « ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم اذا انتم بشر تنتشرون . ومن آياته أن خلق لكم من انفسكم ازواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم

مودة ورحمة ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون • ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف ألسنتكم ان في ذلك لآيات للعالمين • ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ان في ذلك لآيات لقوم يسمعون • ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماءاً فيحيي به الارض بعد موتها ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون • ومن آياته أن تقوم السماء والارض بأمره ثم اذا دعاكم دعوة من الارض اذا انتم تخرجون » (الروم ٢٠ ـ ٢٥) « وآية لهم الارض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون • وجعلنا فيها جنات من نخيل واعناب وفجرنا فيها من العيون • ليأكلوا من ثمره وما عملته ايديهم أفلا يشركون • سبحان الذي خلق الازواج كلها مما تنبت الارض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون • وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون • والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم • والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم • لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون • وآية لهم انا جعلنا ذريتهم في الفلك المشحون • وخلقنا لهم من مثله ما يركبون • وان نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون• الا رحمة منا ومتاعا الى حين » (يس ٣٣ ـ ٤٤) « ان في السموات والارض لآيات للمؤمنين • وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يؤمنون • واختلاف الليل والنهار وما انزل الله من السماء لن رزق فأحيا به الارض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون » (الجاثية ٣ ـ ٥) « وهو الذي مد الارض وجعل فيها رواسي وانهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها وزوجين اثنين يغشى الليل والنهار ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون • وفي الارض قطع متجاورات وجنات من اعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الاكل ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون » (الرعد ٣ ـ ٤) « وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا » (الاسراء ١٢) « خلق

السموات والارض بالحق ان في ذلك لآية للمؤمنين » (العنكبوت ٤٤ ، الشورى ٢٩ ، الجاثية ١٣) « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر » (فصلت ٣٧ كذلك آل عمران ١٩٠ والنحل ٨٦) « ومن آياته الجوار في البحر كالاعلام ان يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره ان في ذلك لآيات لكل صبار شكور » (الشورى ٣٣ أنظر أيضا الجاثية ١٢ ، لقمان ٣١) « الله يتوفى الانفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الاخرى الى أجل مسمى » (الزمر ٤٢) « الذي جعل لكم الارض مهاداً وسلك فيها سبلا وانزل من السماء ماءاً فاخرجنا به أزواجا من نبات شتى • كلوا وارعوا انعامكم ٥٠ » (طه ٥٣ ـ ٥٤) « ان الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » (الزمن ٥٢) « أو لم يروا الى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن الا الله ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون » (النحل ٧٩) •

ولا تقتصر آيات الله على مظاهر خلقه في الكون فحسب بل تشمل أيضا أحداث التاريخ وما أصاب الامم الغابرة « أو لم يَهدِ لَهُم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم ان في ذلك لايات أفلا يسمعون » (السجدة ٢٦) • وهكذا كان لسبأ في مساكنهم آية (سبأ ١٥) ولزكريا وعيسى آية (آل عمران ٤١ ، مريم ١٠ ، الانبياء ٩١ ، المؤمنون ٥٠) وفي يوسف واخوته آية للسائلين (يوسف ٧) وفي اغواء ابليس للناس (الشعراء ١٧٤) وقصة نوح (الشعراء ١٢١ ، المؤمنون ٣٠ ، العنكبوت ١٥) وثمود (الشعراء ١٥٨ ، الاعراف ٦٤ و١٠١) ولوط (الشعراء ١٧٤ ، النحل ٥٢ ، الحجر ٧٥) وابراهيم (العنكبوت ٢٤) •

الرسول بشر :

وقد أكد القرآن الكريم ان الرسول بشر اوحي اليه كما اوحي الى الذين من قبله من الرسل ، وانه لا يستطيع أن يتجاوز في دعوته

ما يأمره تعالى به وما يوحي اليه « قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الي انما الهكم اله واحد » (الكهف ١١٠ ، فصلت ٦) « قل سبحان ربي هل كنت الا بشراً رسولا » (الاسراء ٩٣) « قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم ان اتبع الا ما يوحي الي وما أنا نذير » (الاحقاف ٩) « وما أرسلنا قبلك الا رجالا نوحي اليهم فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون » (الانبياء ٧ ، يوسف ١٠٩ ، النحل ٤٣) « رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق » (غافر ١٥) « قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم اني ملك ان اتبع الا ما يوحى الي قل هل يستوي الاعمى والبصير أفلا تتفكرون » (الانعام ٥٠) « وقالوا لولا انزل عليه آية من ربه قل انما الآيات عند الله وانما أنا نذير مبين » (العنكبوت ٥٠) « واذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا انما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون • قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى للمسلمين » (النحل ١٠١ - ١٠٢) « انه لقول رسول كريم • وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون • ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون • تنزيل من رب العالمين • ولو تقول علينا بعض الاقاويل لأخذنا منه باليمين • ثم لقطعنا منه الوتين • فما منكم من أحد عنه حاجزين » (الحاقة ٤٠ - ٤٧) « ويقولون لو انزل عليه آية من ربه فقل انما الغيب لله فانتظروا اني معكم من المنتظرين » (يونس ٢٠) « واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن ابدله من تلقاء نفسي ان اتبع الا ما يوحى الي اني اخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم • قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا ادراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون » (يونس ١٥ - ١٦) « أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور

مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين . فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا انما انزل بعلم الله وأن لا اله الا الله فهل أنتم مسلمون » (هود) « أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين » (يونس ٣٨) « واذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها قل انما اتبع ما يوحى الي من ربي هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » (الاعراف ٢٠٣) « ويقـول الذين كفروا لولا انزل عليه آية من ربه انما أنت منذر ولكل قوم هاد » (الرعد ٧) .

رسول الله :

ان الله تعالى يرسل رسالاته الى من يصطفيهم من الناس ويجعلهم رسلا وأنبياء ليبلغوها الى الناس وان محمدا خاتم النبيين وقد اصطفاه الله ليبلغ رسالته للناس « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله » (التوبة ٣٣ ، الفتح ٢٢ ، الصف ٩) . وقد تكرر ورود « أرسلناك » في ثلاثة عشر موضعا من القرآن ، «وأرسلنا الرسل » اثنين واربعين مرة ، « وارسال الرسول » أكثر من مائتي مرة .

وعلى الرسول أن يبلغ هذه الرسالة « يا أيها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك » (المائدة ٦٧) « وما على الرسول الا البلاغ المبـين » (النور ٥٤ ، العنكبوت ١٨ ، التغابن ١٢ ، أنظر أيضا آل عمران ٢٠ ، المائدة ٩٢ و٩٩ ، الرعد ٤٠ ، النحل ٨٢ ، يس ١٧ ، الشورى ٤٨) .

وهذه الرسالة هي تذكرة « كلا انها تذكرة فمن شاء ذكره » (المدثر ٥٥ ، عبس ٢٢) وعلى الرسول أن يذكر (أنظر الغاشية ٢١ ، الاعلى ٩ ، الطور ٢٩ ، الذاريات ٥٥ ، ق ٤٥) فهو مذكر « فذكر انما أنت مذكر » (الغاشية ٢١) وقد ارسل أيضا بشيرا بالجنة ونذيرا بالنار « وما أرسلناك الا مبشرا ونذيرا » (الاسراء ١٠٥ ، الفرقان ٥٦) « انا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا (البقرة ١١٩ ، أنظر أيضا المائدة ١٩ ، الاعراف ١٨٨ ، سبا ، فصلت ٤) « كما ارسل شاهدا عليهم » (الاحزاب

٤٥ ، الفتح ٨) « وما نرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين » (البقرة ٢١٣ ، النساء ١٦٥ ، الانعام ٤٨ ، الكهف ٤٦) .

تذكير بالامم الاخرى :

وقد ذكرهم بما أحاق بالامم الاخرى (أو لم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثاراً في الارض فاخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق » (غافر ٢١ ، ٢٧ ، أنظر يوسف ١٠٩) . وفي ذكر قصص الامم الاخرى أيضا تشجيع للرسول وتقديم الموعظة والذكرى « وكلا نقص عليك من انباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين » (هود ١٢٠) « فاقصص القصص لعلهم يتفكرون » (الاعراف ١٧٦) « وتلك من انباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها انت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ان العاقبة للمتقين » (هود ٤٩) .

ان هذه القصص هي أحسن القصص (يوسف ٣) فيها نبأهم بالحق (الكهف ١٣) وفي قصصهم عبرة لاولى الالباب (يوسف ١١) ولا ريب ان الانبياء لم يذكروا جميعا « منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص » (غافر ٨٧ أنظر أيضا النساء ١٦٤) .

تكرر قصة كل نبي في بضعة أماكن من القرآن وتؤكد بأن الانبياء بشر اختارهم الله لتبليغ رسالاته ، وانهم لاقوا العنت ، فقد كذبهم قومهم وسخروا منهم وقالوا لهم ما يقوله المشركون للرسول « ما يقال لك الا ما قد قيل للرسل من قبلك ان ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم » (فصلت ٤٢) ولكن الحق ينتصر أخيرا ويتدمر الكافرون المكابرون في هذه الدنيا وينتصر الانبياء ويعلو الحق رغم ما يلاقيه من مصاعب .

ولقد تكرر في القرآن ذكر قصة نوح وابراهيم وموسى وعيسى وعاد وثمود ولوط وسليمان وداود ويونس وأيوب وزكريا ، كما ذكر اسحاق

ويعقوب واسماعيل وذو الكفل والياس واليسع وشعيب ؛ وقصصهم تكرر بصورة خاصة في سورة الاعراف وهود وابراهيم والشعراء والانبياء والحج والفرقان والنحل والعنكبوت والصافات وص وغافر وفصلت وق والذاريات والحاقة حيث يرد في كل من هذه السور قصة عدد من الانبياء[1] .

عيب آلهة المشركين :

ثم نزلت آيات تعيب آلهتهم التي يعبدونها من دون الله وتنعتها بشتى النعوت « ايشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون . ولا يستطيعون لهم نصرا ولا انفسهم ينصرون . وان تدعوهم الى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أدعوتموهم أم انتم صامتون . ان الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم ان كنتم صادقين . ألهم ارجل يمشون بها أم لهم ايد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم أذان يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون . ان وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين . والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا انفسهم ينصرون » (الاعراف ١٩١ ـ ١٩٧) « والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون . أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون » (النحل ٢٠ ـ ٢١) « قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الارض أم لهم شرك في السموات أم آتيناهم كتابا فهم على بينة منه بل ان يعد الظالمون بعضهم بعضا الا غرورا » (فاطر ٤٠ أنظر أيضا الاحقاف ٤ ـ ٥) « واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ولا يملكون لانفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا » (الفرقان ٣) « هذا خلق الله فأروني ماذا خلق

---

(١) للدكتور خلف الله رسالة (الفن القصصي في القرآن) وفيها بحث وتحليل لما ورد في القرآن من قصص .

الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين » (لقمان ١١) « يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب » (الحج ٧٣) « واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون • لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون » (يسين ٧٤ - ٧٥) « قل من رب السموات والارض قل الله قل افأتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لانفسهم نفعا ولا ضرا قل هل يستوي الاعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار » (الرعد ١٦) « قل اندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على اعقابنا بعد اذ هدانا الله كالذي استهوته الشياطين في الارض حيران له اصحاب يدعونه الى الهدى آئتنا قل ان هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين » (الانعام ٧١) « له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء الا كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين الا في ضلال » (الرعد ١٤) « قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله ان أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون » (الزمر ٣٨) « قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا » (الاسراء ٥٦) « ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيرا » (الفرقان ٥٥) « ويعبدون من دون ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله » (يونس ١٨) « ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا من السموات والارض شيئاً ولا يستطيعون » (النحل ٧٢) « والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير • ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشركم ولا ينبئك مثل خبير » (فاطر ١٣) « قل ادعو الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في

السموات ولا في الارض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير » (سبأ ٢٢) « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة الا من شهد بالحق وهم يعلمون » (الزخرف ٨٦) « أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أو لو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون » (الزمر ٤٣) « والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء ان الله هو السميع البصير » (غافر ٢٠) .

« وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون » (يونس ٦٦) « ويعبدون من دون الله ما لم ينزل سلطانا وما ليس لهم به علم وما للظالمين من نصير » (الحج ٧١) « مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذ بيتا وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون » (العنكبوت ٤١) « وقل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم » (القصص ٦٤) « ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل . قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا » (الفرقان ١٨) « ان هي الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما انزل الله بها من سلطان ان يتبعون الا الظن وما تهوى الانفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى » (النجم ٢٣) .

مهاجمة المشركين :

ولم تقتصر الآيات على تسفيه آلهتهم بل وصفتهم بأوصاف شديدة « انكم وما تعبدون من دون الله حَطَبُ جهنم أنتم لها واردون » (الانبياء ٩٨) « فما لهم عن التذكرة معرضين . كأنهم حمر مستقرة . فرت من قسورة » (المدثر ٤٩ - ٥١) « أم تحسب ان اكثرهم يسمعون أو يعقلون ان هم الا كالانعام بل هم أضل سبيلا » (الفرقان ٤٤) « انا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي الى الاذقان فهم مقمحون . وجعلنا من بين

ايديهم سداً ومن خلفهم سدا فاغشيناهم فهم لا يبصرون • وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم فهم لا يؤمنون » (يسن ٨ - ١٠) « ومن يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكما وصما مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا » (الاسراء ٩٧) « ومنهم من يستمعون اليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون • ومنهم من ينظر اليك أفأنت تهدي العمى ولو كانوا يبصرون (يونس ٤٢ - ٤٣) « انك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين • وما انت بهادي العمى عن ضلالاتهم ان تسمع الا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون » (النمل ٨٠ - ٨١) « من يضلل الله فلا هادي له ونذرهم في طغيانهم يعمهون » (الاعراف ١٨٦) « من كفر بالله بعد ايمانه الا من اكره وقلبه مطمئن بالايمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم » (النحل ١٠٦) « ومنهم من يستمع اليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى اذا جاؤك يجادلونك يقول الذين كفروا ان هذا الا أساطير الاولين » (الانعام ٢٥) •

لقد أطلق عليهم المشركون والكافرون والضالون والمجرمون والفاسقون والآثمون وغير ذلك من أوصاف الذم ، ووصف مصيرهم في النار وعذابهم فيها بأوصاف مريعة •

مكائد المشركين :

ويشير القرآن الى المؤامرات والمكائد التي كانوا يقومون بها « أم ابرموا أمراً فانا مبرمون • أم يحسبون انا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون » (الزخرف ٧٩ - ٨٠) « انهم يكيدون كيدا وأكيد كيداً فمهل الكافرين امهلهم رويدا » (الطارق ١٥ - ١٨) « أم يريدون كيداً فالذين كفروا هم المكيدون » (الطور ٤٢) « يوم لا يغني كيدهم شيئا ولا هم ينصرون » (الطور ٤٦) « لاهية قلوبهم وأسروا

النجوى الذين ظلموا هل هذا الا بشر مثلكم » (الانبياء ٣) « نحن أعلم بما يستمعون اليك اذ يستمعون اليك واذ هم نجوى اذ يقول الظالمون ان تتبعون الا رجلا مسحورا » (الاسراء ٤٣) غير أنه ليست لدينا تفاصيل عن هذه المؤامرات .

تهديد الرسول :

ويظهر ان المشركين قاموا بمحاولات في تهديده واقناعه للعدول عن الدعوة الى الوحدانية فأمره تعالى ان يثبت لها « ويخوفونك بالذين من دونه ومن يضلل الله فما له من هاد » (الزمر ٣٦) « قل أغير الله اتخذ ولياً فاطر السموات والارض وهو يطعم ولا يطعم قل اني امرت أن أكون أول من أسلم ولا أكونن من المشركين . قل اني أخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم . من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه وذلك هو الفوز المبين . وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير » (الانعام ١٤ - ١٧) « قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون .ولقد أوحي اليك والى الذين من قبلك لئن أشركت لَيَحبطَنَّ عملك ولتكونن من الخاسرين . بل الله فاعبد وكن من الشاكرين » (الزمر ٦٤ - ٦٦) « ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون . انهم لن يغنوا عنك من الله شيئا وان الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولي المتقين » (الجاثية ١٨ - ١٩) « فلذلك فادع واستقم كما امرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم . الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا واليه المصير » (الشورى ١٥) ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون » (هود ١١٣) « قل اني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءني البينات من ربي وامرت أن أسلم لرب العالمين » (غافر ٦٦) « ان الذي فرض عليك القرآن لرادك الى معاد قل ربي أعلم

من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين • وما كنت ترجو أن يلقى اليك الكتاب الا رحمة من ربك فلا تكونن ظهيراً للكافرين • ولا يصدنك عن آيات الله بعد اذ انزلت اليك وادع الى ربك ولا تكنن من المشركين • ولا تدع مع الله الاها آخر لا اله الا هو كل شيء هالك الا وجهه له الحكم واليه ترجعون » (القصص ٨٥ ـ ٨٨) « فاصبر لحكم ربك ولا تطع آثماً أو كفورا » (الانسان ٢٤) « لا تجعل مع الله الاها آخر فتقعد مذموما مدحورا » (الاسراء ٢٢) « فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء ما يعبدون الا كما يعبد آباؤهم من قبل وانا لموفوهم نصيبهم غير منقوص » (هود ١٠٩) « قل اني امرت أن أعبد الله مخلصا له الدين • وامرت أن أكون أول المسلمين • قل اني أخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم • قل الله أعبد مخلصا له ديني فأعبدوا ما شئتم من دونه • قل ان الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين » (الزمر ١١ ـ ١٥) « قل انما أدعو ربي ولا أشرك به أحدا • قل اني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا • قل اني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا • الا بلاغاً من الله ورسالاته ومن يعص الله ورسوله فان له نار جهنم خالدين فيها أبدا ••• قل ان أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربي أمدا » (الجن ٢٠ ـ ٢٥) •

« وما ارسلنا قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى ألقى الشيطان في امنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم • ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وان الظالمين لفي شقاق بعيد » (الحج ٥٢ ـ ٥٣) « واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه هو السميع العليم » (فصلت ٣٦) « وان كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا اليك لتفتري علينا غيره واذاً لاتخذوك خليلا • ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا • اذاً لأذقناك ضعف

الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا • وان كادوا ليستفزونك من الارض ليخرجوك منها واذا لا يلبثون خلافك الا قليلا • سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا » (الاسراء ٧٣ ـ ٧٧) •

ويروي ابن اسحق[١] والواقدي[٢] ان آية « وان كادوا ليفتنونك » نزلت بعد قصة الغرانيق التي تتلخص بأنه لما نزلت آية « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى » (النجم ١٠ ـ ٢١) اضاف الرسول من عنده « تلك الغرانيق العلى وان شفاعتهن لترتجى » ففرح القرشيون وسالموا الرسول وسمع المهاجرون المسلمون في الحبشة فعادوا ، ولكن نزلت هذه الآية وآية « وما ارسلنا قبلك من رسول ••• » التي ذكرناها نسخت هذه الجملة التي هي من اغواء الشيطان ، وظل الرسول متمسكا بالمبدأ الاساسي للدعوة وهو الوحدانية • وجدير بالملاحظة ان هذه المعبودات لم تكن في مكة ، وان اللات ومناة لم تكن آلهة قريش المقربة كما ان الجملة المقول اضافتها لا تتسق في المعنى مع الآية التي بعدها « ألكم الذكر وله الانثى » ولا يمكن أن تكون بمجموعها مما يرضي المشركين •

الصبر :

وقد أمر تعالى الرسول بالصبر والثبات « فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك » (طه ١٣٠ ، ق ٣٩) « فاصبر كما صبر اولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا الا ساعة من نهار فهل يهلك الا القوم الفاسقون » (الاحقاف ٣٥) « اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داوود ذا الأيد انه أواب » (ص ١٧) « فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا » (الانسان ٢٤) « واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم » (الطور ٤٨) •

---

(١) الطبري : ج٢ ص٢٢٦ •
(٢) ابن سعد : ج١ ص١٣٧ •

المقـاطعة :

كما أمره تعالى بمقاطعتهم نظراً لعنفهم وعدم جدوى المحاولات معهم « قل يا أيها الكافرون • لا أعبد ما تعبدون • ولا انتم عابدون ما أعبد • ولا أنا عابد ما عبدتم •ولا أنتم عابدون ما أعبد • لكم دينكم ولي دين » (الكافرون ١ ـ ٦) « قل الله أعبد مخلصا له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه » (الزمر ١٤) « فلذلك فادع واستقم كما امرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما انزل الله من كتاب وامرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا واليه المصير » (الشورى ١٥) « واذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فاعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره واما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين » (الانعام ٦٨) « الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فان العزة لله جميعا • وقد نزل عليكم في الكتاب أن اذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره انكم اذاً مثلهم » (النساء ١٣٩ ـ ١٤٠) « اتبع ما اوحي اليك من ربك لا اله الا هو واعرض عن المشركين • ولو شاء الله ما اشركوا وما جعلناك عليهم حفيظا وما أنت عليهم بوكيل » (الانعام ١٠٦ ـ ١٠٧) « فتول عنهم فما أنت بملوم • وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين » (الذاريات ٥٤ ـ ٥٥) « وان كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون » (يونس ٤١) « انا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فانما يضل عليها وما أنت عليهم بوكيل » (الزمر ٤١) « فان أعرضوا فما ارسلناك عليهم حفيظا ان عليك الا البلاغ » (الشورى ٤٨) « ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم كذلك زينا لكل امة عملهم ثم الى

ربهم مرجعهم فينبؤهم بما كانوا يعملون » (الانعام ١٠٨) « فتول عنهم حتى حين • وابصرهم فسوف يبصرون » (الصافات ١٧٤ - ١٧٥) ويظهر ان الاضطهاد على المسلمين كان شديدا « قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم » (الزمر ٥٣) •

الفصل العشرون

السابقون الاولون في الاسلام

دعوة أهل مكة :

بعد مجيء الوحي والأمر بتبليغ الرسالة ونزول الآيات الاولى ، آمن بالرسول عدد من أهل بيته والمقربين اليه ، ثم أمره تعالى أن ينذر الناس ويبدأ بعشيرته والمقربين اليه « وانذر عشيرتك الاقربين » (الشعراء ٢١٤) « قل لا اسألكم عليه اجرا الا المودة في القربى » (الشورى ٢٣) ؛ كما أمره أن ينذر قومه « وانه لذكر لك ولقومك » (الزخرف ٤٤) وأن ينذر أهل مكة « لتنذر ام القرى ومن حولها » (الانعام ٩٢ ، الشورى ٧) . وعلى هذا نزل القرآن باللغة العربية وهي لغة أهل مكة والحجاز والجزيرة « وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم » (ابراهيم ٤) « لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين » (الشعراء ١٩٥) .

من الطبيعي أن يبدأ الرسول دعوته بانذار عشيرته الاقربين ، اذ أن مكة بلد توغلت فيه الروح القبلية ، فبدء الدعوة بالعشيرة قد يعين على نصرته وتأييده وحمايته . كما ان القيام بالدعوة في مكة لابد أن يكون له أثر خاص ، لما لهذا البلد من مركز ديني خطير ؛ فجلبها الى حضيرة الاسلام لابد وأن يكون له وقع كبير على بقية القبائل . ولا يخفى ان نزول القرآن باللغة العربية يساعد على تفهم الناس له .

على ان هـذا لا يعني ان رسالة الاسـلام كانت في أدوارها الاولى محدودة بقريش ؛ لان الاسلام كما يتجلى من القرآن اتخذ الدعوة في قريش كخطوة أولى لتحقيق رسالته العالمية . والواقع ان كثيرا من الآيات المكية كانت تنص على ا نالقرآن « ما هو الا ذكر للعالمين » (هود ١١٤ ،

الانعام ٩٠ ، التكوير ٢٧ ، القلم ٥٢) ، الامر الذي يدل على ان فكرة الدعوة العالمية كانت قائمة منذ هذا الوقت المبكر .

علاقاته مع العشائر :

ومما يجدر ذكره ان نظام الزواج في مكة لم يكن مقتصرا على داخل العشيرة بل كان الزواج خارج العشيرة شائعاً أيضا ، مما ساعد على ربط الرسول بصلة القرابة مع كافة العشائر . وفي تفسير آية « قل لااسألكم عليه اجراً الا المودة في القربى » يروي الطبري عن ابن عباس انه لم يكن بطن من بطون قريش الا وبين رسول الله وبينهم قرابة[١] .

والواقع اننا اذا اعتبرنا عشيرته هم من تحدر من عبدالمطلب جده ووهب جد امه : واقتصرنا على ذلك ، وجدنا ان لعشيرته علاقات زواج بكافة عشائر مكة وبكثير من العشائر القاطنة خارجها .

فقد كانت ابنتاه رقية وكلثوم عند عتبة وعتيبة ابنا عمه ابي لهب قبل ان يفرق بينهما الاسلام[٢] ؛ وكانت ابنته فاطمة عند علي ابن عمه ابي طالب كما ان معتب ابن عمه ابي لهب تزوج من فاختة ابنة عمه المقوم ، بعد أن طلقها زوجها الاول مسعود الثقفي ؛ ثم تزوجها أبو سفيان ابن عمه الحارث بعد انفصالها عن معتب . وتزوج ربيعة ابن عمه الحارث من أم الحكم بنت عمه الزبير ؛ وتزوجت اميمة بنت عمه العباس من العباس بن عتبة ابن عمه ابي لهب .

---

(١) تفسير الطبري : ج٢٥ ص١٥ . البخاري : كتاب المناقب١ . ابن حنبل ج١ ص٢٢٩ ، ٢٨٦ .

(٢) عن زواج بنات الرسول بولدي ابي لهب وابي العاص انظر سيرة ابن هشام : ج٢ ص٢٩٦ - ٢٩٧ ، ٣٠٢ نسب قريش ص٢٢ - ٢٣ الطبري : ج٢ ص٢٩٠ ج١٣ ص٦٥ المحبر : ص٥٣ المعارف : ص٦٢ وعن زواج زينب انظر أيضا ابن حزم جمهرة الانساب ص١٤ أما عن علاقات الرسول النسبية فانظر عنها نسب قريش وخاصة ص١٧ - ٢١ المحبر : ص٦٢ - المعارف : ص٥١ - ٦٢ .

أما علاقته مع بني عبد شمس فلم تكن قليلة ، فقد كانت زينب بنت الرسول زوجة ابن خالتها ابي العاص بن الربيع بن وائل ؛ ورقية زوجة عثمان بن عفان بعد انفصالها من عتبة ؛ وكلثوم تزوجها عثمان أيضا بعد انفصالها عن عتيبة ووفاة اختها رقية ؛ وعمته ام حكيم بنت عبدالمطلب عند كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد الشمس ؛ واروى ابنة عمته أم حكيم زوجة عفان بن أبي العاص ، ثم زوجة عقبة بن ابي معيط . كما ان زينب بنت فاطمة بنت عمته اروى تزوجت الحارث بن كريز بن حبيب بن عبد شمس ؛ وتزوجت ابنتها كبشة من عبدالله بن عامر بن كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بعد مسيلمة الكذاب . وتزوجت هند بنت أبي سفيان من الحارث بن نوفل بن عمه الحارث بن عبدالمطلب .

فأما علاقته مع بني عبدالدار فوثيقة أيضا فان جدته لأمه هي برة بنت عبدالعزى بن عثمان بن عبدالدار بن قصي ؛ وعمته أروى خلف عليها بعد عمير ، كلدة بن هاشم بن عبد مناف بن عبدالدار ، كما ان فاطمة ابنة عمته أروى تزوجت ارطأة بن عبد شرحبيل بن هاشم بن عبد مناف بن عبدالدار، وحمنة ابنة عمته اروى تزوجها مصعب بن عمير بن عبد مناف بن عبدالدار.

واما مع بني عبد بن قصي فقد كانت عمته اروى (وفي رواية السكري صفية) عند عمير بن وهب بن عبد بن قصي ، كما ان ام جدته هي تخمر بنت عبد بن قصي .

أما مع بني مخزوم فقد كانت أم أبيه فاطمة بنت عمرة بن عائد بن عمران بن مخزوم ؛ وعمته عاتكة عند أبي اميمة بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم ، وعمته برة عند عبدالاسد بن هلال بن عبدالله بن عمرو ابن مخزوم ؛ وام حبيب بنت عمه العباس كانت عند الاسود بن سفيان بن عبدالاسد بن هلال بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم ؛ وام هانيء بنت عمه

أبي طالب كانت عند هبيرة بي أبي وهب بن عمرو بن عائد بن عمران بن مخزوم ؛ وامامة بنت عمه الحمزة عند سلمة بن ابي سلمة المخزومي •

وجدير بالذكر ان عتيق بن عائذ بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم هو احد أزواج خديجة ، وهو أبو هند التي هي اخت أولاده ؛ كما ان زينب بنت مصعب ، وامها ابنة عمة الرسول ، كانت عند عبدالله بن عبدالله بن أبي امية بن المغيرة بن عبدالله بن عمير بن مخزوم •

اما علاقته ببني زهرة فتتجلى في ان امه آمنة بنت وهب بن عبد مناف ابن زهرة ، وان هالة بنت اهيب بن عبد مناف بن زهرة هي زوجة جده عبدالمطلب وام عدد من اعمامه ؛ وان عبدالرحمن بن الاسود بن عبد يغوث الزهري تزوج ضباعة ، بنت عمه الزبير ، بعد المقداد ، وعبدالرحمن بن عوف تزوج حبيبة بنت عمته اميمة •

اما مع بني تيم بن مرة فان حمنة بنت عمته اروى ، تزوجها طلحة بن عبدالله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم •

كما ان اروى بنت عمه الحارث تزوجت ابا وداعة بن هبيرة بن سعيد بن سعد بن سهم •

والعلاقة مع اسد بن خزيمة تظهر في ان عمته اميمة تزوجت جحش بن رئاب بن يعمر بن صبرة بن مرة بن كبير بن غنم بن دودان ابن اسد بن خزيمة •

واما مع حسل فان عمته برة تزوجت ، بعد عبدالاسد ، من ابي رهم بن عبدالعزى بن أبي قيس بن عبدود بن نصر بن مالك بن حسل •

اما علاقته مع بني عبد بن حسل فقد جاءت من خديجة التي كانت امها فاطمة بنت زائدة بن هدم بن رواحة بن حجر بن عبد بن معيص ؛ وام فاطمة هي هالة بنت عبد مناف بن الحارث بن منقذ بن عمرو بن معيص •

اما مع خزاعة فقد كانت صلته عن طريق زوجة عبدالمطلب وام بعض

اعمام الرسول لبنى بنت هاجر بن عبد مناف بن خاطر بن حبشية بن سلول الخزاعي .

وهو يتصل بهذيل عن طريق اميمة بنت مالك بن غنم بن خنش وهي جدة امه ، وعن طريق أحد نساء عمه العباس .

اما مع بني هلال بن عامر فصلته عن طريق احدى زوجات عمه العباس وهي لبابة بنت الحارث .

اما ثقيف : فقد كانت ام عمرو ابنة عمه المقوم عند مسعود بن معتب الثقفي ، وخالدة ابنة عمه أبي لهب عند عثمان بن أبي العاص .

واما هوازن : فقد كانت اروى بنت عمه المقوم عند أبي مسروح الحارث بن يعمر ؛ وصفية بنت عمه العباس عند عبدالله بن أبي مسروح كما ان احدى زوجات جده هي صفية بنت جندب بن حجير بن رئاب بن سواءة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن .

ومع سليم عن طريق عزة ابنة عمه ابي لهب التي كانت عند اوفى بن حكيم بن امية السلمي .

ومع بني تميم عن طريق نباش بن زرارة من بني اسيد بن عمرو بن تميم وهو زوج خديجة وأبو هالة أخت أولاده .

ومع بهراء عن طريق المقداد بن عمرو البهراني زوج ضباعة بنت عمه الزبير .

ومع كليب عن طريق دحية بن خليفة الذي تزوج عمته درة .

ومع النمر بن قاسط عن طريق تتيلة بنت جناب التي كانت زوجة عبدالمطلب وأم بعض أعمامه .

أما مع الازد ، فقد كانت هند بنت عمه المقوم عند ابي عمرة بن عمرو من بني النجار .

ان هذه العلاقات النسبية مع مختلف العشائر القرشية ، ومع القبائل التي كانت تقيم في اطراف مكة ضمنت للرسول الحماية من الاعتداءات ، في ذلك المجتمع القبلي الذي يستلزم نصرة العشيرة لافرادها وحمايتهم من الاعتداء • والواقع انه رغم خطر دعوته على الكفار الا أنه لم يجرأ أحد على الاعتداء على حياته ، لأن أبا طالب كان يحميه ، كما ان من أهم أسباب اعتناق عمه الحمزة للاسلام هو ما رآه من تطاول أبي جهل على الرسول[١] •

ولم تقتصر هذه الحماية على الرسول فقط ، بل عمت كل من تبعه ودان بدعوته ، والواقع ان الاعتداءات كانت في الغالب تقع على المستضعفين من العبيد أو ممن لا عشائر لهم •

حـرم مكة :

ثم ان الدعوة الاسلامية قامت في مكة وهي حرم آمن يحمي من فيه من الاعتداء ، ولا ينزل فيمن يبث الدعوة أي عقاب رسمي ، ولا توجد فيها هيئة دينية تبت في الدعوة الى أي دين جديد ، كما انه لا توجد محكمة تحاكم من يبث الدعوة ، ولا سلطة تنفيذية تطبق أحكام العقوبات[٢] • لذلك فبالرغم من الموقف العدائي الذي وقفه المشركون عامة ، والمتنفذون خاصة ، فاننا لا نسمع في الاخبار بذكر لأية محكمة ألفت لمحاكمته ، أو بقرار انزال عقوبة فيه أو في المسلمين • فالمعارضة التي قامت ضده وضد الاسلام هي معارضة فردية أو شعبية لا معارضة رسمية ، ان جاز لنا استعمال هذه التعابير الحديثة •

ان هذه الحرية والحماية التي كان يتمتع بها الرسول والمسلمون من أوضح مظاهرها انهم كانوا يصلون عند الكعبة علناً[٣] •

---

(١) سيرة ابن هشام : ج١ ص٣١٢ •

(٢) انظر ص١٩٦ ــ ١٩٩ •

(٣) سيرة ابن هشام : ج١ ص٣٣٧ ، ٣٦٥ • الطبري : ج٢ ص٢١٢ • ابن سعد : ج٣ قسم١ ص١٩٣ •

السرية :

ثم ان الرسول كان يبث دعوته في السنوات الثلاث الاولى بصورة سرية ، ولما أعلن الدعوة ، كان يعقد الاجتماعات في دار الأرقم بن أبي الأرقم[1] على الصفا بصورة خاصة وشبه سرية ، وقد ساعدهم ذلك التداول والتحدث ومناقشة أحوال المشركين وعباداتهم ونظمهم بحرية تامة وفي مأمن من الاذى والاعتراض .

خلق الرسول :

وينبغي ألا يغرب عن بالنا أثر شخصية الرسول ، وقوة عقيدته وصبره وثباته وسمو نفسه ومتانة خلقه مما كان ضامناً لاستمرار الدعوة رغم مختلف وسائل الوعد والوعيد التي اتخذت ضده. وقد وصف القرآن الكريم أخلاق الرسول بعدة آيات « وانك لعلى خلق عظيم » (القلم ٤) « فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » (آل عمران ١٥٩) « واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين . فان عصوك فقل اني بريء مما تعملون » (الشعراء ٢١٥ - ٢١٦) « ادفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم » (فصلت ٣٤) « ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين » (المؤمنون ٩٧) « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » (النحل ١٢٥) .

السابقون الاولون :

تجمع الروايات الاسلامية على أن خديجة بنت خويلد زوجة الرسول هي أول من آمن به ، ولكنها تختلف اختلافا كبيرا فيمن تلاها في اعتناق الاسلام من الرجال ويكاد يدور خلافهم حول ثلاثة أشخاص هم علي بن

---

(١) انظر عن دار الأرقم ابن سعد : ج٣ قسم١ ص١٧٤ ، الازرقي :؟

أبي طالب ، ابن عم الرسول وزيد بن حارثة ربيبه ، وأبو بكر الصديق رفيقه[١] ؛ ومن الصعب البت في ترتيب اسلام هؤلاء الثلاثة الذين كانوا السابقين الأولين ، وكلهم من أهل بيته وأشد المقربين اليه .

وقد تلا هؤلاء عدد ممن آمن بالرسول خلال الفترة التي كانت فيها الدعوة سرية ، وقد ذكر ابن اسحق أسماءهم وهم جعفر بن أبي طالب (بني هاشم) عبيدة بن الحرث (المطلب) عثمان بن عفان وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وخالد بن سعيد بن العاص (عبد شمس) عبد بن جحش وأبو أحمد بن جحش (حلفاء بني عبد شمس) الزبير بن العوام (أسد بن عبد العزى) عبدالرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وعمير بن أبي وقاص والمطلب بن أزهر (زهرة) وخباب بن الارت وعبدالله بن مسعود (حلفاء زهرة) وأبو سلمة والارقم بن أبي الارقم وعياش بن أبي ربيعة (مخزوم) وعمار بن ياسر (حليف بني مخزوم) ، سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ونعيم بن عبدالله النحام (عدي) وواقد بن عبدالله ، وخالد وعامر ، وأياس بني البكير (حلفاء عدي) وطلحة بن عبيدالله (تيم) وعامر بن فهيرة وصهيب ابن سنان (حلفاء تيم) وعثمان بن مضعون وأبناؤه قدامة وعبدالله والسائب ، وحاطب بن الحرث وأخوه حطاب بن الحرث (جمح) وخنيس بن حذافة (سهم) وأبو عبيدة بن الجراح (الحارث بن فهر) ومسعود القاري (القارة) وسليط بن عمرو وحاطب بن عمرو (عامر) .

يضاف الى هؤلاء عدد من النساء هن فاطمة بنت الخطاب زوجة سعيد ابن زيد بن عمرو وأسماء وعائشة بنتا أبي بكر ، وأسماء زوجة عياش بن أبي ربيعة ، وأسماء زوجة جعفر بن أبي طالب ، وفاطمة زوجة حاطب بن الحرث ، وفكيهة زوجة حطاب بن الحرث ، ورملة زوجة المطلب بن ازهر ، وأمينة زوجة خالد بن سعيد بن العاص[٢] .

---

(١) الطبري : ج٢ ص٢١١ - ٢١٥ .

(٢) سيرة ابن هشام : ج١ ص٢٦٩ - ٢٧٤ .

يتبين من هذه القائمة ان المسلمين الاول أكثرهم من قريش ، ولكنهم لم يقتصروا على عشيرة واحدة ، بل كانوا موزعين على كافة العشائر تقريبا ، وهناك أفراد منفردون من بعض العشائر ، وأحيانا يسلم الرجل مع زوجته ، والراجح ان النساء اسلمن مع أزواجهن ، وان كان هناك رجال اسلموا وبقيت أسرهم أو زوجاتهم مشركات[١] .

وقلما تسلم أسرة كاملة . والواقع ان هذا ينطبق حتى على الدور المكي المتأخر فيروي ابن سعد انه (كان ممن خرج في الهجرة الى المدينة فاوعوا رجالهم ونساءهم وغلقوا دورهم فلم يبق منهم أحد الا خرج مهاجرا دار بني دودان ودار بني أبي البكير ودار بني مظعون[٢]) .

والغالب ان اسلام معظمهم كان فرديا ، وان كان بعضهم قد اسلم للنبي بشكل جماعة ، فيروى ابن اسحاق ان أبا بكر اسلم على يده عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبدالرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة ابن عبدالله[٣] . ويروي ابن سعد انه (انطلق عثمان بن مضعون وعبيدة ابن الحارث بن المطلب وعبدالرحمن بن عوف وأبو سلمة بن عبدالاسد وأبو عبيدة بن الجراح حتى أتوا رسول الله (ص) فعرض عليهم الاسلام وأنبأهم بشرائعه فأسلموا جميعا في ساعة واحدة وذلك قبل دخول رسول الله (ص) دار الارقم[٤]) .

ومع انه ليست لدينا معلومات وافية عن أحوال وأوضاع كل من هؤلاء السابقين قبل اسلامهم ، الا انهم ولا شك كانوا من أوسط قريش ، فخالد ابن سعيد بن العاص كان أبوه من أغنى أهل مكة وأقواهم نفوذا[٥] ، كما

---

(١) المحبر : ص٤٠٦ ، ٤٣٢ .
(٢) ابن سعد : ج٣ قسم١ ص٦٣ ، ص٢٨٨ . ابن هشام ج٢ ص١١٦ - ١١٧ .
(٣) ابن هشام ج١ ص٢٦٨ . الجاحظ : كتاب العثمانية ص٣١ .
(٤) ابن سعد : ج٣ قسم١ ص٢٨٦ .
(٥) المحبر : ص١٦٥ نسب قريش ص١٧٣ - ١٧٤ .

ان أبا بكر وسعد بن أبي وقاص وطلحة وعبدالرحمن بن عوف كلهم تجار أو صناع من رجال الطبقة الوسطى[١] .

ومن بين السابقين في الاسلام عدد من الحلفاء ، وربما المعتقين ولعلهم هم المستضعفون الذين أشار اليهم الزهري بقوله (فاستجاب الله من شاء من احداث الرجال وضعفاء الناس حتى كثر من آمن به) .

وقد عرف الواقدي المستضعفين بأنهم قوم لا عشائر لهم بمكة وليست لهم منعة ولا قوة ، فكانت قريش تعذبهم بالرمضاء بانصاف النهار ليرجعوا عن دينهم[٢] . ويروي الطبري عن ابن مسعود في تفسير آية « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين » (الانعام ٥٢) . ان بعض كفار قريش جاؤوا الى أبي طالب فقالوا : يا أبا طالب لو ان ابن أخيك يطرد عنه موالينا وحلفاءنا فانما هم عبيدنا وعسفاؤنا كان أعظم في صدورنا واطوع له عندنا وأدنى لاتباعنا وتصديقنا له .. قال : وكانوا بلالا وعمارا بن ياسر وسالما مولى أبي حذيفة وصبيحا مولى اسيد ومن الحلفاء ابن مسعود والمقداد بن عمرو ومسعود القاري وواقد ابن عبدالله الحنظلي وعمرو ابن عبد عمرو ذو الشمالين ومرثد بن أبي مرثر وأبو مرثد من غني حليف حمزة بن عبدالمطلب واشباههم من الحلفاء . ونزلت في أئمة الكفر من قريش والموالي والحلفاء « وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين » (الانعام ٥٣[٣]) .

دوافع اعتناق الاسلام :

ولابد لنا بعد أن عرضنا أسماء ومراكز المسلمين الاول في المجتمع

---

(١) المعارف : ص٢٤٩ .

(٢) ابن سعد : ج٣ قسم١ ص١٧٧ .

(٣) تفسير الطبري : ج٧ ص١٢٧ وانظر أيضا سيرة ابن هشام ج١ ص٤٢٠ .

المكي أن نسأل عن سبب اعتناقهم الاسلام في هذه الفترة المبكرة التي لم يكن مستقبل الاسلام المادي ونجاحه واضحا • لا ريب انه لا يمكن قبول نظرية جرمه التي تقول بأنه استجاب له المستضعفون ، رغبة في التحرر ، والفقراء رغبة في الكسب ، نظرا لما فيه من ميل اشتراكي ، فان هذا الرأي ينقضه دراسة المسلمين الاول الذين كان أكثرهم من التجار ورجال الطبقة الوسطى وممن كانت لهم عشائر تحميهم وتدفع منهم • بل حتى وجود الحلفاء والمستضعفين في الاسلام لا ينهض دليلا على صحة هذا الرأي ، اذ ان هؤلاء نالوا كثيرا من الاضطهاد بسبب عقائدهم ، ومنوا بكثير من الآمال اذا تركوه ، فرفضوا وأصروا على التمسك بالدين الجديد ، مما يدل على ان دافع العقيدة هو الذي كان يدفعهم الى اعتناق الاسلام • والواقع ان الروايات اشارت بصراحة الى دوافع بعضهم فعثمان بن فطعون كان قبل ظهور الاسلام من الباحثين عن الدين ، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل هو ابن الرجل الذي كان حنفياً يبحث عن دين ابراهيم[١] ؛ وخالد بن سعيد بن العاص اعتنق الاسلام لانه رأى نفسه في المنام على حافة هاوية من النار يدفعه اليها أبوه ويدفعه عنها رجل آخر لينقذه منها[٢] ، ويمكن تفسير ذلك بانشغال عقله الباطن في الامور الدينية واعتناقه الاسلام لاعتقاده بأن فيه المنجي والمخلص ؛ أما عمر بن الخطاب الذي اسلم بعد هذه الفترة ، فقد اسلم لتأثره من سماعه آيات القرآن ومن رؤيته اخته تتأذى[٣] ، وأما الحمزة عم الرسول ، وقد اسلم بعيد هذه الفترة أيضا ، فقد اعتنقه لما رأى من تطاول على ابن أخيه[٤] •

ومن كل هذا نرى ان الدافع لاعتناق الاسلام ديني بالدرجة الاولى • يقول ابن اسحق : ثم دخل الناس في الاسلام ارسالاً من الرجال والنساء

---

(١) أنظر ص٢٨٩ — ٢٩٠ •
(٢) ابن سعد : ج٤ قسم١ ص٦٤ •
(٣) سيرة ابن هشام : ج١ ص٣٦٤ ، ٣٦٨ •
(٤) سيرة ابن هشام : ج١ ص٣١٢ •

حتى فشا ذكر الاسلام بمكة وتحدث به . ثم ان الله عز وجل أمر رسوله (ص) أن يصدع بما جاءه منه وأن يبادي الناس بأمره وأن يدعو اليه ، وكان بين ما أخفى رسول الله (ص) أمره واستتر به الى أن أمره الله تعالى باظهار دينه ثلاث سنوات فيما بلغني من مبعثه ثم قال الله له « فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين » (الحجر ٩٤)« وانذر عشيرتك الاقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين فان عصوك فقل اني بريء مما تعملون » (الشعراء ٢١٦) .. فلما بادى رسول الله (ص) قومه بالاسلام وصدع به كما أمره الله ، لم يبعد منه قومه ، ولم يردوا عليه فيما بلغني ، حتى ذكر آلهتهم وعابها ، فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه وأجمعوا خلافه وعدوانه ، الا من عصم الله تعالى منهم بالاسلام ، وهم قليل مستخفون وحدب على رسول الله (ص) عمه أبو طالب ومنعه وقام دونه ، ومضى رسول الله (ص) على أمر الله مظهرا لأمره ، لا يرده عنه شيء[1] .

ويؤيد ابن سعد أيضا ان الرسول كان يدعو أول ما نزلت عليه النبوة ثلاث سنين مستخفيا الى أن أمر بظهور الدعاء ، ثم يروي عن الزهري « فاستجاب لله من شاء من أحداث الرجال وضعفاء الناس حتى كثر من آمن به ، وكفار قريش غير منكرين لما يقول ، فكان اذا مر عليهم في مجالسهم يشيرون اليه ان غلام بني عبدالمطلب ليكلم من السماء ، فكان ذلك حتى عاب الله آلهتهم التي يعبدونها دونه ، وذكر هلاك آبائهم الذين ماتوا على الكفر ، فشنفوا لرسول الله (ص) عند ذلك وعادوه »[2] .

---

(١) سيرة ابن هشام : ج١ ص٢٧٤ - ٢٧٦ .

(٢) ابن سعد : ج١ قسم١ ص١٣٣ . اما عن عيب آلهتهم في القرآن فانظر ص٣٢١ فما بعد .

الفصل الحادي والعشرون

مقاومة المشركين للدعوة الاسلامية

دوافع المقاومة :

يتبين مما ذكرناه فيما سبق ان الدعوة الاسلامية في الادوار الاولى لم تلق معارضة شديدة ، نظرا لسريتها وعدم التعرض لآلهة الشرك ، وان الآيات الاولى كانت تؤكد على عظمة الله وقدرته ووجوب تقواه وعبادته ، فهي لا تثير المشركين الذين كانوا يعبدون الله • غير أنه بتقدم الاسلام وازدياد وضوح معالم الدين الجديد وتتابع نزول الآيات التي تعيب آلهتهم ، بدأ المشركون يمتعضون ويناصبون الدعوة الاسلامية والرسول العداء ، وأخذوا يؤذونه بمختلف الوسائل ، ولمختلف الدوافع •

الدافع الديني :

لقد رأينا ان الاسلام جاء يؤكد بالدرجة الاولى على عبادة اله واحد منزه ، ولا يقر بأي مظهر من مظاهر الشرك والوثنية ، ولا يمكن التوفيق بين ما جاء به وما كان يدين به القرشيون • فانتصار الاسلام كان يستلزم حتما ازالة المعتقدات والعبادات التي كان الناس قد ألفوها واعتادوا عليها • ان ديانة الشرك لم تكن فلسفة قوية تدافع عنها ، كما يظهر من محاجة القرآن لهم ، حيث لا يظهر منها وجود فكرة حية واضحة عندهم ، كما لم تذكر آراء واضحة عن ديانتهم أو عن وجود رجال دين يتحمسون في الدفاع عن هذه الديانة • والواقع ان القرآن يذكر تردي ذلك الدين في قلوب الناس « وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا » (الانعام ٧٠) « الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون » (الاعراف ٥١) • والواقع أن المشركين أقاموا تحاملهم على مبدأين

أساسين ، أحدهماالتهجم على فكـرة الوحدانية الخالصة والبعث وعلى شخصية الرسول ، والثاني هو ان دينهم قد ورثوه عن آبائهم •

ان مقاومة المشركين للاسلام ، رغم الجمود الظاهر لدياناتهم يمكن تعليله بأن دينهم وان لم يكن يلعب دورا كبيرا ظاهرا في حياتهم اليومية ، الا أنه كان متغلغلا في نفوسهم ومتعمقا في اللاشعور فيهم ، فهم يعيشون فيه دون أن يفهموه أو يدركوه • كما أنه نظرا لطول أمد استقراره ، لم تكن هناك حاجة للتحدث به أو الدفاع عنه • ولكن الاسلام بنقده لدينهم كان تحديه موجها لا الى عقائدهم فحسب بل الى ذاتيتهم والى كيانهم الروحي فاندفعوا يدافعون عنه بقوة • ومما زاد في قوة هذه المقاومة روح المحافظة التي تتجلى عند البدو بصورة خاصة • وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تبين أثر روح المحافظة في المقاومة غير المفكرة التي واجهوا الاسلام بها • « واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا الا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم » (سبأ ٤٣) « بل قالوا انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مقتدون • قل أو لو جئتكم بأهدي مما وجدتم عليه آباءكم قالوا انا بما ارسلتم به كافرون »(الزخرف ٢٢ ـ ٢٤) « واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا » (لقمان ٢١) « واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » (البقرة ١٧٠ ، أنظر أيضا المائدة ١٠٤) « انهم ألفوا آباءهم ضالين • فهم على آثارهم يهرعون • ولقد ضل قبلهم أكثر الاولين » (الصافات ٦٩ ـ ٧١) •

الدعوة الجديدة :

ومما زاد في عنف مقاومتهم أن دعوة الرسول للوحدانية كانت جديدة عليهم فلم يكن قد أتاهم من قبله رسول « لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون » (يس ٦) « أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك لتنذر قوما

ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون » (السجدة ٣) وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما ارسلنا اليهم قبلك من نذير » (سبأ ٤٤) •

وبجانب هذا العامل النفسي فهناك عدة عوامل دفعت القرشيين لمقاومة الاسلام منها ان الاسلام جاء يدعو لعبادة اله واحد مطلق يمكن عبادته في أي مكان • فانتشاره سيؤدي حتما الى تهديد مصالح كثيرين ممن كانت لهم علاقة ومصلحة بالدين القديم • واذا دانت مكة وأهلها بالدين الجديد فستزول مكانتهم عند المشركين من العرب وتقل حرمتهم ولا تبقى لهم المكانة السابقة « وقالوا أن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أولم نمكن لهم حرماً آمناً يجبى اليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون • وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا وكنا نحن الوارثين » (القصص ٥٧ - ٦٠) •

الدوافع الاجتماعية :

ثم ان الاسلام يهدد تكوين وتنظيم المجتمع القديم • اذ رغم ان الاسلام جاء في البداية يهدف دعوة دينية خالصة الا أن انتشاره كان لابد أن يؤدي الى نتائج اجتماعية وسياسية مهمة • فاتباع الدين الجديد لابد أن ينفصلوا عن الدين القديم وأتباعه ، ويكونوا فيما بينهم كتلة قائمة بذاتها ، تقوم على أسس جديدة وتتطلب من هؤلاء الاتباع أن يتعاونوا ويتناصروا بينهم ، بصرف النظر عن القبيلة التي ينتمون اليها ؛ وان يتحدوا لصد من يهددهم ممن لا يدين بدينهم أي أن يقفوا ضد مشركي مكة وكفارها • وهكذا تنشطر مكة الى شطرين : الاول جامد والثاني قابل للتوسع ، بل ان الانقسام سيمتد الى أعضاء الاسرة الواحدة • وقد أشار القرآن الى ازمات حدثت في بعض الأسر التي أسلم أبناؤها وظل بعض كبارها غير مسلمين أو بالعكس « الذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن اخرج وقد خلت القرون من قبلي وهما يستغيثان الله ويلك ان وعد الله حق فيقول ما هذا الا أساطير الاولين » (الاحقاف ١٧) « ووصينا الانسان

بوالديه حسنا وان جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما الى مرجعكم فانبؤكم بما كنتم تعملون » (العنكبوت ٨ أنظر أيضا لقمان ١٥) كماروى ابن اسحق ان المشركين كلموا النبي وقالوا له « انك قد اتيت بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم » وكذلك قالوا لعمه أبي طالب عندما طلبوا منه أن يتدخل ويطلب من الرسول الكف عن الدعوة »[1] .

ويجدر بنا أن نلاحظ ان الاسلام يدعو الى تنظيم اجتماعي يختلف اختلافا أساسيا عن التنظيم الذي كان قائما في الجزيرة ، وخاصة في مكه . فهو يدعو الى الانسانية والرحمة والشفقة والعطف على الضعيف والصدق والاستقامة . ويضع للتفاضل الاجتماعي مقاييس جديدة ، تقوم على أساس الاخلاق الفاضلة الصالحة بصرف النظر عن الثروة أو الجاه أو النسب . فهي تناقض تماما ما كان سائدا في مكة من تفاخر بالانساب والآباء ومن تقدير للثروة والغنى والمظاهر الدنيوية . فانتشار الاسلام كان من شأنه أن يؤثر في مركز المتنفذين والاغنياء فيخفض من مركزهم اذا لم تكن لهم صفات أخلاقية حميدة ويحل محلهم في المكانة العليا اناساً ربما كانوا من الفقراء أو ممن ليسوا من العشائر المكينة .

ولن يقتصر هذا التغير عليهم وحدهم في هذه الدنيا بل يمتد الى أجدادهم أيضا فقد لاحظنا في فصل سابق ان فكرة البعث واليوم الآخر أساسية في الاسلام ، وان الناس سيحاسبون فيها على ما كسبت ايديهم في هذه الدنيا وسيجزون بما كانوا يعملون فمن عمل مثقال ذرة خيرا يره ومن عمل مثقال ذرة شراً يره ومن ثقلت موازينهم وكثرت أعمال الخير والبر عندهم فيذهبون الى الجنة . اما من زادت أعمال الشر عندهم فيذهبون

---

(١) سيرة ابن هشام ج١ ص٢٧٩ ، ٣١٣ ، ٣١٥ الطبري ج٢ ص٢٢٣ ، ٢٣٠ تفسير الطبري ج٧ ص٢٠٧ ج١٥ ص١١٠ .

الى جهنم ؛ وان حساب يوم الآخرة لا يقتصر على الظواهر بل على الأعمال الحقيقية وانه سوف ينال الجميع حتى من كان قبل الاسلام . ولما كان آباء المشركين وأجدادهم كفارا فسيكون مصيرهم النار . وقد تكرر في القرآن ورود انكار المشركين للبعث كما تكرر التأكيد عليه كثيرا بشكل يوحي بأنها من أهم الافكار الاسلامية التي عارضوها (أنظر الانعام ٢٩ ، الرعد ٥ ، النحل ٢٨ ، الاسراء ٤٩ و٩٨ ، المؤمنون ٨٢ - ٨٣ ، الفرقان ١١ ، النمل ٦٧ - ٦٨ ، سبأ ٣ و٧ ، يس ١٦ - ١٧ ، الجاثية ٢٤ ، ق ١ - ٣ ، التغابن ٧ ، النازعات ١٠ - ١٢ ، القيامة ٣ - ٤ و٣٦ - ٤٠ ، أنظر أيضا فصلت ٦ ، الذاريات ١٠ - ١٢) .

الدوافع السياسية :

ثم ان المجتمع الجديد لا يدين بالطاعة الى الرؤساء القدماء ، بل يرتبط بالرسول الذي تأتي بواسطته أحكام الاسلام . والقرآن يأمر باطاعة الرسول « ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما » (الاحزاب ٧١) « قل اطيعوا الله ورسوله فان تولوا فان الله لا يحب الكافرين » (آل عمران ٣٢) « واطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون » (آل عمران ١٣٢) « تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم » (النساء ١٣) « ومن يطع الله والرسول فاولئك مع الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا » (النساء ٦٩) « من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما ارسلناك عليهم حفيظا » (النساء ٨٠) « وما ارسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله » (النساء ٦٤) « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله ان الله عزيز حكيم » (التوبة ٧١) . ومع ان أغلب هذه الآيات مدنية ، الا انها توضح ما ستؤدي اليه دعوة الاسلام من منح الرسول مركزا أساسيا قويا يطغي على الباقين .

ومع ان الرسول كان من مظاهر أخلاقه الدماثة والتواضع والرقة والتسامح والعطف ، وان القرآن أكد انه مذكر ومنذر وبشير لا يبغي أية منفعة مادية من دعوته « قل لا أسألكم عليه أجرا الا المودة في القربى » (الشورى ٢٣) « قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين » (ص ٨٦) « قل ما سألتكم من أجرفهولكم ان اجري الا على الله وهو على كل شيء شهيد » (سبأ ٤٧) « وما تسألهم عليه من أجر ان هو الا ذكرى للعالمين » (يوسف ١٠٤) « أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون » (القلم ٤٦ ، الطور ٤٠) •

غير ان القرشيين ارتاعوا من هذه الدعوة فكرهوا أن ينزل الوحي على رجل منهم « وعجبوا ان جاءهم منذر منهم » (ص ٤ ق ٢) « أكان للناس عجبا ان أوحينا الى رجل منهم ان أنذر الناس »(يونس) « أو نزل عليه الذكر من بيننا بل هم في شك من ذكري » (ص ٨) « أوعجبتم ان جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم » (الاعراف ٦٣ و٦٩) « ابعث الله بشرا رسولا » (الاسراء ٩٤) « واذا رأوك ان يتخذوا منك الا هزوءاً أهذا الذي بعث الله رسولا » (الفرقان ٤١) « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » (الزخرف ٣١) •

وينبغي ألا يفسر موقفهم بأنه انتقاص من مركز النبي فانه من أعلى الأسر الارستقراطية القرشية وفي القرآن شواهد على مركزه « أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الاولين أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون » (المؤمنون ٦٩) « وجاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ما عنتم » (التوبة ١٢٨) • كل هذا يدل على حسن مركزه بين قريش • ولكنهم لم يقروا له لانه لم يكن من الزعماء السياسيين في مكة ، ولانه لم يأت معه بصفات خارقة • والواقع ان أشد المقاومة جاءته من الارستقراطية والزعماء السياسيين **كما سنبين** •

الدعوة ليست اشتراكية :

وقد ادعى بعض المستشرقين وخاصة كريمر[١] ان دعوة الرسول الاولى كانت احتجاجا على سوء توزيع الثروة ، وانها استهدفت اغاثة المنكوبين والضعفاء والفقراء ، وانها لذلك كان لها مظهر الاشتراكية . ومما اتخذوه من الادلة لتعزيز دعوتهم ان الصدقات ومساعدة الضعيف والفقير والحض على اطعام المسكين وتحرير العبيد وفك رقابهم قد أكد عليها منذ أوائل أدوار الدعوة الاسلامية . وكذلك التأكيد على حسن معاملة اليتامى والتشديد على من يظلمهم . وقد هدد الاغنياء الذين ينفقون ولا يعطون الفقراء ويكنزون الذهب والفضة ؛ يضاف الى ذلك ان الاغنياء كانوا من أشد المقاومين للاسلام ، وقد أشار القرآن الى عدد غير قليل من هؤلاء الذين قاوموا الاسلام وأوعدهم بالعقاب الشديد .

لقد كان كريمر متأثرا بالنظريات الاشتراكية التي سادت القرن التاسع عشر وأراد أن ينظر بهذا المنظار الى تاريخ الرسول ، وفي رأيه تطرف فمساعدة الضعيف والرقيق واجب انساني ضروري ولم يتطرف الاسلام فيه ليجعله قريبا من الاشتراكية الحديثة ، كلا فان الصدقات كانت أقل من أن نطفىء الرأسمالية أو تخلق الاشتراكية ، وسنفصل الكلام عنها في الجزء الثاني ، هذا الى ان الاسلام أقر جمع الثروة ولم يهاجمها اذا كانت آتية من طريق مشروع[٢] كما ان كثيرا من المسلمين الاول كانوا انفسهم من الاغنياء والتجار[٣] . ويلاحظ ان الاشتراكية مذهب اقتصادي أما الدين الاسلامي فهدفه بالدرجة الاولى روحي ديني وأما المسائل

---

(١) تجد بحث كريمر في كتابه محمد (بالالمانية) وتجد اشارة ونقد له في المقال القيم الذي كتبه بوهل عن الرسول في دائرة المعارف الاسلامية ، وفي كتاب وات (محمد في مكة) ص٩٨ - ٩٩ .

(٢) أنظر كتابي عن (التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة) الفصل التاسع .

(٣) المعارف ص٢٤٩ .

الاقتصادية فكانت ثانوية بالنسبة لامور العقائد وخاصة في الادوار الاولى من الدعوة . كما ان أشد فكرة قاومها المشركون هي فكرة الآخرة . « اذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة واذا ذكر الذين من دونه اذا هم يستبشرون » (الزمر ٤٦) « واذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على ادبارهم نفورا » (الاسراء ٤٦) .

وفي القرآن آيات تدل على ان المسلمين الاول أغنياء « بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وابقى » (الاعلى ٦ - ١٧) « كلا بل لا تكرمون اليتيم . ولا تحضون على طعام المسكين . وتأكلون التراث أكلاً لما . وتحبون المال حبا جما » (الفجر ١٧ - ٣٠) « فلا اقتحم العقبه . وما ادراك ما العقبه . فك رقبه . او اطعام في يوم ذي مسغبه . يتيما ذا مقربه . أو مسكينا ذا متربه » (البلد ١١ - ١٧) .

اساليب المقاومة :

لقد اتخذ المشركون اساليب وطرقا متعددة لمقاومة الرسول والدعوة . وقد اشار القرآن الى بعضها :

فقد اتهموه بأن ما جاء به لم يكن جديدا عليهم بل هو من اساطير الاولين (الانعام ٢٥ ، النحل ٢٤ ، المؤمنون ٨٣ ، النمل ٦٨ ، الاحقاف ١٧ ، القلم ١٥ ، المطففين ١٣) .

واتهموه بأن اعجميا يلقنه اياها « وقال الذين كفروا ان هذا الا افك افتراه واعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلما وزورا . وقالوا اساطير الاولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة واصيلا » (الفرقان ٤ - ٥) « ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون اليه اعجمي وهذا لسان عربي مبين » (النحل ١٠٣) وانتقدوا الناسخ والمنسوخ « واذا بدلنا آية مكان آية والله اعلم بما ينزل قالوا انما انت مفتر بل أكثرهم لايعلمون » (النحم ١٠١) .

ثم انهم سخروا من الرسول وهزؤا به وبدعوته (الصافات ١٢ و١٤ ،

التوبة ٦٥ ، الانعام ٥ و١٠ ، هود ٨ ، النحل ٣٤ ، الشعراء ٦ ، الروم ١٠ ، يسين ٣٠ ، الزمر ٤٨ ، الزخرف ٧ ، الاحقاف ٢٦ ، الرعد ، الانبياء ٤١ ، الحجر ٩٥ ، الكهف ٥٦ و١٠٦ ، الفرقان ٤١ ، الجاثية ٩ و٣٥) .

واتهموه بأنه ساحر وان ما جاء به سحر (الانعام ٧ ، يونس ٧٦ ، هود ٧ ، النمل ١٣ ، سبأ ٤٣ ، الصافات ١٥ ، الزخرف ٣٠ ، الاحقاف ٧ ، الطور١٥ ، القمر ٢ ، الصف ٦ ، المدثر ٢٤ ، ص ٤ ، الذاريات ٥٢ ، الاسراء ٤٧ ، الفرقان ٨) .

كما اتهموه بأنه مجنون (الحجر ٦ ، الصافات ٣٦ ، القلم ٥١ ، المؤمنون ٢٥ و٧٠) وقد رد على هذه التهمة (الاعراف ١٨٤ ، سبأ ٤٦ ، الطور ٤٩ ، القلم ٢ ، التكوير ٢٢) .

واتهموه أيضا بأنه كذاب (ص ٤ ، القمر ٢٥ ، فاطر ٢٥ ، الحج ٤٢) وانه مفتر (الفرقان ٤ ، سبأ ٤٣ ، الاحقاف ٨ و١١ ، السجدة ٣ ، يونس ٣٨ ، هود ١٣ و٣٥ ، الانبياء ٥) .

ونسبوا اليه انه شاعر (الصافات ٣٦ ، الحاقة ٤٠ ، الانبياء ٥ ، الطور ٣٠) وكاهن (الطور ٢٩ ، الحاقة ٤٢) .

كما أخذوا على الرسول انه بشر مثلهم فلم يصدقوا بأن الرسول يمكن أن يكون بشرا (الانبياء ٣ ، المؤمنون ٢٤ و٢٣ ، الاسراء ٩٤ ، القمر ٢٤) كما طلبوا منه آية (الانعام ١٠٩ و٢٧٩ ، يونس ٢٠ ، الرعد ٧ و٢٧ ، الانبياء ٥ ، الشعراء ١٥) .

وطلبوا منه أن يأتي بالمعجزات « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيرا أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤ . قل سبحان ربي هل كنت الا بشرا رسولا »

(الاسراء ٩٠ ـ ٩٤) « وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الاسواق لولا انزل اليه ملك فيكون معه نذيرا • أو يلقى اليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون ان تتبعون الا رجلا مسحورا » (الفرقان ٧ ـ ٨) « فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك أو ضائق به صدرك أن يقولوا لولا انزل عليه كنز أو جاء معه ملك انما أنت نذير والله على كل شيء وكيل » (هود ١٢) •

كما قالوا له « إئت بقرآن غير هذا » (يونس ١٥) أو « لو نزل عليه القرآن جملة واحدة » (الفرقان ٣٢) وعندما ذكر القرآن آيات الله قالوا « لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما اوتي رسل الله » (الانعام ١٢٤) كما انهم عندماكانت تتلى عليهم آيات الله يقولون « قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا » (الانفال ٣١) • وادعوا بأنهم ما سمعوا بهذا في الملة الآخرة وان آباءهم لم يعرفوا ما جاء به النبي • وكانوا لا يسمعون ما يقول ويصدون عنها (الاسراء ٤٦ ، فصلت ٤ و٢٦ ، الاعراف ١٩٨ ، فاطر ١٤ ، النمل ٨٠ ، الروم ٥٢ ، المدثر ٤٩ ، الجاثية ٨ ، لقمان ٧) •

وكانوا يشكون فيما جاء به (هود ٦٢ و١١٠ ، ابراهيم ٩ ، الشورى ١٤ ، فصلت ٢٥ و٤٥) ويجحدون بآيات الله وينكرونها ويكفرون بها ومن ثم اطلق عليهم اسم الكافرين التي تتردد كثيرا في العصر المكي •

ويظهر أنهم استغربوا من كلمة الرحمن التي هي مرادف لاسم الله تعالى « واذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا » (الفرقان ٦٠) « واذا رآك الذين كفروا ان يتخذونك الا هزوا أهذا الذي يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن كافرون » (الانبياء ٣٦) « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعون فله الاسماء الحسنى » (الاسراء ١١٠) « كذلك أرسلناك في امة قد خلت من قبلها امم لتتلوا عليهم الذي أوحينا اليك وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربي لا اله الا هو عليه توكلت واليه متاب » (الرعد ٣٠) •

ثم انهم كانوا يسخرون من المسلمين « ان الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون • واذا مروا بهم يتغامزون • واذا انقلبوا الى أهلهم انقلبوا فكهين • واذا رأوهم قالوا ان هؤلاء لضالون » (المطففين ٢٩ ـ ٣٢) « واذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا (الحج ٧٢) •

المقـاومون

اشارات القرآن :

لم يرد في القرآن من أسماء مقاومي النبي الا اسم عمه ابي لهب وزوجته حمالة الحطب ، وقد ذكرا في سورة قصيرة • ولكن وردت في عدة آيات قرآنية اشارات الى اشخاص يدل ما نزل فيهم على انهم كانوا يقاومون الرسول ودعوته • ومع ان القرآن لم يذكر اسماءهم بصراحة ، الا ان كتب التاريخ والتفسير تذكر اسماءهم • فمن هذه الآيات « ذرني ومن خلقت وحيدا • وجعلت له مالا ممدودا • وبنين شهودا • ومهدت له تمهيدا • ثم يطمع ان أزيدَ • كلا انه كان لآياتنا عنيدا • سأرهقه صعودا • انه فكر وقدر • فقتل كيف قدر ثم قُتِلَ كيف قدر • ثم نظر • ثم عبس وبسر • ثم ادبر واستكبر • فقال ان هذا الا سحر يؤثر • ان هذا الا قول البشر » (المدثر ١١ ـ ٢٥) « أفرأيت الذي تولى • وأعطى قليلا واكدى • أعنده علم الغيب فهو يرى • أم لم ينبأ بما في صحف موسى • وابراهيم الذي وفى • ألا تزر وازرة وزر اخرى • وان ليس للانسان الا ما سعى » (النجم ٣٣ ـ ٣٩) وقد نزلت هاتان الآيتان في الوليد بن المغيرة المخزومي[١] الذي أشار اليه القرشيون بقولهم « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » (الزخرف ٣١[٢]) •

---

(١) سيرة ابن هشام ج١ ص٢٨٤ تفسير الطبري ج٢٥ ص٤٠ ج٢٩ ص٩٦ الاشتقاق ص٩٤ •

(٢) تفسير الطبري ج٢٥ ص٤٠ •

« ويل لكل همزة لمزة • الذي جمع مالا وعدده • أيحسب ان ماله اخلده كلا لينبذن في الحطمة » (الهمزة ١ ـ ٤) وقد نزلت في أمية بن خلف[١] •

« وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم • قل يحيها الذي انشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » (يسين ٧٨ ـ ٧٩) « يوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا • يا ويلتي ليتني لم اتخذ فلانا خليلا • لقد أضلني عن الذكر بعد اذ جاءني وكان الشيطان للانسان خذولا » (الفرقان ٢٧ ـ ٢٩) • وقد نزلت هاتان الآيتان في ابي بن خلف[٢] •

« أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا • اطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا • كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مدا • ونرثه ما يقول ويأتينا فردا » (مريم ٧٧ ـ ٨٠) « ويل لكل افاك أثيم • يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم • واذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين » (الجاثية ٧ ـ ٩) « أرأيت الذي يكذب بالدين • فذلك الذي يدع اليتيم • ولا يحض على طعام المسكين » (الماعون ١ ـ ٣) • وقد نزلت هذه الآيات في العاص بن وائل[٣] •

« ولا تطمع كل حلاف مهين • هماز مشاء بنميم • مناع للخير معتد أثيم • عتل بعد ذلك زنيم • ان كان ذا مال وبنين • اذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين سنسمه على الخرطوم » (القلم ١٠ ـ ١٦) وقد نزلت في الاخنس بن شريق[٤] •

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٧٩ ـ ٤٢٣ •

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٨٥ ـ ٣٨٦ تفسير الطبري ج ١٧ ص ٦ ج ٢٣ ص ٢٠ الاشتقاق ص ٨٠ •

(٣) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٨٠ ابن سعد ج ٣ قسم ١ ص ١١٦ تفسير الطبري ج ١٦ ص ٩١ الاشتقاق ص ٧٩ •

(٤) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٨٤ تفسير الطبري ج ٢٩ ص ١٤ ـ ١٥ •

« فلا صدق ولا صلى • ولكن كذب وتولى • ثم ذهب الى اهله يتمطى اولى لك فاولى • ثم اولى لك فاولى » (القيامة ٣١ - ٣٥) « فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثماً أو كفورا (الانسان ٢٤) « أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها » (الانعام ١٢٢) • وقد نزلت هذه الآيات في أبي جهل[1] •

« ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير • ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله له في الدنيا خزي ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق » (الحج ٨ - ٩) « وقال الذين كفروا ان هذا الا افك افتراه واعانه عليه قوم آخرون فقد جاؤوا ظلما وزورا • وقالوا اساطير الاولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة واصيلا » (النور ٤ - ٥) وقد نزلت هاتان الأيتان في النضر بن الحارث بن كلدة بن علقمة بن عبد مناف بن عبدالدار ابن قصي[2] • ويروى عن ابن عباس انه قال نزل فيه ثمان آيات من القرآن ، وكل ما ذكر فيه من الاساطير من القرآن نزل فيه • ويقول ابن اسحاق انه « كان النضر بن الحارث من شياطين قريش وممن كان يؤذي رسول الله وينصب له العداوة وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رستم واسفنديار ، فكان اذا جلس رسول الله (ص) مجلسا فذكر فيه بالله وحذر قومه ما اصاب من قبلهم من الامم من نقمة الله ، خلفه في جلسه ، اذا قام ثم قال انا والله يا معشر قريش أحسن حديثا منه فهلم الي فأنا احدثكم أحسن من حديثه ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسفنديار ثم يقول بماذا محمد أحسن حديثا مني[3] » •

وقد أشار القرآن الكريم الى المستهزئين « انا كفيناك المتهزئين الذين

(١) تفسير الطبري ج ٢٩ ص ١٢٤ ، ١٣٨ ج ٨ ص ١٧ ج ٢٥ ص ٨٠ سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٣٣ •

(٢) تفسير الطبري : ج ٧ ص ١٨٤ ج ٩ ص ١٥١ ج ١٧ ص ٩٢ ج ١٨ ص ١٣٦ •

(٣) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٣٢٠ ، ٣٨٢ • تفسير الطبري : ج ١٨ ص ١٣٩ •

يجعلون من الله الاها آخر فسوف يعلمون » (النحل ٩٥ - ٩٦) كما أشار الى المقتسمين « كما انزلنا على المقتسمين . الذين جعلوا القرآن عضين » (النحل ٩٠ - ٩١) . والمستهزؤون هم فيما يروي ابن اسحق عن عروة بن الزبير خمسة نفر كانوا ذوي أسنان وشرف في قومهم من بني أسد من عبدالعزى بن قصي الاسود بن المطلب بن زمعة .. ومن بني زهرة الاسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة . ومن بني مخزوم الوليد بن المغيرة بن عبدالله بن مخزوم . ومن بني سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي العاص بن وائل بن هشام بن سعيد ابن سعد بن سهم . ومن حزاعة الحرث بن الطلاطلة بن عمرو بن الحرث ابن عمرو بن ملكان[١] .

أما المقتسمون فيقول السكري « انهم سبعة عشر رجلا من قريش اقتسموا عقاب مكة ، فكانوا اذا حضروا الموسم يصدون عن رسول الله (ص) وهم على ما ذكر ابن الكلبي عن ابن عباس من بني عبد شمس ثلاثة نفر حنظلة بن ابي سفيان وعتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس ، ومن بني مخزوم سبعة نفر أبو جهل ، والعاص ، وأبو قيس بن الوليد ، وقيس بن الفاكة ، وزهير بن أبي أمية ، والاسود بن عبدالاسد ، وصيفي بن السائب . ومن بني عبدالدار واحد هو النضر بن الحارث بن كلدة ، ومن بني سهم اثنان منبه ونبيه ابنا الحجاج . ومن بني جمح اثنان أمية بن خلف ، وأوس ابن مسير أخو أبي محذورة وهما من أنفس بني جمح[٢]) .

وفي تفسير آية « ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم » (الانعام ١٠٨) يروي الطبري عن السدي انه « لما حضر أبا طالب الموت قالت قريش انطلقوا بنا فلندخل على هذا الرجل فلنأمره أن ينهي عنا ابن أخيه ، فانا نستحي أن نقتله بعد موته فتقول العرب كان يمنعه ،

---

(١) سيرة ابن هشام : ج ٢ ص ١٥ . تفسير الطبري : ج ١٤ ص ٤٨ - ٥١ .

(٢) المحبر : ص ١٦٠ - ١٦١ .

فلما مات قتلوه ، فانطلق أبو سفيان وأبو جهل والنضر بن الحرث وأمية بن خلف وعقبة بن أبي معيط وعمرو بن العاص والاسود ابن البختري وبعثوا رجلا منهم يقال له المطلب قالوا استأذن على ابي طالب . فأتى ابا طالب فقال هؤلاء مشيخة قومك يريدون الدخول عليك فأذن لهم فدخلوا عليه فقالوا يا أبا طالب أنت كبيرنا وسيدنا وان محمدا قد آذانا وآذى آلهتنا فنحب أن تدعوه فتنهاه عن ذكر آلهتنا ولندعه والهه[1] ... » .

ويروي ابن اسحق عن ابن عباس في تفسير آية « وقالوا لن نؤمن .. » ان عتبة وشيبة ابني ربيعة ، وأبا سفيان بن حرب ، ورجلا من بني عبدالدار ، وأبا البختري أخا بني أسد ، والاسود بن المطلب ، وزمعة ابن الاسود ، والوليد بن المغيرة ، وأبا جهل بن هشام ، وعبدالله بن أبي أمية ، وأمية بن خلف ، والعاص بن وائل ، ونبيها ومنبها ابني الحجاج السهميين ، اجتمعوا ومن اجتمع منهم بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة فقال بعضهم لبعض ابعثوا الى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه فبعثوا اليه ان اشراف قومك قد اجتمعوا اليك ليكلموك[2] ...

رواية ابن سعد :

وقد روى ابن سعد انه [كان اهل العداوة والمباداة لرسول الله (ص) واصحابه الذين يطلبون الخصومة والجدل ابا جهل بن هشام ، وابا لهب ابن عبدالمطلب ، والاسود بن يغوث ، والحارث بن قيس بن عدي وهو ابن الغيطلة والغيطلة أمه ، والوليد بن المغيرة ، وأمية وأبي ابني خلف ، وابا قيس بن الفاكه بن المغيرة بن وائل ، والنظر بن الحارث ، ومنبه الحجاج ، وزهير بن أبي أمية ، والسائب بن صيفي بن عائذ ، والاسود بن عبدالاسد ،

---

(١) الطبري : ج ٢ ص ٢١٩ . تفسير الطبري ج ٧ ص ٢٧ .
(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٧٦ - ٢٧٧ الطبري ج ٢ ص ٢١٨ تفسير الطبري ج ١٥ ص ١٠٧ - ١١٠ .

والعاصي بن سعيد بن العاص ، والعاص بن هاشم ، وعقبة بن أبي معيط ، وابا الاصدي الهذلي ، والحكم بن أبي العاص ، وعدي بن الحمراء ، والذي كان تنتهي عداوة رسول الله اليهم أبو جهل وأبو لهب وعقبة بن أبي معيط . وكان عتبة وشيبة أبنا ربيعة وأبو سفيان بن حرب أهل عداوة ولكنهم لم يشخصوا بالنبي (ص) كانوا كنحو قريش قال ابن سعد ولم يسلم منهم أحد الا أبو سفيان والحكم[١] .

من هم أهل العداوة :

يتضمن ما أوردته آنفا كل ما استطعت الحصول عليه من أسماء خصوم النبي وأهل العداوة له . ويلاحظ ان القرآن ، وقد أشار في عدد من الآيات الى من قاوم الرسول ، لم يصرح الا باسم أبي لهب وزوجته ، وهذه الآيات المتعلقة بهم قد تكتفي بالتلميح الى واحد فقط من مواقفهم أو حججهم ، أو قد لا تلمح شيئا بل تكتفي بالشدة عليهم . وقد اقتصر الرواة والمفسرون في شرح موقف واحد هو الذي أشار اليه القرآن فحسب ، من دون أن يوردوا أية معلومات اضافية ، حتى الايذاء والاستهزاء قلما يورد عنه الرواة أخبارا وافية . ولا ريب ان أشارة القرآن الى حادث واحد لكل منهم لا يستلزم حتما أن يكون هذا الحادث هو وحده مظهر ايذائهم أو هزؤهم . فقد تكون هنالك أعمال أخرى لم يشر اليها القرآن . ثم ان اشارة القرآن اليهم لا تعني انهم وحدهم المؤذون والمستهزؤن ، فقد يكون هناك غيرهم ممن قام بمثل تلك المقاومة دون أن يشير اليه القرآن .

لقد بينا ان الرواة ذكروا أسماء من تعرضت لهم هذه الآيات ، فاذا افترضنا صحة ما أوردوه فاننا نلاحظ من المعلومات القليلة الواردة عنهم في الكتب ، انهم كانوا من عشائر متعددة ، وان أغلبهم كانوا ذوي سن وشرف

---

(١) ابن سعد ج ١ قسم ١ ص ١٣٣ .

وساهموا في اجتماعات دار الندوة[١] ، وان كثيرا منهم كانوا من الاسخياء ، فالاسود بن المطلب والعاص بن وائل هم من أزواد الركب أي انهم كانوا اذا سافروا لم يختبز معهم أحد ولم يطبخ[٢] ؛ وفيهم عدد من المطعمين في بدر كأبي جهل ونبيه ومنبه أبني الحجاج والنضر بن الحارث وأمية بن خلف[٣] .

ان هؤلاء المؤذين والمستهزئين كان بعضهم يمت الى الرسول بصلة القرابة والنسب ، فأبو لهب عم النبي وحمو بناته[٤] ، والاسود بن عبد يغوث ابن خاله[٥] ، وزهير وعبدالله ابنا أبي أمية هما أولاد عاتكة عمة النبي[٦] ، وكانت لبعضهم مواقف طيبة مع الرسول أو المسلمين فان أبا البختري وزهير بن أبي أمية وزمعة بن الاسود ساهموا في تمزيق صحيفة مقاطعة المسلمين والرسول[٧] ؛ كما ان العاص بن هاشم عندما أظهر عمر الاسلام منعه وحماه فيما يقال[٨] ، وقد كان بعضهم صديقا لبعض المسلمين الأولين فأمية بن خلف كان صديق عبدالرحمن بن عوف[٩] . ولاشك ان كثيرا منهم كان لهم بين المسلمين أقارب .

ان أغلب من ذكرنا قتلوا في بدر . وفيهم اثنان أمر الرسول بقتلهم بعد أن أسروا في الموقعة ، وهما النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط[١٠] .

---

(١) أنظر ص ١٠٨ - ٩ .

(٢) المحبر : ص ١٣٧ . المنمق : ص ٢٩٤ (نبذة بهامش المحبر) .

(٣) المحبر : ص ١٦١ - ١٦٢ . سيرة ابن هشام : ج ٢ ص ٣١١ وانظر عن سخاء ابي جهل أيضا المحبر ص ١٤٠ .

(٤) أنظر ص ٣٢٧ .

(٥) مصعب الزبيري : نسب قريش ص ٢٦٢ .

(٦) الطبري : ج ١٣ ص ٤٤ . سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٢٩٩ ، ٣١٧ ، ٣٩٧ ج ٤ ص ١٨ ، ٣١ . المحبر : ص ٢٧٤ .

(٧) الطبري : ج ٣ ص ٢٢٥ - ٢٢٩ . سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٢٩٧ . مصعب الزبيري : ٣١٢ ، ٤٣١ .

(٨) مصعب الزبيري : ص ٤٠٨ .

(٩) تفسير الطبري : ج ١٦ ص ١٠٠ .

(١٠) الطبري : ج ٢ ص ٢٨٦ سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٨٦ المحبر ص ١٧٤ ، ٤٧٨ .

كما أن أبي بن خلف قتله الرسول بيده في غزوة أحد[1] .

غير اننا لا نعلم عن مناصبهم ووظائفهم شيئاً ، والراجح انهم ، أو أكثرهم ، من التجار ، ولا يوجد ما يدل على انهم رجال دين مع انهم قد يكونون من المتحمسين في الدفاع عن الدين . والراجح انهم لم يقوموا وحدهم بالمقاومة بل ان آخرين كانوا معهم ولكن المصادر سكتت عن ذكرهم .

مكانة المتهجمين والمقاومين :

وفي القرآن عدد من الآيات يستدل منها على ان المقاومين كانوا من المترفين الاغنياء والارستقراطية المستكبرين الطغاة « بل قالوا انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون . وكذلك ما ارسلنا من قبلك في قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون » (الزخرف ٢٢ ـ ٢٣) « فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الارض الا قليلا ممن انجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما اترفوا فيه وكانوا مجرمين » (هود ١١٦) « واصحاب الشمال ما اصحاب الشمال . في سموم وحميم . وظل من يحموم . لا بارد ولا كريم . انهم كانوا قبل ذلك مترفين . وكانوا يصرون على الحنث العظيم . وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أانا لمبعوثون . أو آباؤنا الاولون » (الواقعة ٤١ ـ ٤٨) « وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلا . انا لدينا انكالا وجحيما » (المزمل ١١ ـ ١٢) « واما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه . ولم ادر ما حسابيه . يا ليتها كانت القاضية . ما أغنى عني ماليه . هلك عني سلطانيه » (الحاقة ٢٥ ـ ٢٩) « ويل لكل همزة لمزة . الذي جمع مالا وعدده . أيحسب ان ماله أخلده . كلا لينبذن في الحطمة » (الهمزة ١ ـ ٤) « واذا اردنا ان نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » (الاسراء ١٦) . « وقال

---

(١) الطبري : ج ٣ ص ١٩ المحبر ص ١٤٠ مصعب الزبيري ص ٣٨٧ .

الذين كفروا لن نؤمن بهـذا القرآن ولا بالذي بين يديه ولو ترى اذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم الى بعض القول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا انتم لكنـا مؤمنين • قـال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد اذ جاءكم بل كنتم مجرمين • وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار اذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له انداداً واسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الاغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون الا ما كانوا يعملونِ • وما ارسلنا في قرية من نذير الا قال مترفوها انا بما ارسلتم به كافرون • وقالوا نحن اكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين • قل ان ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن أكثر الناس لا يعلمون • وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى الا من آمن وعمل صالحا فاولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون » (سبأ ٣١ - ٣٧) « واذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا انا كنا لكم تبعا فهل انتم مغنون عنا نصيبا من النار • قال الذين استكبروا انا كل فيها ان الله قد حكم بين العبـاد » (غافر ٤٧ - ٤٨) « وبرزوا لله جميعا فقـال الضعفاء للذين استكبروا انا كنا لكم تبعا فهل انتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء • قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا اجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص » (ابراهيم ٢١) • « يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا اطعنا الله واطعنا الرسولا • وقالوا ربنا انا اطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا » (الاحزاب ٦٦ - ٦٧) « ان الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخيـاط وكذلك نجزي المجرمين » (الاعراف ٤٠ ، أنظر أيضا الاعراف ٣٦ ، الفرقان ٢١) « وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما

يمكرون الا بانفسهم وما يشعرون » (الانعام ١٣٣) « ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الارض بغير الحق وبما كنتم تفسقون » (الاحقاف ٢٠) « وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوما مجرمين » (الجاثية ٣١) « حتى اذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصرا وأقل عددا » (الجن ٢٤) « فاما من طغى وآثر الحياة الدنيا فان الجحيم هي المأوى » (النازعات ٢٨ ــ ٢٩) « ان جهنم كانت مرصادا . للطاغين مآبا » (النبأ ٢١ ــ ٢٢) .

الفصل الثاني والعشرون

الكفاح ضد المشركين

اضطهاد المشركين :

ان المقاومة التي أبداها المشركون للدعوة الاسلامية لم يكن لها أثر في ايقاف الرسول عن الاستمرار في دعوته ، فقد استمر على نشر الدعوة رغم ما بذلوه له من وعد ووعيد . والواقع ان الرسول ناله كثير من الاذى والسخرية التي كان يقوم بها بعض الاشخاص ضده ، كتسميته أبي كبشة[١] ، ومذمم[٢] ، أو رمي الاوساخ في طريقه[٣] ، أو رمي جيرانه الحجارة عليه[٤] ، بل بلغ الامر حدا ان حاول أبو جهل مرة رميه بالحجارة[٥] ، كما حاول مرة أخرى خنقه ، وكان ذلك (أشد ما رأيت قريشا بلغت منه قط)[٦] .

على ان الرسول لم يعدم حماية ونصيرا ، وخاصة من عشيرته ؛ اذ ان النظام القبلي السائد آنذاك كان يقضي بهذا التأييد ، فلو تخلت عن الرسول عشيرته لربما استهانت بها بقية العشائر وتجرأت عليها في ذلك المجتمع الذي يفتقد السلطة المركزية العليا الملزمة .

والواقع ان عمه ابا طالب لم يرض بالتخلي عن حمايته عندما حاول المشركون اقناعه بذلك[٧] ، و (حين رأى قريشا تصنع ما تصنع في

---

(١) تفسير الطبري : ج ١٥ ص ٧٥ المحبر : ص ١٢٩ الجاحظ : العثمانية ص ٧١ .

(٢) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٣٧٩ .

(٣) الطبري : ج ٢ ص ٢٢٩ .

(٤) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٢٥ .

(٥) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٣١٨ .

(٦) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٣١١ الطبري : ج ٢ ص ٢٢٣ .

(٧) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٢٧٦ – ٢٨٠ ، ٢٨٦ ج ٢ ص ٢٦ . الطبري : ج ٢ ص ٢١٨ – ٢٢١ تفسير الطبري : ج ٧ ص ٢٠٧ .

بني هاشم وبني المطلب ، فدعاهم الى ما هم عليه من منع رسول الله (ص) والقيام دونه ، فاجتمعوا اليه وقاموا معه ، وأجابوا الى ما دعاهم اليه من الدفع عن رسول الله (ص) الا ما كان من أبي لهب . فلما رأى أبو طالب من قومه ما سره من جدهم معه ، وحدبهم عليه جعل يمدحهم ويذكر فضل رسول الله فيهم ومكانه منهم ليشد لهم رأيهم[1] . ثم أن الحمزة عم النبي عندما سمع بتطاول أبي جهل على الرسول ، جاء يريد الانتقام لابن أخيه ثم اسلم[2] .

لم تقتصر هذه المقاومة على الرسول وحده ، بل شملت بقية المسلمين أيضا ، حيث قام المشركون بعدة محاولات لايذائهم وفتنتهم ، وقد أشار القرآن الى ذلك ، كما ذكرت الكتب بعض الاخبار عنها فكان (أبو جهل الفاسق الذي يغري بهم في رجال من قريش ، اذا سمع بالرجل قد أسلم له شرف ومنعة أنبه وخزاه وقال : تركت دين أبيك وهو خير منك ، لنسفهن حلمك ، ولنفيلن رأيك ، ولنضعن شرفك . وان كان تاجرا قال : والله لنكسدن تجارتك ، ولنهلكن مالك . وان كان ضعيفا ضربه وأغرى به[3]) . وهذا النص يشير الى الوسائل التي كانت تتخذ ، أو يراد اتخاذها من ضغط اجتماعي واقتصادي ، ومن ايذاء للضعفاء .

ومع وجود اشارات في الكتب الى الأذى الجسماني الذي وقع على بعض القرشيين ، كالتطاول على ابي بكر واقرانه بطلحة بن عبيدالله مرة ، الا ان الراجح ان هذا كان قليلا نسبياً ، وانه اذا حدث ضغط على مسلم فانه يحدث من قبل العشيرة ، لان العشيرة هي السلطة الوحيدة التي يمكن أن تفرض العقوبات على الفرد . وجدير بالملاحظة انه لم تذكر أية محاولة لنفيهم ، كما ان ما روي من ايذاء كان قليلاً نسبيا على الصلبية .

---

(١) الطبري : ج ٢ ص ٢٢٠ . سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٢٨١ .

(٢) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٣١٢ - ٣١٣ . الطبري : ج ٢ ص ٢٢٤ .

(٣) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٣٤٢ .

غير انه رويت أخبار عن كثير من الاذى وقع على المستضعفين وهم على ما يقول الواقدي (قول لا عشائر لهم بمكة وليست لهم منعة ولا قوة فكانت قريش تعذبهم في الرمضاء بأنصاف النهار ليرجعوا عن دينهم[1]) وقد رويت أخبار كثيرة عن تعذيب بعض هؤلاء أمثال عمار بن ياسر ، وصهيب الرومي وأبو فكيهة وبلال الحبشي[2] •

ويلاحظ ان هؤلاء من العبيد الذين لأسيادهم الحق في عقابهم ، وانهم أبدوا تمسكا في دينهم ، وقد قام كثير من المسلمين يعملون على تحريرهم لتخليصهم مما ينالون من أذى ، فاعتق أبو بكر بلالاً وعامر بن فهيرة وأم عبيس وزنيرة والنهدية[3] وابنتها • ويبدو ان الاعتاق كان يخلص العبد من الاذى •

ويظهر ان محاولاتهم قد ظفرت ببعض النجاح خصوصا فيمن لم يكن قلبه متمكناً فيه الايمان • وقد أشار القرآن الكريم الى ذلك « ومن الناس من يقول آمنا بالله فاذا اوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن انا معكم أو ليس الله بأعلم بما في صدور العالمين » (العنكبوت ١٠) •

الهجرة الى الحبشة :

لقد كان لهذه الازمة أثر على الجماعة الاسلامية، وكان لابد للرسول من معالجتها • وقد أورد الطبري في تاريخه نص كتاب لعروة بن الزبير الى عبدالملك بن مروان قال فيه (أما بعد فانه ، يعني رسول الله (ص) ، لما دعا قومه لما بعثه الله من الهدى والنور الذي انزل عليه لم يبعدوا منه أول ما دعاهم وكادوا يسمعون له حتى ذكر طواغيتهم ، وقد ناس من الطائف

(١) ابن سعد : ج ٣ قسم ١ ص ١٧٧ •

(٢) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٣٣٩ ـ ٣٤٣ • تفسير الطبري : ج ١٤ ص ١٠٥ • الجاحظ : العثمانية ص ٢٩ •

(٣) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٣٣٩ ـ ٣٤٠ • الجاحظ : العثمانية ص ٣٣ ، ١٠٣ •

من قريش لهم أموال ، وانكروا ذلك عليه واشتدوا عليه وكرهوا ما قال وأغروا به من أطاعهم ، فانصفق عنه عامة الناس فتركوه الا من حفظه الله منهم وهم قليل فمكث بذلك ما قدر الله أن يمكث . ثم ائتمرت رؤوسهم بأن يفتنوا من تبعه عن دين الله من أبنائهم واخوانهم وقبائلهم ، فكانت فتنة شديدة الزلزال على من اتبع رسول الله (ص) من أهل الاسلام ، فافتتن من افتتن وعصم الله منهم من شاء . فلما فعل ذلك بالمسلمين أمرهم رسول الله (ص) أن يخرجوا الى أرض الحبشة ، وكان بالحبشة ملك صالح يقال له النجاشي لا يظلم أحد بأرضه وكان يثنى عليه مع ذلك صلاح ، وكانت أرض الحبشة متجراً لقريش يتجرون فيها ، يجدون فيها رفاغاً من الرزق وأمناً ومتجرا حسنا فأمرهم بها رسول الله (ص) فذهب اليها عامتهم لما قهروا بمكة وخاف عليهم الفتن ، ومكث هو فلم يبرح ، فمكث بذلك سنوات يشتدون على من أسلم منهم . ثم انه فشا الاسلام فيها ودخل فيها رجال من أشرافهم[١]) .

ويقول ابن اسحق (فلما رأى رسول الله (ص) ما يصيب أصحابه من البلاء ، وما هو فيه من العافية ، لمكانه من الله ومن عمه ابي طالب وانه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء قال لهم : لو خرجتم الى أرض الحبشة ، فان بها ملكا لا يظلم احدا وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه ، فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله مخافة الفتنة وفرارا الى الله بدينهم ، فكانت أول هجرة كانت في الاسلام[٢]) .

المهاجـــرون :

يروي ابن سعد ان الهجرة الى الحبشة كانت على دفعتين احداهما مكونة من احد عشر رجلا ، وقد بقوا فيها أمدا حتى سمعوا بعقد الصلح بين الكفار والرسول على أثر قصة الغرانيق ، فعادوا وتبين لهم عدم صحة

---

(١) الطبري : ج٢ ص٢٢١ .

(٢) سيرة ابن هشام : ج١ ص٣٤٣ .

ما سمعوا ، ثم حدثت الهجرة الثانية بعد ذلك ، وكانت تشمل ثلاثة وثمانين شخصا[١] .

أما ابن اسحق فيروي أسماء عشرة من المسلمين ، ويقول (فكان هؤلاء العشرة أول من خرج من المسلمين الى أرض الحبشة فيما بلغني . قال ابن هشام : وكان عليهم عثمان بن مظعون فيما ذكر لي بعض أهل العلم . قال ابن اسحق ثم خرج جعفر بن أبي طالب (رض) وتتابع المسلمون حتى اجتمعوا بأرض الحبشة فكانوا بها ، منهم من خرج بأهله ومنهم من خرج بنفسه لا اهل له معه)[٢] .

ومما يؤيد رواية ابن اسحق عن أن الهجرة حدثت تدريجيا ما رواه ابن سعد عن بنت خالد بن سعيد بن العاص (وكانت وابوها من مهاجري الحبشة) اذ قالت (قدم علينا عمي عمرو بن سعيد أرض الحبشة بعد مقدم أبي بسنتين فلم يزل هناك حتى حمل في السفينتين مع أصحاب رسول الله (ص) فقدموا على النبي وهو بخيبر[٣]) .

وقد كان هؤلاء المهاجرون من مختلف القبائل : فمن بني هاشم واحد ، ومن عبد بن قصي واحد ، ومن نوفل واحد (حليف) ، ومن عبد شمس اثنان (واحد حليف) ، ومن تيم اثنان ، ومن أسد بن عبد العزى أربعة ، ومن عدي خمسة (منهم واحد حليف) ، ومن امية سبعة (منهم أربعة حلفاء) ، ومن زهرة سبعة (منهم ثلاثة حلفاء) ، ومن عبدالدار سبعة ، ومن مخزوم ثمانية (منهم واحد حليف) ، ومن عامر سبعة (منهم واحد حليف) ، ومن الحارث بن فهر ثمانية ، ومن جمح اثنا عشر ، ومن سهم أربعة عشر (منهم واحد حليف[٤]) .

ويلاحظ ان عدد من هاجر من القبائل التي اشتركت في تكوين

---

(١) ابن سعد : ج١ قسم١ ص١٣٦ - ١٣٨ .
(٢) سيرة ابن هشام : ج١ ص٣٤٥ .
(٣) ابن سعد : ج٤ قسم١ ص٧٣ .
(٤) انظر قائمة أسماءهم في آخر هذا الفصل .

حلف الفضول قليل نسبيا ، وانّ عدد من كان من قبائل حلف لعقة الدم (وهم مؤيدو بني عبدالدار في خصومتهم ضد هاشم) كبير .

دوافع الهجرة :

لقد ناقش مونتجومري وات خمســة افتراضات عن سبب الهجرة الى الحبشة وملخصها[١] :

(١) السبب الاول هو تجنب الاضطهادات والضغط الذي قام بـه المشركون على المسلمين في مكة . وهذا السبب هو الذي ارتآه كل من عروة ابن الزبير وابن اسحق في كتابيهما اللذين ذكرناهما آنفا . ومما يؤيد هذا السبب هو ان المسلمين الذين لم يهاجروا أكثرهم من بني هاشم والمطلب وزهرة وتيم وعدي الذين كانوا قد كونوا حلف الفضول ، اما الذين هاجروا فكان منهم كافة مسلمي بني مخزوم وعبد شمس (الا اثنين هما الارقم المخزومي الذي كان قويا متنفذا ، وابا أحمد بن جحش حليف عبد شمس الذي كان أعمى) .

ولكن يرد على هـذا بالتساؤل عن سبب بقـاء بعض المهاجرين في الحبشة الى السنة السابعة للهجرة[٢] ، وعدم عودتهم الى المدينة بعد هجرة الرسول اليها حيث لقي ترحيبا وتأييدا ؟ مع انه لم يرو عن الرسول انه أوعز اليهم بالبقاء حتى ذلك الزمن المتأخر .

(٢) والسبب الثاني الذي يمكن أن تفسر به الهجرة الى الحبشة ، هو لتجنب احتمال فتنتهم نتيجة الاضطهاد . ولكن مما يضعف قيمة هـذا السبب هو ان المهاجرين الى الحبشة هم من أول المسلمين ، وقد عرفوا بقوة ايمانهم ، الذي لا يقل قوة عن ايمان من لم يهاجر ، فلا يعقل أن يخشى الرسول عليهم دون غيرهم من الفتنة أو يحرص على تخليصهم من الاضطهاد

---

(١) كتاب « محمد في مكة » ص١١٣ – ١١٧ .

(٢) سيرة ابن هشام ج٣ ص٤١٧ ، الطبري ج٢ ص٢٢٩ .

الذي لو وقع عليهم وهم أقوياء الايمان ، لـزاد من تمسكهم بعقيدتهم ولصاروا مثلا أعلى يستثيرهم الباقين وتقديرهم • ثم ما هي نتيجة الهجرة الى الحبشة ؟ وكيف تخلصهم وهم سيعودون ان عاجلا أو آجلا الى مكة •

(٣) والسبب الثالث الذي يمكن افتراضه هو انهم ذهبوا الى الحبشة للقيام بالتجارة بعد أن سدت أبوابها أمامهم في مكة • وقد يؤيد هذا الرأي ما رواه ابن اسحق من أن أبا جهل كان يهدد من يعتنق الاسلام باكساد تجارته واهلاك ماله[١] كما يؤيده ما جاء في رسالة عروة بن الزبير من انه (كانت أرض الحبشة متجرا لقريش يتجرون فيها ، يجدون فيها رفاغاً من الرزق وأمنا ومتجرا حسنا) • غير أنه لاشك ان الرسول كان يحرص على العقيدة أكثر من حرصه على أوضاعهم التجارية ، فلابد أن تكون هجرتهم لامر متعلق بالدعوة •

(٤) والافتراض الرابع الذي يمكن به تفسير الهجرة الى الحبشة هو ان أهل مكة كانوا رغم حيادهم ، يتجارون مع الساسانيين الذين كفروا آنذاك قد استولوا على سوريا وفلسطين ومصر ، ممـا جعل موقفهم ضـارا بالروم ومؤيديهم من الاحباش ، لذلك أراد الرسول أن يقوي علاقتـه مع الاحباش الذين ربما لم يرضهم موقف القرشيين من الساسانيين • ولعل الرسول أراد أن يحول عن مكة بعض تجارتها ، ويعزلها في عالم التجارة الدولية ، فيجعل التجارة بيد المسلمين الذين يصبح مركزهم الحبشة مما تتضرر به مكة • وقد يؤيد هذا ان الآية الاولى من سورة الروم تظهـر عطف المسلمين على الروم ذوي الصلة بالاحباش في صراعهم مع الفرس « الم • غلبت الروم • في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون • في بضع سنين لله الامر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون • بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم • وعد الله لا يخلف لله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (الروم ١ ـ ٦)• ويروي الطبري في تفسيره عدة روايات تبين ان المشركين كانوا يميلون الى الفرس ويتمنون انتصارهم وأن

---

(١) أنظر ص٣٦١ •

المسلمين كانوا يريدون انتصار الروم[١] ، ولعل ارسال المشركين لوفد منهم يطلب من النجاشي[٢] رد المسلمين كان يدفعه خوفهم من احتمال تأثير المسلمين في سياسة الاحباش تجاه مكة مما يضر بموقف مكة • غير أن هذا الافتراض لا يفسر لماذا بقي بعض المسلمين في الحبشة الى السنة السادسة من الهجرة •

(٥) والافتراض الخامس الذي يرجحه وات هو أن الهجرة حدثت بسبب احتمال حدوث انقسام بين جماعة المسلمين في مكة ، ويعتمد في رأيه على أساس ان عثمان بن مضعون هو الذي قاد الجماعة الاولى من المهاجرين الى الحبشة ، وانه كان قد حرم الخمر على نفسه في الجاهلية ، ثم جاء الى الرسول على رأس جماعة ليعلن اسلامه ، وان لم تكن له مكانة كبيرة في المجتمع الاسلامي فيما بعد ، وقد روي عن عمر انه عابه على موته في فراشه[٣] • كما ان خالداً بن سعيد بن العاص وهو من أبرز أوائل المسلمين وابن أبي احيحة الذي كان من أغنى أهل مكة لم يعودا من الحبشة الا في السنة السادسة[٤] ، وان نعيماً بن عبدالله النحام العدوي كان من أوائل المسلمين البارزين لم يهاجر الى المدينة الا في السنة السادسة[٥] • ثم ان عبيدالله بن جحش وهو أحد مهاجري الحبشة تنصر هناك[٦] • والحق ان في القرآن آية توضح ان بعض المسلمين لم يهاجروا الى المدينة « ان الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الارض قالوا الم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فاولئك مأواهم جهنم وساءت

---

(١) تفسير الطبري : ج٢١ ص١١ ـ ١٦ انظر أيضا ج٨ ص١٢ •
(٢) سيرة ابن هشام : ج١ ص٣٥٦ فما بعد •
(٣) انظر ترجمته في ابن سعد ج٣ قسم١ ص٢٨٦ ـ ٢٩١ • انظر كذلك تفسير الطبري ج٧ ص٦ •
(٤) سيرة ابن هشام : ج٣ ص٤١٧ • ابن سعد : ج٤ قسم١ ص١٤٤ •
(٥) ابن سعد : ج٣ قسم١ ص١١٢ •
(٦) سيرة ابن هشام : ج٣ ص٤١٧ •

مصيرا • الا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا فاولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفورا » (النساء ٩٧ ـ ٩٩) •

يستنتج وات من هذه الاخبار القليلة التي ساقها حدوث خلاف في الرأي بين المسلمين ، وخاصة مع أبي بكر الذي كانت له مكانة قوية عند الرسول ، ويرى ان الرسول أوعز لمخالفي أبي بكر بالهجرة الى الحبشة تحاشيا للاخطار التي قد تنجم من هذا الخلاف •

غير ان الادلة التي يسوقها وات ليست قوية ، فان بعض من هاجر الى الحبشة كعثمان وطلحة كانوا من أصحاب أبي بكر ، وتروي بعض الروايات ان أبا بكر هو الذي جاء بهم الى الرسول ليسلموا كما ان اختفاء أسماء بعض المسلمين الاول المهاجرين وعدم لعبهم دورا رئيسيا في السياسة فيما بعد وخاصة في عهد أبي بكر لا يمكن أن يعزى الى خلافهم معه فقط ، بل قد يرجع الى انشغالهم بأمور أخرى في الحياة • والواقع ان أبا بكر استعان بكثير ممن أسلم عند فتح مكة أو بعدها ، وبأولاد كثير ممن قاوم الاسلام ، فجيوش الاسلام الكبرى في زمن أبي بكر كان يقودها عكرمة بن أبي جهل الذي أسلم بعد فتح مكة وكان أبوه على رأس المقاومين للرسول ، ويزيد وهو ابن أبي سفيان رئيس مكة وقائد جيوشها في أحد والخندق ، وعمرو بن العاص الذي أرسله القرشيون الى النجاشي ليفاوضه على اخراج مهاجري المسلمين ، وخالد بن الوليد الذي كان قائد خيالة المشركين في غزوة أحد ، وهذا الاخيران أسلما في السنة السادسة للهجرة • فلو أهمل أبو بكر رجلا لماضيه ، لكان الاجدر به أن يهمل هؤلاء ولا يسلمهم قيادة الجيوش الاسلامية التي أحسنوا قيادتها •

والواقع ان الآيات القرآنية توحي بأن دافع الهجرة هو الاضطهاد الشديد الذي وقع على المسلمين والمحاولات التي بذلها المشركون لفتنتهم ، وانها هي التي دفعت الرسول الى الايعاز اليهم بالهجرة « ألم • أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون • ولقد فتنا الذين من قبلهم

فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » (العنكبوت ١ - ٣) « ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق » (البروج ١٠) « ومن الناس من يقول آمنا بالله فاذا اوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ، ولئن جاء نصر من ربك ليقولن انا معكم أو ليس الله بأعلم بما في صدور العالمين » (العنكبوت ١٠) « وقالوا أن نتبع الهدى معك نتخطف » من أرضنا أو لم نمكن لهم حرماً امنا يجبى اليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون » (القصص ٥٧) « قل يا عبادي الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة وارض الله واسعة انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » (الزمر ١٠) « والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم في الدنيا حسنة والآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » (النحل ٤١) « ثم ان ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا ان ربك من بعدها لغفور رحيم » (النحل ١١٠) .

مع اننا لا نستطيع التأكد من انّ هذه الآيات نزلت في الهجرة الى الحبشة الا ان المؤرخين يجمعون على ان الاضطهاد الشديد والفتنة وقعت على المسلمين قبيل الهجرة ، مما يحملنا على الاعتقاد بأن معظم هذه الآيات تتعلق بالهجرة الى الحبشة ، وتحملنا على ترجيح الاضطهاد وخوف الفتنة كسبب رئيسي للهجرة الى الحبشة .

حياة المهاجرين في الحبشة :

ليست لدينا معلومات وافية عن حياة المهاجرين في الحبشة . وتتفق الروايات على ان النجاشي وفر لهم ملجأ سياسيا ولم يضطهدهم ، ولكن ليس هناك دليل على انه قدم لهم منحا أو هبات . ولما كان هؤلاء المهاجرون من أهل مكة التي عرف أهلها بالنشاط التجاري ، فمن المرجح أنهم ، أو بعضهم ، ساهم بالتجارة وأعمال البيع والشراء ، واستطاع ان يكسب قوته منها . ولعل من أهم اسباب تأخر البعض عن العودة الى المدينة هو اشتغالهم بالتجارة .

العودة من الحبشة :

يروي ابن اسحق انه بلغ أصحاب رسول الله (ص) الذين خرجوا الى أرض الحبشة اسلام أهل مكة ، فأقبلوا لما بلغهم من ذلك ، حتى اذا دنوا من مكة بلغهم ان ما كانوا تحدثوا به من اسلام أهل مكة كان باطلا ، فلم يدخل منهم أحد الا بجوار أو مستخفيا فكان ممن قدم عليه مكة منهم فأقام بها حتى هاجر الى المدينة فشهد معه بدرا ومن جبس عنه حتى فاته بدر وغيره ومن مات بمكة (ثم يذكر أسماءهم) •• فجميع من قدم عليه مكة من أصحابه من أرض الحبشة ثلاثة وثلاثون رجلا[١] • ويؤيد الطبري في رواية عن ابن اسحق ذلك ويضيف انهم جاؤوا لما بلغهم من اسلام أهل مكة حين سجدوا مع رسول الله (ص) على أثر قصة الغرانيق[٢] •

وفي السنة السادسة للهجرة بعث رسول الله (ص) الى النجاشي عمرو ابن أمية الضمري فحمل من بقي من المسلمين في سفينتين وقدم بهم الرسول (ص) وهو بخيبر بعد الحديبية ، وكان عددهم ستة عشر رجلا ، عدا النساء[٣] •

ويذكر ابن اسحق أسماء من توفي في الحبشة وعددهم سبعة[٤] • فيكون مجموع عدد من عاد قبل الهجرة ، وعند خيبر ، ومن توفي يبلغ ستاً وخمسين رجلا ، أما الباقون وهم جميع من تخلف عن بدر ولم يقدم على رسول الله (ص) مكة ومن قدم بعد ذلك ولم يحمل النجاشي في السفينتين أربعة وثلاثون رجلا ، واذا طرحنا من هذا الرقم من توفي وهم سبعة بقي سبعة عشر لا تذكر هذه الروايات متى عادوا • سوى أربعة منهم

---

(١) سيرة ابن هشام : ج١ ص٣٨٨ - ٣٨٩ ، ٣٩١ •
(٢) الطبري : ج٢ ص٢٢٧ •
(٣) سيرة ابن هشام : ج٣ ص٣١٧ ، ٤١٤ • الطبري : ج٢ ص٢٢٩ • ابن سعد : ج٤ قسم١ ص١٧٩ •
(٤) سيرة ابن هشام : ج٣ ص٤٢٢ •

اشتركوا في معركة احد مما يدل على أنهم عادوا الى المدينة في زمن لم تعينه المصادر وهم قيس بن عبدالله، وأبو الروم بن عمير ، وأبو قيس بن الحارث، وسليط ابن عامر •

المقـاطعة :

لم تـؤد الهجرة الى الحبشة الى حل الازمة القـائمة بين المسـلمين والمشركين ، اذ بقي الرسول والمسـلمون الاول في مكة وهم ثابتون على ايمانهم ومتمسكون بمبدئهم لا يحيدون عنه • كما ان المشركين لم يوقفوا أعمالهم العدائية تجاه الرسول والمسلمين • والواقع ان الاذى والاضطهاد من شأنه أن يصهر من يقع عليهم فيزيد من تماسكهم وتكتلهم ويثير عطف الناس عليهم ، والواقع ان الحمزة وعمر بن الخطاب أسلما في هذه الفترة فكان اسلامهما نصرا للمسلمين ، نظرا لما لهما من نفوذ وقوة وقدرة على معاونة المسلمين ، لذا يمكن القول بأن تلك المحاولات لم تحقق ما استهدفته من نجـاح •

يقول ابن اسحق (فلما رأت قريش ان أصحاب رسول الله قد نزلوا بلدا أصابوا به أمنا وقرارا (في الحبشة) وان النجاشي قد منع من لجأ اليه منهم ، وان عمر قد أسلم فكان هو وحمزة بن عبدالمطلب مع رسول الله (ص) واصحابه وجعل الاسلام يفشو في القبائل ، اجتمعوا وائتمروا أن يكتبوا كتابا يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني المطلب ، على أن لا ينكحوا اليهم ولا ينكحوهم ولا يبيعوهم شيئا ولا يبتاعوا منهم ، فلما اجتمعوا لذلك كتبوا في صحيفة ، ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك ، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيدا على انفسهم • وكان كاتب الصحيفة منصور بن عكرمة ابن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبدالدار بن قصي (ويروي ابن هشام انه يقال النضر بن الحارث) فدعا عليه رسول الله(ص) فشل بعض اصابعه• فلما فعلت ذلك قريش انحازت بنو هاشم وبنو المطلب الى أبي طالب فدخلوا

معه في شعبه فاجتمعوا اليه . وخرج من بني هاشم أبو لهب عبدالعزى بن عبدالمطلب الى قريش فظاهرهم[(١)]) .

دوافعهـا :

ويلاحظ ان هذا النص الذي لا نعرف نصا غيره عن المقاطعة ، يبين ان المقاطعة لم تكن موجهة للمسلمين ، بل الى بني هاشم ثم الى بني المطلب . ولا ريب ان المسلمين لم يكونوا مقصورين على هاتين العشيرتين وحدهما ، بل كانوا من كافة العشائر ، كما ان بني هاشم وبني المطلب لم يكونوا كلهم من المسلمين . فلو كانت المقاطعة موجهة للمسلمين وحدهم ، لكان من الواجب أن تشمل كافتهم من مختلف القبائل ، وأن يخرج منها المشركون من بني هاشم وبني المطلب ، واذا كانت حماية بني هاشم للاسلام هـي الدافع الرئيسي للمقاطعة فلماذا أدخل فيها بنو المطلب ؟ ان هذه الاسئلة تحملنا على الاعتقـاد بأن هناك أسبابا أخرى للمقاطعة غير مجرد حماية بني هاشم للرسول .

ويمكننا أن نستنتج الدوافع الاخرى من دراسـة نقض الصحيفة ، فيروي ابن اسحق (ثم انه قام في نقض تلك الصـحيفة التي تكاتبت فيهـا قريش على بني هاشـم وبني المطلب نفر من قريش ، ولم يبل فيهـا أحد أحسن من بلاء هشام بن عمرو بن ربيعة .. بن عامر بن لؤي ، وذلك انه كان ابن أخي نضلة بن هاشم بن عبد مناف لامه ، وكان هشام لبني هاشم واصلا وكان ذا شرف في قومه ، ثم انه مشى الى زهير بن أبي امية ابن المغيرة بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم ، وكانت أمه عاتكة بنت عبدالمطلب ، فقال ، يا زهير أقد رضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النسـاء وأخوالك حيث قد علمت لا يباعون ولا يبتاع منهم ولا ينكحون ولا ينكح اليهم ، أما اني أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام ثم

---

(١) سـيرة ابن هشـام : ج١ ص٣٧١ ـ ٣٧٢ . الطبـري : ج٢ ص٢٢٥ انظر أيضا ابن سعد ج١ قسم١ ص١٢٥ ، ١٣٥ .

دعوته الى مثل ما دعاك اليه منهم ما أجابك اليه أبدا ، قال ويحك يا هشام فماذا أصنع ؟ انما أنا رجل واحد والله لو كان معي رجل آخر لقمت في نقضها حتى انقضها ، قال قد وجدت رجلا ، قال فمن هو ، قال أنا ، قال له زهير أبغنا ثالثا ، فذهب الى المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف ، فقال له يا مطعم أقد رضيت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف وأنت شاهد على ذلك موافق لقريش فيه أما والله لئن أمكنتموهم من هذه لتجدنهم اليها منكم سراعاً ، قال ويحك فماذا أصنع انما أنا رجل واحد ، قال قد وجدت ثانيا ، قال من هو ، قال أنا ، قال ابغنا ثالثا ، قال قد فعلت ، قال من هو ، قال زهير بن أبي امية ، قال ابغنا رابعا ، فذهب الى أبي البختري بن هشام ، فقال له نحوا مما قال للمطعم بن عدي ، فقال وهل من أحد يعين على هذا ، قال نعم ، قال من هو ، قال زهير بن أبي امية والمطعم بن عدي وأنا معك ، قال أبغنا خامسا ، فذهب الى زمعة بن الاسود بن المطلب بن أسد ، فكلمه ، وذكر له قرابتهم وحقهم ، فقال له وهل على هذا الامر الذي تدعوني اليه من أحد ، قال نعم ثم سمى له القوم ، فاتعدوا له خطم الحجون التي بأعلى مكة فاجتمعوا هنالك وأجمعوا أمرهم وتعاهدوا على القيام في الصحيفة حتى ينقضوها ، وقال زهير أنا ابدؤكم فأكون اول من يتكلم . فلما أصبحوا غدوا الى أنديتهم وغدا زهير بن أبي امية عليه حلة فطاف بالبيت سبعا ثم اقبل على الناس فقال يا أهل مكة انا نأكل الطعام ونشرب الشراب ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لا يبايعون ولا يبتاع منهم ، والله لا اقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة ، قال أبو جهل وكان في ناحية المسجد كذبت والله لا تشق ، قال زمعة بن الاسود أنت والله أكذب ما رضينا كتابتها حين كتبت ، قال أبو البختري صدق زمعة لا نرضى ما كتب فيها ولا نقر به ، قال المطعم بن عدي صدقتما وكذب من قال غير ذلك نبرأ الى الله منها ومما كتب فيها ، قال هشام بن عمرو نحوا من ذلك ، قال أبو جهل هذا أمر قضي بليل وتشوور فيه بغير هذا المكان وأبو طالب جالس في ناحية المسجد .

فقام المطعم بن عدي الى الصحيفة ليشقها فوجد الأرضة قد أكلتها الا ما كان باسمك اللهم وهي فاتحة ما كانت تكتب قريش تفتتح بها كتابا اذا كتبت[1]) .

ومن هذا النص يتبين ان الذين قاموا بالدور الرئيسي في نقض الصحيفة هم هشام بن عمرو بن ربيعة (عامر بن لؤي) وزهير بن أبي امية (مخزوم) والمطعم بن عدي (نوفل بن عبد مناف) وأبو البختري بن هشام (عبدالعزى) وزمعة بن الاسود (عبدالعزى) ، وان هؤلاء استطاعوا أن يقنعوا الناس بوجوب ابطال المقاطعة ، ولعل اشارة أبي جهل الى أن هذا أمر قضي بليل وتشوور فيه بغير هذا المكان ، يدل على أنه شعر بأنهم قد مهدوا له مع قبائلهم في ذلك ، كما أن قولهم بأنهم ما رضوا كتابتها حين كتبت يوحي بأنهم لم يكونوا متحمسين قلبيا لها ، كنها كانت تمس بالضرر بني هاشم وبني المطلب كلهم ، مع أن هؤلاء الذين مزقوا الصحيفة هم ممن ذكر اسمهم في عدة مناسبات كمعارضين للرسول، مما يدل على أن الصحيفة لا يقتصر دافع كتابتها على المسلمين فحسب ، بل ان هناك دوافع أخرى لها، وان مسألة الاسلام هي حجة لتنفيذ سياسة ذات أهداف أخرى تصيب بني هاشم والمطلب، ويلاحظ ان أشد المدافعين عنها هو أبو جهل (من مخزوم)، ولعل الدافع اليها هو حسد بني هاشم على مكانتهم ومحاولة اضعافهم لتحل مخزوم محلها ، ثم اتخذ الاسلام حجة لتبرير هذا الحلف ضد هاتين العشيرتين ، وربما كان بنو امية ممن لعبوا دورا في انشاء هذا الحلف ضد بني هاشم وان كون معظم مهاجري الحبشة من بني امية ومن القبائل التي لم تشترك في حلف الفضول دليل على أن هذه المقاطعة هي حركة سياسية موجهة ضد بني هاشم الذين ستزداد مكانتهم بانتشار الاسلام وازدياد اتباع الرسول الذي هو منهم .

---

(١) سيرة ابن هشام : ج١ ص٣٩٧ - ٣٩٩ . أنظر أيضا الطبري : ج٢ ص٢٢٨ . ابن سعد : ج١ قسم١ ص١٤١ .

اثرها :

لقد دامت المقاطعة حوالي ثلاث سنوات[١] ، ولكنها لم تكن ناجحة ، فقد كانت تصل اليهم سرا بعض الاشياء يخفيها من أراد صلتهم من قريش ، وقد روى من أسماء من كان يصلهم حكيم بن حزام[٢] ، وهو ابن أخي خديجة زوجة الرسول ، وكذلك أبو البختري الذي دافع عن عمل حكيم عندما أراد أبو جهل منعه من امداد المسلمين[٣] ، والراجح ان هناك آخرين كانوا يمدونهم بالمساعدة .

ثم ان تجاراتهم لم تقف ، فقد كانوا يخرجون في المواسم ليتبايعوا مع القبائل[٤] ، الامر الذي جعل هذه المقاطعة غير تامة . ولما كانت هذه المقاطعة موجهة ضد بني هاشم والمطلب ، فان المسلمين من العشائر الاخرى لم يكونوا داخلين فيها ، فكانت لهم حرية التجارة ، ونظرا لروابطهم الدينية باخوانهم المسلمين ، فمن المحتمل انهم كانوا يمدون اخوانهم ، وربما يتاجرون لهم ، مما جعل هذه المقاطعة لا تحقق أغراضها تماما ، فلم تقض على المسلمين ولا على مكانة بني هاشم .

ولكن نظرا الى أن الحجة الرئيسية للمقاطعة هي حماية المسلمين ، وانه كان لها تأثير سيء في أعمال بني هاشم ، فالراجح انهم ادركوا الاضرار التي تنجم عن استمرار حمايتهم للرسول . ويبدو انهم بعد موت أبي طالب بدأوا يتخلون عن حماية الرسول ، ويتجلى هذا من الاحداث التالية .

وفاة خديجة وابي طالب :

لم تؤثر المقاطعة في الرسول مثلما أثرت فيه وفاة خديجة وأبي طالب

---

(١) سيرة ابن هشام : ج١ ص٣٧٥ . ابن سعد : ج١ قسم١ ص١٢٥ ، ١٤١ .

(٢) سيرة ابن هشام : ج١ ص٣٧٥ - ٣٧٦ .

(٣) مصعب الزبيري : نسب قريش ص٢١٣ .

(٤) ابن سعد : ج١ قسم١ ص١٤١ .

بعد انتهاء المقاطعة بأمد قصير[١] . وقد خسر في خديجة الزوجة الوفية المشجعة والمناصرة ، والتي كان من ثروتها وعشيرتها ما يعين الرسول . اما أبو طالب فقد كان عمه الذي رعاه وحامى عنه ، وصد كثيرا مما حاولت قريش والمشركون الحاقه به. ولعل أبا طالب هو العامل الاكبر في استنهاض همم بني هاشم لمساندة الرسول وحمايتهم له ، فلما مات خففت هاشم من تأييدها[٢] ، وربما أدركت بعد المقاطعة ما يصيبها من أضرار مادية ومعنوية اذا استمرت في حمايته ، لذا أخذت تتخلى عن ذلك ؛ ويتجلى هذا واضحا مما يرويه الطبري من ان الرسول بعد رجوعه من الطائف عرض على الاخنس بن شريق الثقفي (حليف بني زهرة) ، ثم على سهل بن عمرو (بني عامر) أن يجيراه فلم يوافقا ، فعرض ذلك على مطعم بن عدي (بني نوفل) أن يجيره عند رجوعه الى مكة[٣] . وهؤلاء الاشخاص كلهم ليسوا من بني هاشم ، الامر الذي يدل على انه كان يعلم أن بني هاشم قد تخلوا عن نصرته .

محاولة بث الدعوة في الطائف :

ان هذه الاحوال والاحداث اقنعت الرسول بعدم جدوى الاستمرار في الاعتماد على بث الدعوة في مكة ، وبضرورة البحث عن ميادين أخرى لنشرها ، لذلك التفت الى الطائف ، وهي بلدة تقع على مسافة ستين ميلا من مكة ، في أرض تتوفر فيها الينابيع والمياه ، وتكثر فيها المزارع والبساتين ، وخاصة الكروم والاعناب . وكان سكانها منقسمين على أنفسهم ، وفيهم عشيرتان بارزتان هم بنو مالك والاحلاف . فاما بنو مالك فكانت علاقتهم وثيقة بهوازن ، وأما الاحلاف فكانت علاقتهم أوثق بمكة .

---

(١) سيرة ابن هشام : ج٢ ص٢٥ .

(٢) يروي ابن سعد ان أبا لهب ، الذي صار زعيم آل عبدالمطلب بعد وفاة ابي طالب وعد أن يؤيد الرسول ، ولكنه تخلى عنه بعد أمد قصير (ابن سعد : ج١ قسم١ ص١٤١) .

(٣) الطبري : ج٢ ص٢٣١ . المحبر : ص١١ .

وللطائف أهمية تجارية نظرا لما تنتجه من محاصيل ، ولوقوعها على طريق التجارة اليمانية ، وكانت لأهل مكـة علاقة وثيقة بها ، فلبعضهم بساتين فيها[١] وللبعض الآخر أموال موظفة وقروض تعطى بربا فاحش[٢]. وفي الطائف أيضا كانت اللات وسدنتها من بني مالك[٣] .

لا توجد نصوص صريحة عن الدوافع التي دفعت الرسول لاختيار الطائف دون غيرها لنشر الدعوة بعد ما لاقاه من عقبات ومصاعب في مكة . وربما شعر الرسول بسوء استغلال المكيين لأهل الطائف ، أو انه لاحظ مصالح المكيين فيها فأراد أن ينشر بينهم الاسلام ليفصـلهم عن أهل مكة ويهدد بهم تجارة المكيين مع اليمن .

ومهما يكن الدافع ، فان الرسول وصل الطائف ، وفاوض ثلاثة من آل عبد ياليل ، فلم يلق منهم تأييدا ، بل (اغروا به سـفاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس والجأوه الى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعـة وهما فيه ، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كـان يتبعه[٤]) .

ايمـان الجن :

يتبين مما تقدم ان الطائف لم تكن خيرا من مكة في تلقيها الدعوة الاسلامية ، لذا عاد الى مكة . وفي طريق عودته اليها وصل الى نخلة فوقف يصلي ، وقد سمعه نفر من الجن فآمنوا به[٥] كما ذكر القرآن في سورة الجن « قل اوحي الى انه استمع نفر من الجن فقالوا انا سمعنا قرآناً

---

(١) أوفي بحث عن الطائف هو الكتـاب الذي الفه عنها لامنس . أنظر أيضا مقاله عن الطائف في دائرة المعارف الاسلامية .

(٢) تفسير الطبري : ج٣ ص٧٠ . سيرة ابن هشام : ج٢ ص١٨ ، ٢٣ .

(٣) أنظر ص١٥٩ .

(٤) سيرة ابن هشام : ج٢ ص٢٩ ـ ٣٠ . الطبري : ج٢ ص٢٢٩ ـ ٢٣٠ .

(٥) سيرة ابن هشام : ج٢ ص٣١ . الطبري : ج٢ ص٢٣١ .

عجبا ... « واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا انصتوا ، فلما قضي ولوا الى قومهم منذرين . قالوا يا قومنا انا سمعنا كتاباً انزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي الى الحق والى طريق مستقيم . يا قومنا اجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم . ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الارض وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين » (الاحقاف ٢٩ ـ ٣٢) .

ولابد ان ايمان الجن بالرسول ورسالته قد عوض له بعض ما لقيه في الطائف ، كما شجعه على عدم قصر بث الدعوة على مكة وحدها ، بل الى محاولة نشرها بين القبائل الاخرى .

الاسـراء :

وبعد رجوع الرسول الى مكة اسرى به الله تعالى[1] ، كما جاء في القرآن الكريم « سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير » (الاسراء ١) . ويروي الطبري ان آيتين اخريين نزلتا في الاسراء « ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى . اذ يغشى السدرة ما يغشى » (النجم ١٣ ـ ١٦)[2] « وما جعلنا الرؤيا التي أريناك الا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن » (الاسراء ٦٠)[3] .

عرض الدعوة على القبائل :

ثم ان الرسول أخذ يعرض نفسه على القبائل في المواسم ويدعوها الاسلام ويروي ابن اسحق انه عرض الدعوة على كندة ، وبني عبدالله

---

(١) سيرة ابن هشام : ج٢ ص٢ فما بعد .
(٢) تفسير الطبري : ج٢٧ ص٢٩ .
(٣) تفسير الطبري : ج١٥ ص٧٩ .

(احدى عشائر كلب) ، وحنيفة ، وعامر بن صعصعة[١] ، وكل هذه القبائل تقيم في مناطق بعيدة عن مكة . ولا نعلم فيما اذا كان الرسول قد عرض نفسه على قبائل أخرى اغفل المؤرخون ذكرها لاسباب خاصة . ولكن المهم ان الدعوة لم تلق ترحيبا عندهم، حتى لاقى فريقا من بني عبد الأشهل الخزرجيين القاطنين في المدينة ، فلقى منهم اذناً صاغية لدعوته[٢] ، وفي السنة التالية بايعوه على أن يهاجر الى بلدهم ، فأخذ المسلمون يهاجرون اليها ، ثم هاجر هو نفسه ، وبدأت في تاريخ الاسلام صفحة جديدة ، فلا عجب أن اعتبرها المسلمون نقطة حاسمة في تاريخ الاسلام ، واتخذوها بداية للتقويم الذي ساروا عليه منذ ذلك الوقت الى ما شاء الله .

---

(١) سيرة ابن هشام : ج٢ ص٣١ – ٣٤ . الطبري : ج٢ ص٢٣٢ .
(٢) سيرة ابن هشام : ج٢ ص٣٦ فما بعد .

أسماء المسلمين في مكة

ان القائمة التي نوردها أدناه تضم أسماء الرجال الذين أسلموا في العهد المكي وهاجروا الى الحبشة والمدينة واشتركوا في بدر • ولا يدخل فيها أسماء من أسلم ثم فتن أو من تخلف عن الهجرة الى المدينة نظرا لعدم امكان حصرهم •

وتضم هذه القائمة أيضا أسماء المشركين الذين قتلوا أو أسروا في بدر ، وهم لا يمثلون كافة المشركين ، لان فريقا غير قليل آذى الرسول أو اشترك في الغزوات والحروب الاخرى ضد المسلمين ، ولكن لم يساهم في بدر ، كما ان عددا غير قليل تراجع وانهزم من بدر دون أن يصيبه القتل أو الأسر •

لقد اعتمدت فيما أوردته من الاسماء على « سيرة الرسول » لابن هشام التي تضم ما أورده ابن اسحق مع اضافات كثيرة • وهي لا تختلف كثيرا عما أورده ابن سعد في كتاب الطبقات • وقد دققت قائمتي مع القائمة التي نشرها مونتجومري وات في الملحق الاخير من كتابه (محمد في مكة) وهي تعتمد على القوائم التي أوردها كايتاني في كتابه « حوليات الاسلام » • ويعتمد كايتاني بدوره على ابن هشام وابن سعد مع بعض الاضافات الواردة في الكتب الاخرى • وهي اضافات قليلة جدا •

لقد صنفت الاسماء في هذه القائمة حسب العشائر ، ورتبت العشائر تبعا لقرب صلتها من عشيرة الرسول ، وهو الترتيب الذي اتبعه المؤرخون الاول ، والذي هو أقرب الى روح ذلك العصر •

وقد رمزت لمهاجري الدفعة الاولى الى الحبشة (١) ، والى مهاجري الدفعة الثانية (٢) والى الذين عادوا قبل هجرة الرسول الى المدينة (ع) والى الذين عادوا في السنة السابعة ، عندما كان الرسول يغزو خيبر (خ) • أما الذين اشتركوا في بدر فقد رمزت اليهم (ب) • أما (ح) فتشير الى أن الشخص حليف للعشيرة •

الاسم	عشيرة الأم	الهجرة الى الحبشة والعودة منها	الاشتراك في بدر
بنو هاشم والمطلب :			
الرسول	زهرة		ب
علي بن أبي طالب	هاشم		ب
الحمزة	زهرة		ب
جعفر بن أبي طالب	هاشم	١خ	ب
زيد بن حارثة • مولى			ب
أبو مرثد	ح (غني)		ب
مرثد بن أبي مرثد	ح (غني)		ب
أنسه • مولى			
أبو كبشة • مولى			
عبيدة بن الحارث بن المطلب	ثقيف		ب
الطفيل " "	"		ب
الحصين " "	"		ب
مسطح بن اثاثة	المطلب		ب

وقد أسر من كفارهم في بدر السائب بن عبيد بن عبد يزيد ، ونعمان ابن عمرو بن علقمة ، وعبيد بن عمرو بن علقمة ، وعقيل والعباس ، وأربعة من حلفائهم

الاسم	عشيرة الأم	الهجرة الى الحبشة والعودة منها	الاشتراك في بدر
بنو عبد شمس :			
عثمان بن عفان	عبدشمس	١ + ٢ع	ب
أبو حذيفة بن عتبة	كنانة	١ + ٢ع	ب
خالد بن سعيد بن العاص	كنانة	٢خ	

الاسم	عشيرة الأم	الهجرة الى الحبشة والعودة منها	الاشتراك في بدر
عمرو بن سعيد	مخزوم	٢خ	
عبدالله بن جحش	ج خزيمة	٢ع	ب
أبو زيد بن رقيش	« «		
عكاشة بن محسن	« «		
أبو سنان بن محصن	« «		
شجاع بن وهب	« «		
عقبة بن وهب	« «		
ربيعة بن اكثم	« «		
محرز بن نضلة	« «		
أربد بن حمير	« «		
سنان بن أبي سنان	« «		
مالك بن عمرو	ح سليم		
مدلاج بن عمر	« «		
ثقف بن عمرو	« «		
أبو أحمد بن جحش	ح خزيمة		
عمرو بن محصن	« «		
سعيد بن رقيش	« «		
قيس بن خابر	« «		
منقذ بن نباتة	« «		
الزبير بن عبيدة	« «		
تمام بن عبيدة	« «		

الاسم	عشيرة الأم	الهجرة الى الحبشة والعودة منها	الاشتراك في بدر
سخبرة بن عبيده	ح خزيمة		
محمد بن عبدالله بن جحش	»		

قتل من مشركيهم في بدر حنظلة بن أبي سفيان ، وعبيدة بن سعيد بن العاص والعاص بن سعيد بن العاص ، وعقبة بن أبي معيط ، وعتبة بن ربيعة ، وشيبه بن ربيعة والوليد بن عتبه . كما أسر منهم عمرو بن أبي سفيان ، والحارث بن أبي وجزة ، وأبو العاص بن الربيع ، وأبو العاص بن نوفل ، وخالد بن أسيد بن العاص واثنا عشر من حلفائهم ومواليهم .

بنو نوفل :

الاسم	عشيرة الأم	الهجرة الى الحبشة والعودة منها	الاشتراك في بدر
عتبة بن غزوان	ح (سليم)	٢ع	ب
جناب مولى عتبة			ب

قتل من كفارهم في بدر الحارث بن عامر ، وطعيمة بن عدي ، وأسر منهم عدي بن الخيار واثنان من خلفائهم ومواليهم .

بنو اسد بن عبدالعزى :

الاسم	عشيرة الأم	الهجرة الى الحبشة والعودة منها	الاشتراك في بدر
الزبير بن العوام	هاشم	١ + ٢ع	ب
الاسود بن نوفل	عبدشمس	٢خ	
عمرو بن امية بن الحارث	تيم	٢ (توفي)	
يزيد بن زمعة بن الاسود	مخزوم	٢ ؟	
حاطب بن أبي بلتعه	ح (لخم)		
سعد مولى حاطب			ب

قتل من كفارهم في بدر زمعة بن الاسود بن المطلب ، والحارث بن زمعة ، وعقيل بن الاسود ، وأبو البختري بن هشام ، ونوفل بن خويلد . وأسر منهم السائب بن أبي حبشة ، والحويرث بن عباد .

الاســـم	عشيرة الأم	الهجرة الى الحبشة والعودة منها	الاشتراك في بـدر
بنو عبدالدار :			
مصعب بن عمير بن هاشم	عامر	١ + ٢ع	ب
أبو الروم بن عمير	رومية	٢ ؟	
سويبط بن سعد	خزاعه	٢ع	ب
فراس بن النضر	تيم	٢ ؟	
جهم بن قليس		٢خ	
خزيمة بن جهم		٢خ	
عمرو بن جهم		٢خ	

قتل من كفارهم في بدر النضر بن الحارث ، وأسر أبو عزيز بن عمير ابن هشام ، وثلاثة من الحلفاء والموالي . كما قتل سبعة منهم في غزوة أحد .

الاســـم	عشيرة الأم	الهجرة الى الحبشة والعودة منها	الاشتراك في بـدر
بنو عبد بن قصي :			
طليب من عمير	هاشم	٢ع	ب
عبدالرحمن بن عوف	زهره	+ ٢ع	ب
سعد بن أبي وقاص	عبدشمس		ب
عمير بن أبي وقاص	عبدشمس		ب
عامر بن أبي وقاص	عبدشمس	٢خ	
المطلب بن أزهر	المطلب	٢ ؟	
مالك بن اهيب		٢ ؟	ب
ذو الشمالين عمير بن عمرو	زهره		ب
عبدالله بن مسعود ح (هذيل)		+ ٢ع	ب

الاسم	عشيرة الأم	الهجرة الى الحبشة والعودة منها	الاشتراك في بدر
عتبه بن مسعود	ح (هذيل)	٢خ	
المقداد بن عمرو	ح (قضاعه)	٢ع	ب
خباب بن الأرت	ح (خزاعه)		ب
مسعود بن ربيعه	ح (القاره)		ب
بنو تيم بن مرة :			
أبو بكر الصديق	تيم		ب
طلحة بن عبدالله	حضرموت		ب
الحارث بن خالد	تيم	٢خ	
عمرو بن عثمان بن عمرو	تيم	٢ ؟	
صهيب مولى			ب
بلال بن رباح مولى			ب
عامر بن فهيرة مولى			ب

قتل من كفارهم في بدر عمير بن عثمان بن عمرو ، وعثمان بن مالك ابن عبيدالله ، ومالك بن عبيدالله بن عثمان ، وعمرو بن عبدالله بن جدعان ، وأسر منهم مسافع بن عياض وحليف واحد .

الاسم	عشيرة الأم	الهجرة الى الحبشة والعودة منها	الاشتراك في بدر
مخـــزوم :			
أبو سلمة بن عبدالاسد	هاشم	١ع	ب
الارقم بن عبد مناف			ب
شماس بن عثمان	عبدشمس	٢ع	ب
عياش بن أبي ربيعة بن المغيرة	تيم	٢ع	ب
سلمة بن هشام بن المغيرة	ربيعة	٢ع	

الاسم	عشيرة الأم	الهجرة الى الحبشة والعودة منها	الاشتراك في بدر
الوليد بن الوليد بن المغيرة	بجيلة	٢ع	
هاشم بن أبي حذيفة بن المغيرة	مخزوم	٢ع	
هبار بن سفيان	عامر	٢ع	
عبدالله بن سفيان	عامر	٢ع	
عمار بن ياسر مولى			ب
معتب بن عوف	ح (خزاعة)	٢ع	ب
عيهامة	ح (خزاعة)		

قتل من كفارهم في بدر أبو جهل بن هشام بن المغيرة ، والعاص بن هشام بن المغيرة ، ومسعود بن أبي امية بن المغيرة ، وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة ، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة ، ورفاعة بن أبي رفاعة ، والمنذر بن أبي رفاعة ، وعبدالله بن المنذر بن أبي رفاعة ، والسائب بن أبي السائب ، والاسود بن عبدالاسد ، وحاجب بن السائب بن عويمر ، وعويمر بن السائب بن عويمر ، وحذيفة بن أبي حذيفة بن المغيرة ، وهشام بن أبي حذيفة بن المغيرة ، وزهير بن أبي رفاعه ، والسائب بن أبي رفاعة ، وعائذ ابن السائب .

وقد أسر منهم في بدر خالد بن هشام بن المغيرة ، وأمية بن حذيفة بن أبي المغيرة ، والوليد بن الوليد بن المغيرة ، وعثمان بن عبدالله بن المغيرة ، وصيفي بن أبي رفاعة بن عابد ، وأبو المنذر بن رفاعة ، وأبو عطاء عبدالله بن أبي السائب ، والمطلب بن حنطب ، كما قتل وأسر ثمانية من حلفائهم .

بنو سهم :

الاسم	عشيرة الأم	الهجرة الى الحبشة والعودة منها	الاشتراك في بدر
خنيس بن حذافة	سهم	٢ع	ب
عبدالله بن حذافة	كنانة	٢ ؟	
أبو قيس بن حذافة	كنانة	٢ ؟	

الاســم	عشيرة الأم	الهجرة الى الحبشة والعودة منها	الاشتراك في بدر
هشام بن العاص	مخزوم	٢ ؟	
عبدالله بن الحرث	كنانة	٢ توفي	
السائب بن الحرث	كنانة	٢ ؟	
الحجاج بن الحرث	كنانة	٢ ؟	
أبو قيس بن الحرث	حضرموت	٢ ؟	
تيم بن الحرث		٢ ؟	
سعيد بن الحرث	جمح	٢ ؟	
معمر بن الحرث	جمح	٢ ؟	
الحرث بن الحرث		٢ ؟	
بشر بن الحرث		٢ ؟	
عمير بن رئاب	جمح	٢ ؟	
عميرة بن جزء	ح (زبيد)	٢ خ	

قتل من كفارهم في بدر منبه ونبيه ابنا الحجاج ، والعاص بن منبه بن الحجاج ، وأبو العاص بن قيس ، وعاصم بن أبي عوف ، وعامر بن أبي عوف ، والحارث بن منبه بن الحجاج •

واسر منهم أبو وداعة بن ضبيرة ، وفروة بن قيس بن عدي ، وحنظلة ابن قبيصة بن جذافة ، والحجاج بن الحرث • كما اسر أحد مواليهم •

بنو جمح :

عثمان بن مظعون	جمح	١ + ٢ع	ب
عبدالله بن مظعون	جمح	٢ع	ب
قدامة بن مظعون	جمح	٢ع	ب

الاسم	عشيرة الأم	الهجرة الى الحبشة والعودة منها	الاشتراك في بدر
السائب بن عثمان	سليم	٢ع	ب
معمر بن الحرث	جمح	٢ع	ب
حاطب بن الحرث	جمح	٢ توفي	
حطاب بن الحرث	جمح	٢ توفي	
محمد بن حاطب		٢ خ	
الحارث بن حاطب		٢ خ	
سفيان بن معمر	يمن	٢ ؟	
جابر بن سفيان		٢ ؟	
جنادة بن سفيان		٢ ؟	
نبيه بن عثمان		٢ ؟	

قتل من كفارهم في بدر امية بن خلف ، وعلي بن امية ، واوس بن مسير •

واسر منهم عمرو بن أبي ، وعمرو بن عبدالله ، ووهب بن عمير ، وربع بن دراج ، وأبي بن خلف وخمسة من حلفائهم ومواليهم •

بنو عدي

الاسم	عشيرة الأم	الهجرة الى الحبشة والعودة منها	الاشتراك في بدر
عمر بن الخطاب	مخزوم		ب
زيد بن الخطاب	أسد		ب
سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل	خزاعة		ب
عمرو بن سراقة بن معتمر	جمح		ب
نعيم بن عبدالله	عدي		
معمر بن عبدالله بن نضله	اشعر	٢ خ	
عدي بن نضله بن عبدالعزى	سهم	٢ توفي	

الاسم	عشيرة الأم	الهجرة الى الحبشة والعودة منها	الاشتراك في بدر
عمرو بن أبي اثاثه	عنزه	٢ توفي	
عبد بن سراقة	جمح		ب
خارجة بن حذافة	عدي		
مالك بن خولى			ب
عامر بن ربيعه	ح (عنزه)	١ + ٢ع	ب
عاقل بن المنكدر	ح (كنانه)		
خالد بن المنكدر	ح (كنانه)		
أياس بن المنكدر	ح (كنانه)		
عامر بن المنكدر	ح (كنانه)		
واقد بن عبدالله	ح (تيم)		
خولى بن أبي خولى	ح (مذحج)		
مهجع بن صالح مولى			

بنو عامر بن لؤي :

الاسم	عشيرة الأم	الهجرة الى الحبشة والعودة منها	الاشتراك في بدر
أبو سبرة بن أبي رهم	هاشم	١ + ٢ع	ب
عبدالله بن مخرمة	كنانة	٢ع	ب
أبو حاطب بن عمرو	أشجع	١خ	
عبدالله بن سهيل	نوفل	٢ع	ب
سليط بن عمرو	يمن	٢ع	
السكران بن عمرو	خزاعة	٢ع	
مالك بن زمعه		٢خ	ب

الاسم	عشيرة الأم	الهجرة الى الحبشة والعودة منها	الاشتراك في بدر
وهب بن سعد بن أبي سرح			
عمير بن عوف مولى			
سعد بن خوله مولى			

وقد اسر من مشركيهم في بدر سهيل بن عمرو ، وعبد بن زمعة ، وعبدالرحمن بن منشوء ، وحبيب بن جابر ، والسائب بن مالك . واثنان من حلفائهم .

بنو الحارث بن فهر :

الاسم	عشيرة الأم	الهجرة الى الحبشة والعودة منها	الاشتراك في بدر
أبو عبيده بن الجراح	الحارث	٢ع	ب
سهيل بن بيضاء	الحارث	١ + ٢ع	ب
صفوان بن بيضاء	الحارث		ب
معمر بن أبي سرح	عامر	٢ع	ب
حاطب بن عمرو			ب
عياض بن أبي زهير	الحارث	٢ ؟	
عمرو بن أبي عمرو			
عمرو بن الحارث	عامر	٢ ع	ب
عثمان بن عبد غنم	زهره	٢ ؟	
سعيد بن عبد قيس		٢ ؟	
الحرث بن عبد قيس		٢ خ	
عمرو بن عبد غنم		٢ ؟	

اسر من كفارهم في بدر الطفيل بن أبي قنيع ، وعتبة بن عمر بن جحدم ، كما اسر حليفان لهم .

المحتويات

القسم الثاني : الحياة البدوية و نظمها

القسم الثالث : حياة الرسول
والدعوة الاسلامية في مكة

الفهـرس الابجدي

(ب)

(خ)

(ض)

(ط)

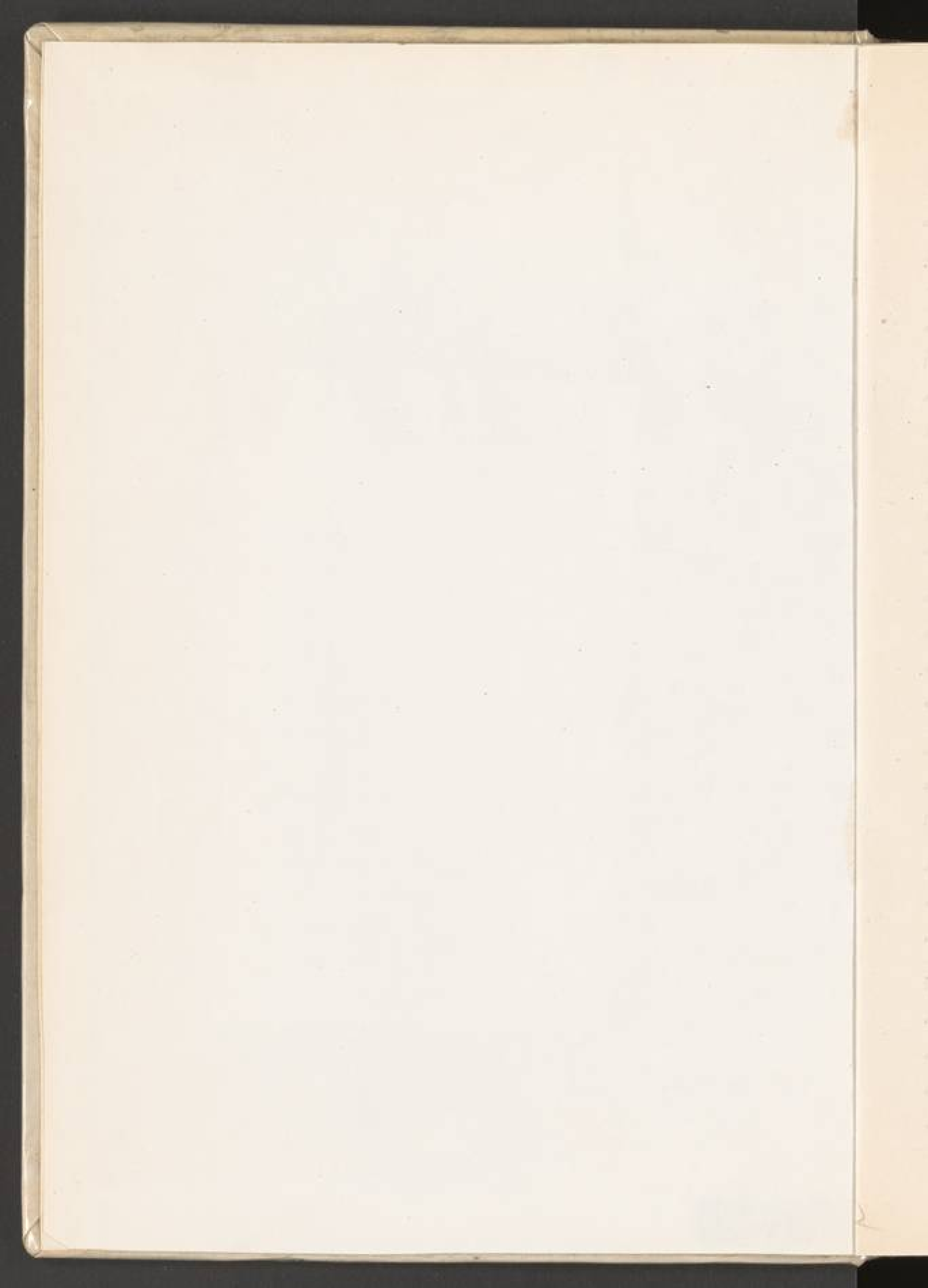
(ظ)

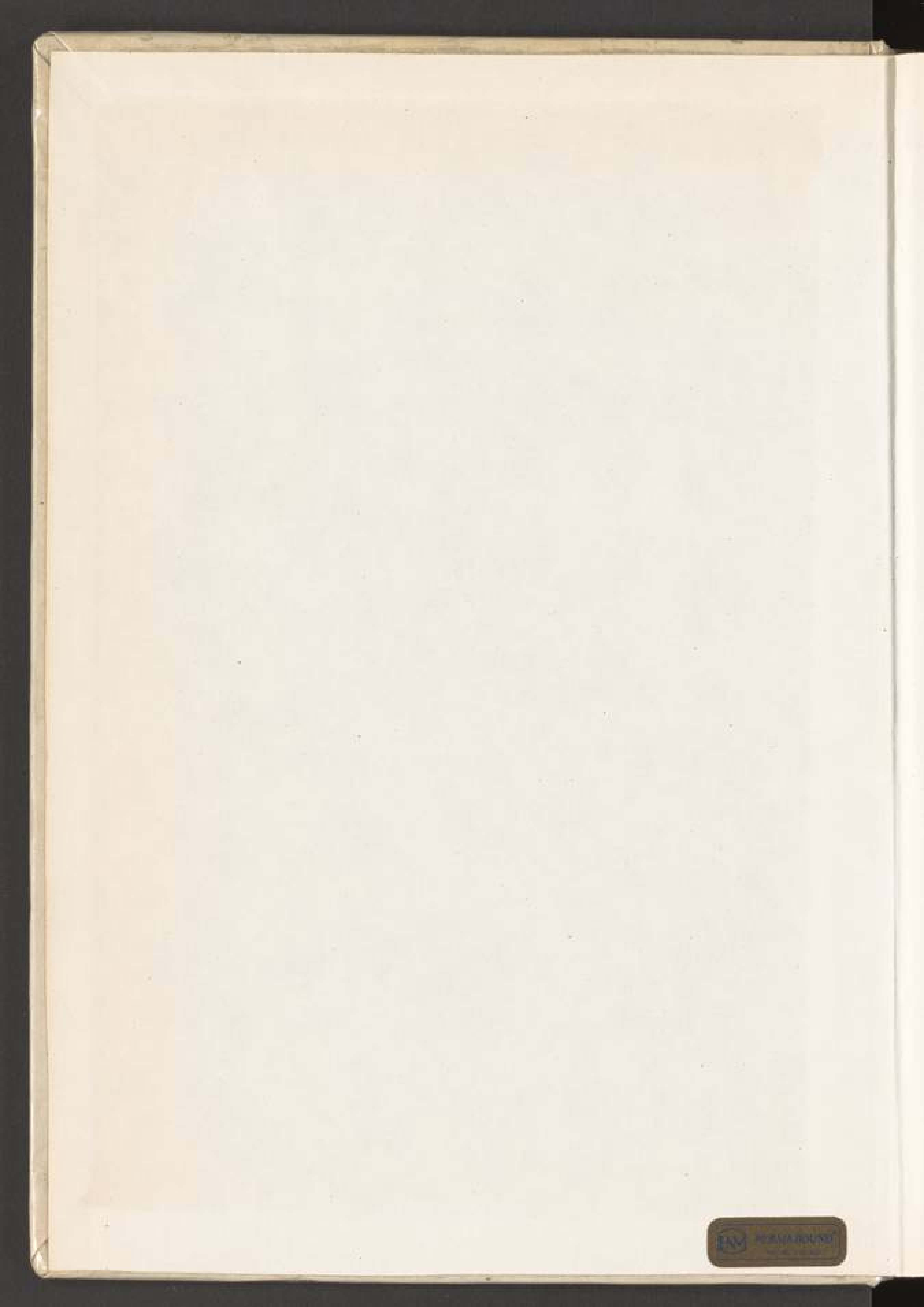
(ع)

(غ)

(ف)

(و)





يطلب من مكتبة المثنى
بغداد تلفون ٦٣٥٨٨